

القسم الرابع

ثورة في الحرب

تُربح المعارك بالتقتيل والمناورة
وكلما كان القائد أعظم، أسهمَ في
المناورة أكثر، وقلَّ ما يطلبه من التقتيل

- ونستون تشرشل

الفصل التاسع

تصور القائد

كابل، أفغانستان

22 كانون الأول/ديسمبر، 2001

عندما تقاطرنا خارجين من قاعة الاحتفال بين الأفغان وكبار الشخصيات الأجنبية، لمحتُ قافلتنا من سيارات اس يو في من خلال نوافذ البهو التي اخترقها الرصاص فترك فيها فتحات كالنجوم. كان البرنامج المعد لنا هو أن نحضر استقبالا في القصر الرئاسي، ثم نطير عائدين إلى قاعدة باغرام الجوية على طائرات عمودية للعمليات الخاصة، ثم نغادر أفغانستان على متن طائرة نقل من نوع سي-17.

وقادت موكبنا سيارة شرطة مهترئة من نوع لادا الروسية، تتبعها سيارة مشاة بحرية من نوع همشي تحمل رشاشاً من نوع ام-60. ومن سياراتنا تشيفي سبريان كنا نمتلك رؤية جيدة للشوارع التي تعج بالناس، وقد بدت لنا مثل خليط من شريط الأنباء من برلين المقصوفة بالقنابل حتى التدمير ومثل محاضرة مصورة عن السفر من الخمسينيات من 1950 عن "الشرق الغريب". كانت كابل قد عانت طوال سنوات من القصف في أثناء حروب العقديين الماضيين من الزمان. وصارت الآن مجموعات من المباني بلا سقوف مأوى لآلاف من اللاجئين العائدين. رأيت عائلات تكوم الطوب المجموع من النفايات لتشكل لها مقصورة داخل الأنقاض. وكان اللون السائد، وهو البني الأغبر، منقطاً بالأزرق اللامع المنبعث من مقتنيات المأوى البلاستيكي المقدمة من الأمم المتحدة. ولمحت أيضاً أكياساً بيضاء من دقيق المعونة الأمريكية المنقوشة بالأعلام الأمريكية، وأكداً من الإعاشات اليومية الإنسانية الصفراء اللون التي كانت طائرات النقل من نوع سي-17 قد أسقطتها طوال أسابيع بأحمال المنصات النقالة.

على طول الشارع الواسع، كان الباعة يبيعون الكباب من الشوايات المدخنة، ويبيعون أيضاً أوعية المطبخ وأوانيهم، وكنزات، ومناديل نسائية وقبعات بالألوان الصفراء. الفاقعة والحمراء القانية. والكثيرات من النساء مازلن يختبئن تحت البرقع الأزرق، ولكننا رأينا نساء باللباس الغربي، حتى أن قلة من البنات في العقد الثاني من عمرهن كن يلبسن الجينز. وقبل أسابيع فقط، كان ذلك يكلفهن الضرب العلني من منفذي وزارة الرذيلة والفضيلة.^(*)

وقالت كاثي: "انظر، يا توم" وهي تشير إلى مكان عبر الشارع.

كانت مجموعة من بنات المدارس الصغيرات، يلبسن الزى المدرسي الموحد بالأسود والأبيض، ويقفن مع معلمتهن يلوحن بالأعلام الأفغانية والأمريكية على طول الموكب الطويل لكبار الشخصيات الذي كان في طريقه إلى القصر. وكان الطالبان قد منعوا البنات من الذهاب إلى المدارس.

أنزل غاري هاريل غطاء نافذته، وقال: "استمعوا".

كان بائع متسبب شاب يقف وهو يلبس قبعة بيسبول في كشكه وهو عبارة عن صندوق شحن، يتجول لبيع أشرطة موسيقى. ومن مكبرات جهاز تسجيله، كانت مغنية تصدح بأغنية حب عاطفية باشتونية، ترافقها الطبول والمزامير القصبية المزدوجة.

لقد منع الطالبان الموسيقى بوصفها كفرة. أما الآن، فهم وحلفاؤهم من القاعدة هاربون، أو موتى، أو جالسون في معسكرات الاعتقال، بينما عادت الموسيقى إلى شوارع كابول.

وقلت: "تظهر لي كأنها الحرية".

بدأت الحياة في أفغانستان تعود إلى طبيعتها العادية، تتحرك بطيئة ومؤلمة، ولكنها تعود بثبات نحو المستقبل، وبعيداً عن ظلام العصور الوسطى في الماضي،

(*) لعله يقصد وزارة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

لقد أطلقنا عملية الحرية الدائمة، حسب ما ذُكرتُ نفسي، في 7 تشرين الأول/أكتوبر. واليوم، بعد ستة وسبعين يوماً تلت، كان معظم الأمة قد تحرر. بقايا الطالبان تراجعوا إلى مناطق عالية بلا مسالك شمالاً من قندهار، أو التحقوا بمن بقي على قيد الحياة من القاعدة الذين كانوا يلتجئون في جبال في الجنوب الشرقي. ويقوم الجند الأفغان تحت القائد حضرة علي، تساندها قوات عمليات خاصة، أمريكية، وأوروبية، وأسترالية، بالتضييق على العدو في منطقة تورا بورا.

في مكالمتي الهاتفية الأخيرة مع الرئيس مشرف، علمت أن الفيلق الحادي عشر من الجيش الباكستاني كان يغلق جانبه من الحدود، وكان قد جمع مئات من الهاربين من الطالبان والقاعدة الذين كافحوا للوصول فوق الممرات الثلجية من أفغانستان. والكثيرون منهم كانوا متطوعين باكستانيين شباباً واهمين، أقنعهم أساتذتهم في مدارسهم بأن يقاتلوا في أفغانستان لحماية الإسلام. هؤلاء الجهاديون الذين أنهكتهم المعركة لم يكن لهم وزن يعتد به أبداً في شن حربهم المقدسة ضد وحدات المهام الخاصة وطائرات سبكتر المسلحة.

وأخبرني مشرف: "لدينا سبعون أسيراً عربياً تقريباً. وجميعهم من القاعدة، ومعظمهم سعوديون ويمينيون. سوف أسلمهم لكم."

وأكد اتفاقنا السابق حول الغارات التي تقوم بها قوات التحالف فوق الحدود المحددة تحديداً سيئاً إلى داخل باكستان عند القيام "بالمطاردة الساخنة" لطالبان والقاعدة. وقد علق بالقول: "قواتكم منضبطة جداً وأعرف أنهم سيكونون كيّسين."

وتركنا الموضوع على هذا النحو. وأرسلت كلمة إلى بيرت كاللاند، وديل ديلي، وإلى البريطانيين وإلى الأستراليين في قوات الخدمة الجوية الخاصة، وقلت: أصدقائنا في إسلام آباد يريدون الإرهابيين موتى أو أسرى بقدر ما نريدهم نحن.

وكنا نضرب الطالبان والقاعدة من الجو، نهراً ولبلاً، بوحدات القنابل الموجهة بالليزر، وذخائر الهجوم المباشر المشتركة، وبطائرات سبكتر ايه سي-130. وقد حللنا

المشكلات الفنية المتصلة بإقامة وصلات بث معلومات صور فيديو في الزمن الحقيقي بين طائرات البريديتر التي تطير للاستطلاع وطائرات ايه سي-130. وما كان يشاهده رجال وكالة الاستخبارات المركزية ومشغلو البريديتر من القوات الجوية على شاشاتهم البلازما في منطقة موقف السيارات في لانغلي وفي مركز العمليات الجوية المشتركة في المملكة العربية السعودية، كان يشاهده أيضاً الضباط الرماة المهدفون من ظهر الطائرات المسلحة التي تقوم بالدوريات شمال قندهار وفوق جبال سبن. وعندما كانت المركبات الجوية بدون طيار تحدد مكان عدو كانت الطائرات ايه سي-130 تصل في غضون دقائق.

سارت عمليات القتال سيراً حسناً على نحو يلفت الانتباه. ولكنني كنت أعرف أن الحرب لم تنته، فقد جاء في تقارير حضرة علي أن مجموعة كبيرة من العرب قد التجأت إلى معقل من الاستحكامات في الكهوف والأنفاق جنوب شرق ممر خيبر. وقد واجهت قوات الأفغان التي يقودها علي مقاومة شرسة من مقاتلين مسلحين تسليحاً ثقيلاً وقد تخندقوا على حلقات دفاعية متحدة المركز. ستكون تورا بورا مبارزة "قتال بالسلاح الناري". وسوف تحدث قريباً، قبل أن يستطيع الهرب أي قادة للقاعدة يمكن أن يدفنوا بالحفر هنا.

وقبل أن أغادر مقر القيادة المركزية، ناقشت مع جين رينيوات وقائد عنصرنا الأرضي، الفريق بي تي ميكولاشيك، هيكل قوة التحالف الذي سنستخدمه لإقامة الاستقرار في البلاد.

واتفقت أنا والوزير رامسفيلد على أننا لا ينبغي لنا أن نفرق البلد بتشكيلات كبيرة من القوات التقليدية. وقلت للوزير: "لا نريد أن نكرر غلطة السوفيت. فليس هناك ما نكسبه من التخطيط في تلك الجبال وممرات الوديان بكتائب مدرعة تطارد عدواً مسلحاً بالأسلحة الخفيفة." لقد كان هذا هو الوقت لتأكيد إستراتيجيتنا. "وأنا أخطط لإبقاء قوة صغيرة. سوف نفصلها لتفي بالمهمة، ولا نحاول أن نبني مهمة حول القوة."

يجب أن يبقى أثر قدمنا صغيراً، لأسباب عسكرية وجيوسياسية على حد سواء. وتصورت قوة إجمالية من 10.000 أمريكي، جنوداً، ورجال طيران، ورجال وحدات مهام خاصة، وملاحى اقتحام جوي بالطائرات العمودية، مع مساندة جوية قريبة قوية داخل البلاد. وبدا لي أن الأولوية الثلاثة من فرقة الجبال العاشرة والفرقة المائة وواحد المحمولة جواً (للاقتحام الجوي)، إضافة إلى وحدات حملة مشاة البحرية الموجودة الآن في معسكر رينو وقندهار، كانت هي القوة الصحيحة تقريباً. وأخذ المهمة ميكولاشيك وكان يعمل فيها.

والآن، عندما وصلت إلى القصر الرئاسي، رأيت الندوب التي تركتها سنوات من الحرب والفوضى على غرفة الاستقبال التي ترجع الأصدقاء. وأرضية الغرفة المصقولة التي كانت في السابق مفروشة بالسجاد الكبير، لا يظهر منها الآن إلا مستطيلات سوداء، أما السجاد فقد سرق أو أتلّف في غمرة الحروب التي ابتليت بها أفغانستان طوال سنوات عديدة. وبكل لطف قدم لنا النادلون العاملون في القصر بزيتهم الموحد الزاهي شاياً ومشروبات حلوة من الشربات في فناجين وكؤوس مثلمة وغير منسجمة.

ولكن الجو كان بهيجاً كالعيد، يشعر بالانتصار. وكانت هذه هي المرة الأولى التي اجتمع فيها معظم هؤلاء الأفغان المنتصرين في مناسبة اجتماعية في سنوات. عديدون منهم كانوا أعداء، وأحياناً كانوا حلفاء، في عقد من الزمان من الصراع بين انسحاب السوفييت في العام 1989 وتقوية سلطة طالبان في أواخر التسعينيات من 1990. وهم الآن أعضاء في حلف منتصر غير مسبوق متعدد الأعراق قام بتحرير خمسة وعشرين مليون نسمة ووحيد البلاد معاً.

كان الاحتفال معادلاً لاحتفالات الفريق الرابع بعد مباراة كرة القدم الأمريكية سوبر باول. ومعظم القادة تحدثوا اللغة الدارية، وهي لغة الأفغان الفارسية المصطلح عليها للتفاهم. وعندما قمت بدورات في قاعة الحفل، مررت، مع ذلك على اثنين من المقاتلين بلغا من العمر الشيخوخة، أحدهما يرتدي قبعة بنية مصغرة، باكولاً،

والآخر عمة زعفرانية، كانا يتحادثان بلغة هجينة روسية مشوهة، وهي لغتهما الوحيدة. وانحنى الرجلان، وصافحاني وهزا يدي، ثم أسرعاً بوضع راحتيهما على قلبيهما علامة للاحترام.

لو كنت حاكماً رومانياً، لارتديت ثوباً رومانياً فضفاضاً أرجوانياً مهنماً ولوضعت إكليلاً من الغار. ولكنني فضلت أن أظهر في بزة صحراوية مموهة وفي حذاء عسكري بني مصفر لجندي أمريكي. وكان ذلك مذكراً بأن القوة التي قذتها، مع هؤلاء الأفغان الإخوة في السلاح، قد حررت أمتهم، لا قهرتها.

عندما اقتربت أنا وكاثي فُتحت لنا باحترام الدائرة المتحلقة حول حامد قرضاي من المهنيين ومتمني التوفيق له.

وقلت وأنا أمد له يدي: "سيدي، هذا يوم عظيم لأفغانستان" وتبسم وأحنى رأسه باحترام لكاثي. وقال وهو يخاطبني بلغة إنجليزية طليقة، "يا جنرال فرانكس، هذا يوم عظيم لكل العالم. لقد أعطينا أمريكا الأدوات لنهزم الاستبداد".

وتركنا قرضاي لصفوف من مواطنيه الذين ينتظرون لتقديم تهانيمهم وولائهم.

مشى الجنرال محمد فهم خان بخطوات واسعة عبر الغرفة، وذراعه مفتوحان، وهو يبتسم ابتسامة عريضة، وأعطاني معانقة تصدع الضلوع. كان فهم يلبس بدلة مخططة بخطوط ناعمة، وبوصفه وزير دفاع أفغانستان المفترض، فإنه سيكون عما قريب منخرطاً في مستقبل بلاده العسكري والسياسي كذلك.

وحقق بي فهم باهتمام، متخطياً المجاملات العادية، وتحدث بتباطؤ وعن قصد، ليتمكن المترجم من التقاط كل كلمة.

وقال لي: "يا جنرال فرانكس، أنا بانجشيري. وسوف أتهم في الأيام القادمة بأن لدي الرغبات لأصير رئيساً لأفغانستان." وانتظر حتى تنتهي الترجمة. "بعضهم سوف يظن أنني أريد لتحالف الشمال أن يبقى أقوى قوة في البلاد."

وأومأت برأسي، فهو لم يكن مخطئاً في ذلك.

وتابع حديثه بالطبقة نفسها من الصوت: "أيها الجنرال، يجب ألا تصدق ذلك. أنا موال وسأبقى موالياً لحامد قرضاي الباشتوني، لأنني أعتقد أن مستقبل أفغانستان هو كل ما يهم. وفي هذه النقطة في التاريخ، فإن حامد قرضاي هو الرجل الذي يضمن مستقبلنا."

وقلت وأنا أخاطبه بشكل رسمي: "يا جنرال فهيم خان، أنا أتفق مع رأيك في التاريخ."

وسمح لابتهامة طفيفة أن تعبر وجهه، ثم اقترب وأمسك بيدي. "هل تذكر عندما تقابلنا في دوشانبه، في طاجيكستان؟" وأومأت ثانية.

واستمر: "لم أكن أعرفك، وأنت لم تكن تعرفني. ولكننا الآن أيها الجنرال، يعرف أحدهما الآخر. ويجب أن تعترف أن ما أخبرتك بأني سأفعله، قد فعلته." ورددت: "سيدي، أنت ورفاقك أنجزتم أكثر مما كنت أستطيع أن أتوقع مطلقاً." وابتسم الآن. "يا جنرال فرانكس، لقد سألتني في ذلك الاجتماع إن كنت سأثق بك وأأتمنك على حياتي. الآن، أيها الجنرال، بعدما فعلناه، آمل أنك أنت ستثق بي وتأتمني على حياتك." وأجبت: "أثق بك ثقة كاملة."

ودرت أنا وكاخي بين الضيوف، نشرب الشاي الإلزامي والعصير في حين كنا نتحدث مع الرفاق الآخرين. في نقطة من النقاط، اقترب مني الجنرال دوستم، وأمسك بيدي بشدة، وتبسم. "مساء الخير أيها الجنرال، إنه ليشر فني أن أراك هنا." وترك يدي ووقف بانتباه، وأحنى رأسه. "أنت قائد عظيم وأنا في خدمتك. من تريدني أن أقاتل الآن؟"

كان جاداً. لقد كان الأفغان في حرب معظم حياتهم. وفكرت في أن إيجاد الاستقرار لهذا البلد لن يكون عملية سريعة وسهلة.

وقلت: "أحياناً أيها الجنرال، يجب على الجندي أن يشن السلام، لا الحرب."
توقف دوستم، وكأنه تعرض لتوه إلى مفهوم جديد. ثم تبسم.

وعندما حان الوقت للمغادرة، نظرت حولي بحثاً عن غرف الحمام. "يجب أن
أجد غرفة الرجال."

وأضافت كاثيري: "غرفة البنات."

وعندما سأل المترجم خادماً كبيراً عن أقرب حمامات، رسم على وجهه على
رغم ذلك، نظرة مذهولة. واستدعي شيخ أكبر سنّاً بلحية مهذبة رمادية وعمّة
لازوردية، ولكنه بدا لنا أيضاً مضطرباً. وتعجبت، أين يذهب هؤلاء الناس ليتبولوا؟

وأخيراً، تم اقتيادنا عبر ممر إلى غرفة حمام مظلمة صغيرة. وعندما خطوت
عبر الباب وتحسست في الظلام بحثاً عن الضوء، تصاعدت الرائحة الكريهة من
حولِي. كان القصر الرئاسي نموذجاً للرفاهية في كابول، ولكن هذا الجزء من المبنى
كان بلا كهرباء. وكما كان واضحاً من بركة الصرف على الأرض، فإن السباكة لم
تكن تعمل. من حسن الحظ، أنني كنت ألبس حذائي العسكري، وبينما كانت كاثيري قد
اختارت حذاء مشي معقول، وكان الكشف القلمي الشكل في محفظتها أداة موضع
ترحيب.

عندما كنا نغادر المبنى، ونمشي نازلين على الدرج المرمري المتصدع نحو
السيارات المنتظرة، تصورتُ العائلات اللاجئة وهي تقعد في خرائبها، بلا كهرباء،
ولا ماء جار، أو نظام صحي. كاثيري وأنا تبادلنا نظرة.

وقالت: "مكان للتحسين، يا توم."

وقلت: "سيكون هناك وقت طويل قبل أن يمتلك هؤلاء الناس الضرورات
الأساسية لحياة كريمة. لقد صنعنا بداية فقط في هذا البلد."

وعندما صعدنا إلى داخل السيارات اس يو في، كان غاري هاريل يجلس في
المقعد الأمامي الأيمن، ويستمع إلى جهاز لاسلكي تعبوي، أقر باستلام الرسالة، ثم
استدار إلى الخلف ليواجهني، وهو عابس.

وقال: "سيدي، تغيير صغير في الخطط، سوف نقود سياراتنا راجعين إلى باغرام بالشاحنات."

كنت أستطيع أن أخبر بأن شيئاً ما حدث: "دعنا نعرفها، يا غاري."
 "أيها الجنرال، قال طيار الطائرة العمودية الثانية إن بريمة سحب فلين السدادات أخذت الجانب الأيسر من عصفورنا عند الهبوط. وقد رتبت أمن الطريق مع الأفغان على طول الطريق إلى باغرام. سنكون أكثر أمناً في الطريق."

لقد أطلقت النار علينا، فكلمة "بريمة سحب فلين السدادات" كانت رطانة بين العسكريين تعني الصاروخ الذي يطلق وهو محمول على الكتف، وربما يكون من نوع اس ايه-7. وهذا التعبير يصف الأثر الحلزوني للدخان عندما يبحث الصاروخ عن هدفه. وعلى الرغم من أن الطائرات العمودية المستخدمة في العمليات الخاصة مزودة بتجهيزات إلكترونية لإبعاد الصواريخ الباحثة عن الحرارة، فلا مع ذلك معنى في المخاطرة بتجربة حظنا. والتفاوض على خمسة وأربعين كيلومتراً من الطريق البري، الذي كسحت منه الألغام حديثاً، سيكون أكثر أمناً من الطيران. وفهمت كاثي المحادثة، ولكنها كانت ثابتة الجأش وهادئة مثلما هي دائماً.

وقلت: "لك ذلك، يا غاري. دعنا نذهب."

"فوراً، سيدي."

ومددت يدي نحوه وربت على كمة: "عليك أن تتذكر، أنني سأكون غاضباً فعلاً إن تسببت في قتلنا. وكذلك ستكون كاثي." وغمزت باتجاهها.

وقال غاري: "لا قلق، أيها الجنرال."

في رحلتنا في السيارة صاعدين في الوادي إلى باغرام، مررنا على عشرات الدبابات، والشاحنات، والحافلات المدمرة التي كانت قد اصطدمت بالألغام في نقطة ما في التاريخ العنيف لأفغانستان. وفي أثناء مسيرنا في السيارة، كنت أنظر في عيون الأفغان الذين مررنا بهم. كانت عيوننا متعبة، ولكنها كانت عيوناً مليئة

بالأمل. كنت سعيداً بأننا سلطنا هذا الطريق المدمر، لقد أعطانا فرصة لنرى قليلين من خمسة وعشرين مليون نسمة كانوا الآن يمتلكون فرصة لحياة أفضل.

في يوم الخميس 27 كانون الثاني/ديسمبر، كنا محمولين جواً طوال ما يقارب الساعة، متوجهين نحو الوطن بعد أن بتنا ليلة في صقلية، عندما انهمكت بالعمل في غرفة المؤتمرات الصغيرة على متن الطائرة. وكانت كاثي مستريحة، تحاول أن تمسك بالنوم المفقود من البرنامج المفعم بالأحداث والقفزات في أنحاء منطقة المسؤولية. في الأيام الخمسة الماضية، كنا قد زرنا عمان، وأفغانستان، وباكستان، وسبع قواعد للتحالف، وخمس سفن من بحرية الولايات المتحدة، وأمضينا عيد الميلاد مع البحارة على حاملتي طائرات في بحر العرب الشمالي. وكنا على متن طائرات سي-17، وسي-130، وثلاثة أنواع من الطائرات العمودية، وطائرة بمحركين مروحيين تربينيين من نوع الطائرات التي تعمل في النقل والتسليم على ظهر السفينة، وهي التي أعطت كاثي نشوة أول مرة لها في الطيران على ظهر السفينة والهبوط بكلاية الذيل والإقلاع بانطلاق منجنيقي (*).

وعلى الرغم من إيقاع الرحلة، فقد كنت سعيداً أن نكون كاثي وأنا قادرين على أن نمضي عيد الميلاد معاً لأنني كنت أعرف أنني لن أمتلك الوقت الكثير في البيت في الأسابيع القادمة. ومع سير عمليات الاستقرار في أفغانستان قدماً على نحو حسن، كان يجب علي أن أحول انتباهي إلى الواجب الذي كلفني به الوزير رامسفيلد في أثناء عطلات عيد الشكر: وهو القيام بتحديث تخطيطنا للعراق ليماشي هذا الوقت.

"واجبك المنزلي، أيها الجنرال." قالها فان موني، وهو يضع كدسة من إضبارات ملف الأسرار العليا بأطرافه البرتقالية على الطاولة أمامي.

كانت الإضبارات تحتوي على آخر "تكرار" في عملية المراجعة المجهدة التي بدأت في شهر تشرين الثاني/نوفمبر. وفي الأسابيع الأربعة التي مضت منذ ذلك

(*) آلية لإطلاق الطائرة بسرعة كافية للطيران مثلما يحدث من ظهر حاملة الطائرات.

التاريخ، كنت قد قدمت إيجازاً لدونالد رامسفيلد عدة مرات، شخصياً ومن خلال المؤتمرات بالاتصال من بعد المصورة بالفيديو. وقد صُرفت مئات من ساعات العمل في هذا الجهد. ولكن عندما فتحت الإضبارة العليا، عرفت أننا كنا نبدأ حلاً عملية طويلة، تحتاج إلى إمعان الفكر والتروي.

ولم نكن نمتلك بعد خطة للقيام بعمليات عسكرية حاسمة ضد النظام البعثي لصدام حسين. وإذا حدث أن اختار الرئيس أن يدير مثل هذه العملية، فإن خطة العمليات النهائية ستكون من مئات الصفحات في طولها، مع آلاف الصفحات من الملاحق المتخصصة التي تغطي كل شيء من إقامة القواعد وترتيب التمرحل إلى مطارات الهبوط الطارئ، إلى دذبذبات رادارات الدفاع الجوي للعدو، إلى عدد الوجبات الجاهزة للأكل التي يجب أن تشحن إلى القوات.

ما طلبه وزير الدفاع في 27 تشرين الثاني/نوفمبر لم يكن خطة جديدة. لقد طلب أن أعطيه "تصور القائد"، وهو الأسس الفلسفية لما قد يصير في نهاية الأمر خطة. لقد كان ذلك التصور الذي استغرق ثلاثة أسابيع لإكماله، هو الذي ملأ الإضبارات.

الخطة الموجودة، وهي خطة العمليات 1003، كانت قد حُدثت لآخر مرة بعد ثعلب الصحراء في العام 1998، ولكنها كانت مستندة إلى عصر تفكير عاصفة الصحراء. كانت ثقيلة بالجند، وتشمل حشداً طويلاً وسلسلة من الضربات الجوية قبل أن تطفأ الأحذية العسكرية الأرض. وهي لم تأخذ بالحسبان التوزيعات الحالية لجندنا، أو التقدمات التي جرت في الذخائر الموجهة الدقيقة، أو الفتوحات في تقانة القيادة والسيطرة، هذا إذا لم نذكر الدروس التي كنا نتعلمها في أفغانستان.

في أصيل يوم 4 كانون الثاني/ديسمبر، 2001، أي بعد سبعة أيام من تلك المحادثة، اجتمعت أنا وجين رينيوات في غرفة اجتماع ركن الاستخبارات في منشأة الاستخبارات الخاصة المقسمة وعرضنا أول تكرار لتصور القائد مني إلى رامسفيلد

ورئيس هيئة الأركان المشتركة ديك مايرز في وزارة الدفاع من خلال الاجتماع المأمون بالاتصال عن بعد المصور بالفيديو.

وقبل ان ينتقل تركيز آلة التصوير إلى رامسفيلد ومايرز، رأيت أن نائب رئيس هيئة الأركان المشتركة الجنرال بيت بيس ووكيل وزارة الدفاع لشؤون السياسات دوغلاس جيه. فيث كانا حاضرين أيضاً في الجلسة. وبالتأكيد لم يكن لدي أي مشكلة في أن يجلس بيت بيس في الجلسة. فقد كان واحداً من ألمع الضباط الذين عرفتهم وأكثرهم حيوية.

أما دوغ فيث فكان مسألة أخرى. ولا يستطيع أحد أن ينكر إنجازات فيث الأكاديمية، فقد نال درجة البكالوريوس بامتياز كبير من هارفارد ودرجة امتياز أخرى من مدرسة القانون من جورج تاون. ولكن فيث كان منظرًا وكانت أفكاره في الغالب غير عملية، وكان لفيث سمعة، بين بعض الضباط اللابسين للبزة في المبنى، عن خلطه للمذكرات النظرية مع النتائج في الميدان. وتعاملاتي معه تركتني في موقفين متناقضين: أحببته شخصياً، ولكني لم أكن مقتنعاً بأن الوزير كان دائماً يتلقى خدمة جيدة من نصيحته. كان فيث سيداً للسؤال الذي لا علاقة له بالموضوع ونادراً ما يتصل بالمشكلات العملية. وكان واضحاً أن دون رامسفيلد كان يثق به، وأنا أريد أن أستخدم منتجات فكره. ولكنني لم أكن أملك من الوقت، أو الميل، إلا القليل لإجابة "مشكلات عقل" فيث المحيرة. ولذلك، فقد كنت عموماً أهمل إسهاماته، وركزت على ما لدى الوزير ليقوله. ولم يسمح رامسفيلد لفيث أبداً أن يتدخل في عملي. وكنت دائماً شاكرًا له ذلك.

استدرت إلى اللوحات وتوسعت في النقاط الرئيسية.

وقلت، وأنا أشير إلى الصفحة الأولى: افتراضات: "سيدي الوزير إذا بادرنا بالعمليات العسكرية في العراق، فأنا أفترض أن الهدف الرئيسي سيكون إزالة حكم صدام حسين."

لم يسبق لي أن طلبت إذن دونالد رامسفيلد لأقترح هذا الافتراض. ليست تلك هي الكيفية التي يعمل بها الإستراتيجيون العسكريون. لقد كان واجبي هو أن أوصي بأفعل وأحسم استخدام لقواتنا العسكرية في حل مشكلة معينة. والقيادة المدنية، وزير الدفاع ورئيس الولايات المتحدة، سوف تقرر إن كانت افتراضاتي الإستراتيجية مناسبة.

انتظرت لحظة، وأنا أشاهد رامسفيلد يدرس كلماتي. وقال بعد توقف: "ياجنرال، ذلك هو افتراضي، أيضاً. والرئيس سيتخذ هذا القرار في نهاية الأمر." وتابعت: "سيدي، الوزير، إن افتراضي الثاني هو أننا إذا أدرنا العمليات العسكرية، فسيكون الهدف هو أن نترك العراق بدون قدرة عسكرية على تهديد جيرانه لا بأسلحة الدمار الشامل ولا بالأسلحة التقليدية."

وأوماً رامسفيلد برأسه. "أنا أوافق. إذا، وأنا أشدد على إذا، حدثت هذه العملية، فسوف نترك العراق أمة موحدة ولها القدرة على الدفاع عن نفسها." وقلت: "سيدي، أنت تعرف من قبل ما أعتقد أنه عن خطة عمليات 1003. ولكنها هي الخطة التي نملكها اليوم، إنها تعطي تفاصيل هيكل القوة، والإمداد والتموين، وجميع المتطلبات الأخرى لعملية أكبر. إنها كبيرة جداً، وبطيئة جداً. وقديمة العهد. ولكن إذا أساء صدام الحسابات، كما هو ميال ليفعل، وأسقط واحدة من طائرتنا، وأطلق صواريخ إلى داخل الكويت أو إلى داخل إسرائيل، أو قرر أن يهاجم الأكراد، فإننا نحتاج إلى أن نعد رداً ما يكون عملياً ومباشراً."

وزن رامسفيلد هذا المنطق. "صواريخ كروز وضربات جوية؟"

وتابعت. "ذلك هو ما نملكه في الكتب الآن مباشرة، سيدي الوزير. إنها قديمة، تقليدية، قابلة للتكهن بها. وأسوأ من هذا كله أنها مبنية في مقدماتها على استمرار سياسة الاحتواء. تصورُ القائد، تصوري الخاص بي، له مجموعة مختلفة من الأهداف."

وقلبت صفحة وأشرت إلى الحالة النهائية، وإلى انفجار نجمين معلمين بالأحمر: تغيير النظام، وإزالة أسلحة الدمار الشامل.

درس رامسفيلد ومايرز الصفحة. وقال رامسفيلد: "يا جنرال، دعنا نرجع إلى الخطة الموجودة. بعد الضربات الجوية الأولى، فإن بناء القوة الأرضية يستغرق مدة من الزمن مفرطة.

"نستطيع أن نعمل أفضل. أنا أردت أن أريك ماذا نمتلك قبل أن أقترح أين نذهب."

وقال رامسفيلد مع ابتسامة: "تابع، أيها الجنرال."

وكان دونالد رامسفيلد عادة يحب أن تكون إيجازاته سريعة ودقيقة. وهذا الإيجاز تقدم ببطء أكبر، وكان من الواضح أنه يريد أن يضع أساساً صلباً لأي ظروف قد تتطور في الشهور القادمة. وقد كان مجتمع الاستخبارات يفكر في وجود رابط بين نظام صدام وإرهابيين معروفين، ومن جملتهم القاعدة. ولم يكن الدليل محكماً، ولكن كان من المؤكد أن العديد من معسكرات الإرهاب لأنصار الإسلام كانت متوافرة وتعمل في شمال العراق.

فكانت هذه المعسكرات أمثلة عن "مآوي" الإرهابيين التي تعهد الرئيس بوش بسحقها. أحد الإرهابيين المعروفين، وهو أردني ولد فلسطينياً يدعى أبو مصعب الزرقاوي، كان قد التحق بالقاعدة في أفغانستان، وفيها كان متخصصاً في تطوير أسلحة كيميائية وحيوية، كان الآن قد تأكد أنه يعمل من واحد من المعسكرات في العراق. وكان قد جرح جرحاً بليغاً في أثناء قتال قوات التحالف في أفغانستان، وقد تلقى الزرقاوي العلاج الطبي في بغداد قبل الانطلاق مع أنصار الإسلام. وأوحى الدليل بأنه قد التحق هناك بآخرين من قادة القاعدة الذين نقلوا عبر بغداد وأعطوا ممرأ آمناً إلى شمالي العراق بواسطة قوات الأمن العراقية.

وما كان مزعجاً على نحو خاص حول هذه المعلومات الاستخباراتية هو التقارير التي تقول إن الزرقاوي وزملاءه من القاعدة كانوا يستخدمون المعسكرات

لتدريب إرهابيين آخرين من أجل هجمات أسلحة الدمار الشامل في فرنسا، وبريطانيا، والشيستان، وفي جورجيا، الجمهورية السوفيتية السابقة. (في كانون الثاني/يناير 2003، عندما أنهت الشرطة البريطانية خلية إرهابية في مانشستر كان الزرقاوي قد ساعد في تدريبها، اكتشفت الشرطة آثار مادة الخروع، السم الحيوي القاتل، في شقة الإرهابيين، وأشارت التقارير إلى أنهم كانوا يتآمرون لاستخدامه لتسميم إمدادات الطعام في القواعد العسكرية عبر بريطانيا).

إذا كانت الدلائل مؤكدة بأن النظام العراقي كان في الواقع مرتبطاً بالقاعدة، فسيكون في واشنطن شهية لا تشبع للعمل الفوري. وقد اكتشف رجال وحداتنا للمهام الخاصة الدليل في أفغانستان على أن الإرهابيين كانوا يحاولون أن يحصلوا على قدرة كيماوية وحيوية. وبين تقرير مفتشي الأمم المتحدة في كانون الثاني/يناير 1999 أن العراق كان يمكنه أن يمتلك إمدادات كبيرة من مثل هذه الأسلحة.

صدام حسين، وهو دكتاتور ميال إلى اضطهاد المسلمين الشيعة، وأسامة بن لادن، وهو واحد من أوائل المتطرفين المسلمين في العالم، هذان الاثنان إن كانا فعلاً يتعاونان، فإن هذا دليل على أن الحرب قد صنعت حلفاء غريبين. ومع ذلك فقد كنت أعرف أن المال قد تجاوز الإيديولوجيا والإيمان معاً، وابن لادن كان يمتلك الكثير من المال. وإن أي قوة كانت تستطيع أن تزود القاعدة بعوامل الأعصاب أو الجمرة الخبيثة هي موضع اهتمام إستراتيجي كبير، وكان صدام في موقع يحتمل جداً فيه أن يجعل مثل هذه العناصر متوافرة مقابل الثمن الصحيح.

كان من الحماسة ألا نفكر في خياراتنا لاستئصال ذلك التهديد.

وعندما اختتمت خلاصة الخطة 1003 الموجودة، لاحظت أننا قد خفضنا مستويات القوة المخطط لها من 500.000 جندي إلى حوالي 400.000 ولكن حتى ذلك كان ما يزال ضخماً جداً إلى درجة كبيرة. "هذا العام ليس 1990. فالقوة العسكرية العراقية اليوم ليست هي القوة التي واجهناها في 1991. وقواتنا نحن أيضاً مختلفة

اختلافاً كبيراً. ونحن نرى ذلك في أفغانستان. نحن نحتاج إلى أن ننقي افتراضاتنا."

أخبرت الوزير أنني كنت أريد أن أطور خيارات جديدة للعراق، ووافق الوزير على ذلك. ومن تلك النقطة فصاعداً كان واضحاً: دون رامسفيلد كان راغباً أن يكون جزءاً من الحل.

إيجازاتي إلى رامسفيلد، وإلى الرئيس، ستكون مستندة إلى فلسفة بسيطة: لا تفترض قطعياً أن الرئيس يعرف كل ما هناك، مما ينبغي أن يُعرف حول قضية ما، عندما يجلس إلى الطاولة. أعطه كل شذرة من المعلومات تعتقد أنه يحتاج إليها، ولو كانت المعلومة مرهقة. وعدم الصبر المشهور عن رامسفيلد جعل هذا أحياناً أمراً قاسياً. ولكن من الأفضل أن يفهم هو كل ناحية من القضية قبل أن يصل فيها إلى قرار، ولو كان ذلك الفهم يكمن في تقسيم المشكلة قيد البحث في أيدينا إلى التعابير الأساسية فيها إلى أبعد حد. لقد عرفت ضباطاً مشوا في مساراتهم الوظيفية وهم يحاولون أن يظهروا بارعين، وذلك عن طريق جعل القضايا البسيطة تبدو معقدة. كان تفضيلي دائماً هو أن أجعل المعقد بسيطاً ببساطة كافية لفهمه. الحرب عمل معقد، ولكنه مكون من عناصر مباشرة مكشوفة. وإذا فهمنا جميعنا هذه العناصر، عندها فقط، يحتمل أن نصل إلى النتائج نفسها، والنتائج الصحيحة.

إذا كان السبب الأول للإيجاز المقدم للرئيس هو أن تثقفه، فالسبب الآخر هو أن تستحثه وتحفزه. فعندما طلب دونالد رامسفيلد أن ندرس مدخلاً إستراتيجياً جديداً للعراق، انطلقت لأثقفه في الأساسيات، ولأحفزه ليساند نتائجي التي خلصت إليها. أحياناً نجحت. وفي أحيان أخرى لم أنجح. ولكن عملية "التكرارات" التي بدأناها في أثناء ذلك الاجتماع الذي عقد في مطالع كانون الأول/ديسمبر عملت على حفزنا كلياً.

وقلت، راجعاً إلى اللوحة التالية: "إذا عزمنا على إزالة نظام صدام، فسوف يتوجب علينا أن ندرس سلسلة من الاحتياجات العملية: إقامة القواعد، وترتيب

التمرحل، والطيران فوق البلاد الأجنبية، ونشر القوات، والإمداد والتموين، والدعم، والقيادة والسيطرة، والاستخبارات. ففي أفغانستان، طرحت هذه الاحتياجات مجموعة واحدة من المشكلات. وبالنسبة إلى العراق، المشكلة الأساسية باقية، ولكن المعدل سيكون أكبر.

ورفعت صفحة الخيارات.

"ما هي الخيارات الإستراتيجية التي نمتلكها؟ الخيار الأول." وفتحت الصفحة. وشرحت: "أنا أسمى هذا الخيار بالخيار القوي."

وتابعت: "لو أن كل بلد في المنطقة يلتحق معنا ويقدم السند الكامل. ومن جملته، إقامة القواعد، وترتيب التمرحل، والطيران فوق البلاد الأجنبية، والمساعدة المالية، وربما حتى تقديم الجند، فإن هذا الوضع سيكون في الحقيقة هو الموقف الأمثل."

وأشرت بيدي إلى الخريطة لأوضح نقطتي. "بهذه الطريقة، نستطيع أن نعمل من دون قيد من تركيا في الشمال، ومن الأردن والمملكة العربية السعودية في الغرب والجنوب، ومن الكويت، ومن القواعد الجوية والبحرية في كل دول الخليج. إضافة إلى ذلك، نستطيع أن نستفيد من المساندة التي تقدمها مصر ونرتب تمرحل القوات في آسيا الوسطى، إضافة إلى هنغاريا، ورومانيا، وبلغاريا، وهي الدول التي نتابع فيها تحديث حلف وارسو السابق."

وعرضت مخططاً يبين أرضاً افتراضية، وقوات خاصة، وعمليات جوية انطلقت من الشمال، والغرب، ومن الجنوب، ومن حاملات الطائرات في البحر الأبيض المتوسط، والبحر الأحمر، والخليج العربي. "لهذا الخيار ميزة السماح لنا بإدارة عمليات متزامنة أو قريبة من المتزامنة، سيدي الوزير. العمليات المتزامنة، لا الحملات الجوية والأرضية المنفصلة، هي التي تمثل الكتلة الأمثل."

واستدرت إلى اللوحة التالية وقلت: "الاحتمال الثاني هو الخيار المخفض. وهذا الخيار مبني على العمل من بلاد أقل، مع تخفيض في إقامة القواعد، وترتيب

التمرحل، والطيران فوق البلاد الأجنبية. وسوف يعني إدخالاً للقوى بتزامن أقل، وهجوماً متتابعاً أكثر على مجموعات الأهداف. إنه مدخل أقرب إلى المدخل التقليدي، الجو أولاً، وبعدئذ الأرض."

وكانت اللوحة التالية الخيار الأحادي الجانب. "وهنا نفترض الحد الأدنى من إقامة القواعد، وترتيب التمرحل، والطيران فوق البلاد الأجنبية، وستكون قواعدا العاملة الوحيدة في الكويت وعلى حاملات الطائرات في الخليج. وهذه العملية ستكون متتابعة بشكل مطلق. سيكون علينا أن ندخل قواتنا الأرضية بالتدريج، وذلك ببساطة لأنه لن يكون هناك بنية تحتية كافية في الكويت تمكننا من ترتيب التمرحل لتشكيلات كبيرة في الوقت نفسه. وهذا ليس خياراً سنرغب في تنفيذه."

ذلك كان علامة على نهاية الإيجاز. "سيدي الوزير، أعرف أنك لم تحقق ما طمحت إليه بما أعطيتك إياه اليوم. ولكنها بداية، وقد أردت أن أتوَق من أننا كنا على الصفحة نفسها في الافتراضات الإستراتيجية وخيارات المساندة."

وقال وهو يكس الصفحات: "حسناً، أيها الجنرال، لديك الكثير من العمل بانتظارك. اليوم هو الثلاثاء. دعنا نجتمع ثانية في يوم الأربعاء القادم، في 12 كانون الأول/ديسمبر. أريد أن أسمع تفاصيل أكثر في ذلك الوقت."

وصارت الشاشة فارغة. وكان جين طوال الوقت يدون ملاحظات في سجله اليومي الكبير الحجم، الذي كان الأركان يسمونه "الكتاب الأسود للموت" لأن عبء العمل الذي يمثله كان كافياً ليقتل حتى أصلب مجموعة من الضباط الأركان.

وقال جين: "يا رئيسنا، الأمور في تحسن. لقد أعطانا الوزير قبل قليل ثمانية أيام كاملة. في المرة الأخيرة كانت المدة أسبوعاً فقط."

وقلت: "قطعة كعك، يا ركن العمليات."

كان الأركان من قبل الآن يعملون سبعة أيام في الأسبوع وستة عشر ساعة في اليوم أو تزيد. ولكنني كنت أعرف أن إنتاج هذا التكرار القادم من تصور القائد لن يكون شاقاً ملحاً، وذلك لأنني كنت أمتلك له من قبل نموذجاً في ذهني.

طوال الأيام العديدة التي تلت قضيت وقتي في عاصفة عقلية، فعندما لا أكون في مكتبي مع جين، كنت أجتمع مع ضباطنا الكبار من أركان العمليات، أو مع جيف كيمونز، وطائفة الاستخبارات في منشأة الاستخبارات الخاصة المقسمة. وكنت في أثناء الأيام الستة والعشرين المحمومة التي قضيناها قبل قليل في التخطيط لأفغانستان، قد طورت أسلوباً في التخطيط ركز على "خطوط العملية"، وهي الواجبات التي سوف تستدعيها أي مهمة معطاة، وركز على "الشرائح"، وهي النواحي المختلفة من البلاد التي سوف تتأثر بخطوط العملية.

وعندما كنت أفكر في عملية ممكنة في العراق، برز عدد من الخطوط الواضحة للعملية وطرحت نفسها. واحد منها كان الحركات: النيران العملياتية، إطلاق صواريخ توماهوك للهجوم الأرضي، وضربات جوية من قاذفات بملاحين، إضافة إلى مساندة جوية قريبة من مقاتلات قاذفة ومن طائرات إيه سي-130 سبكر، وفي نهاية المطاف الطائرات العمودية المسلحة من البحرية والجيش. والخط الآخر كان المناورة العملياتية، القوات الأرضية التقليدية. وخط آخر هو القوات الخاصة. وكان هناك خطوط مهمة أخرى، هي السياسية والدبلوماسية معاً، أي: المساعدة الإنسانية، وعمليات المعلومات، والخداع.

وكان الخط الدبلوماسي سيشمل العمل الذي تقوم به وزارة الخارجية، ووكالة الاستخبارات المركزية، واتصالاتي الشخصية في المنطقة، والضاربون الثقيل: الرئيس بوش، وتشيني نائب الرئيس، والوزيران رامسفيلد وباول.

وكنت أعرف أن العراق سوف يختلف في التعقيد عن أفغانستان بعدة رتب من الضخامة. في أفغانستان، كانت أهدافنا إزاحة الطالبان وتدمير قواعد عمليات القاعدة، ولإنجاز هذا الأمر ركزنا خطوطنا على عدد محدود من الأهداف. وكان تدمير التشكيلات الأرضية للعدو واحداً من أهم واجباتنا، وكثير من خطوطنا للعمليات قد ساند هذا الواجب.

أما العراق فمثل تحدياً أصعب بشكل ضخم للغاية. وعلى الرغم من أن القوة

العسكرية للعراق قد تراجعت منذ حرب الخليج، فالعراق ما يزال يمتلك في الميدان قوة هي أكبر تقريباً بعشرة أضعاف من قوات طالبان والقاعدة مجتمعين. وخلافاً للعدو في أفغانستان، فإن قوات العراق كانت مجهزة بتشكيلة مؤثرة من الدروع، والمدفعية، وأنظمة الدفاع الجوي.

كان أفغانستان تحت طالبان حكومة دينية قاسية. أما عراق صدام فكان دولة بوليسية شمولية من القرن الحادي والعشرين، مع قيادة مركزية بشكل عال استطاعت أن تبقى وتمارس السلطة من خلال استخبارات داخلية وجهاز أمني كان ينتشر من صدام حسين ابتداء، ومن ولديه عدي، وقصي، ودائرتهم من زملائهم من قبيلة الأبو ناصر من منطقة تكريت، إلى الخارج.

المنظمات التي حافظت على صدام في السلطة ضمت مصلحة الاستخبارات العراقية، المخابرات المخيفة، ومنظمة الأمن الخاص، أو الأمن الخاص. ووفر الحرس الجمهوري الخاص الأمن المادي لقيادة النظام. وقام قلب القوة العسكرية للعراق على التشكيلات القتالية للحرس الجمهوري. وكانت هذه التشكيلات مشابهة للغستابو (قوات الأمن الداخلي) عند هتلر، ولقوات اس اس، وفرقة من الوافن اس اس (وحدات الحماية المسلحة) من الدروع والمشاة الآلية، مع مقدار جيد اختلط فيها من الأمن الداخلي السوفيتي كي جي بي (وكالة الاستخبارات والأمن الداخلي). حكم صدام من خلال القمع الوحشي والخوف. كما طور كذلك عدداً ضخماً من الأتباع الموالين عن طريق الإغداق في مكافأة أوثق الأعضاء في حكمه ومكافأة عائلاتهم. وبعد أن بدأ حظر الأمم المتحدة على الزيت بعد حرب الخليج، أنفق صدام بلايين الدولارات من عائدات برنامج الزيت مقابل الغذاء ليستمر هذا النظام في المكافآت، مع بناء مجمعات القصور الضخمة في الوقت الذي يستمر في الاستثمار في برامج الأسلحة السرية غير المشروعة.

وخلافاً لأفغانستان، التي قلل مرة دونالد رامسفيلد من قدرها فوصفها بأنها كانت تمتلك: "حفنة من محطات الرادار، وقليلاً من الدبابات، والكثير من الشاحنات

الصغيرة مليئة بالمتعصبين،" فإن العراق احتوى على مئات من الأهداف ذات الأهمية الإستراتيجية. وعندما وضعنا التفاصيل على تصورنا في أثناء الأسبوع في منتصف كانون الأول/ديسمبر 2001، بدأت أنا بخلق مخطط تصوري عن الكيفية التي ستطبق بها القيادة المركزية، إذا أمر الرئيس، الخطوط الضرورية للعملية لمهاجمة ما كان كلاوتزفرتز قد وصفه منذ أكثر من مائة سنة على أنه "مراكز الثقل" للعدو- أي، الشرائح، أو التأثير على هذه المراكز.

تصورت الشرائح على أنها سلسلة من الأعمدة، نوع من النصب التذكاري الذي كان يسند وزن البعثيين وصدام حسين. في وقت مبكر في صباح أحد الأيام، أخذت رزمة ورق وبدأت أرسم الأعمدة التي مثلت أسس القوة العراقية. ثم أضفت أعمدة لتمثل العناصر الجوهرية للأمة العراقية وللشعب العراقي. فالحملة العسكرية لن تؤثر على صدام فقط وعلى أتباعه، ولكنها ستؤثر على سكان العراق المدنيين أيضاً، وعلى بنيته التحتية الاقتصادية، ومن جملة ذلك موارد الزيت والماء، وبيئته الطبيعية. أهدافنا العسكرية، في أفغانستان، كانت واضحة مباشرة نسبياً: إزاحة نظام طالبان، وتحطيم القاعدة وقواعدها العملياتية والتدريبية، ومنع انبعاث هيكل مساندة الإرهابيين، وقد حققنا مهمتنا. فلم تبقى الطالبان موجودة بعد الآن، لا بصفتهم حكومة ولا بصفتهم قوة عسكرية متماسكة. وفقدت القاعدة مئات من قادتها ومقاتليها الأفضل تدريباً وخبرة، وتحولت قواعدها التشغيلية والتدريبية إلى أنقاض، وجنودها في حالة هرب.

ولكن لتحقيق حتى تلك الأهداف البسيطة في أفغانستان، كانت خطوط العملية معقدة وقاسية. فقد تطلب الخط الدبلوماسي مفاوضات ومساومات الغرف الخلفية غير المعلنة لتأمين ترتيب التمرحل، وإقامة القواعد، والطيران فوق البلاد الأجنبية التي احتجنا إليها لاستخدام القوة العسكرية استخداماً فعالاً في البلاد المحصورة المحوطة بالبلاد الأخرى. ولم يتضمن خط القوات الخاصة إدخال هذه القوات ومساندتها فقط، بل دعم تحالف الشمال والجماعات المعارضة الأخرى

كذلك، وكان الدعم بالأغلب نقلاً بالطائرات العمودية أو بالإسقاط الجوي. وتطلب خط النيران العملياتية تنسيقاً غير مسبوق للموجودات الجوية والبحرية. وتضمن خط المعونة الإنسانية، اشتراك الأمم المتحدة وعشرات من المنظمات غير الحكومية. وأما بناء "تحالف الراغبين" في قوة عملية وفعالة فقد استدعى جهداً فوق عادي وكثيفاً بين الوكالات في واشنطن وحول العالم.

أما خطوط العملية بالنسبة إلى العراق فستكون أكثر تعقيداً بكثير. وستكون غاية سياستنا هي إزاحة صدام حسين من السلطة، ويؤمل أن يكون ذلك بالطرق الدبلوماسية، ولكن إذا دعت الضرورة فبالقوة العسكرية. ولعمل ذلك، سيكون علينا أن نؤثر على نقاط الضغط التي أبقت صدام في السلطة. إن صدام لن ينصاع لقرارات مجلس الأمن في الأمم المتحدة، التي هزئ منها في كل تطور طوال عقد من الزمان، إلا إذا تعرض النظام للتهديد.

من الناحية النظرية، فإن الضغط الدبلوماسي والاقتصادي تحت مظلة من التهديد العسكري قد تؤدي إلى نزع سلاح صدام. وبموجب هذا المنطق، لم تكن الحرب سوى خيار واحد من جملة خيارات. وكانت وزارة الخارجية متفائلة بأن الأمم المتحدة قد تستأنف نوع التفتيش الذي كان قد استخرج من تحت الأرض أكداً مخزنة من أسلحة الدمار الشامل العراقية في التسعينيات من 1990.

كثيرون في الكابيتول هي(*)، وفي وزارة الدفاع، كانوا يأملون أن يستطيع المنفيون تحت قيادة أحمد شلبي والمؤتمر العراقي أن يركبوا تغييراً واضحاً في الرأي العام من السخط الشعبي لإطاحة صدام. وكانت هناك إمكانية تشديد الضغط الدولي المالي لفرض التغييرات في العراق.

وفي الحقيقة، فإن خطوط العملية التي أدرجتها على رزمة ورقي القانونية اشتملت على أكثر بكثير من الجند، والدبابات، والطائرات:

(*) الاسم غير الرسمي لمجلس الشيوخ الأمريكي، وهي هضبة يقوم عليها المبنى في واشنطن.

● النيران العملياتية

● عمليات قوات العمليات خاصة

● المناورة العملياتية

● عمليات المعلومات.

● الحرب غير التقليدية/ مساندة جماعات المعارضة.

● سياسي - عسكري

● عمليات مدنية - عسكرية

بعد ذلك، بدأت أدرج ما تصورت أنه "شرائح" سوف نحتاج إلى إنجازها لكي تتجزأ الغاية وهي إزالة النظام. وبعد عدة ساعات، استقر رأيي على تسع شرائح، وهي الأعمدة التي حافظت على صدام في السلطة.

● القيادة

● الأمن الداخلي/ استخبارات النظام

● البنية التحتية لأسلحة الدمار الشامل/ البحث والتطوير

● الحرس الجمهوري/ القوات الخاصة من الحرس الجمهوري

● قوات الجيش النظامي المختارة

● الأرض (جنوب، شمال، غرب)

● البنية التحتية

● السكان المدنيون

● التأثير التجاري والدبلوماسي

ثم قمت بعد ذلك بعمل مصفوفة، قرنت فيها الخطوط على شكل أسهم مع الشرائح على شكل أعمدة.

خطوط وشرائح مصفوفة

عمل ١ ديسمبر

شرائح خطوط	الحرس الجمهوري / أسلحة تدمير شامل / أمن الداخلي / القيادة	الجيش الجمهوري / أمن	الجيش النظامي / الأرض	البنية التحتية / الدينون	تجاري
نيران عملياتية	*	*	*		
عمليات قوات عمليات خاصة	*	*	*		
مناورة عملياتية		*	*	*	
عمليات معومات	*	*	*	*	*
حرب غير تقليدية	*	*	*	*	*
سياسي - عسكري	*			*	*
عمليات مدنية عسكرية	*	*	*		

انفجارات النجوم عند تقاطعات الخطوط مع الشرائح مثلت نقاط التركيز التي كنا سنستخدمها لتطوير التفاصيل المحددة لخطة مفصلة. وعلى سبيل المثال، فانفجار النجمة الواقعة على التقاطع بين "النيران العملياتية" وبين "القيادة" يعني أننا كنا سنهاجم أهداف القيادة باستخدام قنابل وصواريخ. وإذا قلناها ببساطة، فإن انفجارات النجمة يساعد قادة العناصر والأركان على أن يلائموا أدوات عسكرية محددة مع أهداف محددة، وهو ما ينتج عنه تآزر أفضل بين أسلحة وخدمات هي تقليدياً مستقلة.

وقبل التقدم لأكثر من ذلك، استدعيت العبقري الإستراتيجي الساحر المقيم معي، جين رينيوارت.

وقال وهو ينحني إلى الأمام فوق الطاولة ويميل رزمة الورق ليقرأ كتابتي المحشورة بشدة: "يا جنرال، هذا مثير للاهتمام."

"هل يجب أن أتابع هذا التمرين؟ هل يقود إلى أي مكان؟"

وقال جين: "إن لم تفعل، فأنا سأفعل."

وعملت مشهد من يمسك بالورق ليستعيده. وقلت مع ابتسامة وأنا أرفع رزمة الورق وكأنها كانت تزن عشرين رطلاً: "ارجع إلى كتابك، كتاب يوم القيامة. هذا ما تسميه أنت إستراتيجيتك الكبرى الأساسية."

بحلول ليلة الثلاثاء، 11 كانون الأول/ديسمبر، كنا جاهزين لتقديم شرح وبيان عملي في الأصيل التالي في مؤتمر بالاتصال من بعد مصور بالفيديو مع دونالد رامسفيلد. ونظراً إلى أن التطور التكراري لتصوير القائد كان عملية حساسة ومصنفة سرية بدرجة عالية، فقد حددت إسهام الأركان واقتصر على حفنة من كبار الضباط. وقد أشرف جين شخصياً على عسكري خيال في ورشة العمليات وهو ينتج الصور والرسومات.

كنت أعرف أنه سيكون هناك تعديلات على الخطوط والشرائح، من إضافات، وتعزيزات، واستبدالات، ونحن نشرح تكرارات البيان العملي في المستقبل. وعندما تفحصت العمل الذي أنتجه أركاني تحت أقصى قيود زمنية، اعتقدت، على الرغم من ذلك، بأننا كنا نملك نموذجاً كان يمكن له أن يحرز نصراً حاسماً، إذا قرر الرئيس أن الوقت قد حان لإزالة صدام حسين ونظامه من السلطة.

وسأل جين: "هل هو استعراض مبهرج كثير جداً على وزير الدفاع، أيها

الجنرال؟"

وقلت: "لا، أنا أعتقد أنه سيحبه. هذه معلومات مهمة، معقدة، من دون زخارف

إضافية ملصقة للتأثير في المستمعين فقط. إنها مكتوبة بالإنجليزية، وقد تجنبتم استخدام المختصرات." إن رامسفيلد يمتلك فترة اهتمام لمدة خمس ثوان في صور الإيجاز التي تستخدم زخارف باروكية لتوضيح الواضح. وقلت: "أنت لا تعرض لوزير الدفاع لوحة تشرح له أن الدائرة حلقة، ولكنه سيكون مهتماً بهذا."

ومهتماً كان فعلاً. فمؤتمرنا بالاتصال من بعد المصور بالفيديو في الأصل التالي، كان حسب البرنامج لمدة خمس وأربعين دقيقة، واستمر إلى ضعف المدة المحددة له.

وسألني رامسفيلد عندما أكملت الإيجاز: "جنرال فرانكس، ماذا بعد؟" كنت على وعي بأننا قد نتحرك من التصوري إلى العملي في أي وقت، ولذلك اخترت كلماتي بعناية. وقلت: "سيدي الوزير، نريد أن نبدأ الآن بتحسين وضع قوتنا في المنطقة."

وقال رامسفيلد: "لم يتخذ الرئيس بعد قراراً بالذهاب إلى الحرب، ونحن لا نستطيع أن نتخذ أي إجراء يلزم الأمة بأن تفعل ذلك."

ذلك كان مفهوماً. ولكن إذا كان هناك ولو فرصة لمهاجمة صدام في المستقبل المنظور، فإن هناك خطوات كنا نستطيع أن نتخذها لتقوية وجودنا في المنطقة، من دون أن نظهر يدنا، ونوايانا ومواردنا الخفية. "سيدي الوزير، نحن نستطيع أن نضاعف حجم قوتنا الأرضية التقليدية إلى ثلاثة أضعافها في الكويت بصفتها سوراً ضد سوء الحساب من صدام، بينما نستمر في العمليات في أفغانستان. ونستطيع أن نزيد عدد مجموعات المعركة لحاملة الطائرات في المنطقة من واحدة إلى ثلاث، ندورها دخولاً وخروجاً، ولكننا نمتلك دائماً ثلاث مجموعات ضمن مسافة ملاحه قصيرة إذا تطلبت الأحداث قدرة جوية أكبر. ونستطيع أن نبدأ بإجراء تحسينات في البنية التحتية في المنطقة. ونستطيع أن نبدأ بمناقشة متطلبات الطوارئ مع بعض حلفائنا، من دون إلزام أمريكا بالحرب."

ديك مايرز كان يدون ملاحظات في أثناء كلامي، وأدركت أن توصياتي في أصيل هذا اليوم قد تصير سياسة في الغد. وذكرت نفسي، كن حذراً بشأن ما تتمناه، فإنك قد تحصل عليه تماماً.

وسأل رامسفيلد: "إلى أي حد ستكون هذه النشاطات مرئية؟"

"سيدي الوزير، زيادة الجند في الكويت ستُرى على أنها تمارين للتدريب، ونستطيع أن نوقّت رحلات الحاملة بطريقة لا تلفت إلا أقل الانتباه. أنا لا أتصور لحظات سي ان ان، ولكن ليس هناك ضمان."

لقد روت الاستخبارات أن صدام حسين ومستشاريه العسكريين كانوا يقبلون ما يشاهدونه في سي ان ان بوصفه وثيقة مقدسة، مفترضين أن قناة الكبل ستروي كل التطورات الحيوية. وبالنسبة إلى العراقيين، ربما كانت الصحافة الغربية المفتوحة أقل فائدة من الناحية السياسية من الصحافة العربية ومن شبكة الجزيرة، ولكنها كانت محل ثقة أكبر.

"أنا أفكر، سيدي الوزير، على أساس التدفقات المتقطعة: انبثاقات من النشاط تليها فترات من انقطاع النشاط. نريد للعراقيين أن يتعودوا على التمدد العسكري، ثم التقلص الظاهر."

كنت أحرك يدي المفتوحة صعوداً ونزولاً. "إنني أرى هذا مثل موجة جيبيه: ذراً ووديان. إذا لم يحدث شيء طوال أسابيع قليلة بعد دفقة قصيرة فإنهم سوف يعتادون علينا ونحن نضبط مستويات قوتنا. هل تتذكر الولد الذي صاح لوجود الذئب؟ نحن الآن نمرحل الكثير من عملياتنا في أفغانستان من الخليج. ولن يلاحظ أحد إن كنا ضاعفنا عدد الطائرات بي-1 وبّي-52 القاذفة في ديبغو غارسيا أو في عمان."

وأومأت مرة أخرى وكأنني كنت أدفع ثقلاً.

وأضفت: "ونستطيع أيضاً أن نمدد قاعدة معاداتنا، وأنا أود أن أحرك الأسلحة

والتجهيزات التي هي لدينا في مواقع مسبقة في قطر إلى الكويت. وإذا استخدمنا سفن الجيش العاملة داخل المسرح لتفعل هذا، فإننا سنتمكن من نقل الدبابات، وعربات برادلي، والمدفعية للواء كامل من دون أن ترتفع حواجب أحد متفاجئاً أو معترضاً.

وتمتم الوزير: "مثير للاهتمام، وكم سيكلف كل هذا، يا جنرال فرانكس؟" المال مع رامسفيلد، كان دائماً يشكل قضية. وقلت: "كثيراً. سوف أعود إليك ومعي رقم."

كنت قد بدأت، طبعاً، من قبل في التفكير في المال. فأنا سأحتاج إلى تأسيس قوة مهام مشتركة للعمليات الخاصة إما في قطر أو في الكويت بأسرع ما يمكن، وكنت آمل أيضاً أن أشحن موقع القيادة الجديد للقيادة المركزية، وهو الموقع القابل للانتشار، إلى قطر عندما يكون قد اكتمل، وتكون كل نظم المعلومات قد اختبرت. وكانت القيادة توسع بثبات مواقع أقدامها العملياتية في قطر طوال ثلاثة أعوام. وقد أكملنا حوالي 70 بالمائة من البنية التحتية للجند، في موقع التخزين المسبق للجيش في معسكر السيلية قرب الدوحة، أكملناها بالمهاجع، وقاعات طعام، وحتى بالمسبح وقاعة الألعاب الرياضية. وهكذا تستطيع قطر أن تمتص عملية تقوية الحشد. وإذا كنا سنزيد حضورنا العسكري إلى مستوى قابل للتصديق، فسوف نحتاج أيضاً إلى حملة مشاة بحرية بقوة لواء تتمركز قبالة الشواطئ على ظهر السفن. والمزيد من طيران القصف سوف يحتاج إلى المزيد من طائرات صهاريج إعادة التزويد الجوي بالوقود وإلى قدرة معززة من البحث والإنقاذ القتالي... وهذه القائمة، كما يقولون، استمرت تطول وتطول.

وسأل رامسفيلد: "كم سيستغرق كل هذا؟" لقد بدأنا هذا الغزل قبل أسبوعين سابقين بصفته تمريناً تصورياً، ويريد الوزير الآن أن يعرف كيف يبدو خط الوقت. وقمت بعمل بعض الحسابات السريعة. "سيدي الوزير، إذا عملنا هذا باستخدام التدفقات المتقطعة فسوف تنتهي مع حوالي مائة ألف من الجند، ومائتي دبابة،

ومائة طائرة عمودية هجومية، ومائتين وخمسين طائرة قصف في حوالي ستة أشهر. وهذه القوة ستصير هي القوة الثابتة في المسرح. ونستطيع أن ندرّبها، ونمرّنها، ونثير غيوماً من الغبار في الصحراء. ويمكن لمحنة سي ان ان أن تحصل على يوم أو يومين يقطعان الأنفاس. ولكن تلك القوة لن تستفز صدام إلى رد فعل سيئ الدراسة.

واستمع رامسفيلد بتفكر.

وتابعت: "ستكون هذه القوة، سيدي سوراً ضد اللايقين. كل هذه القوة أو بعضها قد تدعو إليها الحاجة في الصومال، أو السودان، أو أفغانستان. مع قوة من ذلك الجحيم، تستطيع أن تضيف بسرعة قوات أرضية، وأن تنمي العنصر الجوي ليصل إلى حملة جوية من العديد من الأجنحة، وأن ترسل إلى المنطقة مجموعات قتال إضافية مع حاملة عندما تدعو الحاجة إليها.

وتابعت، وديك مايرز ما يزال يدون ملاحظاته. "مع فرقة ثقيلة من الجيش ومع زيادة في القيادة والسيطرة، وإضافة التفاصيل المتنوعة... مع مرور الزمن، سيكون لدينا حوالي أربع مائة طائرة هجومية، ومائتين وستين طائرة عمودية هجومية، وخمسمائة وخمسين دبابة، ومائتين وثلاثين ألف جندي في المنطقة."

وقال رامسفيلد: "كل تلك القوات لا تتسلك في الكويت"

"ليس اليوم، سيدي الوزير. ولا تستوعب الطيران المتمركز على قواعد أرضية. ونحن لا نريد كل الطائرات هناك. فالكويت قريبة جداً إلى الصواريخ العراقية وأسلحة الدمار الشامل. ولذلك فسوف نحتاج إلى تعزيز إقامة القواعد في الخليج من أعلاه إلى أدناه."

قال رامسفيلد مبتسماً: "أيها الجنرال، هذه بداية جيدة، ولكنني أحتاج إلى المزيد من التفاصيل قبل أن أحملها إلى الرئيس. أنا لا أعرف ماذا سيقدر أن يفعل، ولكنك تحتاج إلى العمل بسرعة أكبر من السرعة التي يعمل بها العسكريون عادة."

نظرت ثانية إلى جين. لقد كنا نكرر هذا التمرين في فترات قصيرة تدوم كل واحدة منهما أسبوعاً واحداً، لقد كان من الصعب أن نتخيل التحرك بأسرع من هذا. وشرحت أنني كنت سأغادر في غضون أسبوع لحضور حفل تنصيب حامد قرضاي في كابول. "سيدي، أحتاج إلى بعض الوقت لأصفي افتراضاتي وأحلل العناصر التي حددناها بوصفها عناصر ضرورية لتنفيذ هذا التصور. أنا أوصي بأن نبدأ العمل بين الوكالات وسيكون ذلك ضرورياً مع الخارجية ومجتمع الاستخبارات." لقد قال رامسفيلد: "دعنا نتحدث في الأسبوع القادم. أريد هذا أن يعمل بأيدي مجموعة صغيرة جداً. ما يزال يوجد الكثير من المسربين، ويجب ألا يتسرب شيء من هذا. شكراً، للجميع." وأظلمت الشاشة.

في صباح الأربعاء، 19 كانون الأول/ ديسمبر، تحدثت باختصار إلى الوزير رامسفيلد قبل مدة قليلة من مؤتمر بالاتصال من بعد مصور بالفيديو مبرمج مسبقاً، كنت سأقدم فيه إلى الرئيس بوش تقريراً عن الحالة في أفغانستان.

وقلت له: "لقد قتلنا الكثير من الطالبان والقاعدة، سيدي الوزير. ويتجه الإرهابيون حرفياً إلى التلال، باتجاه ملاجئهم التقليدية في جبال سبن. وقد تلقينا معلومات استخباراتية تروي أن مئات من الإرهابيين من الحركة الإسلامية في أوزبكستان قد قتلوا في أثناء هجمات تحالف الشمال في تشرين الثاني/ نوفمبر." وقال رامسفيلد: "إن الرئيس كريموف سيكون مسروراً، أيها الجنرال. هل تحرز تقدماً في العراق؟"

كنت أود أن أكون مستعداً استعداداً جيداً للتكرار التالي، وكنت أعرف أن جين وجيف كيمونز كانا يستطيعان استخدام الوقت الذي سأمضيه في منطقة المسؤولية للعمل على المصفوفة. "سيكون لدي شيء ما أعرضه عليك عندما أرجع في 27 كانون الأول/ ديسمبر، سيدي الوزير."

وقال رامسفيلد: "إن الرئيس سيرغب في أن يرى التصور قريباً، أيها الجنرال."

توقفنا في مسقط في عمان، في وقت متأخر من 20 كانون الأول/ديسمبر. وكان لدي كدسة من الإضرابات الملقاة أمامي أرسلت بالناسوخ (بالفاكس) إلى طائرة سبارو6. كي أستطيع مراجعة أحدث تكرار على مدى الأيام القليلة القادمة بعد أن زرنا الجند في أفغانستان وحضرنا حفل تنصيب قرضاي.

لقد قام جين والمجموعة القليلة معه من المخططين بعمل جيد، وقد تم وضع التفاصيل الآن للمراحل الأربع المقترحة للحملة، في طريقة مشابهة لتلك التي وضعت لتصوير أفغانستان، والتي أخذتها إلى البيت الأبيض في 21 أيلول/سبتمبر. وأمامنا طريق طويل علينا أن نمشيه قبل أن يصير هذا التصور خطة، ولكنني كنت واثقاً أن ذلك التصور سيكون جاهزاً لينظر فيه الرئيس عندما يحين زمن رحلة عودتنا.

هبطنا في ماكديل متأخرين بعد عصر يوم 27 كانون الأول/ديسمبر. كان لدي حوالي عشرين دقيقة لأنظف طاولتي عندما هاتفني بيت بيس ليخبرني أن وزير الدفاع يرغب في مؤتمر بالاتصال من بعد مصور بالفيديو مأمون ليستعرض التصور.

عندما أنهينا اللوحة الأخيرة من لوحات الإيجاز الست والعشرين تبسم رامسفيلد. وقال: "عمل جيد، يا جنرال." وانتظرت من أجل القرار الآخر. "سيرغب الرئيس في رؤية هذا قريباً، ربما غداً. هو في كراوفورد بمناسبة الإجازات."

وخمنت أن رامسفيلد سيرغب منا أن نعد مؤتمراً بالاتصال من بعد مصور بالفيديو من ماكديل. ولكنني كنت أعرف أيضاً أن الرئيس كان يحب أن يراني وجهاً لوجه عندما كنا نناقش القضايا المهمة. وسألت: "هل تريد منا أن نبرمج مؤتمراً بالاتصال من بعد مصوراً بالفيديو؟"

وقال رامسفيلد: "قد يرغب في أن تأتي أنت إلى كراوفورد. سوف أعلمك."

في ذلك المساء، كنت أشوي شرائح لحم عندما هاتفني رامسفيلد عبر هاتف المفتاح الأحمر المأمون.

وقال: "الرئيس يرغب فعلاً في أن تعمل الإيجاز هناك في كراوفورد غداً. سوف يقابلك في المزرعة في الساعة 8.30 قبل الظهر."

"فهمت، يا سيدي الوزير. سأقابلك هناك."

"لن أكون هناك، يا جنرال. ولكنني سأكون موجوداً من خلال مؤتمر مأمون بالاتصال من بعد مصور بالفيديو."

سيكون أمراً غير مألوف للغاية بالنسبة إلى قائد مقاتل أن يقابل الرئيس من دون أن يكون وزير الدفاع حاضراً. ولكنني كنت أعرف أن الوزير كان سيذهب إلى خلوته الغربية الخاصة قرب تاوس في نيومكسيكو، من أجل الإجازات، ولذلك اغتيمت الفرصة لأمازحه قليلاً. وقلت: "حسناً سيدي الوزير، أنا لن أذهب ما لم تذهب أنت."

وقال رامسفيلد: "هو لم يطلبني. طلبك أنت. البس لباساً غير رسمي، يا جنرال، وقد يتوجب عليك أن تتحدث إلى الصحافة."

وقلت: حسناً، سيدي. ولكنني منزعج جداً. فأنا غير متأكد من أنني سأعمل بدونك بوصفك غطائي الأمني.

ضحكنا كلانا. وقال رامسفيلد: "ستعمل عملاً حسناً."

هبطت طائرة القوات الجوية غلف ستريم جي-5 في مدينة واكو في الساعة 0800. وكنت قد نمت بعد الإقلاع، لأعوض عن النوم الضائع من جراء اختلاف خط الطول، وهذه رطانة جراح الرحلة عن الاضطراب المؤقت في إيقاعات الجسم نتيجة الطيران بسرعة عالية في الطيران النفاث في مناطق توقيتات زمنية مختلفة، بينما عكف جين رينيوارت على مراجعة ملاحظات الإيجاز. طائرة الرئيس العمودية، البحرية رقم واحد، كانت تنتظر بالقرب من طائرة القوات الجوية رقم واحد لتأخذنا في رحلة طيران قصيرة إلى كراوفورد. لقد استمتعت بمنظر سهول تكساس الوسطى وهي تنداح تحتنا. وبعد ملازمة الأرض على مهبط الطائرة العمودية في

براري تشابل رانش، ركبنا في سيارات اس يو في لنذهب إلى مجموعة البيوت المتقلة الرمادية التي تشكل مجمع المكاتب للبيت الأبيض الغربي. وعندما كنا نسوق طار سرب من السمان خارجاً من أجمة أشجار صغيرة. فأحسست كأني في البيت. عندما وصلنا، خطا جورج بوش خارجاً من واحد من هذه المكاتب المسبقة الصنع، وهو يرتدى الجينز، وقميص مربعات، وحذاء له رقبة. كان صباحاً بارداً، وكنت سعيداً أنني لبست السترة السوداء ذات الفروة فوق بزتي الخفيفة وهي البزة الصحراوية المموهة. وقال الرئيس وهو يهز يدي بحرارة "تومي، شكراً على مجيئك. أعرف أنك كنت في جولة." وحيا جين رينيوارت. "أيها الجنرال، عظيم أن أراك ثانية. أنتم الناس الذين تعنون عناية جيدة بتومي؟"

وقال جين: "هو الذي يعتني بنا، سيدي الرئيس."

ودخل الرئيس بوش ودخلت أنا إلى منشأة الاستخبارات الخاصة المقسمة في البيت المتقل المزودج الثاني. وأخذ مقعداً على رأس طاولة البلوط الصغيرة، في مواجهة شاشة بلازما واسعة عند نهاية الغرفة لمؤتمر بالاتصال من بعد مصور بالفيديو. وجلست أنا إلى يمينه. وأول أمر عن العمل كان تقريري عن الحالة في أفغانستان. ثم لمس الرئيس زراً على خزانة سوداء، وفتحت الشاشة إلى مستطيلات منفصلة لأعضاء مجلس الأمن القومي في أماكن أخرى من البلاد.

كان كولن باول، وكوندي رايس، وجورج تينت، وأندي كارد يجلسون في غرفة الموقف المألوفة المكسوة بالخشب في البيت الأبيض. ونائب الرئيس ديك تشيني، وهو يلبس معطفاً رياضياً برقبة عالية، كان في إجازة في بيته في وايومنغ. وظهر دونالد رامسفيلد مما بدا لي أنه غرفة مكتبه في بيته في المزرعة في تاوس، وقميصه الأبيض مفتوح عند القبة.

وسأل الرئيس: "وما هو جدول الأعمال. يا دون؟"

"سيدي الرئيس، الجنرال فرانكس قد رجع قبل قليل من أفغانستان ويود أن يعلمنا عن الحالة هناك حتى تاريخ اليوم."

واستدار جورج بوش نحوي وتبسم. "تومي، ما هذا الذي أسمعك منك تتجنب الصواريخ فوق كابول؟"

أوه. هناك شخص ما كان يروي القصص خارج المدرسة. "لا يوجد شيء خطير، سيدي الرئيس، سبق أن أطلقت النار علي من قبل."

وقال الرئيس بوش، وهو يحرك أصبعه من جانب إلى جانب: "يا تومي، لا أريدك أن تذهب لتقتل نفسك. ذلك هو آخر شيء نحتاج إليه. يوجد عمل لك، وهو عمل مهم."

وقلت وأنا أبتسم: "فهمت، سيدي الرئيس." اللوم الأول الذي ألقاه من رئيس الولايات المتحدة.

واستمر الرئيس: "كيف تسير الأمور في أفغانستان، يا تومي؟"

"حامد قرضاي يرسل احتراماته، سيدي. وكان حفل تنصيبه منظرًا يستحق المشاهدة. قبل شهرين، كانت أفغانستان دولة يرعاها الإرهابيون. واليوم، هناك ستة وعشرون مليون أفغاني يملكون الأمل في المستقبل."

قال جورج بوش: "إنه رجل طيب." ولكن الخفة اختفت من عينيه بعد لحظة، واستبدل بها تركيزاً حاداً. "ما هي المعلومات الاستخبارية عن أسامة بن لادن؟"

"تقارير غير مؤكدة تقول إن أسامة بن لادن شوهد في الجبال البيضاء، سيدي. منطقة تورا بورا بلاد وعرة، لا يمكن الوصول إليها تقريباً في منتصف الشتاء. سوف نستمر في الضغط عليه إذا كان هناك، والرئيس مشرف كلف قواته أن تغلق جانبهم من الحدود."

وبعد أن أنهيت العمل على البنود الموجودة في خلاصة تقريرتي، أخذنا استراحة في حين غادر أعضاء مجلس الأمن القومي ومساعدو وزارة الدفاع، وتركوا خلفهم الرؤساء فقط ليتابعوا المؤتمر بالاتصال من بعد المصور بالفيديو. وخرجت أنا في هواء الصباح المنعش لأمدد ساقي المتصلبة، ثم عدت ودخلت منشأة الاستخبارات الخاصة المقسمة مع جين رينيوارت لنسلم تصور القائد الأولي عن العراق.

وسأل رامسفيلد: "كل واحد يمتلك لوحاته للإيجاز؟" سأل وهو يمسك ويرفع إلى الأعلى كدسة من الصفحات المتعددة الألوان كانت قد أرسلت إليهم بالناسوخ (الفاكس) السري المصنف. وفي هذا الوقت كان يعرف الإيجاز مثلما أعرفه أنا. "جيد، تابع يا جنرال فرانكس."

وبدأت: "سيدي الرئيس، خطتنا الحالية للعراق تسمى خطة العمليات 1003، وكانت قد حدثت آخر مرة في 1998. وكما أخبرت الوزير رامسفيلد، فهي أساسياً عاصفة الصحراء 02.

وبعد تلخيص العناصر الرئيسية في الخطة، لخصت القوة الحالية للقوات العسكرية العراقية وحالتها في جاهزية القتال. وقلت، وأنا أشير إلى عمود من الأرقام على شفيفة: "في بداية الحملة الجوية في العام 1991، كان لدى العراقيين أكثر من مليون رجل في اللباس العسكري. أما اليوم فليدهم حوالي ثلاثمائة وخمسين ألف رجل. كان لديهم آنذاك ثمان وستون فرقة، واليوم ثلاث وعشرون. ستة آلاف دبابة تقريباً في العام 1991، واليوم يقدر العدد بألفين وستمائة وستين." وتقدمت نزولاً في العمود: 1780 ناقلة جند مدرعة مقارنة مع 4800 في العام 1991. ونزلت مدفعيتهن من 4000 قاذف صواريخ ومدافع إلى حوالي 2700، وهي أصغر ولكنها ما تزال تهديداً خطيراً لقوة مهاجمة.

وسأل نائب الرئيس تشيني: "جنرال فرانكس، أنت وصفت قوة عراقية هي حوالي نصف حجم ما كانت عليه عندما بدأت حرب الخليج. هل هذا يعني أن فعاليتها هي أيضاً نصف ما كانت عليه؟"

منذ 9/11، حضرت أربعة إجازات رئاسية وأكثر من عشرين مؤتمراً بالاتصال من بعد مصور بالفيديو المأمون مع الرئيس ومع مجلس الأمن القومي. لم يسأل ديك تشيني قطعياً أكثر من سؤال أو سؤالين في إيجاز، ولكنها أسئلة كانت بشكل مستمر تقطع لتصل إلى صميم القضية قيد البحث في أيدينا. وهو دائماً ينشد معلومات

يمكن لها أن تزيد من فهم الرئيس بوش لنقطة مهمة. كان تشيني هو وزير الدفاع في حرب الخليج، وكنت أعرف أن بوش يكن له احتراماً كبيراً.

وأجبت: "سيدي، أصغر لا يعني بالضرورة أضعف. فالحرس الجمهوري على سبيل المثال، قد هبط من عشر فرق إلى ست. ولكن هذه الوحدات مزودة جيداً بالرجال وبالسلح، وهو ما نسميه جاهزية القتال. أربع منها فرق ثقيلة، مع دبابات محدثة طراز تي-72. والعقيدة العسكرية العراقية ربما تصفها بصفة قوة دفاع في العمق حول بغداد."

وعندما أكملت خلاصتي، كان دور الرئيس لي طرح الأسئلة "ماذا ترى في الخطة، يا تومي؟"

"سيدي الرئيس، إنها قديمة العهد. فهي تدعو إلى مستويات من الجند تصل على الأقل إلى أربعمائة ألف، وهو ما يتطلب حشداً للقوة ظاهراً للعيان جداً لمدة ستة شهور. وهذا بالتأكيد يستأصل المفاجأة العملياتية."

وقال الرئيس: "أنا أفهم ذلك."

وتابعت: "سيدي، ليست القوة العسكرية العراقية أصغر فقط مما كانت عليه في العام 1991، فالتقدمات في أسلحتنا الدقيقة والقيادة والسيطرة تجعل قواتنا أقدر بكثير مما كانت عليه في ذلك الوقت، على الرغم من أننا خفضنا القوة العسكرية الإجمالية النهائية منذ نهاية الحرب الباردة."

واجهت أعضاء مجلس الأمن القومي وتابعت تقديم إيجازي. "الرئيس والوزير رامسفيلد قد طلبا من القيادة المركزية أن تطور تصور القائد - خيارات لمواجهة الطوارئ في العراق."

واستدرت إلى اللوحة المسماة التصور المهيمن. "أرجو أن تلاحظوا أن تغيير النظام وإزالة أسلحة الدمار الشامل هما الافتراضان العمليان لهذا التصور."

وكان هناك متممة موافقة على مدار الحلقة.

وصارت لوحة خطوطي وشرائحي جزءاً رئيسياً من العرض. وقلت: "تبين هذه المصفوفة التآزر بين خطوط العملية. فعلى سبيل المثال، إذا كان لدينا قوات عمليات خاصة متعددة، وعالية المهارات، وحددت أهدافاً لذخيرتنا الموجهة الدقيقة، فإننا سنتحتاج إلى قوات أرضية تقليدية أقل. وذلك درس مهم تعلمناه من أفغانستان".

ومرة أخرى أوماً برؤوسهم المشاركون في المؤتمر بالاتصال من بعد المصور بالفيديو.

وتابعت: "وزيادة على ما تقدم، فإن المفاوضات الدبلوماسية الناجحة التي أمنت لنا إقامة القواعد وترتيب التمرحل في البلاد المجاورة، سوف تسمح لنا بالمزيد من العمليات الجوية والأرضية المتزامنة. وأنا أرى هذه الحملة في أربعة أبعاد، مع كون الزمان، أي، السرعة غير المسبوقة للعملية، عاملاً رئيسياً".

وتتابعت أسئلة الرئيس بوش طوال الإيجاز. وقد سأل عندما أنهيت العرض: "ما هي أهدافك في الجيش العراقي النظامي؟ فنحن لا نريد أن نتسبب في وقوع إصابات غير ضرورية بين العراقيين الذين جندهم صدام حسين ضد إرادتهم".

وأجبت: "سيدي، هذا فقط تصور عند هذه النقطة. لقد حددنا مجموعات أهداف ممكنة، وليست أهدافاً نقاطاً".

وسأل كولن باول: "يا تومي، ما نوع خطوط زمن الانتشار التي في ذهنك؟"

وتفرست في الوجوه على الشاشة. لقد ركز كولن على واحد من أهم عناصر الإيجاز، ولا مفاجأة في ذلك، وقد جاء السؤال من الرئيس السابق لهيئة الأركان المشتركة. وأجبت: "بالضبط مثل أفغانستان، لقد قسمنا هذا التصور إلى أربع مراحل".

وعندما رتب جين الصفحات الأربع سميتها:

"المرحلة الأولى- الإعداد. المرحلة الثانية - تشكيل فضاء المعركة. المرحلة الثالثة - العمليات الحاسمة. المرحلة الرابعة - عمليات ما بعد الحرب".

ركزت كوندي رايس على العنصر الإستراتيجي من التصور. وسألت: "ياجنرال فرانكس: خطوط الزمن كلها افتراضية، أليس كذلك؟ أرى أن المراحل تبدأ باليوم-ان (ن)، وهو المشار إليه باسم - قرار رئيس الولايات المتحدة" كانت على حق. خط الزمن التصوري تحرك على طول متسلسلة متصلة مبتدئاً بيوم-ان، وهي اللحظة التي يتخذ فيها الرئيس بوش قرار التحويل بالقيام بالحشد العسكري في المنطقة، وسوف نذر الجند ونعد لنقلهم من قواعد أمريكية إلى المنطقة. ومن هناك، كانت المتسلسلة تجري إلى اليوم-سي^(*) عندما سيبدأ تدفق القوات، فإلى اليوم-ايه (air، جوية)، وهو بداية العمليات الجوية، ومن هناك إلى اليوم-جي (ground أرضية)، عندما سيتم الشروع بالعمليات الأرضية، وإلى نهاية عمليات القتال الكبيرة وإطلاق المرحلة الرابعة، وهي إعادة البناء.

وعلى اللوحة التي أعدناها، كان طول الأسهم التي تربط العلامات القياسية يوحي بمددها الزمنية المقترحة. ولكن كل سهم كان عليه علامة س (اكس) - أيام للتأكيد أن الزمن الحقيقي لم يتقرر بعد. وحتى الآن، كان هناك ببساطة متغيرات عديدة: حجم القوة؟ عمليات متزامنة أم متتالية؟ وهي أكثر تعديداً من أن نقترح توقّيتاً مع أي درجة من اليقين.

بعد ذلك ناقشت الحالة النهائية لكل مرحلة، وهي الغايات التي يجب إكمالها قبل الانتقال إلى الخطوة التالية. في المرحلة الأولى، تضمنت الحالة النهائية تأسيس "جسر جوي" لنقل القوات إلى داخل المنطقة. وتأمين "المساندة الإقليمية والدولية للعمليات". وعند هذه النقطة، توقع التصور عمليات جوية منفصلة في المرحلة الثانية من أجل تشكيل فضاء المعركة قبل أن يكون بالإمكان بدء العمليات الأرضية. وكان لدي أفكار عن الكيفية التي كان يمكننا بها أن نقصر هذا المدخل

(*) هو اليوم غير المسمى الذي يبدأ فيه انتشار عملية، أو يوشك أن يبدأ. وقد يكون الانتشار تحريك جند أو حمولات شحن أو أنظمة أسلحة أو خليطاً من ذلك. وحرف سي هو فقط المستخدم للدلالة على المبين أعلاه. والقيادة العليا أو المقار المسؤولة عن التخطيط هي التي تحدد بدقة معنى يوم-سي.

التقليدي ونبدله، أو كيف يمكن حتى مزجه ليصير عملية جوية-أرضية مشتركة متزامنة، ولكنني لم أكن قد أردت بعد أن أناقش هذه الإمكانيات مع الرؤساء. كنا ما نزال نتحدث عن التصور، لا عن خطة، كان لدي عمل لأعمله مع دون رامسفيلد قبل أن نستطيع الدخول إلى ذلك المستوى من التفاصيل. والحالة النهائية للمرحلة الثالثة حددت غايتين واضحتين جداً: "قوات النظام هزمت أو استسلمت"، و"قادة النظام موتى، أو موقوفون أو مهمشون".

كان مفهوماً أن المرحلة الختامية، المرحلة الرابعة: بعد عمليات الحرب، سوف تدوم لتكون هي المرحلة الطولى: لسنوات، لا لشهور. ولذلك فإن الرسامين العاملين لدى جين رينيوارت قد قسموا السهم العريض الخاص بتلك المرحلة إلى قطاعات، وعلموا مدتها الزمنية بكلمة غير معروف بدلاً من س- أيام. وتضمنت الحالة النهائية للمرحلة الرابعة إقامة شكل تمثيلي من الحكومة في بلد قادر على حماية حدوده الإقليمية وإقامة الأمن الداخلي، بدون أسلحة الدمار الشامل.

وكنْتُ أعِي أن تلك المرحلة الرابعة قد تثبت، في احتمال عال لها، أنها أكثر تحدياً من عمليات القتال الكبيرة. فهذه المرحلة سوف تستفيد فائدة كثيفة من معلوماتنا، ومن خطوط العمليات السياسية- العسكرية والمدنية العسكرية، ومن جملتها جهد المساعدة الإنسانية الضخمة، إضافة إلى "الاستغلال" الشديد للموقع (تحقيق وتحليل) من قبل خبراء أسلحة الدمار الشامل وخبراء الاستخبارات. وإضافة إلى ذلك سيكون حيوياً لنا أن نحصل على الدعم الذي نأمل أن نؤمنه من المجتمع الدولي، ومن المنظمات غير الحكومية.

وكنا نعرف أن صيانة الأمن الداخلي ستكون تحدياً آخر. إن بعثيي صدام داموا في السلطة ثلاثة عقود. وهم لن يتخلوا عن تلك السلطة بدون قتال، حتى بعد أن نكون قد دمرنا القوة العسكرية العراقية.

وعندما وصلت إلى نهاية الإيجاز، لخصت الخيارات الثلاثة التي سبق لي أن عرضتها في البداية على رامسفيلد قبل أسابيع خلت، الخيارات القوي، والمخفض والأحادي، ومضامين كل خيار منها.

وشرحت: "حتى في الخيار الأحادي فإن البريطانيين والأستراليين سيكونون معنا. وسوف نبدأ العمليات الأرضية بجند قليل يبلغ مائة ألف، ونستمر في بناء مستويات قوتنا طالما يكون ذلك ضرورياً للنجاح. وسيكون المفتاح هنا هو أن نتابع تدفق القوات إلى أن نكون واثقين أننا نمتلك المعدل الصحيح بين الجند والمهمة."

وأشرت إلى خط الزمن س- أيام. "نحن نريد عمليات أرضية متزامنة من الكويت، والأردن، وتركيا إذا كنا نستطيع الحصول على ذلك. وأنا واثق من محادثاتي مع الكويتيين ومع الملك عبد الله أننا نستطيع أن ننشئ القواعد، ونرتب التمرحل للقوات في الكويت والأردن، ولكنني أقل ثقة بكثير في الأتراك."

ومن هناك، توجهت المحادثة إلى الكيفية التي نستطيع بها أن نبدأ في "تعديل" أي، تخفيض درجة الدفاعات الجوية العراقية عن طريق الرد "بقوة شديدة" على الخروقات العراقية في مناطق حظر الطيران. ولخصت أيضاً اتفاقاً مع الوزير رامسفيلد في موضوع البدء في تحسين البنية التحتية للقيادة المركزية في الخليج، وزيادة حيز التحميل في القواعد الجوية، وشحن التجهيزات المخزنة مسبقاً في مواقع من قطر إلى الكويت، وإكمال مركز قيادتنا القابل للانتشار.

وقلت: "سيدي الرئيس، بعد 9/11، سألت أنت العالم: (هل أنتم معنا أم ضدنا؟) إذا كنا سنجرد صدام حسين من السلاح فسوف يتوجب علينا أن نسأل السؤال نفسه لقادة المنطقة. "وكانت هذه نقطة سبق لي وللوزير رامسفيلد أن ناقشناها قبل الإيجاز. "أنا أملك علاقات شخصية مع العديد من هؤلاء القادة، والوزيران رامسفيلد وباول يملكان علاقات حميمة مع آخرين. وستكون الدبلوماسية خطأً جوهرياً للعمليات."

أنصت الوزير باول باهتمام، ولكنه لم يعلق أي تعليق. وكان واضحاً لي أن وزارة الخارجية سيكون لها دور كبير تلعبه في غضون الأسابيع والشهور القادمة. لم أستطع أن أقرأ صمت كولن - إن كان اهتماماً بشأن إمكانية الحرب مع العراقيين، أو إن كان اهتماماً بشأن فرص وزارته في ترتيب اصطفااف التحالف وكسب المساندة من المجتمع الدولي.

ولاحظت أن الخيارات القوي، والمخفض، والأحادي كانت مستتدة إلى درجة التعاون التي سنلقاها من كل بلدان المنطقة. والتحرك قدماً للحصول على المساندة المطلوبة سوف يتطلب قراراً رئاسياً. وبعد أن نكون قد حصلنا على التعاون الإقليمي، فإننا نستطيع أن نبدأ بناء قواتنا وبناء البنية التحتية في طريقة محسوبة مقيسة: نشاط ذرا ووديان، ونوع الغموض الذي سنحتاج إليه للمحافظة على المفاجأة العملياتية في حالة وقوع الحرب مع العراق.

وبعد ذلك، ناولت الرئيس بيدي صفحتين من الافتراضات كنت قد أعدتها، مع قائمة من البنود التي ستحتاج إلى قرارات رئاسية.

والافتراض الأول من بين افتراضاتي هو أن العراق كان يمتلك وكان سيستخدم أسلحة الدمار الشامل، ولذلك فإن قواتنا ستقاتل على وجه الاحتمال في بيئة مسممة. والعمليات الاستخباراتية سوف تحاول أن تؤكد مدى ومواقع برامج أسلحة الدمار الشامل العراقية وعقيدة النظام في استخدام أسلحة الدمار الشامل، ولكنني بدون البنية التحتية الاستخباراتية البشرية القوية، التي لم نكن نمتلكها، لم أكن واثقاً من أننا كنا سنستطيع أن نستبق استخدام أسلحة الدمار الشامل.

كان هناك جماعات معارضة داخل العراق، ويحتمل أن تدعم العمليات العسكرية لإزاحة صدام. وكان بالإمكان تنميتها من خلال العمليات السرية التي كان يستطيع الرئيس أن يأمر بها.

وتابعت: "سيدي الرئيس، كما هو الحال في أفغانستان، إن إدارة مفاوضات دولية عمل فوق نطاق عمل العسكريين من أجل تأسيس حكومة مؤقتة واسعة القاعدة سيمكن للشعب أن يقبلها بعد أن تكون قد تمت إزالة النظام. ولكن وزارة الخارجية قامت بعمل عظيم في تحد مماثل في أفغانستان. ومؤتمر بون كان قصة نجاح ضخمة، وأعتقد أن عملاً مماثلاً سيكون مطلوباً بالنسبة إلى العراق." عند هذه النقطة، كنت أستطيع أن أقول من لغة جسم دون رامسفيلد إنه كان يفكر بأنني كنت أناقش مواضيع هي خارج خطي، كان غير مرتاح، ولكنه لم يقل شيئاً، وتابعت الكلام.

وقلت، مثلما كان الحال في حرب الخليج، فقد افترضنا أن العراق سيهاجم إسرائيل بالصواريخ لكي يكسب التعاطف في العالم العربي. ولكن إسرائيل في هذه المرة قد تتأثر، فتوسع بذلك النزاع بشكل خطير. فإذا وافق الرئيس، فإننا سنخفض أو نستأصل هذا التهديد عن طريق زيادة الدفاعات الإسرائيلية بصواريخ باتريوت، ومن خلال الاستخدام المخطط تخطيطاً جيداً لقوات العمليات الخاصة لمنع "سلة إطلاق النار" الصاروخية في العراق الغربي؛ وهي مواقع الإطلاق المحتملة لتشكيلة من الصواريخ التي إما كنا نعرفها أو كنا نظن أن العراق كان يمتلكها.

بدا لي الرئيس مسروراً من شمولية الإيجاز. وقال بعد أن ختمت كلامي: "يا تومي، يا له من عمل". وكدس لوحات إيجازه. وقال لرامسفيلد: "يا دون، استمر في العمل في هذا التصور. إنه موجه في الاتجاه الصحيح".

وقال رامسفيلد: "سنستمر في ذلك، سيدي الرئيس. ولكننا لا نوصي بالحرب أو بتوقيات الحرب، مجرد خطوات تحضيرية حصيفة".

أوماً الرئيس برأسه موافقاً، ثم استدار نحو مدير الاستخبارات المركزية. وقال للمدير تينت: "يا جورج، جماعتك قاموا بعمل عظيم في أفغانستان. ماذا لديك في العراق؟"

وقال تينت: "العراق حالة مختلفة، سيدي. قدرتنا الاستخباراتية البشرية ضئيلة. ولدينا الكثير من الجسور لنعيد بناءها مع جماعات المعارضة. لقد احترقوا احترقاً سيئاً في الانتفاضات الفاشلة بعد عاصفة الصحراء، ونعاني من مشكلة المصادقية". وامتدح تصورنا الجديد للعراق، وقال إن الوكالة ستدعم القيادة المركزية في كل طريق ممكن.

ثم واجهت كوندي رايس آلة التصوير. "يا جنرال فرانكس، أنت أشرت إلى قوة الحرس الجمهوري. فماذا يحدث إذا دافع صدام عن بغداد بهذه القوات؟"

سؤال جيد. وأجبت: "سنقوم بالكثير من التفكير حول مشكلة بغداد في الأيام

الآتية، وحول تكررت أيضاً. هناك طرق لهزيمة تشكيلات العدو المركزة حول المناطق المبنية بدون الذهاب إلى سبطانة مدفع في مقابل سبطانة مدفع. لا أملك الجواب حتى الآن... ولكنني سأحصل عليه." وأوماً جين رينيوارت، وهو إستراتيجي جوي إلى درجة الامتياز، بالموافقة من الطرف الآخر لطاولة البلوط الصغيرة.

وسأل نائب الرئيس تشيني سؤاله الثاني. "يا تومي، إذا كان هناك صواريخ سكود برؤوس كيماوية أو حيوية رابضة في مناطقنا الخلفية، فكيف سيكون رد فعل حلفائنا؟ هل جندنا مدربون ومجهزون على النحو المناسب؟"

وسجلت ملاحظة. وقلت: "سيدي، نائب الرئيس، بالنسبة إلى أسلحة الدمار الشامل، إذا استخدمها صدام فستكون هي أكبر مشكلة تواجهنا. إنني أفهم سؤالك، ولكن عملنا يعوزه التطوير والنضج عند هذه النقطة إلى الدرجة التي تجعله أقل نضجاً من أن أعطيك إجابة جيدة."

وقبل أن ينتهي المؤتمر بالاتصال من بعد المصور بالفيديو خاطبنا الرئيس بوش جميعنا. "يجب أن نبقي متفائلين في أن الدبلوماسية والضغط الدولي سينجحان في نزع أسلحة النظام."

وأومات الوجوه المرتسمة على الشاشة بالموافقة.

"ولكن إذا لم يكن هذا المدخل ناجحاً، يجب علينا أن نمتلك خيارات أخرى. وهذا هو السبب الذي طالبت من أجله الوزير رامسفيلد وتومي أن يعملوا في هذا التصور. إن أسوأ شيء يمكن أن يحدث لأمريكا سيكون مزيجاً من أسلحة الدمار الشامل والإرهاب. لم يكن هناك مفتشون للأمم المتحدة في العراق منذ 1998. ونحن لا نعرف أيّاً من الأسلحة قد طوروا، ولا نعرف نوايا صدام... ولكننا نعرف فعلاً أنه استخدم أسلحة الدمار الشامل من قبل على الإيرانيين وعلى شعبه."

وتوقف الرئيس.

وتابع. "حماية أمن الولايات المتحدة هي مسؤوليتي. ونحن لا نستطيع أن

نسمح بأن تقع أسلحة الدمار الشامل في أيدي الإرهابيين." وهز رأسه. "أنا لن أسمح لذلك أن يحدث."

لقد عبر بيان الرئيس عن حجة أساسية في الحرب العالمية على الإرهاب، وما قاله الرئيس عبر عن معنى كامل بالنسبة إلي. لقد هوجمت أمريكا قبل أقل من مائة يوم في وقت سابق. وقد هزمنا العدو في مسرح واحد. ولكن البلاد لا تستطيع الآن أن تتسحب إلى الكفاءة الدفاعية وتنتظر لتهاجم ثانية، وهذه المرة، يحتمل تماماً، أن يكون الهجوم بأسلحة أكثر تدميراً بكثير من طائرات مدنية مخطوفة.

وفي الخارج في الصباح الوضاء، البارد استدرت لأقول للرئيس مع السلامة. وقال وهو يبتسم: "هيا، يا تومي. اقفز إلى الشاحنة. فنحن سنذهب لتتحدث إلى الصحافة."

سبوت، كلبة الرئيس الإنجليزية ذات الشعر الناعم الطويل الوثابة (سبرنغر سبانيل) كانت في المقعد الأمامي للشاحنة عندما صعدنا إليها، تبصّب بذنبها القصير. أعطت خدي لعقة، ثم أراحت ذقنها على كتف جورج بوش وهو يسوق السيارة.

قال الرئيس لكلبته: "أنت بنت جيدة." ثم التفت إلي بابتسامة. وأضاف: "في واشنطنون يسميها بعض المراسلين سبوت. أكثر تبجيلاً، على ما أظن. أما هنا فهي سبوتي. وأنا لا أعرف من الذي يحب هذا المكان أكثر أنا أو سبوتي."

كان الصقيع يحرق الأعشاب عندما ارتفعت الشمس أعلى فأعلى. وفهمت لماذا كان الرئيس ولورا بوش يستمتعان بالهرب من إيقاع واشنطنون المحموم إلى المزرعة.

وقفنا عند المنزل المجدد المعروف باسم بيت الحاكم، محل إقامة الضيوف في المزرعة. كان هناك منصب لمايكروفون يقع على بعد حوالي خمسين يارداً عن الطريق المعبد بالحصباء، وفيه تنتظر وسائل البيت الأبيض الإعلامية المسافرة بآلات تصويرها، وهي تجر جر خطاها في برد كانون الأول/ديسمبر.

قفزت سبوتي من مقصورة الشاحنة معنا وهرولت إلى المنصة. وقفت أنا إلى اليسار وكان الرئيس يحيى وسائل الإعلام، وعندما أمالت سبوتي رأسها على ساقي انحنيت لأربت على رأسها.

وقال الرئيس، وهو يسند ساعديه بارتياح على المنصة: "كما تستطيعون أن تروا. لقد دعوت ضيفاً إلى المزرعة. تومي فرانكس ليس غريباً على تكساس." وذكر خلفيتي في ميدلاند- وخلفية لورا- ثم عاد إلى القضية قيد البحث في أيدينا. "لقد عاد تومي قبل قليل من المسرح الأفغاني." وذكر أننا عقدنا مؤتمراً بالاتصال من بعد مع فريق الأمن القومي، وأنتي قدمت تحديثاً للمعلومات عن أفغانستان.

لقد تحدثنا عن أمور أكثر من أفغانستان في المؤتمر بالاتصال عن بعد المصور بالفيديو، طبعاً. ولكن نقاشنا عن الخيارات الطارئة للعراق كان حساساً، وتناول معلومات سرية عالية مقسمة. ومثل هذه المحادثات كان يجب أن تبقى إلى حد ما سرية في واشنطن الميالة للتسريب لشهور قادمة، إذا كان لعلاقاتنا الدبلوماسية المتصلة وإستراتيجيتنا العسكرية أن تتال فرصة من النجاح.

وطلب مني الرئيس أن "أقول بضع كلمات."

لاحظت أنني وكاثي قد أمضينا العطلات مع "حشد كبير من الشباب"- من الجنود، والبحارة، ورجال الطيران، والبحرية- في أفغانستان ودول الخط الأمامي لجنوب شرق آسيا. وكانت لنا الفرصة لحضور حفل تنصيب حامد قرضاي وحكومته الانتقالية. وأضفت "لأول مرة في عقود من الزمان"، فإن أكثر من ستة وعشرين مليون نسمة سوف يناولون فرصة للتمثيل الديمقراطي.

وسأل أحد المراسلين الرئيس بوش إن كان أسامة بن لادن قد "تهرب من مطاردته" في جبال أفغانستان. وأجاب الرئيس بقوة وبوضوح، مشدداً على نجاح عمليتنا بطريقته المعتادة الخالية من التوتر والواقعة. "هذا رجل كان قبل ثلاثة أشهر يسيطر على بلاد. وهو الآن ربما يسيطر على كهف. إنه مطارده هارب."

ورجعت الأسئلة إلى خطتنا العسكرية الطويلة المدى في أفغانستان. متى سوف ننسحب؟ وقال الرئيس: "أنا أتخيل أننا باقون هناك لمدة طويلة من الوقت إلى حد ما. ولكن جدولي الزمني سوف يعده تومي فرانكس." وأضاف أنه قد أعطاني "مهمة محددة تحديداً جيداً... وعندما يقول تومي، (المهمة كاملة، سيدي الرئيس)، عندها نبدأ بإخراج جنودنا."

أجبت على بضعة أسئلة أخرى لم أستعد لها عن العمليات في أفغانستان، ثم تحدث الرئيس مطولاً عن نزع فتيل التوتر العسكري بين الهند وباكستان. وأشار إلى نقطة كان لابد منها عندما امتدح الرئيس مشرف بوصفه "معيناً جداً" في الحرب ضد الطالبان والقاعدة وفي مطاردة بن لادن. وقبل أن يختتم الرئيس المؤتمر الصحفي بنجاح عالج نقطة لا بد منها عندما أخبر الصحافة بالقول: "آمل أن يكون العام 2002 عام سلام، ولكنني واقعي أيضاً."

ثم أعلن أنه كان سوف يقوم "بإعطاء تومي جولة في مزرعتي." ومشينا عائدين إلى بيت الحاكم، حيث وقّع فيه الرئيس على قانون مخصصات الخدمات المسلحة للعام المالي 2002، الذي كان ممدوداً على طاولة المطبخ. وأعطاني واحداً من الأقلام التي استخدمها، ثم جلس إلى طاولة المطبخ ليسجل إذاعته الأسبوعية بالراديو.

وعندما أنهى الإذاعة، أمسك بوش باثنتين من كوكا الحمية من الثلاجة وقال: "هيا لنذهب ونركب في جولة في السيارة، يا تومي." ولا بد أن سبوتي قد ميزت كلمة نركب، لأنها اندفعت تعدو أمامنا إلى الشاحنة.

صلصل منشار السلسلة وأدوات الرئيس الموجودة في حوض الشاحنة الخلفي عندما اهتززنا والسيارة تبتعد عن الطريق المعبد بالحصباء لنسير على مسار أوعر نحو قاع صخري لجدول مائي صغير. وقال وهو يشير إلى الأشجار على طول ضفتي المجرى: "الكثير من شجر البلوط الجميل والدردار هنا، يا تومي. ولكن الشجيرات الصغيرة تمنع نموها، لذلك فأنا أزيل الشجيرات. وأحب هذا النوع من العمل."

كان هناك كومة من الأغصان والورد البري المتشابك على جانب حامل جميل من الخشب الصلب. وعبر جدول، رأيت كوماً من الرماد غسله المطر، من بقايا كوم شجيرات صغيرة كان الرئيس قد أزالها وأحرقها في عطلات عيد الشكر.

وعندما أنهينا الجولة في السيارة، قابلتنا لورا بوش في البيت، وهو على شكل هلال مدهش من كتل حجرية كلسية من طابق واحد احتضن ارتفاعاً خفيفاً إلى جانب بركة صيد سمك من عشرة فدادين. ونزل جين، وفان موني، وجيف هينز من سيارات اس يو في للخدمة السرية التي كانت تسير خلف شاحنة الرئيس من نوع اف-250.

وقالت لورا: "ادخلوا. سأطوف بكم في الداخل."

وقادتنا لورا بوش في جولة على الغرف. واشتملت السباكة على نظام مرشح أرضي صديق للبيئة يعيد تدوير ماء حوض الجلي والاستحمام ليسقي المرجة والحديقة. وشرح لنا الرئيس ذلك بالقول: "يمكن أن تصل هنا إلى الجفاف الحقيقي في الصيف، يا تومي، الماء أثمن من أن يهدر."

كان بيت المزرعة مدفاً ومبرداً معاً بالآبار الجديدة الجيو الحرارية، وهي نظام شرحه الرئيس متحمساً. وكان ذلك نافذة ساحرة في شخصية جورج بوش: قبل ساعة من الآن، كان مستغرقاً بالقضايا المريكة للسلام والحرب. وهو الآن منهمك في شرح كفاية عملية التبادل الحراري الذي استغل فروق درجة الحرارة بين الهواء السطحي والدرجات الاثنتين والستين الثابتة عند قعر فتحات التهوية.

قال: "آمل، يا تومي، أنك باق لتناول الغداء."

ونظرت في ساعتني. كان رامسفيلد يريد أن يرى تكراراً آخر من تصور القائد في غضون عشرة أيام. فإذا غادرت الآن، فسأكون قادراً على برمجة جلسة مع كبار أركان التخطيط في هذا الأصيل. وفي الجولة التالية أريد أن أكون قادراً على أن أعرض على وزير الدفاع وعلى الرئيس خيارات عملية، لا مجرد اختيارات افتراضية. وذلك ما سيستغرق عملاً.

وقلت: "آسف، يا سيدي. لدينا الكثير لنعمله اليوم عند عودتنا إلى تامبا."

وعندما أقلعت طائرة البحرية الأولى عن مهبط الطائرة العمودية، كنت أفكر فيما ينتظر في المستقبل. لم يكن هناك يقين أن أمريكا ستذهب إلى الحرب في العراق. ولكن كان يقينا أننا سوف "نهيئ الظروف" في المنطقة، ونحسن البنية التحتية العسكرية التي ستسمح لنا أن نشن حملة حاسمة، إذا أمرنا الرئيس أن نفعل ذلك.

والخطوات التي استعرضتها أنا والوزير رامسفيلد، ثم عرضناها على الرئيس بوش، سوف تسمح لنا أن نضع أساساً كافياً لأي حالات طوارئ، بدون تجاوز العتبة وإلزام البلاد بالحرب. رامسفيلد كان صلباً في أن نرسم خطأ في استعداداتنا لا يضغط على الرئيس. وكانت هذه هي الطريقة التي عمل رامسفيلد بها. كلانا اتبع أوامر الرئيس. لقد وافق جورج بوش على سلسلة من الخطوات الأولية كانت ستبني القدرة العسكرية التي تستطيع نزع سلاح العراق وإزاحة صدام حسين من السلطة. ولكنه لم يأمرنا بالحرب.

جلست في الخلف في المقعد المريح في طائرة البحرية الأولى، أستمع إلى خبط الدوارة المألوف، وأحس بالاهتزاز الدوار المتميز للطيران في الطائرة العمودية. ذلك ذكرني دائماً بالحرب: الطائرات العمودية من أنواع الهويز واللوتشيز من فيتنام، والبلاك هوكز من عاصفة الصحراء، واتش أم-47 فوق وديان أفغانستان التي أندبَتها القنابل بالندوب.

هل سأطير فوق العراق على متن طائرة عمودية في العام القادم؟ لا أمتلك طريقة أعلم بها. ولكنني كنت أعرف أن الشهور التي تنتظر أمامنا ستكون مشغولة: استكمال عمليات القتال الحاسمة في أفغانستان، وإن كنا نستعد لحملة أكبر بكثير قد تكون بانتظارنا في العراق في وقت ما في المستقبل.

وفكرت في: امدد لهم يد العون، والطائرة العمودية تهبط في واكو، ثم ركبنا متن النفاثة التي ستعود بنا إلى تامبا.

عملت حتى وقت متأخر في يوم الجمعة ذاك، ووسعت دائرة الأركان الذين ينغمسون في واجبات المرحلة الأولى. واجتمعنا مرتين في يوم السبت، ولكنني خففت الزخم يوم الأحد بعد الظهر. معظم هؤلاء الضباط لم يأخذ سوى ساعات قليلة فقط خارج المقر لقضاء عيد الميلاد، وعلى هذا المعدل، لن يكون لدينا الكثير من الوقت للعام الجديد. ولذلك أرسلتهم إلى بيوتهم مع توجيه التحذير لهم بأنني لا أريد أن أراهم "حتى العام القادم"

كنت أعرف أن رايفل دولونغ، وجين رينيوارت، وجيف كيمونز سوف يتسللون عائدين إلى مكاتبهم. وكنت أنوي أن أهدب وأضبط الخيارات التي كنا نطورها لتكون جاهزة في التكرار التالي مع الوزير رامسفيلد. لم أكن قد حصلت على يوم إجازة منذ 9/11، ولم أكن أنوي أخذ يوم إلى أن أكون راضياً مقتنعاً بأن لدينا خيارات قابلة للتصديق بشأن العراق تقدم للرئيس.

لقد أمضيت قائداً عاماً للقيادة المركزية مدة ثمانية عشر شهراً تقريباً. ومدة نوبة الواجب في منصب القائد العام كانت عادة سنتين، ولذلك فقد بقي لدي حوالي ستة أشهر لأعمل هذا العمل على الوجه الصحيح. وكنت عازماً على الاستفادة من كل دقيقة فيها.

وكنت أنا وكاثي مشغولين في واحدة من محادثاتنا "نتنظر ونرى" في أشياء الرحلة الأخيرة في منطقة المسؤولية. عندما ينتهي هذا العمل فأنا سأكون مهتماً بأي وظيفة بموجب القانون العاشر قد يعرضها علي دون رامسفيلد. كنت مقاتل حرب. ومساري الوظيفي العسكري سينتهي في الصيف القادم.

ولكن وزير الدفاع اتصل في صباح يوم الاثنين في 31 شهر كانون الأول/ديسمبر وقال: "لقد تحدثت مع الرئيس قبل قليل. نريدك أن تبقى مستمراً في القيادة المركزية لمدة عام آخر. ماذا ترى؟"

"شكراً، سيدي الوزير. أحب أن أناقش الأمر مع كاثي. سوف أرجع إليك في غضون يومين."

وقالت لي في ذلك المساء: "يا تومي، لقد ساندت دائماً أي شيء تريد أن تعمله".

وصلني مقسم هاتف وزارة الدفاع مع رامسفيلد في خلوته في تاوس، "سوف نتشرف بالخدمة عاماً آخر، سيدي الوزير".

وعندما وضعت الهاتف، أدركت أن ظهوري القيادي مع الرئيس في كراوفورد كان "امتحاناتي الشفهية" للعام الثالث في قيادة القيادة المركزية.

إذا ذهبت أميركا إلى الحرب في العراق، فمن المحتمل أن ذلك سيكون في فترة استلامي للحراسة.

في يوم الاثنين 7 كانون الثاني/يناير 2002، اجتمعت دائرة التخطيط الداخلية في غرفة الاجتماعات الواسعة لمنشأة الاستخبارات الخاصة المقسمة. ولأغراض عمل داخلية، سيكون تصور القائد هو الأساس لخطة جديدة: خطة عمليات V 1003، وتعديل 1003 التي سبق أن هذبناها من خلال ثلاثة تكرارات مع وزير الدفاع. وكان الموضوع الرئيس للنقاش ما أسميته تصور البداية المتولد، وهو مسودة من أجل "توليد" الحضور الضروري أرضاً، وجواً، وبحراً في المنطقة، والذي سيُقدِّرنَا، عند صدور أوامر الرئيس، أن نشرع بالعمليات العسكرية الحاسمة للوفاء بهدف الحالة النهائية المتصلة بتغيير النظام. نحن نحتاج إلى هيكل عمل لنشر القوة، والبداية المتولدة كانت هي الخطوة الأولى نحو تحديد ذلك الهيكل.

ومع تقدم التخطيط صُوال الشهور القادمة، فسوف نحدد التفاصيل من أجل تدفق القوات، على الرغم من أن هذه التفاصيل كانت دائماً معتمدة على نوع الخيار الذي نعتزم أن ننفذه: القوي أو المخفض أو الأحادي. وهل سنكون قادرين على وضع جند في تركيا، والأردن، والمملكة العربية السعودية، والكويت، ودول الخليج؟ وهل سيسمح لنا حلفاؤنا في الناتو أن ننشئ القواعد ونرتب التمرحله؟ وكم هدفاً جويًا حيويًا أساسياً كانت متاحة، بالضبط؟ وبدأت لي المتغيرات بلا نهاية.

ومثلها بدأ سيل الأسئلة من وزارة الدفاع. إن أركان مكتب وزير الدفاع والوزير كانوا يجعلوننا مطواعين لهم، نقفز عبر الأطواق كما في السيرك. ما هو الرد الذي ستعتبره القيادة المركزية مناسباً إذا شن العراقيون هجمات بأسلحة الدمار الشامل ونحن في حالة نشر القوات، أو في المراحل المبكرة من المرحلة الثانية، أو ونحن نقرب لنطبق على بغداد؟ ما هي التفصيلات بشأن وضع القواعد، وتعزيزات المطارات والموانئ التي سنحتاج إليها في المنطقة؟ وكيف ستتأثر خطوط توقيتاتنا إذا كان لدينا قوات عمليات خاصة وعناصر استخبارات بشرية داخل العراق لتحديد الأهداف، كما كان لنا بعد 20 تشرين الثاني/ أكتوبر 2001، في أفغانستان؟ وبدأت لي قائمة الأسئلة بلا نهاية. وبعد مغادرة المقر متأخراً في معظم الليالي، كان المديرون عندي يجتمعون في كل صباح في الساعة 0400 للإعداد لمكالمتي الصباحية مع وزير الدفاع.

منذ بداية عملية الحرية الدائمة، صرنا معتادين على طلبات الوزير رامسفيلد. أما الآن فحتى مخططيّ المخابرين صاروا يجدون أن الواجب اليومي من الواجبات والأسئلة بدأ يصل إلى حدود الإزعاج. هؤلاء الضباط الذين كان جين يدعوهم "عقول الخمسين رطلاً كانوا أهم أناس في الأركان. العقيد مايك فيتزجيرالد والعقيد ديف هالفيرسون، في مقدمة المخططين، كانا من أكثر العقداء الذين سبق لي أن عرفتهم إنكاراً للذات وقدرة على القيام بأشق عمل. فإذا كانا يشعران بالانزعاج فمن الأفضل لي أن أعالج المشكلة مواجهة.

استدعيت كل "العقول" معاً في منشأة الاستخبارات الخاصة المقسمة في أصيل يوم من أيام كانون الثاني/يناير. كان جزء كبير من تدمرهم ينبع من الضغط الإضافي المتضمن في تقسيم التخطيط للمساعدة على منع التسريبات، هذا من شأنه أن يخرج العمل عن مساره. إن مجموعة صغيرة فقط من كبار ضباط القيادة المركزية هم الذين كانوا يعرفون النواحي المهمة من التصور الذي يتطور، وأربعة منا فقط كانوا يمتلكون الصورة الكاملة. مجموعتنا كانت معزولة بعضها عن بعض،

تجري على جهاز جري ثابت في فراغ. وليس هذا بالأمر الجيد لفريق محكم التماسك.

وقلت، وأنا أقف أمام الغرفة: "حسناً، هذه صفقة أيها الرجال. أنا أعرف أن مكاتب وزير الدفاع - رامسفيلد، وولفوويتز وفيث - يطلبون الكثير. ولكنهم ليسوا العدو. لا تبدووا في التفكير رجال طيبون- رجال أشرار. نحن جميعنا في جانب واحد."

كانوا يستطيعون أن يروا أنني كنت جاداً.

وتابعت "سوف أقلق بشأن مكتب وزير الدفاع، بشأنهم كلهم- ومن جملتهم دوغ فيث، الذي يكتسب من حولنا هنا سمعة بوصفه أغبى زفت ...". رجل على ظهر البسيطة. إن واجبكم هو أن تجعلوني أنا أشعر أنني مرتاح ومطمئن. انظروا، نحن جميعاً محترفون. دعونا نكسب راتبنا بحق."

قد يكون أن نتبادل الشكوى بين أنفسنا حول عبء العمل، ولكننا لن نكون غير مخلصي الولاء لرئيس عملنا.

واستمرت التكرارات. وكما يمكن لممارس اليوغا أن يكون قد قالها، فإن الأيام الطويلة والليالي كانت مثل ليالي وأيام ما بعد 9/11 التي كنت أحس أنني سبق لي أن رأيتها من قبل(*) طوال الوقت ثانية. وعلى الرغم من أنها كانت مؤلمة، فإن العملية جاءت بالتقدم.

أراد الوزير رامسفيلد أن يعرف خططنا للطوارئ في الحالة التي يقدم فيها صدام حسين على استفزازنا من خلال مبرر صريح للحرب: مهاجمة الأكراد، أو، وهو الأكبر احتمالاً، إسقاط طائرة للتحالف في منطقتي حظر الطيران.

هذا ما جعلني أعيد التفكير في جميع خيارات الرد الثابتة لدينا، ومن جملتها خطة بادغر (حيوان الغُير)، وهي ردنا المعين إذا أسقطت الدفاعات الجوية للعدو

(*) تعبير في علم النفس عن توهم رؤية شيء في السابق والإنسان يخبره لأول مرة.

واحدة من طائراتنا. وأدت إعادة التفكير هذه إلى ثلاثة مستويات للرد: أحمر، وأبيض، وأزرق. الأحمر، وهو أقلها حركية، سوف يتكون من ضربة فورية بصواريخ توماهوك للهجوم الأرضي على أهداف دفاع جوي عراقية مهمة. واشتمل الأبيض على ضربات صواريخ توماهوك للهجوم الأرضي موسعة وضربات جوية على طول ثمانية وأربعين ساعة. وسوف يستدعي الأزرق عمليات جوية متنوعة بعمليات أرضية، لتأسيس جيب أرضي داخل العراق يجري توسيعه بالنشر السريع لقوات المتابعة.

بدأ بعض المخططين يسمي هذا خيار "بداية الركض(*)"، وتبنت أنا هذا التعبير في مناقشاتي مع الوزير.

وفي إحدى مكالماتنا في مؤتمرنا، أخبرت رامسفيلد: "سيدي الوزير، هناك طريقتان فقط للذهاب إلى الحرب. إما أن يبدأها العدو وفق برنامج المخطط، أو أن نبدأها نحن وفق برنامجنا. ونظراً إلى أننا لا نمتلك قراراً للذهاب إلى الحرب بموجب خط توقيتنا، فنحن نحتاج إلى خيارات في الحالة التي يبدأ فيها صدام حرباً بموجب خط توقيته. وأنا أحب فكرة "بداية الركض" بوصفها خياراً. نحن نستمر في بناء قواتنا وبنيتنا التحتية في المنطقة لدعم الدبلوماسية. وإذا اتخذ الرئيس قراراً بأن يهاجم، فسنبداً بما لدينا في المكان ونتابع، طالما يكون ذلك ضرورياً، وبحجم القوة الضرورية."

قال رامسفيلد: "أنا أفهم ذلك، ولكننا نحتاج إلى دراسة واقعية للتوقيت. ما هي خطوط التوقيتات المختلفة؟ كم طول المدة التي ستدومها كل مرحلة وفق ما تخطط؟ قلت: "نعمل فيها."

وقال: "جيد. دعنا نجعلها 1 شباط/فبراير."

وفكرت عندما أغلقنا الهاتف، يا إلهي، ذلك في الأسبوع القادم.

(*) تعبير من الرياضة، وهو بدء تسابق الركض الذي يكون فيه المتسابقون بالركض قد وصلوا إلى كامل عزمهم قبل أن يعبروا خط البداية.

واستدرت إلى جين ورايفل دولونغ: "آمل يا شباب أن يكون لديكم الكثير من القهوة في مكاتبكم. لأن لدينا بعض الليالي الطويلة القادمة، وأنا لن أشارككم قهوتي."

كنت أعمل من خلال مجموعة من التقديرات في مساء يوم الثلاثاء 29 كانون الثاني/ يناير، عندما دخل إلى مكتبي جيف هينز، وقال وهو يمشي إلى جهاز التلفاز "جنرال، أردت مني أن أذكرك بشأن حالة الاتحاد."

وقلت: "شكراً، يا بحري" قلتها وأنا أدون ملاحظة أخيرة عندما ضبط الجهاز على محطة سي ان ان. وكنت سأفتح ذهاباً وإياباً بين محطة سي بي اس ومحطة فوكس بعد الخطاب لأرى أي نوع من التفسير تطبقه شبكات الأخبار على كلمات الرئيس.

عندما تكلم جورج بوش بدا لي واثقاً ومصمماً.

قال الرئيس: "تقابلنا آخر مرة في ساعة صدمة ومعاناة. وفي أربعة أشهر قصيرة قامت أمتنا بتعزية الضحايا، وبدأت بإعادة بناء نيويورك ووزارة الدفاع، وحشدت تحالفاً كبيراً أسر، واعتقل، وخلص العالم من آلاف الإرهابيين، ودمر معسكرات تدريب الإرهابيين في أفغانستان، وأنقذ شعباً من الموت جوعاً، وحرر بلاداً من الاضطهاد الوحشي."

كان التصفيق عالياً من جانبي صفوف المقاعد

وفكرت في، أربعة أشهر قصيرة، وهي أطول 120 يوماً وليلة في حياتي.

ولكن بوش أضاف ولمزيد من التصفيق: "وقادة الإرهابيين الذين حثوا أتباعهم على أن يضحوا بحياتهم يهربون للنجاة بأرواحهم هم."

وأوماً إلى غرفة المجلس في الشرفة العليا مقدماً القائد الانتقالي لأفغانستان، الرئيس قرضاي، أمام تصفيق حاد بارز.

ومع استمرار خطابه، التفت الرئيس إلى موضوع أسلحة الدمار الشامل والدول المارقة، وهي القضايا التي شغلت تفكيري كل يوم. تحدثت عن كوريا الشمالية

وإيران، نظامان اثنان موصوفان بأنهما راعيا الإرهاب وكانا يسعيان لامتلاك أسلحة الدمار الشامل.

بعدئذ تحول بوش إلى العراق، وقد راقبت البداية غير الرسمية للجهد الدبلوماسي الذي يبذله الرئيس لنزع أسلحة صدام حسين.

وقال: "يستمر العراق في استعراض عداوته نحو أمريكا وفي دعم الإرهاب. وقد خطط النظام العراقي لتطوير الجمرة الخبيثة، وغاز الأعصاب، والأسلحة النووية طوال أكثر من عقد من الزمان. هذا نظام سبق له أن استخدم الغاز السام ليقتل آلافاً من مواطنيه، تاركاً جثث الأمهات متراكمة فوق أطفالهن الموتى." وكانت غرفة المجلس ساكنة سكوناً مطلقاً. "هذا نظام وافق على التفتيشات الدولية، ثم قام بعد ذلك بطرد المفتشين. هذا نظام يمتلك شيئاً ما يخبئه عن العالم المتمدن."

توقف الرئيس قليلاً، ثم تحدث ببطء، مشدداً على كلماته. "دول مثل هذه، وحلفاؤهم من الإرهابيين، تشكل محور شر، وتتسلح لتهدد سلام العالم. وبالسعي إلى امتلاك أسلحة الدمار الشامل، فإن هذه الأنظمة تشكل خطراً مقلقاً ومتنامياً."

وقال مشدداً، وبعد أن عانت الولايات المتحدة من هجوم إرهابي واحد مدمر، يجب عليها أن تكون مستعدة للعمل لمنع هجمات أخرى. "إن أمريكا ستفعل ما هو ضروري لضمان أمن أمتنا." وتابع بالقول: "سوف نكون مترويين، ومع ذلك فالزمن ليس في جانبنا. وأنا لن أنتظر الحوادث، بينما تتجمع المخاطر. وأنا لن أقف جانبا، والخطر الوشيك يدنو أقرب فأقرب. إن الولايات المتحدة لن تسمح لأخطر أنظمة العالم بتهديدنا بأكثر أسلحة العالم تدميراً."

ووقف كلا الجانبين ليقدموا تصفيقاً رناناً.

"حربنا على الإرهاب بدأت إلى حد كبير، ولكنها بدأت فقط. قد لا تنتهي هذه الحملة في نوبتنا في الحراسة، ومع ذلك يجب أن تشن ولسوف تشن وفق ساعتنا."

ورجعت في تفكيري إلى نقاش كان لي مع طوني زيني قبل أكثر من عامين. العراق هو المشكلة التي لن تغيب في أي وقت قريباً.

ورنت كلمات الرئيس في أذني: الحرب التي ستشن وفق ساعتنا. لقد كنت قبل مدة قليلة قد مددت نوبة حراستي في القيادة المركزية لعام ثالث. وبدت وكأن المشكلة العراقية ستواجه قريباً بالنزاع المباشر.

كان إيجاز اشباط/فبراير للوزير رامسفيلد يسير سيراً حسناً. وعدنا تصور البداية المتولد لكي تدوم العمليات ابتداء من بداية المرحلة الأولى وإلى نهاية المرحلة الثالثة حسب ما هو مخطط لها الآن حوالي أربعة أشهر فقط.

وقلت وأنا أقلب اللوحة التالية: "ها هو في ما يلي خط توقيتنا". إذا أخذنا بالاعتبار العمل الموجود من قبل وهو في تقدم في المنطقة، فسوف نكمل الوضع المسبق للتجهيزات وتحديثات المطارات، والموانئ، والبنية التحتية العسكرية الأخرى في غضون أشهر قليلة.

"عندما تكون المرحلة الأولى قد اكتملت، نستطيع أن نتدفق بثبات طوال الستين يوماً التالية، وفي الوقت نفسه نستمر في دفعات النشاط لنعطي تصديقاً لخداعنا. وفي أثناء الستين يوماً سوف نزيد الضربات الحركية في مناطق حظر الطيران لإضعاف الدفاعات الجوية العراقية المتكاملة. وإذا كنا نستطيع أن نطور جبهة شمالية في تركيا، مع وجود وحدات تقليدية أخرى تتمرحل من الكويت، وقوات عمليات خاصة تتمرحل في الأردن وفي المملكة العربية السعودية، فسوف نرى مستوى جند لقوة أرضية تبلغ تقريباً 160.000".

والفتت إلى اللوحة التالية. "إذا قرر الرئيس أن يهاجم، فإن اليوم- إيه، يوم بدء العمليات الجوية سوف يبدأ المرحلة الثانية، وهي مرحلة تركيز على الجو لحوالي ثلاثة أسابيع، وهذا يتوقف على الوقت من العام، وعلى الطقس. وسوف نستخدم في معظمها الذخائر الدقيقة، ولكن العواصف الرملية الفصلية الموسمية التي

تثيرها ريح الشمال سوف تؤثر على أنظمة الليزر للدلالة على الأهداف وعلى طيران الاستطلاع".

وكانت اللوحة التالية هي المرحلة الثالثة: العمليات القتالية الحاسمة. وتابعت: "سوف نبدأ في اليوم-جي، عندما تقوم القوات الأرضية بالهجوم. ويمكن أن تدوم إلى مائة وخمسة وثلاثين يوماً، ومرة أخرى فهذا يتوقف على الوقت من العام وعلى الأساليب التعبوية الدفاعية التي يستخدمها العراقيون".

ثم استدرت لأكشف عن اللوحة التالية: المرحلة الرابعة: عمليات ما بعد الحرب. "وفي الوقت الذي تتقدم فيه عمليات الاستقرار، فإن مستويات القوة سوف تستمر بالنمو، ربما إلى أن تصل إلى مائتين وخمسين ألفاً من الجند، أو إلى أن نكون واثقين من أننا حققنا أهدافنا للحالة النهائية".

وسأل رامسفيلد: "وكل هذا قد تم التشديد عليه في الاستعدادات للمرحلة الأولى وفي كونها استكملت؟

"نعم سيدي. إذا أطلق صدام حسين حرباً اليوم، قبل أن تنتهي المرحلة الأولى- فإننا سنكون قادرين على بدء العمليات الأرضية في حوالي خمسة وأربعين يوماً بعد بداية العمليات الجوية. وعند تلك النقطة سيكون قد صار لدينا في المكان قوة من حوالي مائة وخمسة آلاف من الجند: فرقة ثقيلة معززة من الجيش، وفوج خيالة مدرع، وقوة حملة مشاة بحرية، ومعظم موجوداتنا الجوية. نستطيع أن ننطلق، وسوف تتدفق بقية القوات للداخل خلفها. أنا لا أحب مثل هذا المدخل التتابعي، سيدي الوزير. ولكنه ممكن التنفيذ".

وحتى عندما انتقلت عبر لوحاتي، وعلى الرغم من ذلك، فإن عقلي كان يقلب إلى لوحة أخرى، إلى المزيد من نقاشٍ خاصٍ خططت أن أجريه مع دون رامسفيلد في الساعة التالية. فمنذ عملية الخداع الناجحة لفرقة الخيالة الأولى في أثناء عاصفة الصحراء، كنت أعتقد أن الخداع العملياتي الذي يتم تصويره بشكل جيد

وينفذ تنفيذاً ناجحاً سينطلي على العسكريين العراقيين وعلى قادة نظامه . لقد كانت استخباراتهم مركزة تركيزاً كاملاً تقريباً على الأمن الداخلي: اضطهاد الأكراد والشيعية واستباق محاولات الانقلاب، وليس على قتال الحرب.

وكان لدي مورد خفي حساس جداً إلى الدرجة التي تجعلني أريد مناقشته مع الوزير رامسفيلد فقط وجهاً لوجه. فالعديد من رؤساء الدول العربية، الذين كانت لي معهم علاقات حميمة، قد قدموا معلومات قيمة مستندة إلى صلاتهم الشخصية مع صدام حسين. وكنت أعرف أن هؤلاء القادة كانوا قنوات لا تقدر بثمن نستطيع من خلالها أن نمرر المعلومات، والأغاليط المتعمدة، إلى النظام العراقي.

وانتقلت، وأنا أختتم الإيجاز، إلى واحدة من اللوحات النهائية: بداية الركض. وشرحت: "هذا توقيت بديل آخر نقوم بفحصه. إذا كنا على بعد كافٍ في استعداداتنا في المنطقة، فإننا نستطيع حسب ما هو متصور أن نضغط الحملة الجوية إلى النقطة التي ستكون فيها العمليات الجوية والأرضية، المسبوقة بعمل كثيف للقوات الخاصة، متزامنة في الواقع. ونستطيع أن نشن العمليات في الوقت الذي تكون فيه قوات المتابعة ما تزال تنتشر."

لقد كان هذا تصوراً ثورياً، بعيداً خارج صندوق العقيدة التقليدية. ولكنني كنت مستقلاً طوال حياتي. عندما لا تقوم العقيدة الموجودة بتنفيذ العمل، فإنني أحاول أن أجد طريقة أخرى لتنفيذه، سواء كان ذلك يعني تركيب شبكة راديو على طريقة روب غولد بيرغ على الطائرة العمودية من نوع رايفن اتش-23 في فيتنام، أو وضع أجهزة لاسلكية راديوية من نوع موجة المواطن في مدافع الهاوتزر في فوج الخيالة المدرع الثاني، أو بناء مركز توجيه النيران المتقل توك-ايه- توي في وحدة المدفعية 2-78، أو تعليم رجال المدفعية أن يصيبوا الأهداف المتحركة في فورت هود. وكانت تعني أيضاً أنني كنت مراراً في خارج التيار العام المحافظ للجيش.

كانت عاصفة الصحراء قد أعادت تعزيز قناعاتي بأن سرعة المناورة والمفاجأة التعبوية كانتا أعظم مضاعفين للقوة في الحرب. في العراق الجنوبي، كانت القوات

الأمريكية والبريطانية قد ضربت بقوة على الجناحين الضعيفين للحرس الجمهوري العراقي، وهي تناور من خلال عاصفة رملية تعمي لكي تفاجئ العدو. الأسافين المتحركة بسرعة بقوة كتيبة قد اشتبكت مع ألوية عراقية متخذة وهزمتها. لم تكن التقانة وحدها هي التي اكتسحت الحرس الجمهوري في ميادين المعركة مثل 73 شرقاً وحافة المدينة، ولكنه أثر السرعة. في العديد من نقاط تماسنا الأولية، كان العراقيون أكثر عدداً من قواتنا المهاجمة. وكان ذلك مثلما هو في الفيزياء بالضبط، فإن آثار الكتلة تزداد مع السرعة.

كنت أعرف أن قواتنا العسكرية سوف تكسر إرادة الجيش العراقي، وأنا سوف نعمل ذلك بسرعة غير مسبقة. إن حجم قوة هجومنا كان أقل أهمية من السرعة ومن مرونة مناورته. إن بداية الركض سوف تتضمن مخاطرة، ولكنها لن تكون مقامرة.

وسنعمل نحن كل شيء ممكن لنقلل هذه المخاطرة إلى الحد الأدنى. فسيكون أساسياً لنا أن نسيطر على صحاري العراق الغربية، وذلك لأن هذه الصحاري هي المكان الذي يريد صدام أن ينصب فيه قاذفات الصواريخ. إن مفتشي الأسلحة من الأمم المتحدة، ومجتمعنا الاستخباراتي، قدروا أن العراق إما أن يكون قد استبقى سراً صواريخ بالستية ميدانية، أو أن يكون قد طور أنظمة أقصر مدى من مثل صاروخ أبابيل-100 لتعمل على أمداء أبعد من 150 كيلومتراً المسموح بها بموجب قرارات مجلس الأمن.

وشددت: "إذا نجح العراقيون بضرب تل أبيب أو الرياض بالروؤوس الحربية الكيماوية أو الحيوية، فسيكون ذلك مشوشاً إستراتيجياً، مشابهاً لما رأيناه في العام 1991، ولكنه على ما يحتمل سيكون أسوأ من ذي قبل بكثير." إذا كان لإسرائيل أن تتأثر، وبكلمات أخرى، فإن الحرب يمكن أن تتحول إلى نزاع ديني في عيون العالم العربي. ومن المحتمل أن يتداعى تصميم حلفائنا السعوديين، وسوف نُلَفِظ بقوة من مركزنا الحيوي غير الظاهر، مركز القوات الجوية المشتركة الموجود في قاعدة

الأمير سلطان الجوية وقواعد قوات العمليات الخاصة وقواعد البحث والإنقاذ القتالي في مواقع أخرى من المملكة.

ولكنني كنت واثقاً من أننا كنا نستطيع أن نسيطر بالقوة على الصحراء العراقية الغربية باستخدام قوات العمليات الخاصة المتصلة بطيران الضربات الجوية الذي يستخدم الذخائر الموجهة بدقة، مثلما كنا قد فعلنا في أفغانستان. وأخبرت رامسفيلد: "مع حلول الوقت الذي نمتلك فيه قوة أرضية في مكانها في الكويت وتركيا، فسوف نكون قد امتلأنا رجال وحدات مهام خاصة كافين متمرقلين في الأردن وفي المملكة العربية السعودية لنحركهم إلى داخل العراق ونسيطر على نسبة 25 بالمائة من الأراضي الغربية من العراق".

وذكرني رامسفيلد: "تذكر، هناك توازن دقيق بين الاستعدادات الكاملة وبين إطلاق زناد الحرب. والرئيس لم يقرر بعد أن يذهب إلى الحرب".
"أنا أفهم ذلك، سيدي الوزير."

قدمت إيجازاً للرئيس ولمجلس الأمن القومي في أصيل يوم الخميس 7 شباط/فبراير، في غرفة الموقف في البيت الأبيض. ومثلما عملت بالضبط في أثناء المؤتمر بالاتصال من بعد المصور بالفيديو في كانون الأول/ديسمبر من تكساس، فقد قدمت تقريراً عن الموقف في أفغانستان، ملخصاً فيه خططنا للعمليات التعرضية لتدمير بقية معقل القاعدة في الجبال الواقعة جنوب كابول.

وقلت: "سيكون الثلج قد ذاب عن الممرات الجبلية قريباً، وسوف نذهب نحن إليها من عدة اتجاهات على الأرض بينما نقوم بشكل متزامن بإدخال قوات اقتحام جوي إلى الأهداف".

وبينت النواحي الرئيسية لمخطط المناورة على خريطة تعبوية. "سوف نستخدم عناصر من الفرقة العاشرة الجبلية وعناصر من الفرقة 101 المحمولة جواً، وقوات عمليات خاصة من التحالف، ومن جملتهم ألمان وأستراليون، وحلفاؤنا الأفغان. وسوف أزود الوزير رامسفيلد بأحدث المعلومات عندما تتكشف العملية".

وسأل الرئيس بوش: "هل هو موجود هنا، يا تومي؟" كل واحد من الحاضرين كان يعرف من كان هو: إنه ابن لادن.

وقلت: "جماعة الاستخبارات يعتقدون أن هناك احتمالاً. والرئيس مشرف لا يعتقد أنه في باكستان. والحقيقة، يا سيدي الرئيس، هي أنني غير متأكد. فهو ليس على جهاز إرسال لاسلكي، وأنا لم أر تقارير موثوقة عن مكان وجود أسامة بن لادن. وحلقت بإبهامي مع السبابة وصنعت دائرة علامة صفر.

وتابعت: "هذه بلاد وعرة، يتعذر الوصول إليها. وقد اختبأ المجاهدون من السوفيت في هذه الجبال لسنوات. وهذا هو السبب الذي يجعل حلفاءنا الأفغان أساسيين. فهم يعرفون كل كهف وكل نفق."

وسأل الرئيس: "أي أسئلة أخرى عن أفغانستان، لتومي؟" لم يكن هناك أي سؤال.

والتفت إلى العراق.

أعلنت، وأنا أعرض لوحة التوقيتات، أننا قد خفضنا المدة القصوى المرسومة للمراحل من الأولى إلى الثالثة إلى 225 يوماً؛ ومن جملتها ثلاثة أشهر "تكوين القوات" في المنطقة، ومرحلة جوية وقوات عمليات خاصة مشتركة مدتها ستة أسابيع (وفي أثناء هذه المدة سوف نستولي على حقول الزيت الجنوبية العراقية ونحميها من التخريب)، وما يصل إلى تسعين يوماً من عمليات القتال الحاسمة.

من الناحية المثالية، طبعاً، فإن المرحلة الثالثة: عمليات القتال الحاسمة، لن تحتاج إلى ثلاثة أشهر كاملة من الحرب التقليدية، والتي تتلاكم فيها الدبابات الأمريكية مع الحرس الجمهوري. لقد خططنا أن نسيطر على الفضاء الجوي العراقي من البداية. وإذا قامت حفنة من الطائرات القتالية الصالحة للطيران والتي ما تزال قادرة على الطيران، بتحدي مقاتلات التحالف، فهي ستعيش حوالي يوم. وإذا بقيت في جدرانها الحاجزة الإسمنتية المسلحة، فسوف ندمرها بالذخائر

الدقيقة التوجيه. وسيكون على التشكيلات الأرضية للعدو أن تخوض الصراع مع الكتلة المدمرة المشتركة المكونة من دروعنا، ومدفيعتنا، ومشاتنا الآلية، والتي تقوم بالمنورة بسرعة، وكلها تستخدم خلطتها الخاصة القاتلة من الذخائر الدقيقة طويلة المدى، إضافة إلى قاذفاتنا الثقيلة والضربات الجوية.

ولكن إذا كان العراقيون سيضعون دباباتهم ومدفيعتهم في القرى وأحياء المدن، قرب المساجد، والمدارس والمستشفيات، كما كنا نعرف أنهم ليسوا فوق هذا المستوى، فيجب عندئذ أن نتخذ إجراءات لتجنب إصابات المدنيين. لقد كانت مشكلة تعبوية، مشكلة سوف نعالجها باستخدام المزيج نفسه المكون من استطلاع عصر المعلومات وتحديد الهدف، وهو ما أتقناه في جبال وصحارى أفغانستان، ولكن ذلك سيستغرق وقتاً. نحن نستطيع أن نحدد وندمر عربات مدرعة منفردة وقطع مدفعية بدون إحداث تدمير عال جانبي غير مقبول، وذلك بالضبط مثلما استخدمنا طائرات بريديتر لتحديد الأهداف للقاذفات لتقوم بإسقاط مقذوفاتها من وحدات القنابل الموجهة، وذخائر الهجوم المباشر المشتركة في مدن مثل قندهار وجلال آباد.

وبدا لي ممكناً أن جندنا سيقاتلون فوق ميدان معركة ملوث بالعوامل الكيميائية أو الحيوية. وهذا سيبطئ سير الأمور بوضوح، وخصوصاً إذا كانت قوات التحالف ملزمة أن تلبس الأقنعة، والقفازات ويزات الحماية من نوع بزات الوضع الوقائي المكيف بحسب المهمة في حرارة الصيف القاسية. تلك كانت، طبعاً، هي أسوأ حالة: المرحلة الثالثة يمكن أن تستغرق فيها حتى تسعين يوماً.

أما خططنا لمكافحة المقاومة من القوات غير النظامية فكانت خارج مدى هذا الإيجاز. ولكن مخططي في القيادة المركزية كانوا يدرسون تلك المشكلة كذلك. وأشارت معلوماتنا الاستخبارية أن تشكيلات مثل الأمن الخاص والحرس الجمهوري الخاص قد تلقت تدريباً في الحرب غير التقليدية. وكان هؤلاء هم الموالين القبليين لصدام، والمتطرفين البعثيين السنة أصحاب الامتيازات ممن تلطخت أيديهم بالدم، والذين لا يمكن أن يتوقعوا إلا القليل من الرحمة من الشيعة

والأكراد الذين ارتكب أولئك بحقهم المجازر طوال سنوات. وبعضهم، كما كنا نعرف، كان يفضل أن يموت على أن يستسلم. وعن طريق تدفق القوات التي تملك الخبرات الصحيحة لمواجهة المقاومة المسلحة وسحقها ، حتى بعد أن تكون المرحلة الثالثة قد اكتملت، فقد كنا عزمنا على أن نحتوي المقاومة في ذلك الاعتبار.

كنت أعرف أننا سنربح القتال، ولكننا لم نكن نريد أن ندمر العراق في العملية. نحن لا نريد أن نكرر أداء المارشالين السوفيتيين جوكونف(*) وكونيف(**)، وهما يحيطان ببرلين ويقصفان الأنقاض لتتحول إلى قطع أصغر لتدمير المدافعين. ولا يريد التحالف، في هذه المسألة، تكرار أداء الملازم تومي فرانكس على طول قناة كنه دوا، وهو يطلب عشرات مهام الرمي والضربات الجوية لدفع العدو إلى خارج المباني في ضواحي سايفون.

إن الحملة التي تخيلتها ستكون في الحقيقة "ثورة في الحرب"، إذا استخدمنا تعبيراً مبتدلاً تقاذفه المحترفون والهواة من الإستراتيجيين منذ أن شن الجيش الألماني حربه الصاعقة في العام 1939. نحن سوف نستخدم التجديدات التي تسترعي الانتباه والتي تخيلها المفكرون البعيدين النظر، ومن جملتهم المفكرون الذين عملت معهم في قوة مهام مناورات لويزيانا، قبل سنوات مضت. وسوف ندير مناورة سريعة مرنة، مقرونة مع قوة نيران دقيقة قاتلة.

وشرحت: "إن الجاهزية القتالية للقوات العسكرية العراقية تذبذبت خلال العام، ويتوقف ذلك على مرحلة دورة تدريبهم." وعرضت هذه الاعتبارات التوقيفية بالنوع نفسه من لوحات "أضواء المرور" الأحمر والأصفر والأخضر التي سبق لي أن

(*) جورج جوكونف (١٨٩٦ - ١٩٧٤م) رئيس أركان الجيش الروسي في الحرب العالمية الثانية، وجه الهجوم المعاكس ضد الألمان في ستالينغراد، ولينينغراد واحتل برلين ١٩٤٥م، وقبل استسلام النازيين، وهو من أبطال الاتحاد السوفيتي.

(**) إيفان كونيف (١٨٩٧ - ١٩٧٣م) مارشال سوفيتي، استعاد أوكرانيا وجنوب بولندا من الألمان وسيليسيا وتشيكوسلافيا وتشارك في احتلال برلين. وشغل منصب قائد القوات البرية السوفيتية وقائد قوات حلف وارسو وغير ذلك.

استخدمتها في إيجازاتي في أفغانستان. الضوء الأحمر كان يشير إلى أخطر مدة - قف، لا تتقدم. والأصفر كان يعني تقدم بحذر. وكان الأخضر يؤشر إلى الظروف الأمثل: تقدم بثقة.

كان جيش صدام عادة يجري تدريب الوحدات الكبيرة من مطلع شهر أيار/مايو إلى أواخر أيلول/سبتمبر. في هذه الأشهر، كنا نستطيع أن نفترض أن التشكيلات من مثل الحرس الجمهوري وفرق الجيش النظامي الجيدة ستكون كاملة الملاك وحسنة التجهيز بالأسلحة والذخائر. وستكون قيادتهم وسيطرتهم أيضاً في أفضل كفاءتها في أثناء تلك الأشهر من الصيف. بالنسبة إلينا كان ذلك سيناريو خط أحمر.

في شهري تشرين الأول و تشرين الثاني/أكتوبر ونوفمبر، كانت الوحدات العراقية الكبيرة ستبدأ بالاسترخاء، ولكن جاهزيتها القتالية ستستمر في البقاء عالية. الضوء الأصفر.

أما من شهر كانون الأول/ديسمبر وإلى شهر شباط/فبراير، فكانت القوات العسكرية العراقية تقليدياً تدير تدريباً لمستوى السرية وتدريباً فردياً. وكانت دباباتها تتحرك إلى ميادين الرماية، عندما لا تكون موضوعة تحت الصيانة. والجنود يحضرون دروساً في مراكز التدريب بعيداً عن قواعدهم البيئية. الضوء الأخضر.

والطقس أيضاً كان عاملاً. ونظراً إلى أن جندنا سيقاثلون على الأرجح في بزات الوضع الوقائي المكيف بحسب المهمة لحمايتهم ضد الأسلحة الكيماوية والحيوية، فإن حرارة الصحراء في النهار في وسط الصيف، والتي يمكن أن تصل إلى 130 درجة فهرنهايت، شكلت ضوءاً أصفر. والعواصف الرملية في مطالع الربيع كانت عائقاً آخر ينبغي تجنبه إذا كان ذلك ممكناً مطلقاً.

وقلت: "لذلك، سيدي الرئيس. فإن التوقيت العملياتي الأمثل سيكون من كانون الأول/ديسمبر إلى منتصف آذار/مارس."

لقد قدمت إيجازاً إلى مجلس الأمن القومي على هذا المستوى من التفصيل لأنني أردت أن أطبع فيهم التعقيد الذي تتصف به عملية قرارنا من منظور عسكري محض. وفي أثناء المؤتمر بالاتصال من بعد المصور بالفيديو قبل أسبوع، كان الوزير رامسفيلد قد رمى واحدة من قنابله البلاغية، متعجباً إن كنا سنقدر بشكل معقول على أن نبدأ حملة في نيسان/أبريل 2002، في أقل من ثلاثة أشهر، إذا لزم. ولكن انتشارنا يستغرق ثلاثة أشهر، وهذا ما سيضعنا في أيار/مايو. وأنا في الحقيقة، لم أكن أريد أن أبدأ العملية الأرضية بعد 1 نيسان/إبريل من أي عام قد يكون علينا أن نقاتل فيه.

وأملت أن هذا الإيجاز سوف يُسكِت التفكير الذي يرى أن قرار العملية في العراق سيكون مسألة سهلة تتطلب جنداً قليلين نسبياً. وبعض الموظفين في وزارة الدفاع كانوا قد اقترحوا بأن فرقة ثقيلة واحدة مع مساندة جوية ضخمة كانت تستطيع أن تفتح عنوة باباً ستسير من خلاله جماعات المعارضة العراقية المنفية منتصرة لتحرر بلادها. هذا الخط من التفكير كان غير معقول، وكنت أريد أن أستأصله بأسرع ما يمكن.

لم يسبق لأحد من هؤلاء "الإستراتيجيين" أن أرسل جنداً ضد الدبابات تي-72 العراقية. أما أنا فأرسلت. وإذا أمرني الرئيس أن أذهب إلى الحرب، فقد كنت أريد أن أذهب في الزمان وفي الطريقة التي تعطي عسكرينا أفضل فرصة لينجزوا مهمتهم بسرعة، وبأقل إصابات ممكنة.

وعلى لوحة أخرى، شرحت منطقتين مظللتين. النصف السفلي من اللوحة أشار إلى الاستعدادات العسكرية للمرحلة الأولى، ومن جملة ذلك تحديثات التجهيزات للجيش، وللقوة الجوية، وللوحدات البحرية التي كانت ستتشر أولاً، إضافة إلى تواريخ الاستكمال المقدرة للتوسيعات والتحسينات الجارية للبنية التحتية للموانئ والقواعد في المنطقة. والنصف العلوي من اللوحة أظهر التوقيت الممكن للجهود الدبلوماسية التي سيتوجب القيام بها بصفتها جزءاً آخر من المرحلة الأولى.

سيكون أساسياً لنا أن نربط انتشاراتنا وأعمالنا العملية مع أحداث إستراتيجية من مثل اجتماعات الأمم المتحدة، والزيارات الدولية، وفترات الأعياد. وهذا سيكون سهلاً نسبياً، ولكنه مهم جداً.

وشرحت: "لدي رحلات مبرمجة للاجتماع مع كبار القادة في المنطقة، وأستطيع بذلك أن أضع بعض الأعمال التحضيرية. ولكن سيتعين على الوزير باول والوزير رامسفيلد أن ينظما أوركسترا العمل الدبلوماسي الجاد الصعب. كلا الوزيرين أولاً برأسه، أما الرئيس فابتسم.

وأضاف آندي كارد: "سيدي الرئيس، سيكون لدينا انتخابات لمجلس الشيوخ في تشرين الثاني/ نوفمبر. ويتعين دراسة ذلك أيضاً في مناقشة التوقيت." وقاطع جورج بوش الكلام بسرعة وبحدة: "هذا ليس له اعتبار قطعياً، إذا كنا سنذهب إلى الحرب، فسيكون ذلك لأن أمن أمريكا يتطلب ذلك. لن يكون للتوقيت أي علاقة مع الانتخابات لمجلس الشيوخ أو الاستطلاعات." كنت أعرف أن الرئيس كان يكن الاحترام لكارد، ولكنه كان يرسل رسالة إلى فريق الأمن القومي: أولوياته كانت واضحة.

ومثل بقية أعضاء مجلس الأمن القومي، كان الوزيران باول ورامسفيلد يراقبان هذا التبادل الحاد بصمت. وأحسست بوجود توتر بين دونالد رامسفيلد وكولن باول. وما جاء ذلك التوتر مفاجأة لأي واحد عرفهما كليهما: فهذان موظفان عامان لامعان، متفانيان في الخدمة، وهما شخصيتان تمتلكان الإرادة والقوة والذات الملائمة لرتبتيهما الوزارية. عاملان لا يكلان من العمل، ويمتلكان رؤيتين إستراتيجيتين مختلفتين. لقد كانا "موهوبين" كما وصفهما كتاب الافتتاحيات في الغالب، مع قواعد متساوية من الخبرة ولكنها مختلفة اختلافاً كاملاً.

كولن باول رأى أمريكا بوصفها الأمة الأولى بين متساوين في عائلة الأمم الحرة. وأعتقد أنه رأى مهمة أمريكا في العالم خلق شبكات عمل دولية لتخفيف

التوترات في الشرق الأوسط وجنوب شرق آسيا، ومحاربة نقص المناعة/والإيدز والفقر، وتعزيز حقوق الإنسان، وكبح تهريب المخدرات، وتخفيض حواجز التجارة، وطبعاً، محاربة الإرهاب العالمي. ولكنه أيضاً وضع أسهماً كبيرة في منظمات دولية مثل الأمم المتحدة والنااتو، والمشاركات مثل تلك التي شكلت اتفاقية أوسلو لحل النزاع العربي الإسرائيلي العنيد.

ووزير الدفاع دونالد رامسفيلد أيضاً كان قد فكر من خلال طيف من أولويات الأمن الدولي قبل 9/11. ولكن، ومنذ ذلك الحين، فإن كسب الحرب العالمية على الإرهاب وتطوير وتحويل وزارة الدفاع صاراً، بحق، موضع تركيزه الرئيسي. وعندما أعلن الرئيس بوش إلى أمم العالم بأنها إما أن تكون معنا أو ضدنا في هذا الصراع، وافق دونالد رامسفيلد بدون تحفظ. ومثل مقاتل حرب باردة لجبهة جديدة، كان رامسفيلد مستعداً راغباً في أن "يدفع أي ثمن، ويتحمل أي عبء" كي "يدعم أي صديق، ويعارض أي عدو"، ليضمن بقاء أمريكا.

رامسفيلد آمن بالسياسة الواقعية. كان مستعداً أن يطير نصف الطريق حول العالم ليجلس في اجتماع لا يغادره حتى ينال ما جاء من أجله مع الرئيس الأوزبكي إسلام كريموف، وهو الذي كان سجله في حقوق الإنسان ملطخاً على أحسن الأحوال، لكي يؤمن القاعدة الجوية في خارشى خانيباد الحيوية للعمليات الأمريكية في أفغانستان. ويحتمل أن رامسفيلد كان سيتصافح مع الشيطان إذا كان ذلك قد عزز غاياتنا في الحرب على الإرهاب.

والصدع الذي نما في نهاية المطاف بين وزارتي الخارجية والدفاع على سياستنا بشأن العراق كان قد تم تصويره بوصفه ناجماً عن عداوة شخصية بين الوزيرين في الوزارة. ذلك تبسيط شديد. الرجلان رأيا العالم فعلاً على نحو مختلف، ولكن، في رأيي، كان التقاطع والتطابق في مسؤولياتهما، مقروناً بشخصيات مرؤوسيهما، هو السبب الحقيقي للاحتكاك في العلاقات اليومية بين الخارجية والدفاع.

وزارة الخارجية، وهي المسؤولة عن العلاقات الدولية والدبلوماسية، ترسل السفراء إلى الأمم المتحدة وإلى معظم الأمم المستقلة على ظهر البسيطة. وفي يوم معين، يستخدم كولن باول هذه الشبكة ليدفع قدماً بسياسات الولايات المتحدة التي راوحت بين حقوق الإنسان والمصالح التجارية. وعلى نحو مشابه، فإن وزارة الدفاع لديها ضباط عسكريون كبار في كل بلد عملياً، وهم يعملون مع السفراء في قضايا الأمن والقضايا العسكرية. وبدا كأن كل وزارة كانت أخطبوطاً، يصل بأذرعته حول العالم. وفي العديد من الحالات، فإن القرارات والأهداف العسكرية تؤثر في قدرة السفير على أن يقوم بعمله، وبشكل مشابه، فإن أولويات سفرائنا تؤثر بانتظام على العمل الذي يقوم به العسكريون.

وكذلك، فإن كلتا هاتين الوزارتين بيروقراطية ضخمة. وكل واحدة منهما تأتي مكتملة مع مئات من الشخصيات، والعديد من هذه الشخصيات يتصارعون من أجل السلطة، ويتصيدون بسناراتهم ليضمنوا أن يسير أي قرار محدد عن طريقهم. وطوال العام الماضي رأيت احتكاكاً كبيراً يتطور بين الوزارتين. وفي العديد من الحالات كانت وزارة الخارجية تنظر إلى وزارة الدفاع بوصفها مجموعة من الصقور، وهم ينادون بالعمل العسكري بدون اعتبار للعواقب الإقليمية أو الدولية. وكانت وزارة الدفاع تنظر إلى وزارة الخارجية بوصفها مجموعة من البيروقراطيين، المغرمين بعقد الاجتماعات وكتابة الأوراق، ولكنهم بطيئون في العمل في المسائل المهمة. وربما كانت الحقيقة موجودة بين القطبين، ولكن شيئاً واحداً كان مؤكداً: كانت الثقة بين الوزارتين غير كافية.

وازداد فقدان الثقة ذاك من نائب وزير الدفاع بول وولفويتز، ونائب وزير الخارجية ريتش أرميتاج، ودوغ فيث، مساعد وزير الدفاع للسياسات، والأعضاء الكبار من موظفيهم. لا تخطئ، فهؤلاء الرجال خدموا بلادهم بحماسة فياضة. دونالد رامسفيلد وكولن باول كانا موالين لهؤلاء المعاونين، ووجهات النظر التي طوروها والنقاط التي عرضوها طوال التخطيط للحرب ستجعل ذلك يبدو واضحاً

جداً. ولكن الالتزام العميق وغير المرن من هؤلاء المستشارين، في العديد من الحالات، بأفكارهم الخاصة كان التزاماً مصدعاً ومقسماً، عندما كانوا يسعون إلى التأثير على رؤسائهم، وفي النهاية على جورج بوش، بما يخص السياسة نحو العراق. في مناسبات عديدة جداً إلى حد بعيد تقالت بيروقراطية واشنطن مثل قطط في كيس. وأنا أعتقد أن استماعاً أفضل، ومزيداً من المرونة الفكرية، ومزيداً من الرغبة في التعلم والحلول الوسطية كان يمكن أن تخدم رؤسائهم، وتخدم القائد العام، وتخدم بلادنا خدمة أفضل.

في لوحة الإيجاز الأخيرة، وصفت وضع "قوة أمثل" على حدود العراق. ولكنني كنت أعني مزيجاً من الجند، والطائرات، والسفن التي كانت ستضيف وزناً لضغطنا الدبلوماسي، وتخدم بصفتها قلب الحملة الحاسمة في الوقت نفسه. وقد شددت، على أن نمط انتشاري المقترح، كان يستطيع أن يحقق هذه الغاية بدون استفزاز صدام إلى القيام برد فعل تجانبه الحكمة.

التحق رامسفيلد بالنقاش، لاعباً بذلك دور محامي الشيطان. هل سيتعين على القيادة المركزية أن تنتظر إلى كانون الأول/ديسمبر لتطلق عمليات حاسمة؟

كنت أعرف أن وزير الدفاع يريدني أن أؤكد لمجلس الأمن القومي أكثر التوقيتات ملائمة لعملية كبيرة ممكنة. وقلت: "سيدي الوزير، نحن نستطيع أن ننشر وننفذ في أي وقت يأمرنا فيه الرئيس بأن نفعل ذلك."

وسأل الرئيس بوش، وهو دائماً متنبه للصلة بين أسلحة الدمار الشامل والإرهاب: "هل نستطيع أن نذهب أبكر، إذا كان ضرورياً؟"

وأجبت: "نستطيع سيدي الرئيس. ولكن ذلك سيكون قبيحاً. عملية أطول، متتابعة بإصابات أعلى من الجانبين. وربما مع تدمير للبنية التحتية العراقية أكبر إلى حد ضخم مما إذا أدركنا نوع العملية التي وصفتها."

قال رامسفيلد، وهو يتحدث بالدقة المتشابكة التي كان يوفرها للبيانات المهمة: "سيدي الرئيس، الجنرال فرانكس يعمل على عملية أكثر تزامناً قد تكسر بالضبط

المقاومة العراقية في مدة أقصر، بشكل مهم، من تسعين يوماً للقتال الأرضي الرئيسي".

اخترت ألا أسهب. ففي الأسبوع الماضي، كنت أنا قد فتحت باب الكلام مع رامسفيلد عن فكرة عملية حاسمة من "خمس جبهات"، والتي ستدمج اقتحامات متزامنة من الكويت وتركيا، بقوات عمليات خاصة لتحتل بسرعة "سلال سكود" الموجودة في الصحراء الغربية، و"جبهة" معلومات مشتركة مع عمليات نفسية، مصممة لتفتيت عزيمة القوات العسكرية العراقية، وجبهة نيران عملياتية تستهدف بغداد ودفاعات حرسها الجمهوري.

وأضاف رامسفيلد: "نحن في مرحلة التفكير، المبكر في هذا".

وأوماً برأسه جورج بوش وأنهى الإيجاز. "عمل عظيم، يا تومي. استمر في المحافظة عليه. سوف نفعل ما سيتوجب علينا أن نفعله لحماية أمريكا".

كان مكيف الهواء في مركز العمليات المشتركة يزار، وجميع المقصورات مشغولة برجالها، والإليكترونيات المكدسة تضخ كثيراً من الحرارة.

جلست في محطة القائد، في التوهج الخافت للغرفة، أشاهد الصورة الجوية والأرضية في أفغانستان على الشاشات البلازمية. كان الوقت قبل الفجر في تامبا في يوم الخميس 7 آذار/ مارس 2002. فطوال خمسة أيام، كانت قوات التحالف محبوسة في القتال على السلاسل الجبلية العالية والمضائق الجبلية في منطقتي بكتيا وخوست. منذ خمسة أشهر إلى اليوم بعد أن بدأت الحرب، شكلت عملية أناكوندا(*) أول اشتباك كبير لقواتنا التقليدية في أفغانستان. ومزجت العملية المشاة الخفيفة من الفرقة الجبلية العاشرة والفرقة 101 المحمولة جواً، وقوات خاصة أمريكية وقوات عمليات خاصة بريطانية، وأسترالية، وألمانية، ودنمركية، وكندية، إضافة إلى جند أفغان من الباشتون والبانجشيريين.

(*) أنا كوندا: أفعى من جنوب أمريكا من فصيلة البواء. وهي من أقوى وأضخم الأفاعي في العالم، وتقتل فريستها باعترصارها وخنقها في لفاتها وهي غير سامة.

وكما عني اسم العملية فمهمة الأناكوندا كانت هي التطويق والاعتصار حتى الإبادة لقوة من القاعدة والطالبان قدرت أعدادها بما يصل إلى ألفين من العرب، والأفغان، والشيشان، والأوزبك، والباكستانيين المسلحين تسليحاً جيداً. وكان العدو من الباقين الذين هربوا من هجوم التحالف الذي سبق أن حرر معظم أفغانستان في شهر تشرين الثاني وكانون الأول/نوفمبر وديسمبر. وكثيرون من هؤلاء الإرهابيين كانوا قد دُفعوا إلى الجنوب من تورا بورا إلى وادي شاهي كوت الشديد الانحدار، والمحاط بسلسلة جبال ثلجية عالية فوقه، وكانت المنطقة مليئة بالخنادق، والاستحكامات، وحفر الهاون، إضافة إلى الكهوف والأنفاق التي سبق أن استخدمها مقاتلون مثلهم طوال سنوات.

وبخلاف الإرهابيين الذين سبق أن قتلوا أو أسروا، أو الذين نجحوا في الانسلاخ من خلال قوات الحواجز الباكستانية وقوات التحالف على الحدود الأفغانية الباكستانية، فإن قوات القلب الصلب من القاعدة وطالبان في وادي شاهي كوت كانت مصممة على ما يبدو أن تتمسك وتقاوم.

وكان قائد قوات الجيش، القيادة المركزية، الفريق بي. تي ميكولاشيك، وقائد الفرقة الجبلية العاشرة اللواء فرانكلين "بستر" هيجينباك قد اقترحا تنظيف شاهي كوت، ووافقت أنا على ذلك. وستكون العملية حاسمة: جهد موحد مركز قاتل. وقد أخبرتهم: "فكروا مشتركين. فكروا فكرياً بالاعتماد المشترك بين الخدمات."

لقد كنت أدفع بأهمية الحرب المشتركة إلى هذا الفريق منذ إيجاز القادة في أواخر شباط/فبراير، قبل أن تكون عملية أناكوندا قد برمجت لتبدأ. ووصلت المؤتمر بالاتصال من بعد المصور بالفيديو المأمونة وصلت القيادة المركزية بمركز العمليات الجوية في المملكة العربية السعودية، وبالمقر المتقدم لميكولاشيك في الكويت، ومع جمع من المشاركين الآخرين: بستر هيجينباك، والعميد غاري هاريل، والعقيد جون مولهولند الذي قاد القوات الخاصة في فيتنام، واللواء ديل ديلي الذي كانت تقع

على عاتق وحدات المهام الخاصة الموجودة تحت قيادته مهمة القبض على قيادة القاعدة أو قتلها.

استمعت عندما كان ميكولاشيك والقادة في أفغانستان يعرضون خطة ممتازة كانت تستفيد استفادة جيدة من المشاة الخفيفة التقليدية، وقوات الأفغان، والقوات الخاصة، ووحدات المهام الخاصة من التحالف. وقام الفريق من القوات الجوية بز موسلي، قائد العنصر الجوي في القيادة المركزية، بالإسهام بخطة جوية شاملة، ومن جعلتها استطلاع بالمركبات الجوية بدون طيار من نوع بريديتر، والمقاتلات القاذفات، وطيران المساندة القريبة من نوع ايه-10.

وفكرت وأنا أستعرض الخطة بأنها مؤثرة جداً. ولكنها ليست صحيحة تماماً. كانت هذه الخطط قابلة جداً للتصديق، ولكنها لم تكن منسقة تنسيقاً كاملاً. وذكرتي بعاصفة الصحراء، إنها خليط من عمليات الخدمات "مزلة التعارض"، وليست جهداً مشتركاً حقيقة.

وقلت: "أنا أحبها، ولكني أريدكم أيها الرجال أن يُقابل كل واحد من الآخر بطريقة شخصية. الكثير من الأجزاء المتحركة هنا. ضعوها معاً مثل ساعة."

وكنْتُ أنظر إلى بعض الضباط الجنرالات غير المستريحين على تلك الشاشات في المؤتمر بالاتصال من بعد المصور بالفيديو. ولكن الطبيعة الأم كانت إلى جانبنا. ففي بداية المؤتمر ذكر بستر هيجينباك إن الطقس السيئ قد يؤخر تاريخ البداية المرسومة في 27 شباط/فبراير إلى عدة أيام. وكانت هذه هي المرة التي كنت فيها شاكراً للطقس السيئ. هؤلاء القادة، وهم أصدقائي، وأركانهم استخدموا تلك الأيام الإضافية لفائدة كبيرة، ربطوا فيها المهام الأرضية والجوية ربطاً محكماً في خطة جديدة معدلة، هي حقاً عملية مشتركة.

وكان ذلك شيئاً جيداً، لأن قواتنا واجهت مقاومة معادية عنيدة في أثناء الأيام الثلاثة الأولى من العملية. في وقت مبكر من 2 آذار/مارس قادت زمرُ القوات

الخاصة قافلةً من حوالي أربعمئة مقاتل باشتوني نظموا حديثاً ، قادتها إلى وادي شاهي كوت، وهي المرحلة الأولى لعملية المطرقة والسندان. وكانت مهمتهم هي الهجوم على طول سلسلة الجبال الغربية وإجبار العدو على الدخول في مناطق تقتيل حيث ستكون عدة سرايا من جند الفرقة الجبلية العاشرة وقوات العمليات الخاصة قائمة بسد مواقع على الجوانب الجنوبية والشرقية من الوادي.

وكما يحدث في الغالب مثل ذلك في الحرب، فإن التفاصيل الموزونة بعناية للخطة لا تعيش بعد أول تماس مع العدو. وكما قلت دائماً، في أي خطة حرب يحصل العدو على صوت. وفي ذلك الصباح ألقى القاعدة بصوتها بالهاونات، وبوابل من قذائف آر بي جي، ونيران الرشاشات الثقيلة، وكلها من مواقع مخفية ومحصنة. ولتزداد العملية تعقيداً، فإن الجند الأفغان الداخلين من الشمال تم تحديدهم خطأ بوصفهم جنداً أعداء، وهوجموا من مساندة جوية صديقة.

وعندما حدث هذا بدأت المشاة الخفيفة من الفرقة الجبلية العاشرة وزمر قوات العمليات الخاصة بإدخالاتهم إلى مواقع في الممرات الثلجية التي قد تستخدم قواعد للهرب إلى داخل باكستان. ودافع العدو بشراسة عن مناطق الإنزال على طول سلسلة الجبال المكسوة بغابات الصنوبر. الطائرات العمودية ام آتش-47 شينوك ضربت بقذائف آر بي جي ونيران الرشاشات.

وكانت وحدات البحرية البرمائية، والقبعات الخضراء، والمفاوير النخبة، وخيالة الجبلية العاشرة يتلقون خسائر. وكانت أناكوندا تتحول إلى جحيم من القتال.

الطائرات العمودية المسلحة من نوع أباتشي من الفرقة 101 المحمولة جواً اشتبكت مع العدو على مدى قريب على سفوح الجبال الشديدة الانحدار، وقتلت العشرات، ولكنها تعاني من خسائر بين الطيارين وإعطاب للطائرات. وقام المسؤول عندي عن الإمداد والتموين، ديني جاكسون، بتنظيم جسر جوي من الطائرات العمودية المسلحة الإضافية، بينما شاركت البحرية من قندهار في القتال بطائرات سوبر كوبرا لتوفر المساندة بالطائرات العمودية المسلحة لنشر المشاة الخفيفة. وقام طيران ثابت الأجنحة بقصف مواقع القاعدة وكأنه سيرٌ ناقلاً حركة فعلي.

قاتل العدو بتصميم عنيف. وصار واضحاً في اليوم الثالث أن القاعدة عزمت على أن تكسب هذه المعركة أو أن تموت في المكان. وكانوا راغبين في الاشتباك مع قوات التحالف في التحام قريب بدلاً من معاناة القصف بالقنابل الدقيقة من طائرات غير مرئية، مثلما تلقوا في الأسابيع الماضية حول جلال أباد وقندهار.

عندما راقبت المعركة من مركز العمليات المشتركة، أظهرت الصورة الجوية سيلاً ثابتاً من المقاتلات القاذفات تعمل على الدائرة المتقلصة لمقاومة العدو على رأس الوادي وفي الكهوف على المنحدرات الشرقية والغربية. طائرات إيه-10 وورث هوغ كانت تضرب للقاعدة حفر الهاون، والاستحكامات، وكانت تدور ذهاباً وإياباً من القاعدة الجوية في باغرام. وطائرات بي-52 من ديبغو غارسيا كانت تدور عالية فوق المكان، وتسقط خيوطاً من ذخائر الهجوم المباشر المشتركة على مواقع العدو المحصنة. وكانت الطائرات العمودية الهجومية تضرب استحكامات القاعدة بمدافع سلسلية(*) عيار 30 ملم وبالصواريخ.

لقد وقفت القاعدة وقفتها المقاومة في ما كانوا يعتبرونه حصناً منيعاً لا يهاجم. وعندما حاول جند الاقتحام الجوي السوفيتي أن يستولوا على هذه المنطقة في الثمانينيات من 1980 تكبدوا مئات من القتلى والجرحى. ولم يهزموا العدو.

أما عملية أناكوندا فجاءت بنتيجة مختلفة. في هذه المرة كانت القاعدة والطالبان هم الذين تكبدوا الخسائر الثقيلة. كان التحالف يجتاح هذا المعقل الأخير، ويقفل الكهوف والأنفاق، والعدو في داخلها، بشحنات التدمير القوية، ويدمر مخابئ ضخمة للمعدات. كان شبابنا من رجال المشاة، وطيارى القتال، وجند قوات العمليات الخاصة، يقتلون مئات من مقاتلي العدو المسلحين أفضل تسليح، ولديهم أعلى دافع، وكان العديدون منهم محاربين قدماء قوتهم المعركة في القتال في الشيشان والبلقان. لن يبقوا أحياء ليقاتلوا ثانية.

(*) نوع من الرشاشات أو المدافع الذاتية التي تستخدم مصدراً خارجياً للطاقة هو محرك لتدوير السلاح بدلاً من الارتداد. المحرك يسوق السلسلة وهذه تزلق مجموعة الترياس للخلف وللأمام للتقديم، والرمي، ونزع الخرطوشات وقذفها.

وعندما اتخذت طريقي خارجاً من منشأة الاستخبارات الخاصة المقسمة وهي بلا نوافذ، أدركت أننا نكسب معركة حاسمة. قبل أن تنتهي عملية أناكوندا ستكون قد دمرت آخر قوات متماسكة مسلحة تسليحاً جيداً للعدو في أفغانستان.

طوال الأسابيع القادمة، كان هناك الكثير من روايات الصحافة المثيرة المؤثرة عن المعركة. العديد منها أشار إلى شجاعة جنودنا، ومهارتهم، وجلدهم، ولكن روايات أخرى وصفت "انهيارات" وأخطاء فاحشة كانت على ما يفترضون مسؤولة عن خسائر التحالف. قتل لنا ثمانية جنود خيالة في المعركة، وجرح اثنان وثمانون، من أصل 2027 جندياً اشتبكوا في أثناء العملية التي دامت أسبوعين. وكان من المستحيل حساب خسائر العدو بدقة، فالعديدون منهم نسفوا فتمزقوا إرباً، وآخرون أقفل عليهم في داخل الكهوف بالانهيارات الصخرية التي أطلقتها قواتنا بالشحنات المتفجرة، ولكن تقدير المعلومات الاستخبارية الأخيرة يرى أن مئات من جنود العدو قد قتلوا.

والأكثر أهمية، هو أن آخر ملجأ للقاعدة في أفغانستان قد تم تدميره. ولن يعاد بناؤه ثانية أبداً.

أنا بكيت بعد تلك المعركة، فقد كنت أجلت عواطفني إلى أن أستطيع تحملها، وذلك مثلما كنت قد رأيت إيريك أنتيلا يفعل قبل العديد من السنوات. فكرت في الزوجات، والأطفال، والأمهات، والآباء الذين كانوا يحزنون على فقد من يحبون، وحزنت معهم. ولكنني أيضاً احتفلت بحياة هؤلاء الأبطال الشباب.

عندما كنت في باغرام بعد اثني عشر يوماً، أدبّس القلوب القرمزية على صدور الشباب الشجعان من الفرقة الجبلية العاشرة وخيالة الفرقة 101 المحمولة جواً، سميت عملية أناكوندا "نجاحاً تاماً ومطلقاً". وردت الصحافة رداً سلبياً. وقد سألت: كيف تكون أي معركة نجاحاً عندما يكون أمريكيون قد قتلوا أو جرحوا فيها؟

عندما غادرت باغرام وطرت فوق تلال أفغانستان البنية المليئة بالندوب، فكرت في أسئلة المراسلين، وفي تكاليف الحرب. عندما تطلق نيران الأسلحة يموت الناس، على كلا الجانبين. وتذكرت أول مرة قرأت فيها حول العملية هسكي، وهي عملية تموز/يوليو من العام 1943 لغزو الحلفاء لجزيرة صقلية. مئات من الأمريكيين والبريطانيين من قوات المظليين والجند المحمولين على الطائرات الشراعية قتلوا عندما قامت القوات البحرية الصديقة البعيدة عن الشاطئ بالرمي خطأ على الطائرات الشراعية ووسائل نقلها. عندما أطلقت طائرات السحب تلك الطائرات الشراعية قبل مسافة قصيرة من مناطق إسقاطها، فأدى ذلك إلى سقوطها وتحطمها في البحر الأبيض المتوسط. خسائرنا لم توقفنا في العام 1943. لقد كنا مشتبكين في حرب البقاء القومي، وبقيت أمريكا محفوظة.

أنا أستطيع فقط أن أمل أن هذا الجيل الجديد من المراسلين سوف يصل يوماً ما إلى فهم طبيعة الحرب: حقائق القتال، والوجه القبيح للمعركة. وذلك لأن أمريكا كانت مشتبكة مرة أخرى في صراع من أجل البقاء.



الفصل العاشر

الخطبة

رامشتاين، ألمانيا

21 آذار/مارس، 2002

أظلمت الشاشة، وأضاءت أنوار غرفة الاجتماع، ووقفت أنا على رأس الطاولة. كان الوقت في أواخر أصيل يوم الخميس 21 آذار/مارس، 2002، في نهاية يوم طويل اشتغلنا فيه بخيارات العراق مع قادة عناصر القيادة المركزية في مركز إعداد المحاربين التابع للناتو عبر الطريق السريع من قاعدة رامشتاين الجوية. في خارج الغرفة، كانت منحدرات التلال من أرض السار قد بدأت تتبرعم لتتحول إلى خضرة الربيع. أما غرفة المؤتمر التي كانت معقمة، وبلا نوافذ فكان يمكن أن تكون في خط الاستواء أو في القطب الجنوبي.

وكانت هذه هي المرة الأولى التي جلس فيها قادتي لقوات الأرض، والجو والبحرية، والعمليات الخاصة مع مديري أركاني ومعني لمناقشة شكل ومجال عملية عسكرية ممكنة لإزالة نظام صدام حسين.

لقد عمل جين رينيوارت وجيف كيمونز عملاً بارعاً في تلخيص التكرار الحالي من تصور القائد. سبعة خطوط للعمليات، وتسع شرائح تمثل مراكز الثقل العراقية.

لخصت مناقشاتي مع الرئيس ومجلس الأمن القومي في كراوفورد وفي البيت الأبيض: إذا أمر الرئيس القيادة المركزية بالحرب، فإن العملية لن تكون استثنائاً وتكراراً لعاصفة الصحراء. سوف نذهب إلى داخل العراق سريعين وأشداء، لا بطيئين متثاقلين، منطلقين بأفضل تزامن ممكن من أكبر عدد من البلدان يستطيع المفاوضون بالجزرة- والعصا الأمريكية أن يقدموه لنا.

وقلت: "يأمل الرئيس ألا تكون الحرب ضرورية. ويعتقد مجلس الأمن القومي أن الدبلوماسية الثنائية والدولية قد تعمل." وهززت رأسي. كان يجب على هؤلاء الضباط أن يفهموا الطبيعة الحقيقية لمسؤوليتنا. "القيادة المدنية سوف تفاوض، في الأمم المتحدة ومع رؤساء الدول والوزراء حول العالم. بالنسبة إليهم، التخطيط العسكري خطوة حسيطة. وواجبنا نحن أن نعمل ذلك التخطيط." وتركتهم يستوعبون كلماتي.

وقلت: "يا رجال، يوجد في البيت لص." وفهموا جميعهم تعبير القوات الخاصة: أنت لا تقلب في فراشك وترجع للنوم عندما يكون هناك واغل دخیل في الدور السفلي من البيت يحمل مسدساً. كانت هذه مهمة عاجلة، مهمة سوف تتطلب تركيزهم الكامل. "نحن نحتاج إلى تخطيط صلد كالصخر، تخطيط مشترك لتنفيذ مشترك."

ونظرت حول طاولة الاجتماع. كنا نلبس ملابس مدنية "أوروبية-عادية" لأسباب أمنية، ولكن كل واحد منا حمل معه بطاقة اسم صغيرة على معطفه أو كنزته الرياضية. وقلت: "أرى الجيش، والأسطول، والقوات الجوية، وسلاح مشاة البحرية على بطاقات أسمائكم. ولكن البطاقات التي أريد أن أراها ستقرأ قوات مشتركة: جميع الخدمات تعمل معاً كأنها واحدة."

"هناك في مقاطعة باكتيا في الماضي القريب كان الجنود، وقوات البحرية البرماجية، وملاحو القوات الجوية، وطيارو كوبرا البحرية، ورجال وحدات المهام الخاصة بقيادة بيرت كوللاند وديل ديلي يقاتلون، ويموتون، ويقتلون القاعدة. لم تكن هناك حملات أرضية، أو حملات جوية، أو حملات قوات خاصة. كانت هناك خطة متكاملة واحدة، وقاتل جماعتنا بوصفهم قوة مشتركة."

واجتذب ذلك نظرة رضا من قادة العناصر.

وقلت لهم: "إذا تعين علينا أن نقاتل في العراق، فسوف نفعل ذلك فريقاً

مشتركاً. لن نأخذ أوامر من رؤساء الخدمات في واشنطن. أنا سأخذ أوامري من وزير الدفاع... وأنتم ستأخذون أوامركم مني. لا وقت للرعاية الضيقة من الخدمات."

ورفعت يدي. "نقطة أخيرة. ما ناقشناه اليوم لا يتجاوز الأشخاص الموجودين في هذه الغرفة. هذه القيادة لا تسرب. نحن عسكريون محترفون، لا مجموعة من التافهين... النفعيين."

كنت أستطيع أن أرى أن رسالتي قد تسجلت.

وقلت: "حسناً، هيا نذهب لنشرب البيرة ونأكل بعض شرائح شنيتسل (*).

واعتقدت أن الجلسة سارت سيراً حسناً. وعرف القادة الواجب الصعب الذي ينتظر أمامنا. واعتقدت أنهم فهموا مشاعري حول قتال الحرب المشتركة... والتسريبات.

ولكن في صباح يوم في مطالع شهر أيار/مايو وكنت قد رجعت إلى تامبا، أحضر لي مديري للعلاقات العامة العميد البحري كريغ كوكلي، نسخة من قصة جريدة لوس أنجيلوس تايمز بقلم وليام آركن، وهي قصة كانت محملة بتفاصيل متسرية حول اجتماع رامشتاين وتخطيطنا للعراق. وبحسب مصادر آركن في البنتاغون والتي لم يذكر اسمها، كان التخطيط "مفرطاً بالتبسيط وقصير النظر". وانتقد آركن أيضاً عملية التخطيط المتكررة (التي كانت قد "برزت في شباط/فبراير" حسب ما كتب) مشيراً إلى مسؤولين كبار في وزارة الدفاع، ومدنيين لا يرتبطون بأي خدمة مفردة. "ومصادر وزارة الدفاع غير المعروفة اتهمت القيادة المركزية بالعجز الفاضح، وعدم الكفاية الإستراتيجية، وبتجاهل "العناصر الناجحة" من عاصفة الصحراء، والحملة الجوية على كوسوفو، والعمليات في أفغانستان. واحتوت القصة على أسرار عالية من المعلومات المقسمة، ومن جملتها خيارات من أجل القيام بعمليات أرضية وجوية متزامنة من اتجاهات عديدة.

(*) شرائح لحم رقيقة من العجل أو الضأن. تغمس بمزيج من الدقيق والبيض والحليب ثم تقلى.

وأخبرت كريغ كوكلي: "هذا سيكون مضحكاً، لولا كل هذه الإحالات إلى "الأسرار العليا في خطوة بولو". خطوة بولو، كانت الاسم الرمزي للتخطيط المقسم الحساس.

كان واضحاً أن شخصاً ما كان معي في رامشتاين قد روى محتوى اجتماعنا إلى عضو غير مسمى أو أعضاء من مجتمع وزارة الدفاع، وأن ذلك الشخص سرب أحشائه للخارج، صاباً هجومه على خيارات التخطيط التي كنا نطورها، وهي خيارات لم تتلاءم على ما يبدو مع آرائه. وقالت المقالة: "إن خطة العراق التي بدأت تبرز لم تُستحضر أبداً إلى (غرفة القيادة) رسمياً، لمناقشتها بين رؤساء الخدمات كلها". وفكرت أن هذا هراء... مطلق. ففي 29 آذار/مارس، قدمنا إيجازاً لرؤساء الخدمات، في غرفة القيادة. وقد رأينا الكمية العادية من الرعاية التي قدمتها الخدمات وهي غير مطلوبة، ولكن ديك مايرز بقي ممسكاً بالزمم مع الرؤساء، وكانت جلسة مثمرة.

وما كنت لأترك غضبي من هذا الذي حدث يتدخل بعلمي، طبعاً. ولكني سوف أجعل وزير الدفاع يعرف ما كنت أرى في هؤلاء المسريين في وزارة الدفاع، الذين كانوا يعرضون أبناء أمريكا وبناتها للخطر.

وقلت لرامسفيلد في أصيل اليوم التالي: "سيدي الوزير، إذا كنت أبدو غاضباً فذلك لأنني غاضب فعلاً". وذكرته فقط بكمية المواد المقسمة التي ظهرت في قصة آركن. "أنا أود أن يعرض على آلة كشف الكذب كل واحد يعمل في مكتب وزير الدفاع وفي هيئة رؤساء الأركان المشتركة، ويعرف التفاصيل عن عملية تخطيطنا، وأن يلاحق إذا اكتشف أنه قد سرب معلومات أسرار عالية."

وجعلني رامسفيلد أبرد. وقال: "إنه أمر لا يصدق."

"سيدي الوزير، إن واشنطنون دي. سي هي الوعاء الوحيد على هذا الكوكب الذي يسيل تسربه من أعلى."

"سوف أنظر فيها، يا جنرال."

طوال الأيام القليلة التالية عقد رامسفيلد اجتماعات "تعالوا إلى المسيح" مع رؤساء الخدمات وأركان مكتب وزير الدفاع، وناقشت أنا إحباطي من التسريب مع أركان القيادة المركزية ومع عناصره. تباطأت التسريبات بعد ذلك. وعلى الرغم من أن بعض "القطرات" استمرت بالتسرب، ولكنها لم تكن مضرّة أبداً مثل المعلومات التي قدمها ابن ح... للمراسل ليخدم نفسه.

كانت غرفة الموقف في البيت الأبيض باردة برودة تبعث على السرور بعد حرارة آب/أغسطس المبهكة في قلب المدينة واشنطن. وكان كولن باول وجورج تينيت قد وصلا كلاهما قبل قليل، بعد أن كانت ذروة المرور الكثيف قد أمسكتها كليهما. وكل ياقات قمصاننا كانت رطبة من التعرق.

وألقى أحدهم ملاحظة بارعة عندما كان باول يأخذ مكانه إلى جانب الرئيس: "إن البريطانيين ما يزالون يصنفون واشنطن بصفته موقعاً مدارياً شديداً المشقة."

وقد جئت أنا وجين رينيوارت إلى البيت الأبيض في يوم الاثنين الأول هذا في شهر آب/أغسطس لتقديم إيجاز للرئيس وللمجلس الأمن القومي عن آخر نسخة مما صار يعرف باسم خطة العمليات 1003 V، فهي لم تبق تصوراً، وهي الآن خطة مكتملة النضج. وسوف نلخص التقدم الذي أحرزناه منذ اجتماعنا في كامب ديفيد في شهر أيار/مايو، عندما عرضت ووصفت أنا سلسلة من الخيارات العسكرية لإزاحة صدام حسين من السلطة.

في اجتماع أيار/مايو ذاك، وفي واحد من أفصح العروض التي سبق لي أن سمعتها مطلقاً، بسط كولن باول قضيته وبين فيها أن العالم اليوم كان مختلفاً إلى حد بعيد عما كان عليه في المدة 1990-1991، عندما تم تشكيل التحالف لإزاحة صدام من الكويت. وحاجاً بأنه لن يكون من السهل بناء تحالف كبير، واصطفاف إجماع في الأمم المتحدة لصالح العمليات العسكرية. عرض كولن لم يكن سلبياً،

ولا إيجابياً، كان ببساطة بياناً للواقع كما رآه. وعندما كنت أنصت، تأثرت بتوازن ما كنت أسمع. وزير الخارجية كان يصدر تحذيراً: هذا لن يكون سهلاً. ولكن لم يكن هناك محاجة، ولا اعتصار أيدي. في عدة نقاط في أثناء المناقشة أومأ الرئيس ونائب الرئيس تشيني برأسيهما بالموافقة. وقال باول: "لا أعرف إن كنا نستطيع أن نحصل على كل الدعم الدولي الذي نحتاج إليه أم لا. ولكننا سنحاول." أنا كنت موافقاً على أن الأمم المتحدة ستكون صعبة، ولكنني كنت أفكر أنا نفسي بجدية بشأن حاجتنا التحالفية، وفي رأيي أن الأمم الموجودة في منطقة القيادة المركزية سوف توفر كل الدعم المطلوب، إذا لم يكن كل الدعم المرغوب.

بين منتصف أيار/مايو وأواخر تموز/يوليو، قمت بثلاث رحلات إلى منطقة المسؤولية، وكنت أركز فيها على تحسينات البنية التحتية وبناء قواتنا. واجتمعت مع القادة في قطر، وعمان، والإمارات العربية المتحدة، والبحرين، والأردن. وكالمعتاد دائماً، زرت جندنا في أفغانستان.

تولى الفريق دان ماكجيل، قائد الفيلق الثامن عشر المحمول جواً، القيادة لقوة المهام 180، قوة تحالفنا، وأسس مقره في القاعدة الجوية في باغرام. وكنت قد خدمت مع دان في كوريا في أثناء التسعينيات من 1990، وكان محارباً قديماً محنكاً، ولقد سررتني أن يكون معنا في فريقنا.

وشدد الرئيس بوش على اهتمامه بأن نديم الزخم في أفغانستان، ولو نفذنا الخطة V 1003 في العراق. وأنا وافقت، وأخبرته: "سيدي الرئيس، سوف نستمر في التركيز على أفغانستان، لأن عملياتنا هناك من الناحية الإستراتيجية ستكون هي (جناح) العراق. وبعد أن كنت قد ناقشت هذا مع الوزير رامسفيلد، اتفقنا على أن مستوى قوة الولايات المتحدة سيبقى في حدود 9.500 جندي ما لم يكن هناك سبب للتغيير، وعند هذه النقطة سوف نناقش ذلك المستوى. كان دان ماكجيل هو بالضبط الرجل الذي نحتاج إليه على الأرض، ليحافظ على الضغط على أسامة بن لادن وبقايا القاعدة. ومع تحركنا نحو الحرب مع العراق، التحق دان بالفريق، وصار

عضواً في القيادة المركزية، وحضر كل جلسة للتخطيط وكل إيجاز. وبعد أن كنت قدمته للرئيس مشرف ولحامد قرضاي، أقام هو علاقات لا تعوض معهما ومع الآخرين من القادة الإقليميين. وبسبب جهوده، فإن مهمتنا في أفغانستان لم تعان من شيء.

الآن، والرئيس وأعضاء مجلس الأمن القومي يستمعون، أعلنت التقدم الذي أحرزناه في الخطة.

وقلت: "سيدي الرئيس، إذا اتخذ قرار لتنفيذ عملية عسكرية في العراق، فلن يكون علينا أن نذهب إليها وحيدين. نحن نمتلك موافقات مؤقتة للدخول، والطيران فوق البلاد، وإقامة القواعد، وترتيب التمرحل عبر كل الخليج."

كانت الغرفة هادئة. لقد سبق لي أن ناقشت مع رؤساء الدول الإقليمية ومع وزراء دفاعهم تحديث القواعد التي استخدمناها بشكل رتيب للتدريب ولترتيب تمرحل القوات للعمليات في أفغانستان. وبشكل خاص، أخبرتهم أننا كنا نحسن البنية التحتية ووضع القوات تحسباً للحالة التي قد يصير فيها من الضروري نزع سلاح العراق بالقوة. وكانت الكويت دائماً مشاركة، وكانت هي مرساتنا. ولدينا الآن التزام الملك عبد الله ملك الأردن وقادة دول الخليج للسماح بالتمرحل، والقواعد، والطيران فوق البلاد، وذلك للقوات البحرية، ولطيران القصف والاستطلاع، ولصهاريج إعادة التزود بالوقود، ولقوات العمليات الخاصة، في عدد من المواقع الإستراتيجية القريبة من العراق.

ومنح أمير قطر الشيخ حمد بن خليفة آل ثاني، الإذن بوضع الطيران المقاتل في العُديد، وبنقل مركز قيادتنا القابل للانتشار إلى معسكر السيلية حالما ينتهي على يد مقاوليننا في فلوريدا.

وذُكرت الأمير بأنني في أول لقاء لنا بعد أن صرت قائد القيادة المركزية، كنت قد سألته ماذا أستطيع أن أفعل له؟

وكان هو قد رد مع ابتسامة: "أرسل لي عشرة آلاف جندي أمريكي".

وفي أحدث رحلة لي إلى قطر، حققت له طلبه. وقلت له: "قد أكون تأخرت لسنتين، ولكنك ستحصل على جندك الأمريكيين".

أنصت كولن باول بانتباه عندما امتدحت السفراء الأمريكيين في المنطقة على مساعدتهم في تحقيق النتائج التي كنت أصفها. وتبسم وأرجع الفضل لدبلوماسيته على كل ما أنجزوه.

وقال: "ناس جيّدون".

وقلت: "سيدي الرئيس، كما سبق أن أعلمت الوزير رامسفيلد، فإن كل قائد إقليمي يفهم أننا ندير تخطيطاً طارئاً، وأنت لم تتخذ قراراً للذهاب إلى الحرب". وأوماً رامسفيلد برأسه.

وقلت للرئيس: "ومع تطابق (دورات) حاملة الطائرات، ومع زيادة انتشارات (التدريب) كذلك لكتائب فرقة المشاة الثالثة إلى الكويت، ومع زيادة عدد الطائرات التي نمتلكها في عملية مراقبة الجنوب، نكون قريبين من امتلاك قوة تستطيع أن تنفذ الخيارات الأحمر، أو الأبيض، أو الأصفر، إذا صار ذلك ضرورياً".

منذ 9/11، كان أعضاء مجلس الأمن القومي قد استوعبوا الكثير من المعلومات العسكرية التفصيلية. ولكنهم كانوا سيتلقون منها المزيد الكثير.

وتابعت: "فرقة المشاة الثالثة هي وحدة مشاة آلية مع دروع ومدفعية مرتبطة ارتباطاً عضوياً فيها وتمتلك سنوات من خبرة في الصحراء وهي تناوب في دوران ألويتها في الكويت. ولا يبدو منذراً منبهاً للعراقيين أن وحدات تلك الفرقة تصل إلى ميادين تدريب الكويت ومعها قواذف إضافية من نظام قذف الصواريخ المتعددة وطائرات عمودية هجومية. ببساطة، استخباراتهم ليست متقدمة بما فيه الكفاية لتعي وتلاحظ مثل هذه التغيرات المتزايدة".

وقال الرئيس: "أفهم تماماً"

وقلت وأنا أنظر في ملاحظاتي: "لقد طيّرنا أكثر من أربعة آلاف طلعة فوق العراق منذ كانون الثاني/يناير، واستهدفت الدفاعات الجوية العراقية طائراتنا أو خرقت مناطق حظر الطيران اثنتين وخمسين مرة. وذلك ضعف معدل العام الماضي."

وسألت كوندي رايس: "هل سيكون منطقياً مفهوماً أن نخفض مخاطرتنا بتقليل عدد الطلعات؟"

وأجبتها: "يا كوندي، عند نقطة ما ربما سيكون مفهوماً أن نقلل الطلعات، ولكن ليس بعد. نريد أن نستمر باستخدام خيارات الرد لتخفيض نظام الدفاع الجوي المتكامل العراقي. إذا وصل الأمر مطلقاً إلى الحرب، فسنريد لنظامهم الدفاعي الجوي المتكامل أن يكون في أضعف حال ممكن له."

أظهرت اللوحات التالية ذراً وأودية في تدفق قواتنا. وقلت: "في غضون شهر، ستكون لدينا عناصر المقدمة لقوة بداية الركض في مكانها."

وسأل دونالد رامسفيلد: "ولكن هذه الخطوات لا تأخذنا إلى ما وراء نقطة اللاعودة؟"

"لا، يا سيدي الوزير."

واللوحة التالية كانت معنونة: التوقيت المعدل. وقلت: "مع التعزيزات الحالية للقواعد وللبنية التحتية تمت مراجعة المدة المتوقعة للمراحل الثلاث الأولى للعملية الكلية إلى خط التوقيت 45-90-90."

وبكلمات أخرى، نستطيع أن نبدأ العمليات بنشر قواتنا في الوقت الذي نطلق فيه حملة جوية وقوات عمليات خاصة لتشكيل فضاء المعركة: وجميع ذلك سوف يستغرق حوالي خمسة وأربعين يوماً. وفي أثناء ذلك الوقت، سوف نستهدف المواقع العراقية المشتبه بوجود أسلحة الدمار الشامل فيها، وتشكيلات الحرس الجمهوري، وإنشاءات القيادة والسيطرة، ومنع استخدامهم للصواريخ الباليستية في المسرح.

وستبدأ القوات الأرضية بالوصول وتتحرك من خلال مناطق تمرجلها، في الكويت ومن الممكن في تركيا، إلى داخل العراق، وسوف تستمر عملياتها القتالية الأولى طوال التسعين يوماً التالية. وسوف تدار بعدئذ "عملياتنا التعرضية الحاسمة" طوال مدة أقصاها ثلاثة أشهر كي "نستكمل تدمير النظام". وأضفت "من الواضح أن هذا الخط 45-90-90 سوف تتلوه المرحلة الرابعة وهي أطول بكثير. ولست أعرف كم ستطول".

"ونسميها بداية الركض لأن الوحدات التي تصل المسرح لن تنتظر لتصل قوات المتابعة اللاحقة، ولكنها بدل ذلك ستتحرك قدماً بشكل مباشر نحو أهدافها". وسأل ديك تشيني: "يا جنرال فرانكس، هل ستبقى الأهداف الكبيرة لبداية الركض من دون تغيير؟"

وكان الجواب نعم. "فإن كلا من الهدف الإستراتيجي المتعلق بتغيير النظام، وأهدافنا العملية المتعلقة بتأمين حقول الزيت والبنية التحتية للماء تبقى من دون تغيير، في الوقت الذي نمنع فيه صدام من استخدام الصواريخ الطويلة المدى، وأسلحة الدمار الشامل".

لوحتي التالية حملت عنوان: تصور هجين. مزيج من خيارى التصور المولد وبداية الركض. ومثل بقية التصورات التي نظرنا فيها كان للتصور الهجين أربع مراحل. الانتشار الأولى في المرحلة الأولى منها سوف يتسارع إلى درجة كبيرة بواسطة جسر جوى ضخيم، يستخدم الأسطول الجوى الاحتياطي المدنى لنزىء قدراتنا العسكرية فى النقل. عشرات الآلاف من الجنء سينقلون إلى منطقة الحرب فى أسبوع. وفى أقل من أسبوعين بعد ذلك سوف يقترنون مع تجهيزاتهم، التي ستكون مشحونة عن طريق البحر. وهذا البناء لقواتنا سوف تحميه مظلة جوية قتالية من ثمانمائة طائرة قصف على متن حاملات الطائرات ومن القواعد الأرضية فى جميع أنحاء الخليج. وفى المرحلة الثانية، سوف نطلق عمليات جوية وقوات عمليات خاصة إلى داخل العراق لمدة حوالى أسبوعين لتدمير مجموعات الأهداف

الرئيسية وإقامة الظروف اللازمة لنشر وحدات ثقيلة. وبعدها سوف تطلق الوحدات الثقيلة عملياتها في المرحلة الثالثة، التي يمكن أن تدوم حتى تسعين يوماً، وسوف تستكمل تدمير القوات العسكرية العراقية.

وشرحت: "إن التصور الهجين تتابعي قليلاً، ونحن نفضل العمليات المتزامنة من أكبر عدد ممكن من الاتجاهات. ولكن قيمة التصور هي أنه يعطي الرئيس خيار الانتظار لبناء القوات... أو أن يهاجم في وقت أبكر إذا اختار"

وأضفت: "إذا استخدمنا الأسطول الجوي الاحتياطي المدني، سيدي الرئيس، فستكون بالتأكيد لحظة نموذجية لحظة سي إن إن. ولكنها لن تلزم البلاد بالحرب. سنكون قد كشفنا مواردنا ونوايانا، ولكننا لم نبدأ بعد بإطلاق النار." فكر الرئيس بوش في هذه الخطة. ثم قال: "جيد، نحن لسنا ذاهبين إلى الحرب ما لم يتوجب علينا."

وتابعت: "إن نشرنا سريعاً للقوة يعزز قدرتنا العسكرية على حدود العراق، ويساعد أيضاً في تنظيم الضغط الدبلوماسي على نظام صدام."

كان أعضاء مجلس الأمن القومي يتأملون لوحة التصور الهجين باستغراقٍ، وكنت أريد أن أتأكد من أنهم فهموا مرونة النموذج. وشرحت للرئيس: "هذا ليس محفوراً في الحجر، هناك الكثير من التنوعات الممكنة. ولكن الفكرة الأساسية هي أننا بعد أن نكون قد امتلكنّا البنية التحتية المطلوبة في المكان، نستطيع أن نوسع مستوى جندنا بشكل سريع جداً، وننتقل إلى العمليات الحركية في أي نقطة من اختيارك، وأن ندفع قوات المتابعة خلف وحدات المقدمة."

وأوماً الرئيس برأسه ثانية.

والتفت إلى لوحة مخاطر إستراتيجية. "مثلما ناقشنا، فإن صدام حسين يستطيع أن يزيل التزامن عن هجومنا عن طريق إطلاق صواريخ على جيرانه. ويمكن أن تكون الكويت، والمملكة العربية السعودية، والأردن، وإسرائيل أهدافاً له، مع كون إسرائيل هي أخطر الجميع علينا من منظور إستراتيجي."

وشرحت أنها ستكون خطوة حصيفة، لمواجهة هذا التهديد، أن ننشر صواريخ باتريوت بي ايه سي-3 في المنطقة. وهذه النسخة المحدثة للباتريوت تقدم حماية كبيرة من صواريخ سكود وغيرها من الصواريخ الباليستية في المسرح، وتستطيع صواريخ الباتريوت أن تعزز الصاروخ الجديد أرو 2 المضاد للصواريخ الباليستية في المسرح، وهو الصاروخ الذي كان الإسرائيليون يضعونه في الميدان. "إذا نشرنا صواريخ بي ايه سي-3 الآن، سيدي الرئيس، فإننا نستطيع أن نخفف إن لم نستأصل المشكلة".

كان الرئيس ينصت بانتباه. "يا تومي، كيف تتعامل مع مشكلة بغداد". "القلعة بغداد" كانت مبعث اهتمام مستمر بين القيادة المدنية، وكنت أجمع وأتأاور مع كبار أركانني في المسألة طوال أسابيع. التصوير من أعلى ومعلومات الاستخبارات الإلكترونية أكدت أن فرق الحرس الجمهوري ووحدات الحرس الجمهوري الخاص التي كانت متمركزة في بغداد وحولها هي عرضة للهجوم الجوي بالذخائر الموجهة الدقيقة. ونحن كنا نعمل على ما دعوته الاقتراب: "من الداخل- إلى الخارج": فبدل المهاجمة من خارج النطاق الدفاعي الموجود حول العاصمة، فإننا سوف ندمر العدو الموجود داخل النطاق بهجوم جوي لا هوادة فيه، يعمل من المركز متجهاً نحو الخارج. وكلما كانت مواقع الحرس الجمهوري أكثر تجمعاً، صارت أكثر تعرضاً وانكشافاً. والمهاجمة في داخل بغداد وحولها تكتسب منفعة مضافة أخرى وهي جعل المدينة "غير مضيافة" للقوات التي تبحث عن مكان تختبئ فيه. وكما قال لي إيرك أنتيلا قبل ثلاثين عاماً، "لا تسبح الجرذان أبداً نحو سفينة تغرق".

ولكن التصور كان يحتاج إلى مزيد من العمل، ولذلك فقد أعطيت الرئيس جواباً حذراً. "أنا متفائل بأننا سنمتلك حلاً عملياً للمشكلة قريباً، سيدي الرئيس. وسوف أحضره إلى الوزير رامسفيلد حالما نمتلك شيئاً صلباً".

ومثل "التحديات" التي فرضتها على نفسي في بطاقتي اليومية من قياس ثلاثة في خمسة، فإن هذه الغرفة قدمت أسئلة تستثير العقل ولا تعاني من قلة:

"ماذا لو سد العراقيون خطوط أنابيب النفط إلى الأردن، وسورية، وتركيا؟"

"هل الجبهة الشمالية من تركيا إمكانية حقيقية؟"

"ماذا يحدث إذا استخدم صدام أسلحة الدمار الشامل على جندنا؟"

"أيحتمل أن ينسف البنية التحتية المائية؟"

وجميعها أسئلة جيدة، وناقشنا كل سؤال بدوره. ما من سؤال منها سيجاب عليه إجابة كاملة في هذه الجلسة، ولكن الآن وبعد أن صار العديد من المسائل موضوعاً على الطاولة، فإن الرؤساء سوف يتفكرون ويقترحون حلولاً ممكنة في الشهر القادم. كان هذا جمعاً مفكراً من اللاعبين: وأنا أحسست بمزيد من عمل الفريق بينهم جميعاً بأكثر مما ستقر به وسائل إعلامنا القومية مطلقاً.

وعندما تباطأ النقاش، قدمت مجموعة من المشكلات الصعبة تحت عنوان منفرد: النجاح الكارثي.

إذا "انكسرت" المقاومة العراقية فعلاً بسرعة، كما كنت أظنه ممكناً، أو إذا أطاح انقلاب عسكري بنظام صدام حسين عند انطلاق الحملة، أو تطورت انتفاضات مبكرة بين الشيعة والأكراد، فماذا سنفعل؟

قال دونالد رامسفيلد: "سوف نتابع العملية لاستعادة وصيانة النظام إلى أن يستطيع العراقيون أن يحكموا أنفسهم."

ووافق أعضاء مجلس الأمن القومي على قلب رجل واحد.

وقدمت إيجازاً للغرفة عن التهديد، مبتدئاً كالمعتاد بالأساسيات. واستخدمت صور مباني النظام المهمة في قلب بغداد ومركزها، ومن جملتها مقر حزب البعث ومركز قيادة المخابرات وهي منظمة أمن خاصة، وشرحت كيف أن تدمير هذه البنى سوف يعمي ويشل حلقة القيادة الداخلية لصدام.

وقلت: "نحن نعرف أين هم، ونحن نعرف من يعمل هناك." وسيكون قتل قادة

النظام وتدمير جهاز القيادة والسيطرة أولوية. ولن يكون هذا مثل البحث عن الملا

عمر في جحر من قوالب اللّبن أو مجمعات طوب الإسمنت والرماد في قندهار. ستكون أسلحتنا المختارة هي صواريخ توماهوك للهجوم الأرضي، وذخيرة الهجوم المباشر المشتركة، وكل ما هو متوافر من الذخائر الموجهة الدقيقة التي نسميها بمختصرات تضم الحروف الأولى من أسمائها. وهذه الأهداف تقع قريباً من مباني الشقق الخاصة بذوي الدخل العالي والبيوت الخاصة، والكثير منها تعود ملكيته إلى قادة النظام ومحبيه. ولكن النخبة السياسية والتعليمية للعراق، من الأطباء، والمهندسين، والمديرين الذين استدعو الحاجة إليهم لإعادة بناء بلدهم، تسكن أيضاً في هذه الأحياء.

أكدت لمجلس الأمن القومي: أن "خبراء التهديد في القيادة المركزية يعملون بجد في هذه المشكلة. ومجموعة الأهداف في شريحة قيادة النظام هي جوزة قاسية. ولكننا سنكسرها".

وكانت لوحتي الأخيرة، على وجه الإمكان، هي أهم اللوحات: عمليات الاستقرار في المرحلة الرابعة.

وشرحت قائلاً: "إن التصور المولد وبداية الركض والتصور الهجين كلها تنظر إلى المرحلة الثالثة وقد انتهت بوجود عدد من الجند في العراق أقصاه مائتان وخمسون ألف جندي. وسيكون علينا أن نقيم جيشاً عراقياً جديداً، وننشئ شرطة تشمل خليطاً ممثلاً قبلياً، ودينياً، وعرقياً. وسوف يستغرق ذلك وقتاً.

"ومشاريع بناء حسنة التصميم وجيدة التمويل لوضع الأعداد الكبيرة من العراقيين في العمل ولمواجهة حاجات المجتمع بسرعة، ومواجهة التوقعات، ستكون هي المفاتيح لنجاحنا في المرحلة الرابعة."

وقال دون رامسفيلد: "وسنرغب في جعل العراقيين في موقع المسؤولية عن العراق بأسرع ما يمكن." وعند سماع كلماته أومأت الرؤوس حول الطاولة بالموافقة.

وقلت: "عند نقطة ما، نستطيع أن نبدأ في تخفيض وسحب قواتنا. وسنرغب في استبقاء نواة قوة من خمسين ألف رجل على الأقل، ويجب أن تتوازي تخفيضات

جندنا مع نشر قوات أمن عراقية ممثلة ومحترفة. وستكون إستراتيجية خروجنا مربوطة مع الحكم الفعال من العراقيين، وليس مع خط توقيت.

ورأيت المزيد من إيماء الرؤوس حول الطاولة. وعندئذ ربت كوندي رايس على ساعتها. كنا قد تجاوزنا الوقت.

شكرني الرئيس بوش بحرارة عندما وصل الاجتماع إلى ختامه. وقال "تراك قريباً".

وكولن باول كان ودوداً وهو يصافحني عند مغادرة الغرفة. ولكن كان من الواضح أن شيئاً ما كان يدور في ذهنه.

لم يكن علي أن أنتظر طويلاً لأكتشف ماذا كان ذلك. ففي يوم الخميس 5 أيلول/سبتمبر، اليوم السابق لليوم الذي خططت فيه للطيران إلى واشنطن من أجل إيجاز آخر لمجلس الأمن القومي عن العراق، لتتبعه مناقشات نهاية الأسبوع في كامب ديفيد، اتصل بي كولن في تامبا.

وقال، وهو دائماً جنتلمان: "يا توم، أنا آسف لمقاطعتك لأنني أعرف كم أنت مشغول. ولكن أود أن تسمع هذا مني مباشرة."

كان لدى كولن مخاوف. لقد كان من جيل من الجنرالات الذين اعتقدوا أن القوة العسكرية الكاسحة كانت موجودة في قوة الجند: الأعداد المطلقة للجنود والدبابات على الأرض. وبصفته رئيساً لهيئة رؤساء الأركان المشتركة في أثناء عاصفة الصحراء، فقد كان الجنرال كولن باول قد رأى عدد القوات الأرضية للتحالف يرتفع إلى أكثر من خمسمائة ألف. وفي الحقيقة فإن مبدأ القوة الكاسحة كان يشار إليه أحياناً بوصفه "عقيدة باول".

أكن الكثير من الاحترام لكولن باول، وإن كنت قد توصلت إلى الاعتقاد بأن أيام الحشود بقوة نصف مليون جندي قد انتهت.

وقال: "سوف أقوم بنقد خطتك هناك في كامب ديفيد، لدي مشكلات مع

حجم القوة ومساندة تلك القوة، مع الأخذ بالاعتبار مثل هذه الخطوط الطويلة للاتصالات."

وفكرت، حسناً. إنه أمين بما فيه الكفاية لدرجة يضع معها بطاقاته على الطاولة. لدينا اختلافات أساسية في التفكير الإستراتيجي، هذا معقول ومنصف. على الأقل كان يعطيني إنذاراً، بدلاً من مهاجمتي وأنا غير متنبه أمام مجلس الأمن القومي، والرئيس. وقلت: "شكراً لك، سيدي الوزير. سأعمل أفضل ما أستطيع لأجيب على اهتماماتك."

جلست لحظة على طاولتي. كان كولن باول الدبلوماسي القائد للعالم الحر. ولكنه لم يبق لابساً للملابس الجيش الخضراء. لقد اكتسب حقه في إبداء رأيه، ولكنه قد ترك المسؤولية عن إدارة العمليات العسكرية عندما تقاعد وهو رئيس هيئة رؤساء الأركان المشتركة في العام 1993.

تناولت المفتاح الأحمر وكلمت دون رامسفيلد. وقلت: "أنا أقدر مكالمته. ولكنني أردت أن أقول له إن العسكرية قد تغيرت منذ أن غادرها."

ضحك رامسفيلد في نفسه. "تستطيع أن تقول ذلك، يا توم. ولكن كن هادئاً تماماً واحترافياً. أجب على تعليقاته، نقطة نقطة. إذا كان لدى كولن شكوك، فأنا أريد منه أن يضعها على الطاولة أمام الرئيس ومجلس الأمن القومي. وإلا، فسنبدو وكأننا نفرض رأينا من دون مراعاة غيرنا."

قدمت الإيجاز لمجلس الأمن القومي، ناقصاً الرئيس بوش، في غرفة الموقف في البيت الأبيض في صباح 6 أيلول/سبتمبر، ووصفت لهم ما سأناقشه مع الرئيس في اليوم التالي في كامب ديفيد.

بعد الاجتماع، قال رامسفيلد على غير توقع: "سوف نركب إلى كامب ديفيد مع نائب الرئيس تشيني في طائرته العمودية. وسأوصلك إلى مهبط الطائرة العمودية عند المرصد."

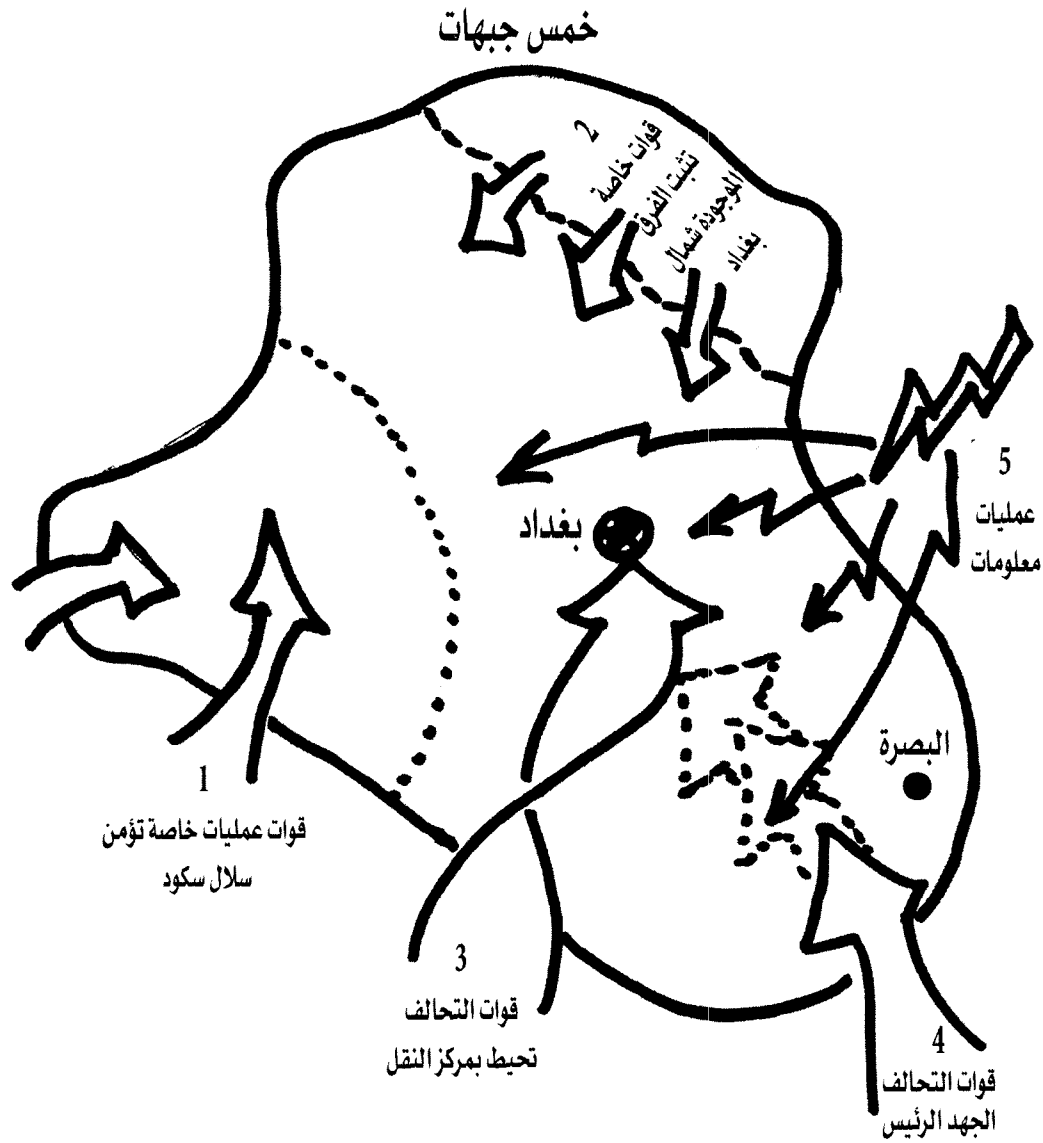
ويقع مكان إقامة نائب الرئيس على أرض مرصد البحرية في شارع ماساتشوسيتس الأعلى. وعند مهبط الطائرة العمودية صعدنا على متن الطائرة العمودية البحرية رقم 2 للطيران إلى كامب ديفيد. كانت رحلة طيران تبعث على السرور، غرب- الشمال الغربي من المنطقة، فوق المرور الكثيف للطريق الدائري وإلى تلال تقع عند سفوح المرتفعات الأبالاشية في ميريلاند.

الإجراءات التي تطبق على الضيوف الذين يقيمون ليلة واحدة في كامب ديفيد مثيرة للاهتمام. فقد أخذ موظفو البيت الأبيض حقائبنا، وخُصص لكل واحد منا سيارة غولف ومعها خريطة صغيرة مغلفة بطبقة رقيقة شفافة محملة على لوحة أجهزة القياس، وتشير الخريطة إلى الطريق المؤدي إلى مقصوراتنا. كامب ديفيد منطقة متموجة، كثيفة الأشجار، وفيها مسارات ضيقة، ومنحنية معبدة بطبقة سوداء من الزفت، وهي ليست أفضل طرق معلمة على الخريطة في العالم. فمنذ أيامي التي كنت فيها ضابطاً مرشحاً للمدفعية في فورت سيل، كنت أفخر بالقراءة الصحيحة للخريطة. ولكنني من المؤكد أنني سأضل الطريق في محاولة اتباعي خطوط الشكل المبين للطريق الناهب من مهبط الطائرة العمودية إلى مقصورتي.

ومازحت الشابة القديرة من الخدمة السرية التي دلتني في نهاية المطاف إلى مقصورتي وقلت لها: "لا تخبري الرئيس."

في نقاش صباح يوم السبت، أثار كولن باول اهتماماته. وتحدث بهدوء، وأدب، وهو الدبلوماسي دائماً، وتساءل عن نسب القوة الصديقة إلى المعادية، وبين النقطة بقوة إلى حد ما وهي أن التحالف سوف يكون لديه خطوط إمداد "طويلة للغاية". وقال: "هذه مسائل يتعين علينا أن ندرسها."

شكرته على أفكاره، واستخدمت خريطة مفصلة لتقديم التصور عن خمس جبهات عملياتية متزامنة. وقلت: "إننا ننتقل إلى رؤية إستراتيجية وعملياتية جديدة، سيدي الوزير."



مخطط إجمالي مبكر لتصور خمس جبهات وهو الذي صار الأساس لعملية حرية العراق

وتابعت، وكولن باول ينصت بانتباه. "باستخدام الكتلة العسكرية المتزامنة في زمن واحد على النقط الحيوية، بدل محاولة دفع تقدم تقليدي عريض بطيء، فإننا بذلك نخرج العدو عن توازنه. لقد رأينا ذلك في أفغانستان، في مناورة سريعة،

ومندفعة. هذا ينشئ زخماً. نحن نضع قواتنا عميقاً في داخل أرض العدو، ونتحرك بسرعة عالية إلى الدرجة التي لن يمتلك معها العراقيون الوقت ليقوموا برد الفعل. وفي النهاية عندما سيتحركون، سيكونون قد صاروا أهدافاً لنيران العنصر الجوي ولنيران المدفعية الدقيقة. السرعة والزخم هما المفتاحان الحيويان."

لم يناقش كولن باول الإيجاز الذي قدمته، ولم يسأل أي أسئلة عملية أخرى. لم أعرف إن كنت أرضيت تساؤلاته عن مخاوفه. ولكن الأمر المهم هو أنه فرض النقاش التفصيلي أمام فريق الأمن القومي، ومن جملتهم الرئيس.

نظر رامسفيلد حوله في الغرفة المكسوة بخشب الصنوبر عندما كانت الجلسة تصل إلى ختامها، وشكرني على العرض. وقال: "أريدكم جميعاً أن تكونوا مرتاحين مع هذه الخطة."

وعندما غادرت كامب ديفيد شعرت بالارتياح نحو العمل الذي فعلناه."

عدنا جين رينيوارت وأنا إلى ماكديل في وقت متأخر من يوم الثلاثاء، 10 أيلول/سبتمبر.

في اليوم السابق، كنا قد قدمنا إيجازاً لديك مايرز ولرؤساء الخدمات في غرفة القيادة. وفي مجملها كانت جلسة جيدة، ربما لأن ديك كان يعمل بجهد لبناء الإجماع، ولأن دون رامسفيلد أيضاً أعلن للجميع بأنه كان يتوقع من هيئة الرؤساء المشتركة أن تكون مشتركة. وعلى الرغم من أن رؤساء الخدمات كانوا ما يزالون يجدون صعوبة في التفكير خارج حدود خدماتهم الفردية، وخصوصاً عندما وصل الأمر إلى شراء أنظمة الأسلحة والحفاظ على "ملاكاتهم النهائية"، المخولة لهم، فإن التذكير المتكرر لهم من رامسفيلد وديك مايرز كان يجبرهم رويداً رويداً على بناء الدفاع القومي "التحويلي" الذي تخيله دونالد رامسفيلد.

وكانت إحدى النتائج الإيجابية التي ترتبت على رحلاتي إلى غرفة القيادة في ذلك الصيف هي أن الخدمات كانت تبحث في موازاتها لتستخرج وتقدم التمويل

اللازم لتحديث إقامة القواعد والبنية التحتية في المنطقة. وبالنسبة إلى أربع نجوم يحرسون أرصدتهم بغيرة، كان هذا تمريناً ساراً مثل السرور الذي تبعته قنوات الجذر المتعددة في لب الأسنان! ونتيجة لذلك، وعلى الرغم من كل شيء، حصلت القيادة المركزية على حيز تحميل جديد في القواعد الجوية في عمان، وقطر، والكويت. وزدنا عدد قوات الجيش في المنطقة. وحصلت قوات العمليات الخاصة على طائرات عمودية محدثة. وزادت البحرية إيقاع دخول وخروج حاملة الطائرات وقاذفات صواريخ توماهوك للهجوم الأرضي إلى الخليج وشمال بحر العرب.

ونظراً إلى أن تخطيطنا دعا إلى أن تقوم أكثرية قوات التحالف الأرضي بالتمرحل من خلال الكويت، فإن هذه الأمة الصغيرة للغاية أعدت فجأة لتصير واحدة من أكبر القواعد الأمريكية في العالم. وكانت الموانئ البحرية، وخطوط نفط الوقود، والقدرات المائية الإضافية، وهو اعتبار كبير في الخليج الذي لا مفر فيه عملياً، والإنشاءات الأساسية للمعسكرات، كانت كلها قيد العمل والتقدم.

وفي آخر زيارة لي إلى الرياض، تأكدت من أن السعوديين لم يكونوا راغبين في استضافة تحالف عاصفة صحراء أخرى. ولا هم، من جهة أخرى، بالذين سيخلقون أزمة دبلوماسية عن طريق إصدار الأمر إلى وحدات التحالف العسكرية التي كانت تعمل من قبل في المملكة بضرورة المغادرة. وكان هذا يعني أننا كنا نستطيع أن نستمر في تشغيل مركز العمليات الجوية المشتركة في قاعدة الأمير سلطان الجوية، ونستطيع، وهو أمر غير معروف لوسائل الإعلام، أن ندير البحث والإنقاذ القتالي وعمل الاستطلاع للعمليات الخاصة من قواعد جوية صغيرة شمال طريق خط التابلاين، قرب حدود صحراء العراق الغربية. إذا كنا نستطيع أن نحافظ على هذين الموقعين الهامين شغالين، ونستمر في تطيير صهاريج إعادة التزود بالوقود وطائرات الاستطلاع من قاعدة الأمير سلطان الجوية فإن المملكة العربية السعودية بذلك تكون قد قدمت إسهاماً مهماً في تحرير العراق، من دون أن تعرض مركزها للخطر في العالم الإسلامي الواسع.

مع اكتمال معظم عمل الأركان على كلا الخيارين "المولد" و "بداية الركض" صارت الخطة الهجينة V 1003 هي محط تركيز انتباهنا. وكانت تتطور وتصير أغنى بالتفاصيل في كل يوم، بقيام خبراء التهديد في القيادة المركزية بتتقية المعلومات الاستخباراتية ووصولهم إلى تقديرات جديدة عن نظام المعركة العراقي. ولم تكن مفاجأة أن ستاً من فرق الحرس الجمهوري قد تلقت أضخم مخصصات من الوقود، والذخائر، وقطع الغيار. وعلى الرغم من أن الاستخبارات البشرية عن هذه الوحدات كانت قليلة سطحية فإن الاستخبارات الفنية أظهرت أنها أقوى الفرق في القوات العسكرية العراقية، وأفضلها تجهيزاً، ومستويات جاهزيتها كانت أعلى من 90 بالمائة. وعندما انتقلت فرق الحرس الجمهوري من ميدان التدريب إلى واجبات المعسكر، كانت على ما يبدو في الأرجح تتولى مسك الخط الدفاعي الرئيسي عند ضواحي بغداد.

وقلت لجيف كيمونز، ونحن نستعرض آخر صور الأقمار، للفرقة المدرعة من الحرس الجمهوري المسماة النداء، وهي تنتقل راجعة إلى معسكرها الدفاعي المحروس دائرياً بالدروع، وإلى قواعد الصيانة في جنوب بغداد: "أنت تعرف أن الرجال في تلك الوحدة لم يتعرضوا أبداً للتهديد الدقيق".

وقال جيف: "ولن يستمتعوا بتعرضهم الأول".

وفي الحقيقة، أن التحديثات التي أدخلناها في أنظمتنا للنيران غير المباشرة المتمركزة على الأرض، منذ عاصفة الصحراء، قد حولت مدفعيتنا، من المتوسطة المدى وطويلة المدى، إلى أسلحة تتصدى لكل أنواع الطقس وهي ستكون مكملاً عظيماً للذخائر الموجهة التي يلقيها عنصر الطيران.

وقدرت، أن أفضل شيء يستطيع الحرس الجمهوري أن يفعله من أجلنا، هو أن يحفر ويتخذ حول بغداد ويشكل دفاعاً ثابتاً، على الأسلوب السوفيتي من "حلقة من الفولاذ". وما إن تبدأ الحركة، فإنهم عندئذ لن يملكو الوقت اللازم لتجنب قوتنا النارية الدقيقة عن طريق التفرق والانتشار. وإذا نجحوا في الانتشار للخارج، فإنهم

سوف يفقدون التماسك ويفقدون تأثير قوتهم النارية المتكثلة. دبابتهم تي-72 قد تم تحديثها بمناظير حرارية، وتطلق هذه الدبابات تشكيلات من الصواريخ الروسية الموجهة بالسلك. ولكننا كنا نسبقها بجيل واحد على الأقل في المعدات الدقيقة، ونقدم عليها بقفزة كمية في تعبئة مناورة الأسلحة المشتركة والعمليات المشتركة. وفي الحقيقة، فإن القوات العسكرية لم تكن تملك عملياً خصائص مشتركة، وكانت قوتهم الجوية صغيرة وقديمة، وطائراتهم العمودية المسلحة لن تبلغ أي شيء سوى أن تكون أهدافاً لطائراتنا اف-16 واف/ايه-18.

بقيت أسلحة الدمار الشامل هي البطاقة الخفية لدى العدو. وكنا نستطيع أن ندافع عن جندنا، ولكننا لن نستطيع أبداً أن نستبق استخدام النظام لأسلحة الدمار الشامل، لأن المعلومات الاستخباراتية المتوافرة عن التهديد لم تكن معلومات تصلح للعمل بموجبها: كنا نعرف أن العراقيين امتلكوا أسلحة الدمار الشامل، ولكننا لم نعرف أين كان يجري إخفاؤها. إذا سبق لنا بالمطلق أن احتجنا إلى الاستخبارات البشرية فنحن الآن إليها أحوج. كنت أعرف أن جورج تيننت سيفعل أفضل ما يستطيع مع العملاء الذين كانوا لديه، ولكن لم يكن هناك الوقت الكافي للتعويض عن عقود من الأضرار التي لحقت بقدرات أمريكا الجاسوسية. لقد كان صن تزو محقاً اليوم مثلما كان منذ 2500 عام: الجواسيس مفيدون في كل مكان.

وعندما درسنا الصور الملتقطة حديثاً للعدو، كانت الخطة الهجينة V 1003 تتطور إلى أن تكون خطة حرب عملية وستكون قريباً جاهزة إذا أمرنا الرئيس أن نقاتل. وكل فريق مسهم في خطة العمليات عرفها باسم مختلف، لتخفيض المخاطرة بالتسرب إلى الحد الأدنى. في أوروبا، على سبيل المثال، كان فريق من الفيلق الخامس للجيش يضع خطة التحديات التعبوية والإدارة والإمداد لإطلاق هجوم الجهد الرئيسي من الحدود الكويتية إلى بغداد، وكانوا يسمون تمرينهم: "النصر الوشيك".

ساعدنا عمل لاعبي الحرب في الفيلق الخامس على أن نقدر العوامل الحيوية

في الزمن والمسافة، وهما اللحم والبطاطا، الأجزاء الأساسية، للمخططين التعبويين. على أي سرعة وإلى أي مسافة كان اللواء المدرع يستطيع أن يتقدم على طول شبكة الطرق المعبدة لوادي الفرات، أو عبر الصحراء المفتوحة بعيداً إلى الغرب، إذا أخذت بالاعتبار المستويات المتنوعة لمقاومة العدو وعلى درجة مساوية من الأهمية، على أي سرعة وإلى أي بعد كانت تستطيع تشكيلات معينة من الجيش العراقي أن تتحرك، تحت الهجوم الجوي المستمر، لمواجهة تقدمنا؟ في خريف عام 2002، كانت هذه أسئلة نظرية. ولكن كان يجب علي أن أفترض أن ألعاب الحرب الحاسوبية هذه سوف تصير طرق دبابات في تربة العراق المغبرة في وقت ما من المستقبل، وربما في المستقبل القريب.

وكانت تتشكل في ذهني صورة: الجيش، وسلاح مشاة البحرية، وكثائب الدروع البريطانية تتحرك إلى الشمال بالسرعة القصوى، متوجهة لتتلاقى على مراكز الثقل للنظام العراقي وهما: البصرة في الجنوب، وبغداد في مركز البلاد. وكما كان من عادة أبي أن يقول عندما كان يعالج مشكلة تنظيف الأرض: "أنت تقتل الجذور، يا تومي ري، والشجرة ستسقط".

وفي اجتماع تشاوري سابق للقيادة المركزية مع مرؤوسيّ من القادة، كنت قد ذكرتهم بالمبدأ التعبوي الأساسي: السرعة تقتل... العدو.

إن الجنرال جورج باتون، وهو واحد من أكثر قادة أمريكا الميدانيين تجديداً، كان قد أدرك أهمية سرعة المناورة في أثناء اختراقه وهجومه التعرضي المؤثر المثير عبر فرنسا الوسطى في عام 1944. لقد استخدم هذا المبدأ نفسه ليحول الجيش الثالث الأمريكي شمالاً، بزاوية 90 درجة عن محور تقدمه، إلى خاصرة القوة العارمة الألمانية في معركة النوء، لقد فهم باتون أن الهدف النهائي في أي حملة هو مركز ثقل العدو. وفي الحقيقة، كانت المرة الوحيدة التي أعيق فيها جيش باتون هي عندما وضع حصاره على الحامية الألمانية في مترز التي كانت محصنة تحصيناً كثيفاً. إن الحرب العالمية الثانية قد أعطتنا حكمة رجل الدبابات الغنية بالألوان لمبدأ المناورة هذا، وتقول: "جر الحمار وتجنب"، تحرك بسرعة مع الدوران حول المانع.

بعد سنة واحدة ويوم واحد من هجمات 9/11 على أمريكا التحقت أنا ببقية العالم في ضبط تلفازي على صورة قاعة الاجتماعات العامة للأمم المتحدة. كانت القاعة مليئة لأقصى سعتها، وبعض المندوبين يرتدون ملابسهم القومية المميزة: أثواب فضفاضة، وعمائم، وتشكيلة من أغطية الرأس الإسلامية. وكان الجمهور لآخر شخص فيه تقريباً كئيباً عابساً، على كل حال، وقد اجتمع هذا الجمهور ليستمع إلى خطاب الرئيس بوش.

في كلمات فصيحة للغاية، استحضر الرئيس الهجمات الإرهابية في 9/11. ومع ذلك، وعلى الرغم من نجاح حملتنا في أفغانستان، فقد قال الرئيس إن العالم ما يزال "يواجه التحدي اليوم من مجموعات خارجة عن القانون ومن أنظمة لا تقبل أي قانون للأخلاق ولا حد لطموحاتها العنيفة".

وحول الرئيس تركيزه بسرعة على العراق. واستعرض تحدي صدام حسين لسلسلة من قرارات الأمم المتحدة التي كان يرجع تاريخها إلى وقف إطلاق النار في حرب الخليج، وهي القرارات التي طالبت العراق بأن يقدم تفسيراً وأن يدمر أسلحته للتدمير الشامل، وأن يوقف الإساءات لحقوق الإنسان ضد مواطنيه، وأن يقبل حكم القانون الدولي المعترف به.

واستشهد بعدئذ بتقرير من الأمم المتحدة عن حقوق الإنسان وجد أن العراق قد أخضع "عشرات الآلاف من الخصوم السياسيين والمواطنين العاديين" إلى السجن التعسفي والإعدام المتسرع بعد محاكمة شكلية. واستشهد أيضاً بقرارات مجلس الأمن في الأمم المتحدة التي طلبت من العراق أن يتخلى عن الإرهاب، ولكن صدام حسين كان قد تحدى تلك القرارات باستمرار، وتآمر على اغتيال القادة الإقليميين وآوى إرهابي القاعدة المعروف عنهم أنهم هربوا من أفغانستان.

وبالنسبة إلى أسلحة الدمار الشامل، قال الرئيس إن العراق قد طرد مفتشي الأمم المتحدة، ولكن ليس قبل أن يكونوا قد اكتشفوا دليلاً مخيفاً عن البرنامج المستمر للنظام في أسلحة الدمار الشامل.

وأخبر الرئيس بوش الاجتماع العام: "من العام 1991 إلى العام 1995 قال النظام العراقي إنه لم يكن يملك أسلحة حيوية." ولكنه لاحظ أنه بعد مروق مسؤول أسلحة عراقي كبير، انكشف هذا بوصفه كذبة. فنظام صدام بعدئذ: "أقر بإنتاج عشرات الآلاف من اللترات من الجمرة الخبيثة ومن غيرها من العوامل الحيوية القاتلة لاستعمالها مع الرؤوس الحربية لصواريخ سكود، والقنابل الجوية، وخزانات الرش بالطائرات".

وتوقف جورج بوش بغرض التوكيد.

وشدد الرئيس: "يعتقد مفتشو الأمم المتحدة أن العراق قد أنتج ما بين ضعفين إلى أربعة أضعاف من الكمية التي صرح عنها من العوامل الحيوية. وأنه قد فشل في إعطاء تفسير عن أكثر من ثلاثة أطنان مترية من المواد التي كان يمكن أن تستخدم لإنتاج أسلحة حيوية."

واستمر بوش بتقديم كشف بالتحدي العراقي لقرارات الأمم المتحدة، ومن جعلتها طرد مفتشي الأمم المتحدة في العام 1998. وفي سلسلة من الفقرات المتقطعة التي تضرب ضرباً شديداً، وكل فقرة فيها تبتدئ بتعبير: "إذا كان النظام العراقي يرغب بالسلام..." دعا بوش صدام حسين وحكومته إلى الانصياع لقرارات مجلس الأمن كلها وأن يوقف تجارته المحظورة بالزيت، التي حولت الأرصدة عن الشعب في تحد للعقوبات الصادرة من الأمم المتحدة.

"وأنهى الرئيس كلمته بالقول: يمكن للأحداث أن تتحول في واحد من طريقتين. إذا فشل المجتمع الدولي بالعمل، فإن الشعب العراقي سوف يستمر في العيش في خضوع وحشي، وسوف يستمر نظام صدام في تهديد الاستقرار في الشرق الأوسط."

ولكن إذا وفى المجتمع الدولي بمسؤولياته، "فإن شعب العراق يستطيع أن يتخلص من أسرهِ." وفي يوم ما " أن يلتحق بأفغانستان ديمقراطية وبفلسطين

ديمقراطية، ملهماً إصلاحات في كل العالم الإسلامي." وأثار موضوع الشرق الأوسط المتغير، الذي تستطيع فيه الحكومة الأمنية ويستطيع الاحترام للنساء "والثقيل الإسلامي العظيم في التعليم، أن تنتصر."

وتكلم الرئيس بوش ببطء وترو، ودعا المجتمع الدولي إلى العمل. "نحن لا نستطيع أن نتحى جانباً لا نفعل شيئاً بينما المخاطر تحتشد. يجب علينا أن نقف من أجل أمننا، ومن أجل الحقوق الدائمة للإنسانية وآمالها. إن الولايات المتحدة بترائها، وباختيارها سوف تقف تلك الوقفة. وأنتم، أيها المبعوثون إلى الأمم المتحدة، تملكون القوة، لتقفوا تلك الوقفة."

كان التصفيق بلا حماسة، وبقي الكثير من المبعوثين بلا حركة. أطفأت التلغاف قبل أن تستطيع شبكة الأخبار أن تردد أصداء وتقرع الأجراس بأرائها حول ما قاله الرئيس. في رأيي، لم يكن يهم كيف كان رد فعل الجمعية العامة أو رد فعل وسائل الإعلام على خطاب جورج بوش. أما هو فكان يرمي القفاز، واضعاً العالم من دون إنذار بأن الولايات المتحدة سوف "تقف من أجل أمننا."

ووجدت أن تشديد الرئيس على إساءات العراق لحقوق الإنسان، وعلى مخاطر احتمال وجود أسلحة الدمار الشامل لديه، كان تشديداً متساوياً على الدرجة نفسها من الإقناع. وباستثناء كوريا الشمالية، ليس هناك دولة معاصرة أخرى عاملت مواطنيها بوحشية منهجية بمثل هذه الشراسة، وإن الفضاعات التي ارتكبتها مفارز الإعدام لدى صدام حسين تضعها في صنف واحد مع مليشيات الهوتو في رواندا والخمير الحمر في كامبوديا.

وكان تحذير مفتشي الأمم المتحدة بأن العراق قد فشل في إعطاء تفسير عن آلاف اللترات من الجمرة الخبيثة الموضوعة في أسلحة، وأطنان من المواد الوسيطة الكيماوية، تحذيراً منذراً مخيفاً بشكل خاص. عندما توليت قيادة القيادة المركزية، قدمت لي وكالة الاستخبارات المركزية إيجازاً عن الأسلحة العراقية الحيوية، وقد وصفوها بأنها يحتمل أن تكون أخطر جانب من برنامج صدام لأسلحة الدمار

الشامل. فمن السهل إخفاء جراثيم الجمرة الخبيثة ونقلها. ومزرعة جراثيم صغيرة من نسلها يمكن أن تتحول إلى ترسانة حيوية قوية باستخدام بضع مئات فقط من كيلوغرامات الوسط الذي يتم فيه التكاثر.

وقبل سنتين، كان جورج تينت قد شهد أمام مجلس الشيوخ أن القاعدة كانت نشيطة في السعي إلى الحصول على الأسلحة الكيماوية. ولم يثر التحذير الكثير من الاهتمام في وسائل الإعلام إلى أن وجدت قوات التحالف في أفغانستان شريطاً مصوراً بالفيديو للقاعدة يبين مجموعة من الكلاب يجري تعريضها للغاز في غرفة موصدة. وعند أول نفخة من بخار أبيض مصفر وصلت إلى الحيوانات المربوطة بالسلاسل فإنها بدأت تعاني من تشنجات، وانهارت وأرجلها تنتفض بعنف، وماتت في غضون ثوان. وبعد أشهر قليلة وجدنا تلك الغرفة لتجريب الغاز في معسكر القاعدة في ديورانتا قرب جلال أباد.

لقد قتل العديد من قادة القاعدة في أفغانستان، بينما سعى آخرون للحصول على ملاذ لهم في العراق. وكان السؤال: هل كان الإرهاب وأسلحة الدمار الشامل قد اجتمعا من قبل؟ وإذا كان الجواب بالنفي، فكم سيطول الوقت قبل أن يجتمعا؟ لم أكن أعرف الجواب. ولكنني كنت مهتماً بالسؤال، وهو سؤال ما ظننت أن بنية استخباراتنا المرقعة كانت تستطيع أن تجيب عنه من دون وضع جند على الأرض.

في أثناء الوقت الذي كنت أسافر فيه في منطقة المسؤولية في أيلول /سبتمبر، نشر مجلس الأمن القومي بيانه عن إستراتيجية الأمن القومي، التي عبرت عن عقيدة الاستباق الجديدة للإدارة. وكان الرئيس قد أوضح هذا التصور لأول مرة في خطابه الذي ألقاه في تخرج ويست بوينت في شهر حزيران/يونيو. وبعد أن صارت الآن سياسة ناضجة، فقد بينت أن الولايات المتحدة، بوصفها أمة ذات سيادة، كانت تمتلك الحق في أن توظف استخداماً توقعياً للقوة لاستباق تهديد موجه إلى أمنها.

وعلى الفور خمنت وسائل الإعلام أن الحرب مع العراق كانت لا بد منها، وأنها وشيكة.

كنت أعرف معرفة أفضل، ولكنني أدركت أيضاً، وأنا أقرأ بيان مجلس الأمن القومي في المقصورة الموصدة بلا نوافذ من الطائرة سبار 06، أن الرئيس بوش قد استعد واقعياً للقتال، واضعاً العالم في حالة إنذار بأن أمريكا سوف تتصرف تصرفاً حاسماً في الدفاع عن نفسها.

وأدركت، أننا لو كنا نمتلك مثل هذه الإستراتيجية في مكانها في سنوات أبكر، لربما كنا قد أعطينا السلطة لإزاحة طالبان من السلطة، وتدمير القاعدة في أفغانستان، قبل الهجمات الإرهابية في 9/11.

في أواخر أيلول/سبتمبر رجعت إلى الخليج. وكانت إحدى أول محطات وقوفي في قطر، وفيها قابلت الشيخ حمد، الأمير، في قصر الديوان الأميري الأنيق المطل بواجهته على البحر. وتركزت المحادثة تقريباً على العراق حصراً فقط. وقال الأمير: "صدام لا يمكن أن يوثق به أبداً." وعدل كوفيته البيضاء ومسّد شاربه. "يا جنرال فرانكس، إنكم تملكون الفرصة لإنقاذ الشعب العراقي."

وأجبت: "سيدي، لم يختار الرئيس بوش بعد مسار الحرب. ولكنه إذا اختار، فنحن سنكون جاهزين."

وبعدئذ زرت القادة في الأردن، واليمن، وباكستان، وتركيا. وزرت جند التحالف في أفغانستان، وفيها حدثت دان ماكنيل معلوماتي عن عملياته على طول حدود باكستان. كان برويز مشرف متعاوناً، وجندنا مستمرين بالضغط على القاعدة. لم نر أي تقارير عن أسامة بن لادن، ولكنني كنت مقتنعاً بأن التحالف كان يدفع بأقصى قوة ممكنة لتحديد موقعه.

اجتمعت مع الملك عبد الله الثاني في قصر البركة في عمان. وتبسم وهو يمد نفسه ليصافحني عبر طاولة خشب الورد المزخرفة.

وقال مهازحاً: "هل أحضرت معك أي شواية من تكساس؟ أنت تعد دائماً، ولكنك لم تسلم أبداً. أذيتني في تامبا. فأنا أحب تلك الشواية."

مرة أخرى، تأثرت بانفتاح الملك وصدقه. فمنذ موت والده، الملك حسين، عمل عبد الله على تحسين موقف الأردن نحو الغرب، على الرغم من أن أغلبية سكان الأردن فلسطينيون، والضعينة التي لا تنتهي من الانتفاضة. لقد بقي الأردن متوازناً بين تهديد العراق وبين النزاع العربي الإسرائيلي المتفجر. والآن كنت سأطلب منه أن يدعم تحالفاً قد يكون مطلوباً لنزع سلاح العراق وإطاحة نظام صدام.

وعندما كنت أقابله، كان هناك قرار أنجلو-أمريكي مشترك يدعو العراق إلى قبول تفتيشات صارمة، غير مقيدة على الأسلحة، من هيئة مراقبة، وتحقيق، وتفتيش من الأمم المتحدة، وكان يجري التداول بالقرار تحت نقاش ساخن في مجلس الأمن. وكان الرئيس بوش ورئيس الوزراء طوني بليز يطلبان قراراً له أسنان، قراراً سيخضع العراق "لعواقب خطيرة" إذا لم يقبل الانصياع.

وفي 8 تشرين الثاني/نوفمبر 2002، تبنى مجلس الأمن في الأمم المتحدة أخيراً القرار رقم 1441، والذي اعترف بـ "التهديد الذي يفرضه عدم خضوع العراق لقرارات المجلس وتكاثر أسلحة الدمار الشامل والصواريخ الطويلة المدى على السلام والأمن الدوليين". وكرر القرار "العواقب الخطيرة" التي سوف يواجهها العراق إذا هو لم يتعاون تعاوناً كاملاً مع مفتشي الأسلحة التابعين للأمم المتحدة، الذين بدؤوا يصلون إلى بغداد في أواخر ذلك الشهر.

وكان بوش من قبل قد كسب تفويضاً كاسحاً من مجلس الشيوخ ليستخدم القوة ضد العراق إذا استمر في تحدي المجتمع الدولي. وفي هذا اليوم في عمان، كنت أراهن أن القوة ستكون مطلوبة.

قال الملك: "أيها الجنرال، يجب علي أن أحمي مصالح أمتي. ولكنني أؤكد لك أن تلك المصالح تتطابق مع مصالح أمريكا. وأنتم تستطيعون الاعتماد على الأردن."

وأجبتة: "يا صاحب الجلالة، ونحن لن ننسى صداقة الأردن".

في ذلك اليوم عرفت أنني في حضرة صديق، وأنه سيكون هناك جبهة غربية إذا ذهبنا إلى الحرب في العراق.

كان القصر الرئاسي في صنعاء أقل فخامة من قصر عبد الله، قصر البركة. ولكن الرئيس علي عبد الله صالح كان على الدرجة نفسها من الترحيب تماماً. فصالح، بعد الهجوم على كول، وخصوصاً منذ 9/11، حوّل سياسات اليمن الخارجية بعيداً عن الدول العربية الراديكالية نحو الغرب. ولكنه حافظ على خط اتصاله مع ليبيا وسورية مفتوحة... ومع صدام حسين.

لصالح قسمات بدوية صارمة وشارب مهذب، ولكنه لبس بدلات من شارع بوند(*) . كان يمكن أن يكون مديراً تنفيذياً رئيسياً أو مصرفياً ناجحاً، وهو الأمر الذي، كما افترض، كان يصف بعض واجباته. وفي أثناء زيارتي الأخيرة إلى صنعاء قال لي: "أنا أتكلم بشكل متكرر مع صدام. وهو يسأل دائماً عن الجنرال فرانكس".

وقلت مع ابتسامة: "آمل أن تخبره بأني جندي عظيم وينبغي أن يثق بي". وفتح الرئيس يديه، وهو إيماء عربية بالموافقة. "طبعاً، أيها الجنرال. ماذا غير ذلك سأخبر الرئيس صدام؟"

ورشفت قهوتي اليمنية القوية الرائحة منتظراً منه أن يتابع. وقال: "أنت تعرف يا جنرال فرانكس، أن من الأفضل لك أن تكون حريصاً إذا كنت تعتزم أن تهاجم العراق. صدام يمتلك قوات قوية جداً".

كانت لعبتنا المعقدة في تقدم. كنت أعرف أن صالحاً وصداماً كانا ذات مرة قريبين، وهكذا فإن مضيفي كان يوصل رسالة دكتاتور العراق قياماً بالواجب. ولكنني كنت أعتقد أيضاً أن صالحاً كان حريصاً على تحسين العلاقات مع الغرب. وكان سيتصرف بصفته قناة اتصال لصدام.

(*) شارع بوند في ويسمنستر في لندن، في إنكلترا، والشارع مشهور بمحلات الأزياء.

وقلت له: "أنا أدرك ذلك سيدي الرئيس. قواته قوية جداً. ولكن خدماته الاستخباراتية ليست جيدة جداً. وهكذا، فإذا وصل الأمر إلى الحرب، فربما سأهاجم من الغرب."

وأوماً برأسه ولكنه لم يتكلم.

وأضفت: "وربما، سأهاجم أيضاً من تركيا. فكلما الأردنيين والأتراك أصدقائنا، وأنت تعرف".

وابتسم ورشف قهوته. وانتظر بصمت.

وبعد لحظة، تكلم الرئيس صالح. "هل لديك أي رسالة تريدني أن أوصلها إلى صدام؟"

لقد كنت من قبل أن يعرض قد عوّمت أهم رسالة لي، ولكن لا يمكن أن يؤدي أن أحدها بتعبير عن العزم. "أرجو أن تبلغه بأنك تعرفني معرفة جيدة جداً، وأني رجل جاد. على صدام أن يتعاون مع الأمم المتحدة فوراً إذا كان حقيقة يحب بلاده."

عندما كانت طائرة سبار 06 ترتفع مبتعدة فوق تلال اليمن الصخرية بلون المغرة، كنت أعرف أن الرئيس صالح ربما كان يتحدث مع صدام في هاتف مأمون من العصر السوفيتي. علي عبد الله صالح كان صديقاً... عادياً نوعاً ما. كنت أعرف أنه سيوصل بإخلاص إلى صدام، رفيقه القديم، المعلومات التي عرضتها.

إذا كنا سنمتلك ميزة المفاجأة العملياتية، والتي ستكون حيوية إذا ذهبنا إلى الحرب، فسيكون الخداع مفتاحاً لذلك.

وعلي صالح سيكون أداة واحدة قيمة في خلق ذلك الخداع.

كان اجتماعي في أنقرة، في تركيا، مع الجنرال حلمي أوزكوك، قائد القوات المسلحة التركية، مثيراً للاهتمام، وإن كان أقل إنتاجية من الاجتماعات التي عقدتها مع معارفي في مكان آخر من المنطقة.

كان الجنرال ضابطاً محترفاً تماماً، طلق اللسان بالإنجليزية، مع سنوات من

الخبرة في الناتو. وكان جزءاً من قوات عسكرية تركية جديدة تخلت عن دورها التقليدي في التدخل السياسي من خلال الانقلاب العسكري. واليوم هو يستقبل جنرالين أمريكيين بأربع نجوم في مفاوضات عالية المخاطر. وكما هو الحال دائماً في تركيا، مع ذلك، كان الجو تحت السيطرة، وغير مباشر.

وزميلي في الاجتماع كان ضابطاً عالي الرتبة عاملاً في الناتو هو الجنرال في القوات الجوية جو رالستون، القائد الأعلى للحلفاء في أوروبا. ومن الناحية الفنية، كنت أنا في منطقة جو، فتركيا كانت جزءاً من القيادة الأوروبية، ولكنه كان هناك لأسباب أكثر من الأسباب البروتوكولية. كنت أريد الوصول إلى العراق الشمالي لأمرحل فرقة المشاة الرابعة، وهي الصورة المرآوية، الصورة عينها، لفرقة المشاة الثالثة التي سوف تكون رأس الحربة لعمليات الهجوم الأرضي من الجنوب. وكان جو هناك لمساعدتي في أن أعقد الصفقة.

أخذت زمام المبادرة في مناقشة الحالة بالنسبة إلى التعاون التركي. وأنصت الجنرال أوزكوك بصبر.

وعندما انتهت زمّ شفّتيه بانزعاج. وقال بشكل رسمي: "يا جنرال فرانكس، ويا جنرال رالستون، نقاطكم تبدو مقنعة. صدام حسين تهديد لاستقرار هذه المنطقة. ولكن يجب علينا أن ننتظر إلى ما بعد انتخابات الأسبوع التالي لنفّتح حكومتنا الجديدة."

أحسست أن الجنرال، وهو رجل علماني استمتع بكأس من الخمر، لم يكن مشجعاً متحمساً للإدارة الإسلامية التي كان من المستيقن تقريباً أنها سوف تتسلم السلطة في منتصف تشرين الثاني/نوفمبر. ولكن هذه الأيام كانت جديدة في تركيا. فإذا كان طلب البلاد للالتحاق بالاتحاد الأوروبي يمتلك أي فرصة للنجاح، فقد كان الجنرال يعلم أن على القوات العسكرية المسلحة أن تمتنع عن التدخل في السياسة.

وكان الوزير رامسفيلد خول جو وخولني أن نُحلّي الصفقة بالإشارة إلى عون اقتصادي ممكن كانت البلاد تحتاج إليه حاجة كبيرة. ولكن الجنرال لم يكن في موقع يؤهله لنقل السؤال. "أنا لا أستطيع أن أعد بأن الحكومة الجديدة سوف توافق، ولو كانت حججكم مقنعة."

وتعاطفت مع الجنرال. ومهما قررت حكومته الجديدة، فقد كنت متفائلاً أن تركيا سوف تستمر في منحنا إقامة القواعد للتحالف لطيران الاستطلاع يو-2 فوق العراق، إضافة إلى عمليات طيران القتال من القاعدة الجوية في أنجريك. وبقيت متفائلاً في أن تركيا سوف تسمح أيضاً للقوات الخاصة للتحالف بالتمرحل في أراضيها، شريطة ألا تعمل عملياتها علانية، حتى وإن لم يسمح لنا بأن نمرحل قوة تقليدية كبيرة هناك. وسيكون هذا الترتيب مشابهاً للترتيب الذي عملناه مع الرئيس كريموف في أوزبكستان في أثناء العمليات في أفغانستان.

وعندما كنا نستعد لمغادرة مكتب الجنرال، شكرنا على مجيئنا. وقال: "دعونا نأمل أن الحرب يمكن تجنبها."

وأجبت: "طبعاً، سيدي. لا أحد يكره الحرب مثل الجندي." في يوم الجمعة، 22 تشرين الثاني/نوفمبر، كنت أستعد لرحلة أخرى. وستأخذني هذه الرحلة من القرن الإفريقي إلى قيرغيزيا، عبر 160 درجة من خط الطول، وعشر مناطق توقيت. وكنت أتطلع بأمل إلى الرحلة لأنني كنت سأقضي عيد الشكر مع الجند في أفغانستان. ولكن كان لدي تحفظ واحد: في الشهور الأخيرة، صار دونالد رامسفيلد صعب الإرضاء بشكل حاسم في كل مرة كنت فيها بعيداً في رحلة تمتد طويلاً في منطقة المسؤولية.

وقال لي ديك مايرز: "يا توم، إذا كان يظن أنك هناك تأكل مُقَلَّ عنزات في خيمة شيخ ما، فهو قد بدأ يسأل (آين فرانكس) أريد أن أتحدث مع الجنرال فرانكس."

ومزحت: "يا ديك. هناك اختراع جديد اسمه الهاتف".

ونصحني: "حسناً، يا توم، ابق على اتصال فقط. إنك تجعله يشعر شعوراً طيباً، وهو يحب أن يعرف أين تكون؟ وماذا تفعل؟"

وقلت: "تستطيع أن تكون على ثقة، يا ديك، وشكراً على هذه الیقظة".

وقبل أن أغادر إلى البحرين، قدمت إيجازاً للوزير عن حاجتنا المطلوبة من القوة واعتبارات التوقيت للخطة الهجينة V1003. إن الوحدات العسكرية مكونة من الناس ومن التجهيزات معاً. وكان الزمن مطلوباً لإعداد هذين العنصرين معاً. ومنذ الحرب العالمية الأولى، فإن تقليد "الأمر الإنذاري" أو "أمر التأهب" قد صار ممأسساً. والقيادة المركزية لم تصدر أمر تأهب لجندها. لقد قدمنا طلبات رسمية إلى الوزير، ورامسفيلد، من خلال رئيس الهيئة، سوف يحدد الوحدات والمهمة للخدمات وللقيادة العامين الآخرين ليقدموا القوات.

وأرسلت طلب القيادة المركزية الرسمي لنشر قوة "ما قبل اليوم ان" وهم الجند الذين سوف يضعهم الرئيس في المنطقة قبل مدة طويلة من اتخاذ أي قرار للذهاب إلى الحرب. وهذا النشر الابتدائي سوف يحدث بصفته سلسلة من تمارين التدريب وتعزيزات القوة، ونتيجة للمعارضة العراقية المتزايدة في مناطق حظر الطيران.

وعلى الرغم من أن هذا النشر كان هو المرحلة الأولى فقط من نشر أكبر بكثير، فإن الطلب كان ضخماً: بلغ العدد 128.000 عسكري، وبحار، ورجل جو، ورجل مشاة بحرية. وسيكونون في الخليج مع حلول 15 شباط/فبراير 2003.

وطلبت أيضاً في هذا الوقت أن تتم زيادة قوة ما قبل اليوم ان، ابتداء من يوم ان، بإضافة وحدات مهام خاصة وأفراد إضافيين من البحرية والقوات الجوية، لرفع مجمل عدد القوة إلى أكثر من 200.000 قبل اليوم جي، يوم بدء العمليات الأرضية. ونظراً إلى أن الخطة الهجينة استعانت بكل من الخطة المولدة وبداية الركض، فقد طلبت أن تقوم وزارة الدفاع أيضاً، بإصدار التأهب للفرقة 101 المحمولة جواً

(الاقتحام الجوي)، إضافة إلى وحدات المتابعة المساندة وقوات عمليات خاصة، ويتعين أن تكون جاهزة للنشر في موعد لا يتجاوز 20 آذار/مارس 2003.

وكان هذا سيرفع مجمل عدد القوة إلى 210.000 جندي في المسرح الذي سيصير هو مسرح عمليات العراق.

سألني رامسفيلد: "هل أنت راض بهيكل القوة هذا، يا توم؟" وكان قد بدأ يناديني باسم توم عندما بدأت أنا وكاثي نذهب لتناول العشاء مع آل رامسفيلد في كانون الثاني/يناير 2002. كانت كاثي تناديني دائماً باسم توم، وقبل مرور وقت طويل بدأ دون رامسفيلد يناديني بذلك الاسم، أيضاً.

كان رامسفيلد يحب أن يأكل في مطاعم واشنطن: في جانب الوقت المبكر، لا في جانب الوقت المتأخر حسب الأسلوب الرائج في الموضة، لأمر واحد، وهو أنه كان يستيقظ مبكراً مثلي، ولأمر آخر، وهو أن تناول الطعام قبل الجمهور الحديث المتبع للموضة الذي يملأ مطاعم سوشي كو أو بالم يُبقي السياح على مسافة مأمونة كذلك.

وعلى كل حال، فالوزير وأنا لنا ذوق مختلف فعلاً في الطعام. في إحدى الليالي، في أولد إبييت غريل قرب البيت الأبيض طلبت كبد عجل مع لحم خنزير مملح ومدخن بالبصل، وهي وجبة من الطفولة من أيامي في أوكلاهوما، في تكساس، لأن الكبد كانت رخيصة دائماً.

وقلت: "هذا عظيم، سيدي الوزير. يجب فعلاً أن تجرب بعضاً منه." وقال وهو ينهي اثني عشريته الثانية من محارات بلو بوينت(*) : "لا شكراً، سأبقى مواصلاً مع هذه."

تلك الليلة مددت يدي إلى قائمة الحساب، ولكنه أخذها من النادل. فقلت له: "خلها، يا سيدي. دعني أشتري وجبة من أجل التغيير."

(*) اسم جزيرة عند نيويورك ينسب لها المحار.

وهز رامسفيلد رأسه. وقال وهو يناول بطاقة ائتمانه: "لن يكون صحيحاً. يجب على المرؤوسين ألا يدفعوا. ثم ابتسم. "وإضافة إلى ذلك، فأنا أملك من المال أكثر مما تملك."

تلك الليالي في الخارج بصحبة دون وجويس رامسفيلد قد وطدت رباطاً من الثقة والصداقة التي قدر لها أن تنمو بيننا.

في أثناء النهار، طبعاً، كنا كلنا مشغولين. وألقيت نظرة ثانية على طلب نشر القوات الذي هو من الأسرار العليا قبل أن أسلمه إلى وزير الدفاع. وقلت: "سيدي الوزير، نريد قوة دائمة قابلة للتصديق، قوة ستعطي وزناً لدبلوماسيةنا. وهذا هو أفضل ما تستطيع عقول جين رينيوارت من عيار خمسين رطلاً أن تنتجه. وأعتقد أنهم قاموا بعمل رائع. وسأذهب إلى الحرب بهيكل القوة هذا."

"قد يتوجب عليك أن تفعل، يا توم."

غادرنا متوجهين إلى منطقة المسؤولية بعد ساعتين، وفي هذه الرحلة كان يتعين علي أن أعرف مدير الاتصالات الإستراتيجية الجديد معي. كان جيم ويلكنسون شاباً تكسانياً لامعاً حلو المعشر، وهو ضابط احتياط بحري معار من البيت الأبيض، حيث كان يعالج العلاقات العامة للرئيس بوش. وكنت قد طلبت من دونالد رامسفيلد ومساعدته للعلاقات العامة، توري كلارك، رجلاً ماهراً في العلاقات العامة مع تقدم بناء القوات لعملية كبيرة ممكنة في العراق.

وسبق أن أخبرت الوزير: "أنا لا أتعامل جيداً مع وسائل الإعلام. ذلك أقرب لأسلوب نورمان شوارتسكوف. وأحتاج إلى شخص ما له معرفة بالصحافة ليساعدني في الإبحار في الشلال." وتبسم الوزير... وبعد أسبوعين كان معي جيم ويلكنسون.

وبدا لي جيم مثل توم سوير(*) تقريباً، من دون عمود الصيد. ولكنه برهن على

(*) اسم الشخصية الرئيسية في رواية الكاتب الأمريكي مارك توين (١٨٣٥ - ١٩١٠م) التي تحمل عنوان: مغامرات توم سوير، وتحثي بحياة الصبا والفتوة في مدينة على نهر الميسيسيبي.

أنه واحد من أدهى معالجي الصحافة الذين كان يمكن لي أن آمل في الحصول عليه. لقد وصل إلى تامبا محملاً بنابض مضغوط مع خطة لامعة للعلاقات مع الوسائل كان قد صاغها هو وتوري كلارك.

وهي ورامسفيلد دبرا شيئاً ما مبدعاً من أجل تغطية العملية من وسائل الإعلام المطبوعة والإلكترونية، إذا ذهبنا إلى الحرب. وعندما سمعت تعبير "الوسائل الإعلامية الثابتة" مع الوحدات العسكرية بدا لي أنه مفهوم خطر. فتعيين كتاب جرائد ومجلات ومراسلي إذاعات مع الوحدات المقاتلة كان يمكن أن يطرح مشكلات: المواصلات، والمساندة، والمسؤولية. وكان هناك مخاوف بشأن الأمن العملياتي، في هذا العصر، عصر الهواتف بالأقمار وآلات تصوير الفيديو بالإنترنت. ولكن عندما قدمت لي توري وجيم إيجازاً عن تفاصيل البرنامج، رأيت ذلك رابحاً. إن أحد الأسباب التي جعلت تغطية الصحافة في أفغانستان محملة بالأخطاء ومتوسطة المستوى، ومضادة للعسكريين في أغلب الأحيان في انحيازها، هو أن الصحافيين قد استبعدوا من عمليات القتال. وبدلاً من ذلك، كان عليهم أن يعتمدوا على المسربين ليحصلوا على قصصهم، من أنواع المسربين المسؤولين عن الطائرات العمودية المسلحة الست عشرة من نوع ايه سي-130 التي كانت تُعد الهدف جيكو.

ومن ناحية أخرى، إذا كانت وسائل الإعلام تعيش فعلاً وتمشي مع الجند، فإنها ستخبر الحرب وتعانيها من منظور الجندي أو العسكري البحري. وقلت: "على الأقل فإنهم سيحصلون على حقائقهم مباشرة. وإلى جانب ذلك، فالشعب الأمريكي يستحق أن يرى احترافية أبنائه وبناته في البرة العسكرية."

إحدى النواحي التي جعلت مشروع تثبيت وسائل الإعلام مع الوحدات العسكرية ينجح في استمالة القادة هي الدورة التي كانت لمدة أسبوع في تدريب الطوارئ العسكري المشترك لوسائل الإعلام التي عقدتها وزارة الدفاع في قاعدة سلاح مشاة البحرية في كوانتيكو، في فيرجينيا. وأعلن عنه بصفة معسكر تدريب

للمستجدين سيعلم المراسلين كيف يبقون أحياء في القتال، وكيف لا يتحولون إلى عبء على الوحدات التي عينوا ليعملوا معها. والتدريب نفسه صار حدثاً إعلامياً، مع رقباء مشاة البحرية وضباط صف الجيش في البزة الصحراوية المموهة وخوذات كيفلار يُجهدون مجموعات من الصحفيين بحجم حضيرة حتى يتصببوا عرقاً وهم يصعدون عبر الورود الجبلية الشائكة في كاردياك هيل. وكان هناك هجمات وهمية بالغاز وقنابل دخان، وكماثن مع "المعتدين" تطلق صليات تصم الآذان من طلقات خُلّبية من رشاشات ام-60.

قال لي جيم ويلكنسون إن شركة ال. ال. بين تقوم بعمل تجاري كبير. فلديك هناك باعة الصحف وهم جالسون حول محلات ناغان في شارع ام يقارنون مزايا نعال الأحذية ذات عوارض التقوية وبنطلونات ذات جيوب التحميل.

عندما أعلن عن المشروع، اشتكى بعض قادة كتائب الجيش وألويته من احتمال القيام بعمل "حضانة" لرعاية مجموعة من المراسلين. ولكن عندما انتشر الكلام عن أن سلاح مشاة البحرية، وربما كان هذا السلاح هو أفضل فرع عسكري يميل إلى العلاقات العامة، كان يسعى إلى الحصول على "مراسلين مثبتين" التحقق الجيش بالتنافس من أجل الحصول على أفضل المراسلين للوسائل المطلوبة وللإذاعات.

ومع تكشف العملية، صار واضحاً أن عدم الثقة والعداوة الموجودتين تقليدياً بين العسكريين ووسائل الإعلام قد بدأت بالانكسار. لقد سمعت تقارير تقول إن الصحفيين الذين انتقلوا إلى كامب بندلتون، وفورت ستيوارت، وفورت براغ كانوا قد بدؤوا من قبل ذلك يتحدثون بإعجاب عن "مجموعتي". وهذه الروح نفسها كانت تنتشر على متن السفن وفي قواعد الطيران حيث تم تعيين المراسلين الثابتين. كانت هناك روح معينة تتطور هي روح إيرني بايل^(*)، وكان المراسلون يرتبطون مع الجنود ومشاة البحرية، فالجنود يعلمون "صحافييهم" كيف يسخنون كيس الوجبات الجاهزة

(*) إيرني بايل (١٩٠٠ - ١٩٤٥م) صحفي أمريكي اشتهر بقصصه عن الجنود الأمريكيين في الجبهات الأوروبية والإفريقية في الحرب العالمية الثانية.

للأكل على كتلة المحرك في عربة همفي وأفضل طريق لمعالجة التفتطات. وتصور
المعادل المعاصر للرقيب المعلم كيتل أو العريف سام لونغ وهو يبين لخريجي مدرسة
الصحافة في كولومبيا المواد الأساسية التي ينبغي أن يحملها في حقيبة الظهر.

في أواخر تشرين الثاني/نوفمبر، أعلمتني توري، بأنه سيكون هناك ما يصل
إلى ستمائة مراسل معين معترف بهم في القيادة. وقالت لي: "إذا قمنا بهذه العملية،
أيها الجنرال، فإن تغطية هذه الحرب ستكون أفضل تغطية في التاريخ".

في أثناء ركوبنا الطائرة ونحن ذاهبون إلى منطقة المسؤولية، أخبرت جيم
ويلكنسون بفضاظة وهمية أن مراقبة هذا الحشد من المراسلين ستكون مسؤوليته.
وقلت له: "أنا لا أعطي أدنى اهتمام لما تفعله بهم. أبقيهم فقط خارج شعري، لئلا
يزعجونني".

ولم يبق جيم متأثراً بالصحافيين من نوعية النجوم بأكثر مما كان متأثراً
بجنرالات أربع نجوم. وهذا كان أحد الأسباب التي أحببته من أجلها، إضافة إلى
حقيقة أنه كان تكسانياً يستمتع بالبيرة الباردة من حين إلى آخر. ولكنه تكهن أننا
كنا سنتفق اتفاقاً حسناً تماماً. وقال لي: "أنت ستتعلم أن تحب وسائل الإعلام، أيها
الجنرال". ولم أحببها قط، ولكنني تعلمت أن أثق في جيم ويلكنسون.

مركز العمليات المشتركة في مركز القيادة القابل للنشر الخاص بالقيادة
المركزية في قطر كان في مقطورة مضاعفة السعة، وطولها مساو تقريباً لطول
المنشأة الدائمة في تامبا، ولكنها أضيق بكثير. ومركز العمليات المشتركة هذا يمتلك
لمسة صناعية أكبر، ففيه أنابيب تكييف الهواء وحزم كبلات الألياف البصرية
المكتشوفة فوق الرؤوس. ومثل مركز العمليات المشتركة في ماكديل، فإن مركز
العمليات المشتركة هنا، وهو "ملجأ" مستطيل مختوم ضمن اتساع يرجع صدى
مستودع أخضر ضخم في معسكر مثل السيلية، كان مضاء إضاءة خفيفة وهادئة
على نحو غريب، على الرغم من أنها كانت تؤوي خلية من أربعة وثمانين ضابطاً
وضابط صف قديماً يعملون ويشغلون مقصورات حواسيبهم وشبكات هواتفهم.

وأعلن عقيد نحيل من ورشة ضباط ركن الاتصالات ومدير الاتصالات العميد الجنرال دينس موران: "دعونا نشغل مفتاح روميو تانغو أربعة-سنة للتدقيق مرة أخرى باللمس". وهو تدقيق أخير للتحقق من سلامة أعقد نظام اتصال عسكري عالمي في التاريخ.

كانت الدوائر السوداء ترتسم حول عيني موران الغائرتين، مثل البقية الباقية منا، كان يعيش على الكافئين والأدريالين. وبالقرب تبدو للعيان بطاقة معايدة وتحية (عيد ميلاد سعيد) عدلها شخص ما لتناسب المهمة القريبة: شطب هذا الشخص المغرم بالمزاح كلمة "عيد الميلاد" وكتب بالقلم الرصاص رسالة جديدة: "أم سعيدة لكل ألعاب الحرب".

كان تمرين النظرة الداخلية 03 واحداً من تمارين التشبيهات والمحاكاة التي تفوق في تفاصيلها وإتقانها أي تمرين سبق لأي قيادة مقاتلة أن أدارته. وقد ثبت أنه تجربة قيمة، وإن كانت مرهقة، لخطة العمليات الهجينة V 1003.

كان التمرين "تمرين حجارة" وهو تعبير يجد أصله في الحرب الأهلية، عندما كان الضباط يضعون حجارة على الأرض لتمثل مواقع القوات الصديقة والعدو. وبدلاً من قطع الحجارة، استخدمنا ملصقات تشبيه ومحاكاة محوسبة لتجربة خطتنا من حيث قابليتها للتطبيق العملي. وطوال أربعة أيام وليال قمنا بتشبيه ومحاكاة المراحل الأولى من المرحلة الثالثة، وكانت الكتائب والألوية من فرقة المشاة الثالثة وقوة حملة مشاة البحرية الأولى تعبر الحافة الرقمية للحدود العراقية، في الوقت الذي كانت فيه صواريخ توماهوك للهجوم الأرضي الإلكتروني ورزم القصف الإلكتروني من السفينتين الأمريكيتين نيميتز وكيتي هوك تقصف مجموعة أهداف قيادة النظام في بغداد الرقمية وحولها.

صورة الحرب المتكشفة على الشاشات البلازمية الواسعة أعطتنا متابعة "القوة الزرقاء" التفصيلية، وهو منظر فوقي شامل يكشف تقدم وحداتنا ضد تجميعات وتغييرات في نظام مقاومة معادية مبرمجة سلفاً. وكان هذا هو إسهام عصر

المعلومات لعلم الحرب. أما الخبرة المتراكمة طوال عقود لدى أركان القيادة المركزية فقدمت فن الحرب.

كنت متعباً مثل أي فرد آخر، ولكنني كنت مسروراً بالتمرين. فقد سمحت أعمال التشبيه والمحاكاة لقادة عناصري ولي أن نقاتل حملة واقعية بشكل حيوي، ولكنها بلا دماء. وكما كان متوقعاً، برزت مشكلات: مشكلات اتصالات تتصل بعرض نطاق الترددات، والأوامر التي أسيئ تفسيرها، وقضايا التوقيت والمسافة، وخطوط الاتصال بين عناصر القوة المشتركة. واستمرت بنود القائمة.

القول المأثور القديم من فورت مونرو الذي يقول إن "السلام جسيم" هو قول مناسب، ولكنه لم يكن أكثر مناسبة منه الآن. ومثله كانت الحكمة القائلة "تدرّب تدريباً شاقاً تقاتل قتالاً سهلاً." كنا نضرب ونسقط الحواف الخشنة لخطّة معقدة جداً. ونحصل على بعض عقد الأصابع المكشوفة في أثناء العملية.

ولكن التمرين كان يسلم البضاعة، قد وفى بما هو متوقع منه. وبحسب الرطانة العسكرية، فإن هذا التشبيه والمحاكاة المعقدة كانت "تصدق" على الافتراضات الإستراتيجية التي بنيناها في الخطّة الهجينة V 1003.

كانت خطّة معقدة. فهجومنا الأرضي سوف يتقدم على طول طريقين رئيسيين للتقدم من الجنوب، وفي كل طريق عدة محاور. قوات الجيش، وتقودها فرقة المشاة الثالثة، سوف تهاجم باتجاه خطوط المسير غرب نهر الفرات في قوس طويل ينحني ابتداءً من خطوط المغادرة في الكويت إلى أن يصل إلى بغداد. وقوة حملة مشاة البحرية الأولى، وهي مقسمة إلى زمر قتالية بمستوى أفواج معززة، سوف تتبع شبكة الطرق على طول نهر دجلة، أبعد إلى الشرق. والجيش والبحرية سوف يعاودان الارتباط ليقوما بتدمير أي وحدات باقية من الحرس الجمهوري في جنوب العاصمة. وسوف تتقدم فرقة المشاة الرابعة جنوباً من مناطق التمرحل في تركيا، شريطة أن نستطيع إقناع الأتراك ليعيروننا أراضيهم لبضعة أشهر. وستقوم قوة أرضية بريطانية بحجم فرقة وأكثر بالدوران حول محور بالاتجاه الشمالي الشرقي

من الكويت وتعزل مدينة البصرة، وتشكل بذلك طوقاً حامياً حول حقول الزيت الجنوبية. وتقوم قوات العمليات الخاصة الأمريكية، والبريطانية، والأسترالية بالسيطرة على صحراء العراق الغربية، وتمنع بذلك النظام من حرية العمل في إطلاق صواريخ بعيدة المدى نحو الأردن وإسرائيل.

بدت لي الخطة على الورق أنها هجوم ضد عدو يتفوق عددياً ولديه قوة هجوم صغيرة نسبياً. هل كنت أغري القدر بتحدي حكمة كلية الحرب التي تقول إن القوة المهاجمة يجب أن تمتلك ميزة عددية 3 إلى واحد على المدافع المتخندق؟ "لا شيء من هذا" كما قد يقول أصدقائي البريطانيون. في ميدان معركة القرن الحادي والعشرين، سوف تشتق القوة من كتلة قوة النيران الفعالة، وليس ببساطة من عدد الأحذية العسكرية أو جنازير الدبابات الموجودة على الأرض.

إن قواتنا الأرضية، وهي مدعومة بقوة جوية كاسحة، سوف تتحرك بسرعة وبعمرق إلى المؤخرة العراقية بحيث أن عامل الوقت والمسافة سوف يحولان دون المناورة الدفاعية للعدو. وهذا العدو البطيء في رد الفعل سوف يثبّت في المكان بجهد مشترك من المدفعية، والإسناد الجوي، والطائرات العمودية الهجومية.

ولا جدال في أن خطوط اتصالنا ستكون طويلة ومكشوفة في بعض الأماكن، وممتدة لأكثر من ثلاثمائة ميل من حدود الكويت إلى ضواحي بغداد. ولكن الهدف كان تدمير إرادة القتال عند القوات العسكرية العراقية. وإن نموذجاً لهجوم أوسع، وأبطأ، ومنهجي، ومستند إلى الاستنزاف كان يستطيع أن يهزم العدو بالتفصيل، ويمكن أن تكون خطوط اتصالنا محمية حماية أفضل بمثل هذه القوة. ولكن الوقت الذي سيستغرقه تمرحل وإطلاق مثل هذه القوة العارمة سيترك لصدام خيارات إستراتيجية كثيرة: كان يستطيع أن يستفيد من الوقت ليدمر البنية التحتية للعراق في الماء أو النفط، أو أن يطلق صواريخ ضد جيرانه، أو أن يستخدم أسلحة الدمار الشامل ضد جندنا، وسجل مساره كان يوحي بأنه لن يفكر مرتين في أي واحد من هذه الخيارات.

لا، إن سرعة المناورة ستكون أهم موجوداتنا. إذا استطاعت وحداتنا المدرعة التقدم بالسرعة الكاملة وأن تحافظ على تلك السرعة لأيام وليال مستمرة بلا انقطاع، فإنها بذلك ستمتلك المبادرة، وسوف يكتسح زحمتنا قدرة العراق على رد الفعل، تعبويًا وإستراتيجيًا. نحن لن نستخدم قوة كاسحة. بدلاً من ذلك، سوف نستخدم "كتلة تأثير" كاسحة من قوة أصغر. السرعة سوف تمثل كتلة بحد ذاتها.

في واحد من المراحض المحمولة خارج مركز القيادة الرئيسي في قطر خريش أحدهم على جدار بلاستيكي أخضر: "فرانكس مدمن السرعة." وقد أخذت قلم حبر ناشف وكتبت: "بالتأكيد"، ثم ألصقت توقيعي مثل جون هانكوك(*) : تومي آر. فرانكس، جنرال، الولايات المتحدة الأمريكية، القائد.

أقنعتني نتائج لعبة حربنا أننا كنا نستطيع فعلاً دمج عدة مراحل من الحملة إلى أن تكون في جهد مفرد، ومتزامن، سوف يستغرق وقتاً أقل بكثير من المائة والثمانين يوماً التي تخيلتها. وصارت النتيجة كالتالي: "125-16-11-5" خمسة أيام لتمرکز آخر جسر جوي بعد أن يكون الرئيس قد اتخذ قراراً لإطلاق العملية، وأحد عشر يوماً لتدفق آخر قطع من "قوة البداية" وستة عشر يوماً من الهجمات الجوية والعمليات الخاصة ضد الأهداف الحيوية، وما مجموعه 125 يوماً لاستكمال تدمير القوات العراقية وإزاحة النظام.

وكانت هذه ثورة حقيقية في الحرب.

وقد أحسست بالرضا الكبير من الاشتراك الذي رأيته يتطور في الفريق في القيادة المركزية. كان لدينا رجال ونساء في مركز العمليات المشتركة في السيلية، وفي معسكر الدوحة في الكويت، وفي مركز العمليات الجوية المشتركة في المملكة العربية السعودية، وعلى السفن في الخليج، وفي القواعد الأمامية لعمليات وحدات العمليات الخاصة، وفي الخلف في تامبا، وكلهم عملوا مثل فريق موحد. كان

(*) جون هانكوك: (١٧٣٧ - ١٧٩٣) وطني أمريكي كان رئيساً للمجلس القاري (١٧٧٥ - ١٧٧٧)، وكان أول موقع على إعلان الاستقلال الأمريكي، وصار حاكم ماساشوسيتس عدة مرات.

يستطيع رائد من الجيش أن يُرحل طلباً للمساندة الجوية القريبة من نقيب من البحرية على الأرض إلى رف من المقاتلات القاذفات اف-16 من القوات الجوية. وكان يستطيع ضابط صف قديم من القوات الجوية في القيادة الفضائية في الولايات المتحدة في كولورادو أن يخدم متطلبات الزمرة-ايه، أ من القوات الخاصة من تغطية الاستطلاع بالأقمار. وكانت سفن الأسطول تستطيع أن تطلق صواريخ توماهوك للهجوم الأرضي على أهداف حددها مشغل فرع أرضي من وكالة الاستخبارات المركزية.

أخبرت العصابة في مركز العمليات المشتركة: "لقد أحببتها من المكان الذي أجلس فيه، بدأت أنتم أيها الرجال تبدون لي مقاتلي حرب حقيقيين متشاركين بين الوكالات".

بعد العودة من منطقة المسؤولية صرت أتردد بين مقار القيادة المركزية في تامبا، ووزارة الدفاع، والبيت الأبيض، وكامب ديفيد. والآن بعد أن صار التصور الهجين هو خطة العمليات 1003V فقد تحولت المسألة كلها مسألة للضبط الدقيق. وأسبوعاً بعد أسبوع تصارعنا مع "ماذا لو؟": درسنا طوارئ متنوعة مثل فقدان تركيا، وفقدان القواعد المتقدمة للعمليات المتصلة بالعمليات الخاصة في الأردن، وفقدان قواعد في المملكة العربية السعودية، وبغداد القلعة، واستخدام العراقيين لأسلحة الدمار الشامل.

وبصفتي القائد العسكري، فقد كان جزءاً من عملي أن أثبت الثقة. وذلك ما لم يكن صعباً، لأنني أنا نفسي كنت واثقاً.

ولكن كثيرين في واشنطن كانوا قلقين. فمفتشو الأمم المتحدة، الذين كانوا قد عادوا إلى العراق في أواخر تشرين الثاني/نوفمبر، كانوا يواجهون مزيجاً من التعاون ومن التدخل الصارخ. وعندما أصدر العراقيون ما كان في الظاهر تصريحاً "كاملاً ونهائياً" عن أسلحة الدمار الشامل وكان بسماكة تعادل عشرة كتب دليل هاتف في مانهاتن، ادعى نائب رئيس مجلس الوزراء طارق عزيز أن ذلك التصريح برهن على

أن بلاده لا تمتلك أسلحة تدمير شامل، وذلك على الرغم من حقيقة كون الوثيقة أساساً مجموعة من الأوراق التي سبق أن حكم عليها بأنها كاذبة في التسعينيات من 1990 من مفتشي الأمم المتحدة أنفسهم الذين قدم العراق لهم هذا التصريح. وبالنسبة إلى نظام صدام حسين كان الوقت ينفد.

ليس منا أحد أراد أن يندفع مسارعاً إلى الحرب إذا كانت الدبلوماسية ربما ما تزال قادرة على العمل. ولكننا كنا نريد فعلاً أن نبني قوة عسكرية في المنطقة لنضيف العضلات إلى الدبلوماسية. وكان هذا يشتمل على مخاطرة معينة. فحتى الآن، لم يقم أحد في واشنطن بتسريب التفاصيل المحددة عن تخطيطنا. فالافتتاحيات، والصفحات المقابلة للافتتاحيات كانت تناقش في الصحف ميزات العمل العسكري الاستباقي، ولكن لم تكن هناك أي معارضة مسموعة الصوت لأسلوب اقترابنا في هذا الميدان لا في مجلس الشيوخ ولا في وسائل الإعلام. ومع تزايد انغلاق نافذة الدبلوماسية، كان مئات من المراسلين ومندوبي الإعلام قد عُينوا من قبل وثُبتوا في وحدات التحالف العسكرية أو هم ينتظرون التعيين.

مستوى قوتنا في المسرح كان يتصاعد. وبحلول منتصف كانون الثاني/يناير بدا لي محتملاً أن الرئيس سوف يكلف الأمة بالحرب: عاجلاً غير آجل.

اجتمعت مع الملك عبد الله الثاني ملك الأردن في بيته في عمان في أصيل يوم الخميس 23 كانون الثاني/يناير، 2003. وقال لي: "يا جنرال، أعتقد أن العراقيين يخبئون أسلحة كيماوية وحيوية، وهذا من مصادر استخباراتية موثوقة."

الأردنيون كانوا يمتلكون فعلاً مصادر استخباراتية موثوقة في العراق. وأنا وثقت بهم، ووثقت بحكم الملك. ولم أكن أحس بالمفاجأة مما روت مصادره. لقد أمضيت أياماً وليالي طوال اثني عشر عاماً مضت وأنا أقلق بشأن برنامج أسلحة الدمار الشامل لدى صدام، وبشأن الأثر الذي يمكن أن يكون لمثل هذه الأسلحة على جندنا، أو على بلادي. شكرت الملك، وغادرت بيته، وقادت السيارة إلى الفندق، وذهبت مباشرة إلى غرفة الاتصالات لأمرر المعلومات التي أُعطيتها إلى الوزير رامسفيلد.

بعد أربعة أيام، في يوم الاثنين 27 كانون الثاني/يناير، كنت أطيّر من باكستان لأعيد التزود بالوقود في كريت عندما جاءني منسق رحلتي المقدم في القوات الجوية ماني شافيز، وربت على كتفي وأبلغني: "رياح معترضة بسرعة خمس وثلاثين عقدة على خليج سودا، يا جنرال. ويبدو لي أننا سيتعين علينا أن نتوجه إلى القاهرة".

وقلت: "تباً لها". فوصولي غير المعلن إلى مصر سوف يتسبب في حركة سريعة في السفارة وربما في مكتب الرئيس حسني مبارك. "ليس قراراً صعباً، يا ماني. إما أن نتحطم على سفوح الجبال اليونانية أو نتوجه إلى القاهرة".

كان حسني مبارك ودوداً مثلما هو دائماً. ولكن من الواضح أنه كان مهتماً ببنائنا العسكري وبالتوتر في العراق.

ومال مقترباً مني وتكلم بلغة إنجليزية مفهومة فوراً ولكنها بلهجته. وقال وهو يختار كلماته بعناية، مثلما كان قد فعل الملك عبد الله، "يا جنرال فرانكس، يجب عليك أن تكون حذراً جداً جداً. لقد تحدثنا مع صدام حسين. إنه رجل مجنون. وهو يملك أسلحة تدمير شامل، أسلحة حيوية بالفعل، وسوف يستخدمها على جندكم".

بعد ساعة، وفي غرفة الاتصالات في السفارة، مررت هذه الرسالة إلى دون رامسفيلد.

طوال تخطيطنا للخطة V1003 ناقشنا المرحلة الرابعة، "اليوم الذي يلي".

عراق ما بعد الحرب يمكن أن يتشكل على غرار اليابان وألمانيا في ما بعد الحرب العالمية الثانية. وقد درسنا الحجج المواتية والمنافية بخصوص وجود كبار ضباط من الجيش الأمريكي ومن سلاح مشاة البحرية ومن القادة العسكريين البريطانيين يعملون مع شيوخ القبائل العراقية في كل أنحاء البلاد. ودرسنا قابلية التطبيق والجدوى من حكومة انتقالية في العراق تتشكل بمساندة دولية، وفق خطوط إدارة حامد قرضاي في أفغانستان.

وكما في أفغانستان، فقد كنت أعرف أن المساعدة الإنسانية وإعادة الإعمار، مقرونة بالأمن، ستكون هي الأولويات العليا حالما تنتهي عمليات القتال الكبيرة. وكانت افتراضاتنا التخطيطية بأننا سنوجه الحكومة العراقية الانتقالية في بناء قوات عسكرية وقوات أمن شبه عسكرية مأخوذة من أفضل وحدات الجيش النظامي المهزوم. وهذه الوحدات سوف تخدم جنباً إلى جنب مع قوات التحالف لاستعادة النظام ولتمنع الصدامات بين الفئات الدينية والعرقية، وذلك تماماً مثل تحالف الشمال وجماعات المعارضة الباشتونية المناوئة للطالبان التي كانت تشكل جيشاً وطنياً أفغانياً جديداً.

إن إعادة الإعمار، الذي يتضمن حشداً من مشاريع الأشغال العامة على أسلوب الصفقة الجديدة^(*)، سوف يكون مطلوباً لتوظيف أعداد من العراقيين لإعطاء زخم قفزة البداية لبناء "عراق جديد". ومع قوات أمن منضبطة، تتحدث اللغة العربية وتتعاون مع قوات التحالف العسكرية، سيكون المسرح قد أعد لمرحلة الإعمار في كل أنحاء الأمة. وسيكون لدى أرباب الأسر وظائف، وأجور معيشة لتغذية عائلاتهم، وفرصة لإرسال أطفالهم إلى المدرسة، بدلاً من وضعهم في سوق عمالة الأطفال. وسيكون للعراقيين مصلحة في مستقبل عراق حر.

لم يكن هناك شك في أن المرحلة الرابعة ستكون فترة حاسمة. فبعد أن نكون قد ربحنا الحرب، سيتوجب علينا أن نؤمن السلام. وتأمين السلام لن يكون سهلاً في بلاد كانت قد اغتصبت وذبح فيها البشر طوال أكثر من ثلاثة عقود تحت حكم صدام حسين. وكانت هناك انقسامات عميقة بين السنة والشيعة، وبين الأكراد والعرب، وبين من يملكون ومن لا يملكون، وسيكون من العسير قهر المنافسات القبلية التقليدية في المنطقة. سوف تستغرق وقتاً، وربما يكون الوقت سنوات. وستكون التكلفة عالية بالتأكيد في المال وفي الأنفس كما هو متصور.

(*) البرامج السياسية التي هدفت إلى تعزيز استعادة الانتعاش الاقتصادي والإصلاح الاجتماعي في أثناء فترة حكم الرئيس الأمريكي فرانكلين دي. روزفلت في الثلاثينات من ١٩٣٠م.

وما كان هناك أدنى ريب في الأعمال التي ستكون مطلوبة. فالقادة العسكريون للتحالف عبر كل العراق سوف يقدمون الخبرة العملية للشؤون المدنية، ومساعدة الحكم، والأمن، والمساعدة الإنسانية لملايين العراقيين. وقواتنا التقليدية وزمر قواتنا الخاصة كانت تمتلك القدرة والخبرة العملية لإنجاز هذه المهام، وعقول جين رينيوارت زنة خمسين رطلاً كانت قد قامت بعمل رائع في تحديد وتوفير الموارد اللازمة لوحدة التحالف لعمل ذلك الواجب.

ومع الأخذ بعين الاعتبار أن الغاية الرئيسة لسياستنا هي تأسيس حكومة تمثيلية في العراق، فسيكون، مع ذلك، ضرورياً أن نؤسس سيطرة مدنية عبر البلاد بأسرع ما يمكن. وكانت الأسئلة المطروحة هي: كم المدة التي ستكون ضرورية لدوام الحكم العسكري في العراق؟ وكم هي السرعة التي يستطيع بها العراقيون أن يتسلموا الحكم؟ وما هو الشكل الذي يجب أن تأخذه "السلطة المؤقتة"؟ كانت هذه أسئلة صعبة، ولم يكن هناك أي وصفة سهلة للإجابات.

في ناحية، قد تدعو الحاجة إلى قوات عسكرية أكبر من قوات التحالف وإلى الحكم العسكري للبقاء في البلاد لسنوات، من أجل المحافظة على الأمن. ومن ناحية أخرى، فإن العراقيين قد يطالبون ببلادهم بأنها لهم، وهم قد يرحبون بالتحريض وينظمون أنفسهم بسرعة للسيطرة على العراق من دون مساعدة التحالف.

وسيطرت هذه المشكلات على ساعات وأيام من المناقشات والحوار بين مخططي القيادة المركزية ومسؤولي واشنطن. لو كان بالإمكان تحديد قائد حقيقي ينال الإجماع، نوع من حامد قرضاي عراقي، عندئذ قد تكون الحكومة التمثيلية ممكنة في الأمد القصير. الفئات الأكثرية والأقلية سوف تكون ممثلة، وسيصير العراق نموذجاً للعالم العربي الإسلامي. ولكن أين نجد القائد الذي يحوز الإجماع؟ كثيرون في واشنطن اعتبروا أحمد شلبي خياراً محتملاً. وقد صعد شلبي إلى البروز بعد أن أقر مجلس الشيوخ، ووقع الرئيس بل كلينتون، قانون تحرير

العراق في العام 1998. وصرح هذا التشريع أنه سيكون من "سياسة الولايات المتحدة أن تسعى إلى إزاحة نظام صدام حسين من السلطة في العراق وأن تحل محله حكومة ديمقراطية." ووجه القانون الرئيس إلى تعيين منظمة معارضة عراقية مناسبة أو أكثر من منظمة لتلقي مساعدة. وكان المجلس الوطني العراقي، وهو مظلة شلبي، ويقود بالدرجة الرئيسية منفين مناوئين لصدام، قد عين ليكون هذه المجموعة المعارضة المعنية.

ولكن لشلبي منتقصوه المتحمسون، في كل من وزارة الخارجية وفي وكالة الاستخبارات المركزية. وقد استشهدوا بالآثار التي تتعقبه عن التعاملات المالية المشبوهة طوال مدة من الزمن دامت لسنوات في الشرق الأوسط، وشككوا في أنه أدام الاتصالات الوثيقة التي زعمها له داخل العراق، وخصوصاً لأنه لم يعيش في البلاد لمدة تتوف على ثلاثين عاماً. ومن طرق عدة، عانى الشلبي مصير القادة المنفيين المهاجرين الآخرين، بدءاً من الروس البيض في باريس العشرينيات من 1920 وإلى ديغوليي فرنسا الحرة في إنجلترا في أثناء الحرب العالمية الثانية: فبغض النظر عن مدى الإخلاص الذي كان يرغب فيه في تحرير وطنه، فهو لم يبق، وبشكل سيئ، على اتصال مع ما يلزم للقيام بذلك. وقد قابلت الشلبي مرة واحدة فقط، وفي الوقت الذي كنت فيه متأثراً بإخلاصه، فقد كنت خائب الأمل برأيه الواضح بأهميته الشخصية، وبرأيه المبين بأنه كان يستطيع "بسهولة" أن يجمع العراق حول نفسه. فهو قد يكون رجلاً طيباً، ولكني كنت أعرف ما يكفي حول الصعوبات التي كان يواجهها العراق إلى درجة تجعلني أرى الشلبي ساذجاً.

والعديد من القادة في المنطقة كانوا ضد الشلبي برأي موحد بوصفه من الخارج، إنه قائد، غندور "غوشي" (*) ولن يكون قادراً أبداً على أن يوحد الفئات العرقية والدينية. وفي واشنطن، ارتسمت خطوط المعركة. مع عدم وجود قرصاي

(*) غوشي شركة راقية للملابس واللوازم الشخصية والعطور، والغندور هو الناعم الحسن الشباب. انظر المعجم الوسيط.

عراقي بارز بوضوح استمر الحوار بين وزارتي الخارجية والدفاع. وفي هذا الوقت كانت أمريكا تقترب أكثر من الحرب. وسوف يتعين تحديد قيادة العراق الجديدة على عجل وفي اللحظة، حتى في الوقت الذي كان فيه التحرير العسكري قيد العمل والتقدم. ربما سيتقدم جنرال عراقي، أو سيتقدم شخصية من النخبة المتعلمة.

وعلى أي حال انتهت المسألة، فإن السلطة المؤقتة، طبعاً، ستكون مطلوبة. وعندما كنت أقرأ قصص الصحف، وأشاهد قنوات التلفاز الإخبارية وهم يشدون على أيديهم في إمكانية أن أقوم بالخدمة بصفة ما سموه "ماك آرثر العراق" كنت أوازن بين إيجابيات وسلبيات مثل هذا الاحتلال:

- تحسين الأمن... تحت سيطرة شخص ينظر إليه على أنه محتل غاشم.
- تحسين الكفاية في الأمد القريب... لتكون السبب في ظهور اعتماد التبعية في الأمد الأطول.

- تحسين القدرة على صرف تمويل إعادة الإعمار... مع القدرة المتناقصة على الحصول على مثل هذا التمويل من مجلس الشيوخ الأمريكي أو المجتمع الدولي.

لم أستطع أن أرى أي حل كيّس مناسب لهذه المشكلة المعقدة جداً. إن السيطرة المدنية على الحكومة كان منذ مدة طويلة قيمة من القيم الأمريكية. فالكيفية التي ننتقل من خلالها بالعراق قُدماً باستخدام هذا النموذج الأمريكي المميز كانت مسألة إشكالية. ولكن شيئاً واحداً كان مؤكداً، على كل حال، وهو: أن المرحلة الرابعة سوف تتطلب قيادة مدنية. فبالإضافة إلى الأحذية العسكرية الموجودة على الأرض، فإننا سنحتاج إلى أحذية مدنية رسمية، نحتاج إلى مئات، وربما آلاف من المدنيين من أمريكا ومن المجتمع الدولي، من المستشارين الحكوميين إلى المستثمرين الراغبين.

والمفتاح إلى كل هذا، طبعاً، هو الأمن. ولكن الأمن لن يكون ممكناً في العراق من دون إعادة إعمار فوري ومن دون عمل مدني.

بعد ذلك، وفي بعد عصر ساخن في فلوريدا، اتصل بي دون رامسفيلد. وقال لي: "يا توم، هل تعرف جاي غارنر؟".

وأجبت دون رامسفيلد: "نعم سيدي الوزير. وأنا أحبه. جنرال عظيم من الجيش." وكررت على مسامع رامسفيلد إحدى قصصي المفضلة عن الفريق جاي غارنر: فهو عندما تقاعد، سأله مراسل إن كان سيغير أي شيء بشأن حياته لو كان له أن يعيشها ثانية. فأجابه جاي: "بالتأكيد، سأغير الكثير من الأشياء، ولكنني سأزوج المرأة نفسها، وسألتحق بجيش الولايات المتحدة."

وقال رامسفيلد: "جيد، وأنا أحبه أيضاً. كيف سيعمل بصفة رجلنا الكبير المسؤول عن الاحتلال العراقي وإعادة الإعمار؟"

وقلت له: "سيكون عظيماً." لقد كان غارنر فعالاً جداً في منع كارثة إنسانية بين أكراد شمال العراق بعد عاصفة الصحراء في العام 1991. وقلت لرامسفيلد: "عمل ضخم. ولكن جاي يستطيع أن يعمل إذا كنت تثق به أنت... وإذا كان يستطيع أن يحصل على الدعم الصحيح من كل وكالة من حكومة الولايات المتحدة. وذلك سوف يشتمل على مستويات من التمويل لم يسبق أن سمع بها منذ الحرب العالمية الثانية."

وقال رامسفيلد: "سيكون مرؤوسك. ولكنه سيكون رجلي في العراق."

"ذلك سيعمل، ولكن سيتعين علينا أن نقاتل مشكلة كل بيروقراطي داخل طريق الحزام الدائري ويزفت... معه إذا رؤي بوصفه رجل واشنطن بدلاً من رؤيته رجل تومي فرانكس."

وقال الوزير: "أنت القائد. وهو سيعمل لك."

وطول الأسابيع القادمة، سوف نجتمع أنا وجاي غارنر، وهو سيبنى فريقاً من الاختصاصيين والخبراء من كل أنحاء حكومة الولايات المتحدة، وينشر الفريق إلى الكويت، وينشئ صلات مع قادتنا على الأرض، ويستعد لدخول العراق في أعقاب جنودنا المهاجمين.

وقد أمضى جاي وفريقه ساعات لا تحصى مع أركان القيادة المركزية والمخططين الرئيسيين في الأركان المشتركة وفي مكتب وزير الدفاع، يشكلون

العمليات والإجراءات التي ستضع اختصاصي الشؤون المدنية في الجيش الأمريكي في كل مقاطعة في العراق. وستقوم قوات التحالف بتأمين حماية هذه الزمر، التي ستعمل مع العراقيين لبناء الحكم المحلي في كل مركز سكاني كبير. وسوف يمثل العراقيون المحليون كل المصالح العرقية والقبلية والدينية في البلاد في تأسيس قيادة وطنية. وسيطلق جاي ومقار قيادته عمليات في بغداد، تشارك في موقعها مع قائد التحالف الموجود في الموقع وسوف ينظم الوزارات التنظيم اللازم: وزارة النفط، والدفاع، والشرطة، والخزانة وهكذا، لتوفير "السلطة المؤقتة" في أثناء الانتقال إلى حكومة عراقية جديدة.

ولكن التحدي كان مشبطاً للهمة، وكان واضحاً أن هناك خطوات عملية معينة كانت مطلوبة حالما يزال نظام صدام:

- تأمين التمويل الضخم للاحتياجات الفورية للشعب العراقي.
 - استئجار عشرات الآلاف من الجنود العراقيين السابقين، وكلهم بحاجة إلى المال للعناية بعائلاتهم.
 - تحديد قيادة سياسية تكون موثوقة من العراقيين، وقادرة على مساندة قوة احتلال عسكرية والحلول مكانها في نهاية الأمر.
 - تنفيذ سياسة اجتثاث البعث التي لم تكن صعبة المعالجة، وهي في الأساس تحرم الطبقة الوسطى المتعلمة العراقية من حق التصويت.
 - تكييف التوقعات الأمريكية بأن العملية ستكون سريعة وغير مؤلمة.
- إن التحالف العسكري سيحرر العراق، ويقيم الشروط اللازمة للسلطة المدنية لتقييم حكومة مؤقتة مدعومة من قوات الاستقرار من التحالف، ويوفر الأمن إلى أن يستطيع العراق أن يضع في الميدان قوات أمنه الخاصة، وهو مدخل حصيف لمشكلة معقدة.
- وإن ترشيح جاي غارنر كان خطوة جيدة، ولكنها كانت خطوة أولى فقط.

وستكون واشنطنون مسؤولة عن توفير السياسة، وتوفير الموارد الكافية، كما كنت آمل، وذلك لكسب قلوب وعقول الشعب العراقي: في الوظائف، وشبكات الطاقة الكهربائية، والبنية التحتية للماء، والمدارس، والمستشفيات، والوعد بالرفاهية. وإن ثروة العراق النفطية ستكون مشتركة للشعب العراقي الذي لم يخبر إلا إساءة المعاملة، والتضحية، والفقر المدقع طوال أكثر من ثلاثين عاماً.

واعتمدت الخطة على أمرين محتومين متساويين: الأمن والعمل المدني. وإذا حققنا هذين الأمرين معاً فسيستطيع العراق عندها فقط أن يتحول إلى مثال لسلطة الحكومة التمثيلية.

كنت سعيداً لأننا وصلنا أخيراً في تكرار الإجازات إلى المرحلة التي كانت تبرز فيها خطة، لا مجرد تصور قائد؛ لأمر واحد، وهو أننا كنا قادرين أخيراً على أن نتحرك إلى ما بعد البيئة الافتراضية التي كنا نعمل فيها طوال شهور خلت، ونبدأ في نشر السفن، والطائرات، والجند.

ولأمر آخر، فقد سبق لي حتى الآن أن أمضيت أكثر مما كنت أحب وأنا أتجنب قضية "خطة حرب" في تعاملاتي مع الصحافة.

وفي واحد من المؤتمرات الصحافية في تامبا، والذي عقد في 21 أيار/مايو 2002، سألتني مراسل حول مستوى القوة الضروري لغزو ناجح للعراق. وكنت قد أجبتة: "رئيسي لم يطلب مني حتى الآن أن أستجمع خطة لفعل ذلك." وكانت هذه هي الحقيقة. في شهر أيار/مايو 2002، كنا نعرض على الرئيس خيارات، لا خطة.

ما كنت أستطيع أن أطلب من الجيش أن يصوغ ويصدر أوامر انتشار ويحرك التجهيزات استناداً إلى تصور. كانت الخطة أداة مختلفة تماماً. التصور كان نظرية. والخطة شيء نستطيع أن ننفذه.

في شهر أيار/مايو 2002، كنا ما نزال نناقش نظرية، ولم أكن أملك أي وثيقة قابلة للتنفيذ في مقري. الآن أنهينا V1003. كنا نمتلك خطة.

في يوم الاثنين، 3 شباط/فبراير 2003، تسلمت ما طال انتظاري له، وهو تقرير المفتش لوزارة الدفاع، وكان صدوره منتظراً منذ شهر تشرين الأول/أكتوبر 2002. نبع هذا التقرير في الأصل من شكوى من ضابط ساخط كان يخدم في مجموعة أركاني قدمها في شهر تشرين الأول/أكتوبر 2002.

في مركز ادعاءاته كانت مسألة تتصل بزواجتي، بكاثي. وبشكل محدد، شك الضابط من أنني سمحت لمروؤسيّ في وقت الواجب الرسمي أن يقدموا خدمات شخصية لكاثي، وأنني قد خرقت الأنظمة العسكرية بسماحي لكاثي بأن تطير على طائرة حكومية، والأكثر جدية عنده، هو أنني خرقت الأنظمة الأمنية لوزارة الدفاع بإعطائي كاثي حق الوصول غير المرخص به إلى المعلومات السرية المصنفة.

وكنت أعتقد أن التهم غير معقولة. ولكنني أدركت أيضاً الإمكانية الخطرة لها في إقلاق القيادة في وقت النشاط العاجل في كل من أفغانستان والخليج العربي. وحالما طفت الادعاءات إلى السطح تحدثت مع دونالد رامسفيلد.

"سيدي الوزير، لا أعتقد أن هناك أي شيء بخصوص هذا، ولكنني أرى أن كل تهمة منها يجب أن يتم التحقيق فيها تحقيقاً كاملاً. فإذا كنت قد ارتكبت أي أخطاء فسوف أعترف بها. ومن المهم أن يكون التحقيق مفتوحاً وكاملاً."

وكان رامسفيلد قد قال لي: "سوف نجعل المفتش العام يعمل فيها. ولكنني لا أريدك أن تتحول عن المسألة الرئيسية."

وقلت له: "دعوا الضربات تسقط حيثما تسقط. فلدي عمل مهم أعمله."

كان ذلك في شهر تشرين الأول/أكتوبر، ومنذ ذلك الحين دارت عجلات البيروقراطية وطحنت طحناً بطيئاً. وكنت أعرف من خبرتي الخاصة عندما كنت رائداً شاباً أحقق في سلوك ضابط جنرال أن هذا المستوى من التحقيق كان يجب أن يتحرك بسرعة أكبر. ولكن لم يكن لي سيطرة على العملية.

عندما صدر التقرير فعلاً، كان شاملاً جداً. ولم يجد المفتش العام أي مادة

للزعم بأن أركاني كانوا قد قدموا خدمات شخصية لكاثي، وبالنسبة إلى مرافقتها لي في الرحلات إلى منطقة المسؤولية، لم يلاحظ التقرير ارتكاب أي خطأ في ذلك.

وكانت أخطر تهمة هي أنني قد سمحت لها بأن ترى وثائق أسرار عالية على ظهر الطائرة. وهذا في الحقيقة لم يكن صحيحاً، ولكني لم أكن أستطيع أن أبرهن على أنني لم أناقش مثل هذه الوثائق مع أركاني بينما هي حاضرة في غرفة الاجتماعات في الطائرة. وعندما أثبتت المسألة في العام 2002، وقعت كاثي "اتفاقية الإفشاء سهواً" التي كانت تمنعها من إفشاء أي معلومات أو أسرار تكون قد سمعتها من دون قصد المتحدث. وهذا الاتفاق مقروناً مع حقيقة كونها قد حصلت على تصريح أمني سري لمدة أكثر من سنتين، أرضاني وأرضى دونالد رامسفيلد.

في أول رحلة لي إلى واشنطن بعدما كان تقرير المفتش العام قد أعلن، ناقشت المسألة مع الوزير.

قال لي: "كلما ازدادت السلطة والصلاحيات التي يمتلكها المرء، يتوجب عليه أن يزداد حرصاً. وتذكر أن الإدراكات الحسية تؤخذ بالحسبان".

وأجبت: "فهمت، يا سيدي".

وبذلك، تابعت التقدم لأؤدي واجبي.

في يوم الأربعاء، 5 شباط/فبراير 2003، قدم كولن باول لمجلس الأمن في الأمم المتحدة عرضه الذي طال انتظاره عن تهديد أسلحة الدمار الشامل العراقية. وقد استعد لهذا الحدث بدراسة تقارير العملاء، وبالتصوير الفوقي، وباعتراضات الاتصالات، و"مجموعة" فنية أخرى كانت وكالة الاستخبارات المركزية قد جمعتها له ليستعرضها. وكان باول أيضاً قد استغرق في قراءة التقارير الضخمة لمفتشي الأمم المتحدة أنفسهم عن الأسلحة، وهم الذين قرروا أن العراق لم يقدم تعليلاً لكميات

ضخمة من الأسلحة الحيوية والمركبات الوسيطة لغاز الأعصاب من مثل السارين وفي اكس(*)).

وعندما كان العالم يشاهد، قدّم كولن باول، وكان مدير الاستخبارات المركزية جورج تينيت يجلس خلفه، القضية إلى مجلس الأمن، وهي أن نظام صدام حسين في أحسن الأحوال قد خدع عن عمد مفتشي الأسلحة من الأمم المتحدة من العام 1991، وهو ما يزال يفعل ذلك.

واستخدم وزير الخارجية تسجيلات اعتراض الاتصالات التي ناقش فيها الضباط العراقيون العسكريون وضباط المنظمة الأمنية تخبئة "الذخيرة الممنوعة" عن المفتشين. وعرض صور استطلاع الأقمار لمواقع صناعية مشبوهة ومختبرات أسلحة حيوية متنقلة مشبوهة.

واستشهد بصلات قائمة بين حكومة صدام حسين ومجموعة أنصار الإسلام الإرهابية المتحالفة مع القاعدة، والتي كان يقودها أبو مصعب الزرقاوي.

وشدد الوزير على أن "الطموح والكرهية كافيان ليجمعا العراق والقاعدة معاً". وسأل كولن، نظراً إلى أن صدام "مصمم على المحافظة على أسلحته للدمار الشامل... وصنع المزيد، هل يجب علينا أن نقبل المخاطرة بأنه يوماً ما لن يستخدم هذه الأسلحة في وقت وفي مكان من اختياره، في وقت يكون فيه العالم في وضع أضعف بكثير من أن يرد؟ إن الولايات المتحدة لن تغامر في التعرض للخطر ولا تستطيع أن تقبل المخاطرة بالشعب الأمريكي".

بعض أعضاء مجلس الأمن وافقوا على ما وجده. أما فرنسا، وألمانيا، وروسيا فلم توافق.

(*) في اكس (VX) غاز أعصاب أشد فتكاً من غاز السارين ولكنه أقل تبخراً. ويقتل خلال دقائق إذا استنشق أو لامس الجلد، وتحتاج الوقاية منه إلى ملابس خاصة وأقنعة. ويلوث الأرض التي أطلق فيها لعدة أيام. وقد أدى انطلاق هذا الغاز خطأ في يوتاه في ١٩٦٨م إلى قتل آلاف من رؤوس الغنم على بعد ١٦ كم من مكان تسريه. أعد لأول مرة في الخمسينيات من ١٩٥٠م ليكون مبيد حشرات ثم صنفته الحكومة الأمريكية مع الأسرار.

وعندما تحدث الوزير فكرت في أن هذا العرض قوي، ونحن لا نستطيع أبداً أن نترك مصير أطفالنا وأحفادنا للصدفة. وفعل ذلك سيكون غلطة، ذات أبعاد خطيرة.

كان جون أبي زيد قائداً لامعاً وله سجل قوي في القيادة القتالية. كان يعرف المنطقة معرفة جيدة ويتكلم العربية. وبوجوده بصفة نائب في المقدمة في قطر، ووجود رايفل دولونغ ليدير القيادة المركزية الرئيسية في تامبا بصفة نائب في المؤخرة، كنت أنا قادراً على الانتقال في كل أنحاء المنطقة، لإدامة الاتصال مع القادة الرئيسيين، بينما أتحرك جيئةً وذهاباً إلى واشنطن بانتظام للاجتماع وللتشاور مع دونالد رامسفيلد ومع الرئيس.

في يوم الأربعاء، في 5 آذار/مارس، عقدت آخر اجتماع سابق للحرب بشأن العراق مع الرئيس ومع فريق الأمن القومي في البيت الأبيض. كانت قوات التحالف البرية، والبحرية، والجوية، وقوات العمليات الخاصة في المنطقة تتنامى بسرعة، وهي الآن في مجملها وصلت إلى أكثر من مائتي ألف جندي. وكانت وحدات قتال ومساندة إضافية أمريكية وبريطانية تقدر بستين ألف جندي في طريقها إلى الخليج.

وبحلول الأسبوع الثالث من آذار/مارس، سيكون العدد الإجمالي لقوتنا من كل العناصر، ومن جملتها حلفاؤنا في الكويت من تحالف دول الخليج، قد وصل 292.000 جندي. ومن هؤلاء، سيكون هناك 170.000 تقريباً من الجنود ومشاة البحرية معينين تحت قيادة عنصر القوات المشتركة الأرضية.

وأبلغت الرئيس: "سيدي الرئيس، إن كل تحسينات البنية الأساسية الحيوية قد استكملت، والقوة المطلوبة هي الآن في المكان في المسرح."

وكان جورج بوش مركز الانتباه، وجاداً جداً. "وأين نحن مع تركيا؟"

كانت تركيا إحدى اهتماماتنا الكبيرة القليلة المتبقية، فالحكومة التركية الجديدة في الواقع، رفضت السماح بالمرور لفرقة المشاة الرابعة عبر أراضيهم إلى

العراق. ولكننا أعطينا الموافقة على الطيران عبر الأجواء التركية من حاملات الطائرات في البحر الأبيض المتوسط، وهناك مفاوضات تستند إلى رزمة عون متعدد البلايين من الدولارات ما تزال جارية.

وشرحت: "إن فرقة المشاة الرابعة، مع كل تجهيزاتها المحملة على سبعة وثلاثين سفينة موجودة في البحر الأبيض المتوسط، سيدي. فإذا غير الأتراك رأيهم فسوف نُنزل الفرقة ونكون على حدود العراق الشمالية في غضون عشرة أيام. وإذا لم يغيروا، فسوف نعبّر قناة السويس وننزل الفرقة في الكويت، وربما يكون ذلك بعد الشروع بالأعمال الحربية."

إن إحصار تلك الوحدات القتالية كان سيرفع قوة عنصرنا البري بزيادة 15.000 عسكري. ولكن الرئيس، ورامسفيلد، وأنا ناقشنا وظيفة أخرى مساوية في الأهمية لفرقة المشاة الرابعة: وهي، أن نخدم حجر زاوية في خططنا للخداع. ففي الوقت الذي بقيت فيه الفرقة جاهزة في المتوسط لتثبيت وحدات العدو في الشمال، كنا نمرر معلومات إلى النظام العراقي من خلال قنوات سرية تفيد بأن لدينا ترتيبات سرية مع الأتراك، الذين سيفتحون موانئهم للفرقة، في آخر لحظة. وكان الاستطلاع قد أشار إلى أن ما يقارب الثلاث عشرة فرقة عراقية كانت ما تزال باقية شمال بغداد: وربما يكون صدام على ما يبدو قد بلغ الطعم.

بعدئذ، شرحت تقسيم الزمن لمراحل عمليات القتال. لقد كشفت آخر الصور الجوية من الأقمار عن معوق قليل للسرعة من قوات الجيش النظامي العراقي بين حدود الكويت والمدن الواقعة جنوب بغداد، حيث كان دفاع صدام قد بُني بالعمق بالحرس الجمهوري. وموضع قوة العدو هذه كان بالضبط مثلما تكهن به مخططونا في الاستخبارات: إذا نجح عمل خداعنا، فسوف نكون جاهزين للبدء في عمليات قريبة من التزامن جواً، وبراً، وعمليات قوات عمليات خاصة عند صدور الأمر من الرئيس.

وختمت بالقول: "سيدي الرئيس، أود أن أحصل على إنذار قبل ثمانية وأربعين ساعة إذا قررت أن تنفذ هذه العملية: فذلك سوف يعطيني الزمن لتوصيل رجال وحدات المهام الخاصة إلى داخل العراق الغربي لإغلاق سلال سكود".

وناقش رامسفيلد، وتشيني، وياول، والرئيس أمر إعطاء صدام حسين إنذاراً نهائياً واحداً. إما أنه سيغادر العراق طوعاً، مع ولديه عدي وقصي اللذين كانا خليفتي والدهما الدكتاتور، وإلا فإن التحالف سوف يدخل ويزيجهم عن السلطة. وكرر الرئيس: "ثمانية وأربعون ساعة. يومان. حسناً، يا تومي. سيكون لك الإنذار إذا وصلت الأمور إلى ذلك".

لم أكن أمتلك الوقت لأمر عبر تامبا قبل التوجه عائداً إلى القيادة المركزية في المقدمة في قطر. ولكنني تكلمت مع كاثيري، وجاكي، وأحفادي في الهاتف. وأخبرت كاثيري وسيارة وزارة الدفاع من نوع سيدان تدرج صعوداً إلى طائفة سبار 06 على المنحدر في أندروز.

ذهبت أصابعي إلى خاتم الزواج الذي كانت كاثيري قد أعطتني إياه منذ وقت طويل، وأحسست بدمعة تعبر وجهي. وسحبت إنجيلاً صغيراً وعلماً أمريكياً متجعداً من جيب بزتي العسكرية. كان العلم من جاكي أعطتني إياه عندما ذهبت إلى درع الصحراء في العام 1990. وبعد تلك الحرب أعدته لها تذكراً، ولكنها الآن قد أرسلته إلي ثانية تفاؤلاً بالحظ. وكان الإنجيل هدية من جد كاثيري لوالدها، جيممي إليس، الذي أحبيته مثل جد ووالد كبير لم يكن لي أبداً، حتى وفاته في العام 1994.

فتحت الإنجيل على النص المفضل عندي، أفيسوس 6: 11-17. "أدرع درع الله الكاملة... وتمسك بموقفك... مرتدياً حزام الحقيقة الثابت... ودرع الصدر من حق الله... واستخدم الإيمان ترساً لك... وجرّد سيف الروح الذي هو كلمة الله." كم مرة رجعت إلى هذه الصفحة؟ وكم من المرات الأخرى في الأيام القادمة، سأستهضئ إيماني ليكون مصدر قوة؟

جلست وحيداً في مكثبي في المقر المسبق الصنع قرب مركز العمليات المشتركة في المستودع في معسكر السيلية، أشاهد التلفاز عندما كان جورج بوش يخاطب الأمة والعالم. كان الوقت قبل الفجر في يوم الثلاثاء، في 18 آذار/مارس 2003، في قطر، وهو ذروة ساعات الاستماع في المساء في يوم الاثنين ليلاً في الولايات المتحدة.

تتبع الرئيس تاريخ النظام العراقي: "تاريخ العدوان المتهور." ثم أصدر الإنذار النهائي الذي سبق لنا أن ناقشناه قبل أسبوعين في البيت الأبيض.

وقال بوش: "يجب على صدام حسين وابنيه أن يغادروا العراق في غضون ثمانية وأربعين ساعة. وإن رفضهم سوف يؤدي إلى نزاع عسكري، يبدأ في وقت من اختيارنا."

كانت الساعة تجري. وكنت على وشك أن أقود الجند مرة أخرى في معركة. ولكنني في هذه المرة لن أركب ناقلة جنود مدرعة عبر الغابة في فيتنام، أو عربة همشي عبر قيعان الحصباء من وادي الباطن. أنا سأراقب المعركة على شاشات البلازما الواسعة، بعيداً عن جلجلة المدافع، وعصف القنابل، وصيحات الجرحى. وسأكون من الناحية الجسمية المادية آمناً، ولكنني سأشارك جنودي في الأعياد، والبهجة، والمخاوف.

كان مؤتمرنا بالاتصال من بعد المصور بالفيديو قبل الحرب يصل إلى نهايته في أصيل يوم الأربعاء في 19 آذار/مارس، 2003.

وقلت وأنا أواجه جورج بوش عبر الوصلة الآمنة للمؤتمر بالاتصال من بعد المصور بالفيديو: "سيدي الرئيس، هذه القوة جاهزة. يوم بدء العملية، وساعة الصفر هي 2100 في هذه الليلة بتوقيت العراق، الساعة 1800 بتوقيت غرينتش المتوسط، والساعة 1300 بتوقيت الساحل الشرقي."

وأشار الرئيس بوش برأسه إلى أعضاء مجلس الأمن القومي الجالسين معه في واشنطن، ثم التفت نحوي.

"حسناً، من أجل السلام في العالم والأمن لبلادنا ولبقية العالم الحر..." ثم توقف، ومستشاروه ينصتون باهتمام... ومن أجل حرية الشعب العراقي، اعتباراً من هذه اللحظة، سأعطي الوزير رامسفيلد الأمر الضروري لتنفيذ عملية حرية العراق."

وأضاف الرئيس وصوته حازم: "تومي، بارك الله في الجند."

وأجبت "سيدي الرئيس، بارك الله في أمريكا."

وأدبت أنا التحية، ورد القائد العام التحية بمثلها.



الفصل الحادي عشر

عملية حرية العراق

المقر الأمامي للقيادة المركزية

19 آذار/مارس 2003 اليوم ي

الطائرة سي-40 الجديدة من القوات الجوية، وهي بوينغ 737 معدلة، كانت أكثر فاعلية وتوفيراً للراحة من طائرة سبار 06 القديمة من العام 1962 التي حملتي جيئة وذهاباً عبر الكرة الأرضية منذ شهر تموز/يوليو 2000. والطائرة سي-40 لم تكن تمتلك قدرة النفاثة القديمة على إعادة التزود بالوقود في أثناء الطيران، ولكن جناح الاتصالات فيها كان على أعلى مستوى متقدم من التطور. وللطائرة الجديدة نوافذ، وهي أشياء موضع ترحيب تبعث على الراحة في زمن الليالي الطويلة والنوم القليل.

أقلعنا متسلقين بميل حاد مبتعدين عن قاعدة الأمير سلطان الجوية إلى أن علونا إلى ارتفاعنا الذي نطير فيه وهو 31.000 قدم. ومن مقعدي في الجانب الأيسر ظهرت لي صحراء شبه جزيرة العرب تحت نظري بُنية خالية. في غضون ساعة سأكون قد رجعت إلى مقر القيادة في القيادة المركزية داخل المبنى 217، وهو مستودع يرجع الصدى في معسكر السيلية، في قطر.

معاوني، الرائد البحري كريس غوديك، واسمه "غرينش" بالنسبة إلينا جميعاً، نحن الذين عملنا معه، ظهر وهو يحمل بعض الرسائل راجعاً من مركز الاتصالات الأمامي. وانحنى لينظر إلى خارج النافذة. وقال: "يوم عظيم للخروج للطيران، ياسيدي".

كان غرينش طياراً يتقلد أوسمة تزيينه من أجنحة الطيار من سلاح مشاة البحرية موجودة على بزته الصحراوية الموهمة. لقد طار في طائرة انترودر ايه-6

في عاصفة الصحراء، وكنت أعرف أنه كان يفضل الآن أن يقوم بالاستعداد وارتداء ملابسه لمهمة قتال في هذا الأصيل. كنت أفهم كيف كان يشعر: إن قسماً مني كان يريد أن يكون هناك على الحافة في الكويت، يدقق الطلقات في مخازن بندقيتي ام-16. ولكنّ كلانا كان له عمل مختلف يعمل به.

وأخيراً كان لدينا اسم لخطتنا: فخطّة العمليات الهجينة V 1003 أطلق عليها رسمياً اسم عملية حرية العراق. لقد كان ذلك قرار الرئيس، وأنا أحببته. ولم تكن الغاية من هذه الحملة هي الفتح ولا الزيت، بل هي الحرية لستة وعشرين مليون عراقي، ومن أجل العالم، الحرية من تهديد أسلحة الدمار الشامل لتلا تقع في أيدي الإرهابيين.

وبلغ عدد التحالف الذي تم تجميعه لكسب هذه الحرب حوالي 290.000 من العسكر، والبحارة، ورجال الجو، ومشاة البحرية، ورجال حرس الشواطئ، ورجال وحدات المهام الخاصة من أمريكا، والمملكة المتحدة، وأستراليا، وأوروبا. وفي المجمل، اشتملت القوة على رجال ونساء من ثلاث وعشرين أمة، ومع قيام حلفائنا من الخليج العربي بتوفير المناطق الأساسية للتمرّحل، والقواعد الجوية، والموانئ، إضافة إلى الأمن البحري وقوة الحماية الحيوية "لذيلنا" الطويل في الإمداد والتموين.

وعندما تحركنا نحو الاستقرار واستونيا، امتدت حدود المملكة العربية السعودية، والأردن، والعراق للشمال الغربي إلى الأفق. وقام عدة آلاف من عسكر القوات الخاصة وخيالة المهام الخاصة، وكثيرون منهم كانوا محاربين قدماء من القتال في أفغانستان، والتحق بهم رجال وحدات مهام خاصة بريطانيون وأستراليون من الخدمة الجوية الخاصة كانوا في قواعد في الأردن وفي شمالي المملكة العربية السعودية، قاموا كلهم بالإعداد للهجوم في داخل العراق الغربي. وسوف تمثل عملية حرية العراق أضخم تشكيل قتالي من رجال وحدات المهام الخاصة في التاريخ.

وكانت مهمتهم الأولى، التي ستبدأ في غضون أقل من أربع ساعات، هي تدمير مراكز الرصد البصري للعدو على طول الحدود الغربية للعراق. ورجال وحدات المهام الخاصة سوف يرشدون بالليزر إلى البنى الحجرية الضخمة والأبراج الفولاذية الأصغر من تلك. وستقوم الطائرات العمودية لیتل بیردز (الطيور الصغيرة) إيه اتش-6 (وهي نسخ حديثة من طائرات لوتشيز ذا رد بارون (سمك البارون الأحمر) التي سبق لي أن طرت فيها في فيتنام) والطائرات العمودية الدفاعية المسلحة المخترقة ام اتش-60، والمقاتلات القاذفات من القوات الجوية بإزالة هذه الأهداف بصواريخ هيلفير وبقنابل زنة 500 رطل.

هذه الضربات سوف تؤدي دوراً حيوياً في الأيام القادمة: سوف تعمي العدو. وباستئصال القدرة العراقية على المراقبة، ستقوم مئات من زمر القوات الخاصة في طائرات عمودية وعربات لكل التضاريس بالتحشد عبر الحدود في الليل، والاستيلاء والسيطرة على مواقع إطلاق الصواريخ المحتملة، وهي المشهورة باسم "سلال سكود"، ومعها سلسلة من المهابط في صحراء العراق الغربية. وكنت أريد أول طلقات في هذه الحرب أن تطلق في الغرب. وعلى الرغم من أن الاستخبارات العراقية كانت من مستوى متوسط في أحسن أحوالها، فإن بغداد سوف تعلم بالتأكيد خلال ساعات أن قواتنا كانت تسير حدودهم مع الأردن.

وكنت قد قلت لغاري هاريل وديل ديلي في أثناء اجتماعنا الأخير قبل بضعة أيام: "أريد تأثيراً كالتماوج. سوف نزيل الأبراج التسعة المواجهة للأردن أولاً، ونستأصل الأربعة والعشرين برجاً الموجودة على طول الحدود السعودية الغربية بعد عدة ساعات."

وعندما تضرب خيالة ديل من وحدات المهام الخاصة أول مراكز الرصد البصري وتعبر الحدود، سوف تتسلل وحدات غاري من قوات العمليات الخاصة من التحالف إلى غرب العراق. وفي الوقت نفسه، فإن قوات أخرى ورجال المهام الخاصة من وكالة الاستخبارات المركزية سوف يخترقون جنوبي العراق من الكويت

للاتصال مع "أصدقاء" في المستنقعات الجنوبية، التي يسيطر عليها الشيعة. وستكون الأهداف هي تأمين مواقع عبور النهر والسدود الحيوية في خزانات العراق الحيوية، لمنع التخريب الذي كان يمكن أن يفرق قطاعات واسعة من وديان النهر.

حدقت إلى الشمال الآن، نحو الكويت. غداً ليلاً، ستقوم المدفعية والطائرات العمودية المسلحة بأباتشي من قوات الفريق ديفيد ماككيرنان، من القوات المشتركة من قيادة العنصر الأرضي، بتدمير أبراج الرصد الموجودة على الحدود الكويتية إلى الشمال تماماً من جنود فرقة المشاة الثالثة، ومشاة البحرية من قوة حملة مشاة البحرية الأولى، ورجال المشاة والدبابات من الفرقة المدرعة الأولى البريطانية، وهم تقريباً 170.000 من الجند في مجملهم، والذين تمركزوا في مواقعهم قبل الاقتحام، جاهزين لاختراق حافة الحدود إلى داخل جنوب شرق العراق.

ولم يكن نشاط قوات العمليات الخاصة في الغرب هو بداية المرحلة الحركية الأولى من عملية حرية العراق فقط، بل كانت أيضاً جزءاً من خطة خداع معقدة. فقد كان هناك قيد العمل والتقدم جهد إستراتيجي صلب مقسم طوال شهور يغذي نظام صدام حسين بالمعلومات المغلوطة. ونظراً إلى حساسية الخداع، فإن قلة منا فقط في حكومة الولايات المتحدة كانوا على علم به.

وفي مركز عملية الخداع كلها كان هناك رجل سميناه "أحمق كذبة ابريل"، وهو ضابط عسكري أمريكي كان قد فاتحه شخص فاعل في المخابرات العراقية مديرية الاستخبارات الأجنبية، كان يعمل تحت غطاء عمله بصفته دبلوماسياً. قام العراقي، الذي أشرنا إليه باسم "العقيد"، بتجنيد ابريل ليكون عميلاً مزدوجاً. وقام الضابط، وهو غير معروف للمخابرات، بالاتصال بسلسلة قيادته خلال ساعات من المفاتيح الأولى للعراقي.

كان جيف كيمونز، مدير استخباراتي، قد قابلني في منشأة الاستخبارات الخاصة المقسمة في ماكديل بعد يومين. وقال لي جيف: "قد نمتلك الفرصة للتأثير

في السلوك العراقي. لا نعرف ارتفاع المستوى الذي يبلغه العراقي، ولكننا سنجعل أحقق كذبة ابريل يعمل معه، وسنرى إلى أين سيأخذنا."

وقلت له: "يمكن لهذا أن يكون ضخماً، يا جيف. ابق متصلاً مع الناس الذين يعالجون ابريل وأبقني على اطلاع."

بعد مدة قصيرة من ذلك، بدأ أحقق كذبة ابريل سلسلة من الاجتماعات السرية مع العقيد، وسلمه نسخاً من خرائط قديمة وملاحق حقيقية من الخطة القديمة 1003، وكلها معلمة بكلمة أسرار عالية/ خطوة بولو.

ومقابل كل شريحة من الوثائق، كان العقيد يدفع عدة آلاف من الدولارات. وفي نهاية كل اجتماع سري، كان الأمريكي يعلن أنه كان يستطيع أن يقدم أجزاء أكثر حساسية حتى من خطة الحرب لدى القيادة المركزية.

وطوال عدة أسابيع في أواخر العام 2002 ومطالع العام 2003، باع أحقق كذبة ابريل للعراقيين معلومات عملياتية مفصلة، كلها أصلية مقنعة، ومعظمها أنتجته خلية الخداع في القيادة المركزية.

وعقدة القصة التي بعناها لهم سارت كما يلي: كان التحالف يخطط لبناء جزء فقط من قواته الأرضية في الكويت، بينما هو يعد اقتحاماً كبيراً منقولاً جواً إلى داخل شمال العراق من فوق تكريت إلى حقول الزيت حول مدينة كركوك. وقوات الاقتحام الجوي المنقولة بالطائرات العمودية سوف تعزز عندئذ المظليين. بعد ذلك، بعد أن تكون عدة مهابط قد أمنت فإن طائرات النقل سي-17 سوف تسلم الدبابات وعربات برادلي لتلتحق بهم. وهذه القوة المدرعة الصغيرة سوف تعزز بعدئذ بفرقة المشاة الرابعة، التي ستسمح لها الحكومة التركية، في آخر دقيقة ممكنة، لتمر عبر تركيا وتكتسح طريقها إلى جنوب بغداد.

وكان القصد من عمل أحقق كذبة ابريل هو خلق شكوك في صفوف القيادة العراقية بخصوص أين؟ ومتى؟ وبحجم أي قوة سوف يشن التحالف هجومه؟ فإذا

نجح الخداع، فسوف يحتفظ صدام حسين بأفضل جزء من الثلاث عشرة فرقة المعادية شمال بغداد للدفاع ضد فرقة المشاة الرابعة إلى أن يكون الوقت قد فات لاستخدام فرقه تلك لمواجهة الهجوم الرئيسي للتحالف القادم من الكويت.

علاقة أحقق كذبة ابريل مع العقيد بلغت ذروتها في تسليم مخطط تفصيلي لمناطق إسقاط الفرقة الثانية والثمانين المنقولة جواً بالقرب من تكريت وكركوك، قبل أقل من أسبوعين من بداية عملية حرية العراق.

لم أكن أعرف في 19 آذار/مارس إن كان الخداع ناجحاً. ولكنني عرفت أن صور استطلاعنا قد أخبرتنا: أنه على الرغم من بنائنا الكبير للقوات في الكويت إلى الجنوب، فإن فرق حرس صدام الجمهوري وفرق الجيش النظامي لم تتحرك بشكل كبير من مواقعها الشمالية، وكانت بلا شك تنتظر اقتحاماً هناك لن يأتي.

عندما عدّنا ستار النافذة ضد الشمس حدثت أنا وغرينش في آخر خطوط توقيعات الهجوم التي كان جين رينيوارت قد أرسلها إلى الطائرة من خلال الناسوخ (فاكس) المرمّز. على عرض قمة الصفحة سار عمود يتتبع الأيام الأربعة الأولى من العملية: يوم -ي (يوم بدء العملية)، ي+1، ي+2، ي+3. وبدأ كل يوم في الساعة 2400 (منتصف الليل) بالتوقيت العراقي. وساعة الصفر، واليوم-ي، بداية العمليات الحربية، كانت في الساعة 2100 في هذه الليلة، 19 آذار/مارس.

درست هذه المراجعة الأخيرة بإمعان خاص، لأنها مثلت تحولاً عن خط التوقيعات الذي كنت قد أرسلته إلى الوزير رامسفيلد في وقت سابق في الأسبوع. وما تزال الأهداف المحددة ليوم 19 آذار/مارس تشتمل على تدمير مراكز الرصد البصري في العراق الغربي وإدخال وحدات المهام الخاصة. في ي+1، غداً، 20 آذار/مارس، سوف يبدأ الاستطلاع الجوي للطرق ولحقول الألغام والاستطلاع الأرضي لمسالك الاقتحام إلى داخل العراق الجنوبي وفق الجدول في الساعة 0200 وبعد ساعتين سيقوم رجال وحدات المهام الخاصة، ومن جملتهم مغاوير بولنديون، بالاستيلاء على منصات الغاز والزيوت البعيدة عن الشاطئ والمحطة الرئيسية

لتحميل الزيت في الفاو على حدود العراق - إيران عند رأس الخليج العربي. كل ذلك لم يكن قد تغير.

ولكن في خط التوقيعات الأصلي، كان الهجوم الأرضي الرئيسي للتحالف قد تجدد ليكون في الساعة 0600، في يوم الجمعة، في 21 آذار/مارس، ي+2. وفي هذه المراجعة النهائية، تم تقديم ذلك الاقتحام ثماني ساعات ونصف، إلى الساعة 2130 من 20 آذار/مارس، ي+1. فبدلاً من عبور النقاط المقطوعة في حافة الحدود عندما يطلع الفجر، متبوعاً فوراً بتشكيلات مناورة كبيرة، فإن وحدات مشاة البحرية ووحدات استطلاع الجيش الأرضية سوف تهاجم في الليلة السابقة.

وقد عدلت التوقيت بسبب بعض المعلومات الاستخبارية التي تلقيتها قبل اثني عشرة ساعة، وكانت معلومات أهم من أن تهمل. فعندما كنت أستعد لأغادر المقر في ذلك الصباح لأطير إلى المملكة العربية السعودية لزيارة بز موسلي وعنصرنا الجوي، دخل إلى غرفة الحرب جيف كيمونز مع عدد من المحللين معه.

وأخبرني جيف: "حصلنا على بعض المادة المثيرة للاهتمام هنا، يا جنرال."

كنا نراقب حقول الزيت العراقية الجنوبية بعناية طوال أسابيع لتحديد أي محاولة من النظام لتدمير مجمع الرميّة. في صور الاستطلاع والأقمار التي أراني جيف في هذا الصباح، كان احتراق التوهجات الصغيرة العادية عند مواسير التنفيس المصممة لتخفيف فرط ضغط الغاز قد استبدل وحلت محله نيران واضحة في فوهة البئر. وقد تم إشعال ستة آبار.

وقال لي جيف: "يا جنرال، هذه ليست احتراقات بسبب الصيانة. بعض السنة اللهب ترمي إلى مسافة تصل إلى ثلاثمائة قدم. لا نمتلك أي توكيد حتى الآن عن مشكلة أكثر اتساعاً، وأنت رأيت التقارير القادمة من بعض مصادرها القبلية الشيعية: سيارات سكك حديدية مملوءة بمواد التدمير كانت تتحرك إلى الرميّة."

كان هناك 454 فوهة بئر عاملة في ذلك الامتداد من الصحراء، وهناك 609 فوهات أخرى مغلقة في الاحتياط. هذا الحقل كان يمثل مستقبل الشعب العراقي.

وسيؤدي تدميره إلى تقويض استرداد العراق لعافيته من بعد عقود من إساءة الدكتاتورية البعثية.

لم أنس أبداً كابوس منظر حقول زيت الكويت وهي ملتهبة في أفق الصحراء في العام 1991، وكان قد أشعلها المخربون العراقيون المنسحبون. وأفادت تقارير الاستخبارات أن العراقيين على الأرجح لن يبدؤوا تخريباً "جوهرياً" إلى أن يكونوا على ثقة من أن الحرب قد بدأت. والإشارة المؤكدة التي توقعها العراقيون هي بدء حملة جوية على غرار عاصفة الصحراء، وهي ما تسمى عمليات "الصدمة والرعب" الجوية التي وعدت وسائل الإعلام بأنها "ستسبق بالتأكيد أي حملة أرضية".

وقلت له: "إذا كانت هذه هي الحالة الأسوأ، يا جيف، وهم يمدون الأسلاك في الحقل للتدمير، فكم نملك من الزمن لننقذ الآبار؟"

"يحتمل أن يكون معنا ثمان وأربعون ساعة، يا جنرال. هذه مساحة واسعة جداً، ولكن إذا كان العراقيون جادين، فهم يستطيعون أن يحدثوا ضرراً كبيراً جداً بعد أن يبدؤوا".

يومان. إن تأمين سلامة حقول الزيت في الرميلة كان أول هدف لقوة حملة مشاة البحرية الأولى للفريق جيم كونواي. هل يستطيع مشاة البحرية أن ينفذوا في وقت أبكر؟ إنقاذ بترول العراق، والبنية التحتية المائية التي كانت تسند زراعة البلاد، من التخريب البعثي العنيد كانت غايات عملياتية كبيرة للحملة.

دعوت إلى اجتماع هاتفي فوري مع جيف، والمحللين عنده ومعههم ديف ماككيرنان. لقد كنت أعظم من إنجيل المرونة طوال شهور. والآن سوف نرى إن كانت عظامي قد أنتجت أي مهتدين.

وقلت: "يا ديفيد، أعرف أنك رأيت صور الاستطلاع عن الرميلة. أرجح تخمين لدى كيمنوز هو أن الوقت ينفد منا. هل من الممكن أن توصل مشاة بحرية جيم كونواي إلى الآبار قبل يوم من الموعد المخطط لها؟".

قال ماككيرنان: "سوف نتدبرها. إذا كان يمكن عملها، فمشاة البحرية يستطيعون عملها."

كان ماككيرنان ضابط دروع محنك. فبرتبة مقدم في أثناء عاصفة الصحراء، أدار مركز القيادة التعبوي للفيلق السابع، الذي نسق عمليات ست فرق أمريكية وبريطانية. كان بارعاً، ولا يتعب، ولا يخاف، وكان مرناً، وهو صديق وضابط مثالي ليقود القوات الأرضية للتحالف.

وقلت له وأنا أعلق الهاتف: "أشكرك لكونك على مثل هذا الذي أنت عليه من الطيب."

وفكرت، إن هذا اليوم سيكون جحيماً، وأنا أتوجه إلى طائرة سبار 06 الجديدة، في طريقي إلى المملكة العربية السعودية للتشاور مع بز موسلي قبل مؤتمري بالاتصال من بعد المصور بالفيديو مع الرئيس لاحقاً في ذلك الأصيل.

وقلت له عندما قابلني على الطائرة: "يا بز، تلك البقعة الصلعاء الموجودة في قمة رأسك هي أكبر حتى من حجمها عندما رأيتك في الأسبوع الماضي." وتبسم موسلي.

راجعنا خط التوقيات بالنسبة إلى قيادة بز، قيادة عنصر القوات الجوية المشتركة، التي اشتملت على ثلاثة أجنحة من حملة القوات الجوية على قواعد أرضية، وخمسة أجنحة جوية بحرية على حاملات الطائرات في الخليج والبحر الأبيض المتوسط. وكان مجهزاً لينفذ اليوم ايه، بدء العمليات الجوية، في الساعة 2100 في 21 آذار/مارس. وكما توقعت أنا، كانت هناك عوامل كثيرة جداً يعتمد أحدها على الآخر تدخل في جانب العمليات الجوية لهذه الحملة، ومنها، إخماد دفاعات العدو وتخصيص طيران بحث وإنقاذ قتالي وصهاريح إعادة تزويد بالوقود، وهي أكثر من أن تسمح بتحويل بداية اليوم ايه، بدء العمليات الجوية، عند هذه النقطة.

عندما أخبرته بأني طلبت من ديف ماككيرنان أن ينظر في تحريك مشاة البحرية إلى حقول الزيت في وقت أبكر، فكر بز لحظة وقال: "يا رئيس، نستطيع أن نسرع وقتنا إذا أردتنا أن نفعل. ستكون عملية بنت كل... صعبة، ولكننا نستطيع أن نفعلها. وإذا كنت تطلب رأيي المهني، فأنا مع ذلك، أعتقد أن علينا أن نبقى مع توقيتنا المخطط بالنسبة إلى العملية الجوية الكبيرة. من الأفضل أن نعطي رجال ديفيد مساندة جوية قريبة هي أقرب مما سبق لهم أن حلموا به سابقاً عندما يهاجمون، ولكن نمتنع عن مهاجمة مجموعات أهداف القدرة الجوية الإستراتيجية إلى أن يأتي اليوم ايه، يوم بدء العمليات الجوية، المجدول."

ونظرت إلى بز. وفكرت في أن هذا أفضل رجل جو حي. إنه صديقي. لقد وثقت به وسلمته حياتي. إذا قال إننا نستطيع تنفيذ يوم جي، يوم بدء العمليات الأرضية، قبل يوم ايه، يوم بدء العمليات الجوية، ومع ذلك نحقق أهدافنا، فسوف نفعلها.

"حسناً، يا بز. سوف نحاول أن نذهب مبكرين بالعمليات الأرضية."

"تسلمت ذلك، يا جنرال. نستطيع أن نساعد في جعلها تحدث."

وهكذا فإن بدء العمليات الجوية سوف يبدأ مثلما تمت جدولته في الأصل: الساعة 2100 في 21 آذار/مارس. إذا استطاع ديف ماككيرنان وجيم كونواي أن يتدبرا ذلك وينجحا به، فإن قواتنا الأرضية، مع ذلك، سوف تحصل على قفزة على الجدول، وتصل حقل زيت الرميطة في الوقت المناسب وتتقدمه. وهذا ختم قراراً كان يأتي طوال الوقت: سوف نبدأ اليوم جي، يوم بدء العمليات الأرضية، قبل أربع وعشرين ساعة تقريباً من اليوم ايه، يوم بدء العمليات الجوية.

في أثناء شهور من التخطيط، كان طول العمليات الجوية في الإعداد للهجوم الأرضي يتناقص باستمرار. قبل شهرين، كنا خططنا ستة عشر يوماً وليلة من العمليات الجوية وعمليات قوات العمليات الخاصة "لتشكيل فضاء المعركة" قبل أن

تقوم أول دروع التحالف بعبور حافة الحدود. والآن ستكون دباباتنا وعربات برادلي قد دخلت عميقاً من قبل في داخل العراق عندما سيقوم رجال بز موسلي، رجال الجو، بتوجيه ضربة قاضية ممكنة للنظام في بغداد في ليلة يوم الجمعة، في 21 آذار/مارس.

كنت أعرف أن الإستراتيجيين الجالسين على الأرائك، ومن الذين بدأ الأركان يسمونهم "جنرالات التلفاز" وهم ضباط متقاعدون يعملون في شبكات الأخبار، قد يجدون خطأ في قراري. ولكنني كنت أعرف أيضاً أنه كان صحيحاً. اعتراضات الاتصالات قد كشفت أن العراقيين لن يدمروا حقول الزيت بأسرع مما يكون ضرورياً، لأنهم كانوا يكسبون حوالي خمسين مليون دولار يومياً من تلك الآبار من خلال برنامج الأمم المتحدة النفط في مقابل الغذاء. ولكنني كنت متيقناً أن صدام سوف يأمر بالتخريب عندما تكشف العمليات الجوية ضد أهداف قيادة النظام أن الحرب قد بدأت.

لهذا كان واجباً ملزماً أن نستولي على تلك الآبار إذا استطعنا. ولكن إنقاذ حقل الرميلة سيكون واحداً فقط من مكاسب تنفيذ اليوم جي، يوم بدء العمليات الأرضية، قبل اليوم ايه، يوم بدء العمليات الجوية. فبالعمل بأسلوب لن يتوقعه العراقيون أبداً، سوف نحقق مفاجأة عملياتية، على الرغم من الحقيقة الواقعة وهي أننا قد نشرنا 290.000 تقريباً من أفراد العناصر الأرضية، والجوية، والبحرية في المنطقة.

وعندما أخبرت دون رامسفيلد أننا كنا ندرس أن نحرك قدماً توقيت اليوم جي، يوم بدء العمليات الأرضية، فإنه قبل التغيير فوراً. وقال: "أنت القائد، يا توم. وعليك أن تقرر، أن تبادر، وأن تجري المكالمات".

كنت أعرف أن الوزير كان يثق بي. ولكنني اتخذت أيضاً بعض الإجراءات للإبقاء على وزارة الدفاع هادئة. في 17 آذار/مارس، قبل يومين من يوم ي، يوم بدء العملية، أرسلت بالناسوخ (الفاكس) "رسالة اهتمام" إلى نائب رامسفيلد، بول

وولفوويتز. وعلى الرغم من أنني صغت الرسالة بتعابير مؤدبة، فقد كان مضمونها فظاً: حافظوا على واشنطنون مركزة الاهتمام على السياسة والإستراتيجية. دعوا لي وحدي جحيم إدارة الحرب.

لقد تعرضت عملية الحرية الدائمة في أفغانستان لانتقادات توافه الأمور من رؤساء الخدمات والأركان المشتركة، وأنا لا أنوي أن أرى تكرار مثل هذا الانشقاق في العراق. كان بول وولفوويتز صديقاً، وكنت أعرف أنه كان سينشر الكلمة في الحلقة ئي من وزارة الدفاع، بأن تومي فرانكس ليس مستعداً ليقبل الهجوم من الكلاب الصغيرة (الشيواوا) في الوقت الذي يحاول فيه أن ينسق ما انتهى إلى أن يكون أعقد عملية عسكرية مشتركة بين الخدمات في التاريخ وأتمها تكاملاً.

ومذكرتي إلى وولفوويتز وضعت وزارة الدفاع في تحذير. لقد كتبت: "إن حضور رؤساء الخدمات في اجتماعي اليومي المأمون بالاتصال من بعد المصور بالفيديو مع الوزير ليس مساعداً. فهم لا يمتلكون خلفية مشتركة كافية أو فهماً كافياً ليكونوا مفيدین عملياتياً".

وقالت الرسالة: "أنا أفهم قدرات القوة، وسوف أستخدمها لتحقيق أفضل فائدة". وقد أصدرت تحذيراً بشأن تسريب خطتنا إلى وسائل الإعلام. "إن تسريبات المعلومات السرية وآراء الحكماء ليكون ذلك "همزاً" لي لأعمل أكثر، وأفضل، وأسرع لن تحفزني".

ونقطتي كانت بسيطة: في الوقت الذي نفذ فيه في القيادة المركزية خطة الحرب، يجب على واشنطنون أن تركز على "قضايا مستوى السياسة". وكان هناك الكثير منها لتركيز الانتباه عليه، وكما لخصتها:

أنا مهتم بشأن:

- الآليات العملية لنظام المكافأة عن تقديم المعلومات عن أسلحة الدمار الشامل
- وقادة النظام المختبئين.

● خطة وظيفية وسياسة للدفع إلى الوحدات العسكرية العراقية لكي يمكن فوراً اختيارهم ووضعهم في العمل للتحالف في إعادة الإعمار. (وأردت أنا أن أرى تلك القوات المعادية المهزومة باقية في وحدات منسجمة يقودها ضباطها الخاصون بها، ويدفع لها مزيج من المعونة الإنسانية من الطعام والنقد).

● إنهاء "القائمة السوداء" لمجرمي الحرب المتهمين في النظام وتقرير ما سيكون عليه موقفهم القانوني.

في رأيي، كانت هذه من بين الواجبات الإستراتيجية التي كانت واشنطنون تحتاج إلى معالجتها.

وكان ما استحث اهتمامي، في جزء منه، هو تاريخ أمريكا الحديث في القتال في الحرب. ففي أثناء حرب فيتنام قام وزير الدفاع روبرت ماكنمارا وأطفاله الأذكياء مراراً متكررة باختيار أهداف قصف منفردة ووافقوا على مناورات بحجم كتيبة. ذلك لن يحدث في العراق. وكنت أعرف أن الرئيس ودون رامسفيلد سوف يدعماني، ولهذا شعرت بالحرية لأمرر الرسالة إلى البيروقراطية تحتهم: أنتم تتبهنون لليوم الذي يلي العملية وأنا سأنتبه ليوم العملية.

لقد كنت محظوظاً بوجود أفضل قادة للعناصر وأفضل أركان مقاتلة سبق لأي جنرال بأربع نجوم أن أخذها إلى الحرب في أي وقت. وكنت واثقاً في أن الحملة التي كانت توشك أن تبدأ سوف تهزم العدو بسرعة تاريخية. كانت واشنطنون بحاجة إلى أن تكون جاهزة للاحتلال وإعادة الإعمار، لأن العمليات القتالية قد تنتهي تماماً بأسرع مما كان يستطيع أحد أن يتخيل. وفي الإجازات التي قدمتها لمجلس الأمن القومي، أشار رامسفيلد وأشارت أنا إلى ذلك الاحتمال باسم "النجاح الكارثي".

وفي نهاية مذكرتي، ذكرت وولفويتز بالبوصلة الأخلاقية التي سترشدني في الأيام التي تنتظرنا: "أنا أحمل علماً أمريكياً وإنجيلاً في جيبتي، وأنا ألبس رابط زواج في يدي اليسرى. إنني أفهم المهمة والسياق الإستراتيجي الذي سيتم إنجازه المهمة في داخله. ولن أكون تجريبياً إلا عندما أوجه إلى أن أفعل ذلك فقط."

حالما أصدر الرئيس أمر التنفيذ، اتصلت مع ديفيد ماككيرنان، وأخبرني ديفيد: "يا جنرال، أنا تكلمت مع جيم كونواي. مشاته البحرية يتحركون إلى خط البدء الآن. وسوف يهاجمون إلى داخل حقول الزيت مبتدئين باستطلاع أرضي غداً ليلاً، وفق خط التوقيتات الجديد الذي طلبته أنت".

بعد أشهر من عمل الأركان، انتهى التخطيط.

كنا ما نزال على ارتفاع الطيران بأفضل سرعة اقتصادية للوقود، وكان لمعان الخليج العربي يزحف عبر الأفق الشرقي. حددت في الصحراء الشاسعة تحت نظري، وفكرت في نهري العراق التوأمين العظيمين، دجلة والفرات، وهما يصبان في دلتا مستتعة اعتقد بعض علماء الآثار أنها كانت موقع جنة عدن حسب ما جاء في الإنجيل.

وفكرت في الوادي الطويل المتلوي بين دجلة والفرات، بين النهرين، مهد الحضارة، وموقع أقدم آثار الزراعة التي كانت علامة على انبلاج فجر الثورة في العصر الحجري الحديث. قبل ثلاثة عشر ألف سنة، عاش هنا الصيادون جامعو الطعام في هذا الوادي، وتعلموا أن يزرعوا الشيلم. لقد قادت الزراعة إلى أول مستوطنات دائمة للإنسانية، وعلى مر الحقب من الآلاف من السنين تحولت تلك المستوطنات إلى المدن - الدول المتقدمة في الهلال الخصيب. ها هنا كان المكان الذي نشأت فيه إمبراطوريات وسقطت إمبراطوريات عبر التاريخ الإنساني.

وقريباً ستقوم ألوية فرقة المشاة الثالثة والفرقة 101 المنقولة جواً بالاستيلاء على أول أهدافها التعبوية، قرب خرائب أور وبابل القديمتين. وهذه الأراضي، التي أبدعت عليها العربات الحربية، والأسلحة البرونزية قبل آلاف السنين، كانت توشك أن تعاني وتخبر صراع أسلحة آخر غير عادي... وكذلك، سأعانيه وأخبره أنا، كما أدركت.

عندما بدأت طائرة سبار 06 باقترابها، فكرت في مشهد مماثل كنت قد شهدته قبل أكثر من ثلاثين عاماً: تلك الطائرة القديمة كونتيننتال النفثة المستأجرة المملوءة بالعسكريين القادمين إلى بين هوا، وهي تنزل عبر الليل فوق بحر الصين الجنوبي نحو ظلام فيتنام الأحلك.

حرية العراق مثلت رحلتي الرابعة إلى الحرب. حملت معي ذكرى كل لحظة كانت قد مضت من قبل: النزول من تلك الحافلة في أصيل حار من آب/أغسطس في فورت ليونارد وود، في ميسوري. إراحة قدمي في ذلك الحذاء العسكري بعد أن أراني الرقيب المعلم كيتل حيلة العسكري القديم في تمديد جلد الحذاء. والعريف سام لونغ وهو يعلمني الفك الميداني للأسلحة وإعادة تركيبها في تلك المهاجع المفرطة الحرارة في فورت ديفينز. وكنت أمل أن يكون لدى الخيالة الذين يُسرجون معداتهم للحرب في هذه الليلة رقباء معلمون خاصون مثل الرقيب المعلم كيتل ومثل العريف سام لونغ. وكنت أمل أن يكون لديهم قادة مثل المقدم إيرك أنتيلا.

كنت أعرف أننا قد فعلنا كل شيء لهذه العملية. وقد اخترت وساعدت على إعداد قيادة هي من أقدر القيادات على العمل الصعب وأكثرها موهبة في زمن الحرب، أقدر من كل ما سبق أن رأيت. إن قادة عناصر القيادة المركزية، وضباط الأعلام كانوا متعددي المواهب، ومرنين، ومكرسين حياتهم للمهمة ولشعبهم.

الخطة التي كنا نطلقها كانت خطة معقدة ولكنها مرنة. وعندما غير التماس مع العدو تفاصيلها كما هو متوقع لا محالة، وكما حدث في كل خطة وضعت لحملة عسكرية في التاريخ، فإن جنودنا وقادتهم سوف يتلاءمون مع المستجدات.

شبابنا سيقومون بواجباتهم بشجاعة، ومهارة، وشرف. الجنود الأفراد سوف يتقدمون للأمام ليقودوا عندما يسقط رقباءهم جرحى أو موتى. الملازمون يتولون مكان النقباء الذين يسقطون. الطبابة سوف تندفع في مواجهة نيران العدو لإنقاذ رفاقهم. أنا رأيت مثل هذه البطولة في حقول الرز وفي غابات فيتنام، ورأيتها ثانية على الحصباء الدامية لوادي الباطن. لقد كان ذلك تراثاً، إنه تقليد وجد جذوره في تشوزن ريزيرفوار(*) في التلال المتجمدة في كوريا، وفي الرمال السوداء من آيوو

(*) معركة تشوزين ريزيرفوار كانت في الحرب الكورية في ١٩٥٠م، بين قوات الأمم المتحدة بقيادة الولايات المتحدة وبين الصين. وفي هذه المعركة تراجعت فرقة مشاة البحرية السابعة، وفرقة المشاة الرابعة مع قوات أخرى بريطانية أمام الجيش التاسع الصيني. وانتهت المعركة بنصر صيني صعب وبتكلفة عالية. وكانت المعركة في طقس ثلجي بارد للغاية أسهم في مضاعفة الإصابات.

جيمًا، وجذوع الشجر المتشظية بالقذائف من غابة آرغون(*)... والعودة القهقري طول الطريق إلى الحصى الجليدي من ترينتون حيث استطاع جنود واشنطن الخشنون القاريون هزيمة أفضل جنود محترفين من الإمبراطورية البريطانية.

ابتداء من الليلة، سيقوم خيالة أمريكيون، وبريطانيون، وأستراليون، وبولنديون، وتشيكويون، وإيطاليون، وإسبانيون، بعمل واجباتهم كلهم. ونحن الذين سنسود.

سوف يجرد هذا التحالف نظام صدام حسين من الأسلحة، وسوف يحرر العراق. وسوف نتخذ كل احتياطات لتقليل الموت والمعاناة إلى الحد الأدنى. سوف نستهدى بكلمات ونستون تشرتشل: تريح المعارك بالتقتيل والمناورة. وكلما كان القائد أعظم أسهم في المناورة أكثر، وقل ما يطلبه في التقتيل. "وسنضع ثقتنا في المناورة. ارتطم جهاز الهبوط والعجلات نازلاً. وارتفع الامتداد الإسمنتي لقاعدة العديد الجوية ليستقبلنا، وليستقبلنا معه تحدي حرية العراق.

في حوالي الساعة 1800، قبل ثلاثة ساعات من انطلاق العمليات الخاصة، مشيت راجعاً إلى المقر الأمامي. كان للمبنى من الداخل منظر مصنع للتقانة العالية محاط بمعسكر لاجئين. واحد من ستة وعشرين مستودعا أخضر متطابقة في مجمع مستطيل الشكل طوله ميل، وكان في العرض والارتفاع مثل منتجات شركة هوم ديو. وبدلاً من ألواح الخشب، وتركيبات السباكة، والمعدات، على كل حال، كانت الأرضية مغطاة بعشرات من "الملاجئ" من أحجام مختلفة. بعضها، مثل مركز العمليات المشتركة، يشبه البيوت النقالة المزدوجة العرض بلا نوافذ. وأخرى، بحجم مقطورات المخيممين، احتوت على مكاتب ضباط ارتباط العناصر واختصاصي التخطيط.

ومجالات جين رينيوارت وجيف كيمونز كانت صناديق بجدران ألومينيوم بلا معالم، مملوءة بمقصورات الحاسوب وشاشات البلازما، وكل واحدة منها معلم

(*) منطقة هضاب وغابات شمال شرق فرنسا كانت ذات أهمية استراتيجية وفيها حدثت عملية أمريكية في الحرب العالمية الأولى ١٩١٨م بقيادة الجنرال بيرشينغ ودحر فيها الجيش الألماني.

بلافتة لامعة تقول "ممنوع الدخول" باللغتين الإنجليزية والعربية. ومنشأة الاستخبارات الخاصة المقسمة في القيادة المركزية الأمامية، محروسة بحراس مسلحين على مدار الساعة ويتم الدخول إليها من خلال باب واحد بقنطرة، وكان هيكلًا من ألومنيوم بنيّ أخذ معظم الطرف الغربي للمبنى.

وكان مكتبي مفرد العرض مسبق الصنع في المربع الشمالي الشرقي من المستودع، وأجلس إلى جانب حيز متطابق مماثل يشغله الفريق جون أبي زيد، وهو نائب في المقدمة، وأرتبط مع سلسلة من المكاتب التي تؤوي ضابطي التنفيذ، والنقيب فان موني، وغرينش غوديك، ورئيس رقباء القيادة دوايت براون، وأركان المساندة الإدارية المشتركة. وكانت غرفة اجتماعات القيادة، وفيها حوامل لمحطات فيديو الاتصال من بعد واتصالات اس تي يو-111 المتلائمة، تقع في ملجأ مجاور. ووقفت بالقرب من ذلك غرفتي الصغيرة للحرب، وهي مجهزة بشاشات البلازما وبالاتصالات المأمونة. وكان هناك مجمع مكتبي آخر مزود بأسرة، وحمامات للاستحمام، ومطابخ صغيرة، وكان يقع في الطرف الأقصى من المبنى، ولكن استخدامه كان قليلاً، فقد كنت أفضل أن أبقى قريباً إلى العمل، وذلك في مركز العمليات المشتركة، وخلية دمج الاستخبارات، ومنشأة الاستخبارات الخاصة المقسمة.

بين امتداد المنشآت المسبقة الصنع كانت هناك صفوف من الخيام النسيجية الخفيفة الوزن الملونة بلون الصحراء، وكلها تحت سقف مستودع كان قد أقيم بعوارض متصالبة، وقنوات وأسلاك تهوية. وكانت الخيام على أعلى مستوى تقني حديث، فهي مؤطرة من الخارج، وحيزاتها مكيفة الهواء، وذكرتي بمعارض الاستعراض الخارجي في معرض الولاية هناك في الجنوب الغربي. كان يعمل في الموقع نحو ستمائة من الضباط، والرقباء، وضباط صف البحرية، والمقاولين المدنيين، والفنيين الإلكترونيين، والاختصاصيين الإداريين، وأركان المساندة، وكانوا يعملون بنوبات تطول اثنتي عشرة إلى ست عشرة ساعة على مدار الساعة.

ومعظمهم كان ينام في المستودعات الأخرى المنتشرة عبر المجمع، عندما كانوا يجدون لحظة للنوم.

المقر، وهو المبنى رقم 217، كان مركز الأعصاب التقاني لعملية حرية العراق، وكان يبدو في بعض الأوقات كأنه مُسلَّك بالأسلاك على نحو معقد كالدماع الإنساني. على طول جانبي كل ممر سارت قنوات حماية أنبوبية لآلاف الأميال من كبلات الطاقة والألياف البصرية التي تربط الملاجئ. وكان كل المجمع مكيفاً ليبرد عند درجة 85 فهرنهايت، وذلك عن طريق معمل صناعي لتكييف الهواء خارج المبنى، وكل مكان مسبق الصنع وخيمة في داخل المستودع لها نظام تكييف الهواء الفردي الخاص بها، متصل بمعامل أصغر على طول مجاري هواء مرنة.

المبنى رقم 217، بقناته - الميغا (المليون)، ووصلات الصوت والبيانات المرمّزة عن طريق القمر، ووسائلها المتعددة المأمونة لعقد المؤتمرات بالاتصال من بعد المصورة بالفيديو، كان يستخدم عرض نطاق ترددات مكافئاً للذي تستخدمه مدينة أمريكية كبيرة. كنت أستطيع أن أصل إلى الوزير رامسفيلد، ورئيس هيئة الأركان المشتركة ديك مايرز، ورايفل دولونغ، أو الرئيس، في ثوانٍ من خلال وصلة صوتٍ أو فيديو مأمونة. ووصلتني مقصورة صوت بمفتاح أحمر مع رؤساء الخدمات ومع قادة عناصري عند لمسة زر. وكنا نتصل بالصوت وبالفيديو معاً في أوقات محددة طوال أربعة وعشرين ساعة في اليوم.

وكانت جواهر التاج في هذا المقر "الشبكي - المركزي" أنظمتُ تتبّع القوة الزرقاء والقوة الحمراء. وكل ملجأ مهم في المقر كان مجهزاً بشاشات بلازما للعرض، ويتبع الأركان عليها مواقع تشكيلات التحالف "الزرقاء" الصديقة، نزولاً حتى سرية دبابات أو طائرة مفردة. وواقعياً كانت كل عربة وكل طائرة تحمل جهازاً مرسلًا ومستجيباً للنظام العالمي لتحديد الموقع، وهو جهاز يرسل بيانات مرمّزة عن إحداثياتها، واتجاهها، وسرعتها عن طريق قمر إلى مقر كل عنصر، وإلى المقر الرئيسي للقيادة المركزية في تامبا، وإلى وزارة الدفاع، وإلى مقرنا في قطر.

وعلى شاشات القوة الزرقاء، كانت مواقع القوة الصديقة تبدو مثل صناديق زرقاء ساطعة صغيرة. وعنصر القوة الأرضية في هذا النظام، وهو قيادة المعركة للقوة (21)، من لواء وتحت ذلك، كان ثمة فرعية من العمل الذي تم في أواسط التسعينيات من 1990، وقامت به قوة مهام المناورات في لوزيانا. وفي العروض الكبيرة المقياس، ظهرت الوحدات المتحشدة في مناطق التجمع الخاصة بها قبل الاقتحام مثل لطفة زرقاء صلبة. ولكنني، عن طريق النقر على صناديق البيانات الموجودة على الشاشة المركزة بصورة متزايدة، كنت أستطيع أن أكبر وأقرب على وحدات أصغر فأصغر، ابتداءً من الفيلق، فالفرقة، فألى اللواء، نزولاً طوال الطريق إلى فصيلة استطلاع خيالة مدرعة مفردة في عربات برادلي.

وعلى شاشات القوات الحمراء، تمثلت تشكيلات العدو في صناديق حمراء مشابهة. لم يكن لدينا أجهزة مرسلة مستجيبة للنظام العالمي لتحديد المواقع على طائرات العراق، طبعاً، أو على دبابات لواء مدرع في فرقة المدينة في الحرس الجمهوري. ولكننا امتلنا وسائل أخرى لتحديد مواقع العدو وترتيب المعركة. فقد كانت قدرتنا الاستطلاعية تغطي نطاقاً واسعاً من الطيف الإلكتروني مغناطيسي. وكذلك فإن التصوير البصري من المركبات الجوية من دون طيار ومن طيران الاستكشاف على ارتفاع متوسط وعال، والذي كان يتمثل في صور حية بالفيديو وبالصور الرقمية معاً، قد تعزز بالتغطية بالأقمار. ولقد زودتنا أجهزة الإحساس الموجودة على متن هذه المنصات لا بالصور النهارية وحسب، بل زودتنا كذلك بقدرة كشف تحت الأشعة الحمراء التي كانت تستطيع أن تحدد الحرارة المنبعثة من محركات العربات... أو من جسم إنسان. وكان المسح الراداري الاصطناعي بفتحة المسح والموجود على متن الطائرات والأقمار يستطيع أن يكشف شكل العربات المدرعة، أو الشاحنات، أو قطع المدفعية. وكانت طائرات الاستطلاع لنظام المراقبة المشتركة لرادارات مهاجمة الأهداف قادرة على تحديد العربات المتحركة في أي طقس أو أي حالة من الإضاءة.

واكتسحت كذلك، تشكيلة واسعة من أجهزة الإحساس الإلكتروني البث اللاسلكي والراداري للعدو، والمحادثات الهاتفية الخليوية والقمرية، وخطوط الاتصالات الأرضية وخطوط بث البيانات، وحتى نظام البريد الإلكتروني العراقي تم اكتساحه.

وفي الأشهر الأخيرة، تم بناء شبكة استخبارات بشرية في داخل العراق، ولم تكن شبكة صلبة، ولكنها عمل مختلط من رجال المهام الخاصة من وكالة الاستخبارات المركزية صممت لتساعد في ملء الفراغات في صورتنا الاستخباراتية.

هذه الكتلة من الصور، ومن البيانات الإلكترونية، ومن تقارير العملاء، "كل مصادر الاستخبارات" كانت تختلط وتحلل في خلية الاندماج التابعة لجيف كيمونز ضابط ركن الاستخبارات بالقرب من مركز العمليات المشتركة. لقد كان هنا هو المكان الذي يتم فيه تحميل الصناديق الصغيرة الرقمية للقوة الحمراء على قاعدة بياناتنا عن العدو. هذه "الصورة" للعدو كانت أفضل صورة سبق لأي قائد قد حصل عليها في زمن الحرب، ولكن كانت هناك مدة معينة من الزمان مطلوبة للتحليل وللتتبع. فلو أن كتيبة مدفعية في الفرقة 51 العراقية بالقرب من البصرة تحركت لبضعة كيلومترات ليلاً، على سبيل المثال، وتوزعت بين المجمعات المحوطة بالجدران المعتادة في المنطقة، فإن مشغل ضابط ركن الاستخبارات يستغرق عدة ساعات لتحديد موقعها الجديد وليعيد وضع الأيقونة الحمراء للوحدة في موقعها الجديد في قاعدة البيانات. وعندما كنت أنظر إلى رقعة الشطرنج أو الداما الخاصة بتتبع القوة الحمراء، كنت أعرف أنني أنظر إلى تشكيلات العدو التي كانت دقيقة من الناحية التاريخية، ولكنها ليست حديثة إلى آخر دقيقة.

كان ممكناً من الناحية الفنية أن نرى عروضاً لمنظر مختلط تكون فيه المواقع النسبية للإيقونات الحمراء والزرقاء متراكبة على الشاشة نفسها. ولكنني كنت أفضل أن أشاهد الموقف على شاشتين متجاورتين، متذكراً أن التشكيل الصديق كان

دقيقاً في الزمن الحقيقي، بينما كان تشكيل العدو قد تقادم. وكما ذكرت نفسي مرة تلو مرة، يجب على القائد ألا يسمح لنفسه أن "يعرف أكثر مما يعرف".

إن تتبع القوة الزرقاء والحمراء قدم صورة دقيقة، تطويرية، قريبة من الزمن الحقيقي لترتيب القوة على المستوى العملياتي: كم المسافة التي تقدمت فيها سرايانا، وكتائبنا، وألويتنا نحو أهدافها، نهاراً، أو ليلاً، وفي أي طقس؟ وهذا المستوى غير المسبوق من الوعي أعطى فريقنا الثقة لممارسة درجة جديدة من المرونة. وعندما أصدرت حكمي بأن القوات العسكرية العراقية لم تكن في موقع يمكنها من القيام برد فعل على هجومنا المبكر على حقول الزيت، لم يكن الحكم تظاهراً بالشجاعة. فمع وجود جين رينيوارت وجيف كيمونز معي لنعمل جميعاً في حساب قدرات المسافة والزمن لتشكيلات العدو الكبيرة الموجودة في أقرب مواقع للحدود مع الكويت، كانت المسألة مسألة حساب بسيط: فقواتنا البحرية بحركيتها وقوة نيرانها المتفوقة، كانت تستطيع أن تصل إلى حقول الزيت قبل أن تمتلك وحدات العدو الموجودة في جنوب العراق أي فرصة لاعتراضها.

بعد توقيع الأمر المجزأ المعدل، في القيادة المركزية 09 009، موجهاً إلى البدء المبكر لليوم جي، يوم بدء العمليات الأرضية، تفرست في آخر مجموعة من منشورات عمليات الحرب النفسية التي كان قد أنتجها جماعة جين رينيوارت. كان أحد اهتماماتنا الرئيسية هو أن العراقيين قد يحاولون استباق هجومنا بشن ضربات من أسلحة الدمار الشامل ضد قطاعاتنا المحتشدة، وكنت أريد من جهود عمليات حربنا النفسية أن تثني العراقيين عن ممارسة خيارات أسلحة الدمار الشامل التي كنت معتقداً أنهم امتلكوها. لقد تولى رينيوارت وفريقه مهمة إنشاء هذه المنشورات، التي مزجت صوراً معقدة مع نص عربي واضح وجيز. وطوال الساعات الأربع والعشرين الأخيرة، كانت طائرات التحالف التي تطير في مسارات عملية مراقبة الجنوب في منطقة حظر الطيران ترمي مئات الآلاف منها على المواقع العراقية.

كانت الرسالة التي تضمنتها هذه المنشورات قوية وواضحة. أظهرت إحدى المنشورات صورة مركبة لأرض المعركة، وفيها قامت قطعات التحالف المسلحة تسليحاً ثقيلاً والمحمية بأقنعة الغاز وببدلات الوضع الوقائي المكيف بحسب المهمة بمهاجمة الجنود العراقيين غير المحميين، وهم يختنقون ويسقطون في ضباب من الغاز السام الذي أطلقته قواتهم العسكرية العراقية. وأظهر المنشور صورة فعلية لأم كردية ميتة وهي تمسك برضيعها الميت، من ضحايا غاز الأعصاب الذي سبق لصدام أن استخدمه ضد مواطنيه هو في العام 1988. وكان النص العربي الأحمر في المقدمة يقول: "لا أحد يستفيد من استخدام أسلحة الدمار الشامل." وحمل المنشور على ظهره تحذيراً "أي وحدة تختار استخدام أسلحة الدمار الشامل سوف تواجه انتقاماً سريعاً وحاداً من قوات التحالف. وسوف يعتبر قادة الوحدة مسؤولين إذا استخدمت أسلحة الدمار الشامل."

وأنتج معمل عمليات الحرب النفسية أيضاً سلسلة من المنشورات هدفت إلى منع تخريب حقول الزيت العراقية. وأظهرت واجهة المنشور النموذجي حقل زيت مصون صيانة جيدة ومنتجاً بشكل واضح مع مصفاة نفط مجاورة ومحطة ضخ للزيت. وعرض ظهر المنشور منشأة مشابهة، وألسنة اللهب تلتهم المعدات المسودة المنصهرة. وتقول: "لانتباه القوات العراقية العسكرية والأمنية، لا تدمروا حقول الزيت العراقية، فإذا دمرت صناعة الزيت فسوف تدمر معيشتكم!"

سألني جين رينيوارت: "ما رأيك يا سيدي؟"

فتحت ونظرت في آخر المنشورات. "دعونا نستمر في رمي هذه المنشورات، وكلما رمينا منها أكثر كان أفضل. لأمر واحد، إذا أقنعت هذه الرسائل ولو بضعة عراقيين ليفكروا مرتين، فإنها ستكون مستحقة للعناء. ولأمر آخر، ففي كل مرة يلتقط جندي عراقي واحداً من المنشورات، فإنه يحصل على مفكرة تقول: إن دفاعات العدو لا تستطيع أن تمنعنا من الطيران فوق أي مكان نختاره. وفي المكان الذي يوجد فيه اليوم منشورات، فقد يكون فيه قنابل في الغد."

عندما كنت أنتظر بداية الأعمال الحربية، قررت أن ألتهم وجبة سريعة في قاعة الطعام. كنت أحاول، حيثما يكون ممكناً، أن أتناول عشائي مع الجند، وفي هذه الليلة، أخبرني دوايت براون أنهم كانوا يقدمون شرحات دجاج مقلية مع قشدة مرق اللحم وخبز الذرة الصفراء.

كان براون يشاركني ذوقي بالنسبة إلى طعام البيت هناك والموسيقى الريفية، وكان هذا واحداً من الأسباب التي جعلته يبقى معي منذ أيامي في الجيش الثالث. والسبب الآخر هو أن براون كان أفضل رجل متطوع عالي الرتبة سبق لي أن خدمت معه.

ولكن كل خيال أكلت معه عندئذ في تلك الليلة، مشاركاً في أسلوب طبخ البيت ومتبادلاً النكات المبتذلة، كان خيالا استثنائياً.

كان العشاء جيداً، ولكن التتكير لم يدم طويلاً.

لقد رجعت إلى غرفة الحرب وكنت فيها في الساعة 2045، قبل خمس عشرة دقيقة من أول تدمير لمراكز الرصد البصري حسب ما كان مخططاً له أن يبدأ.

حالما أظهر فيديو الأشعة تحت الحمراء من طائرة بريديتر أول مجموعة من الأبراج وهي تسقط بصمت في غمامة من الشرر من ضربة صاروخ هيلفير، أطفأت لوحة العرض والتفت إلى مشكلة ملحة كانت قد بدأت قبل أربع وعشرين ساعة.

كنت أجلس على الطاولة نفسها في الثلاثاء ليلاً، عندما ناولني جيف كيمونز وجين رينيوات تقريراً استخباراتياً ومطبوعات رقمية لتصوير فوقي، وقال لي جيف: "معلومات استخباراتية بشرية مثيرة للاهتمام خارجة من بغداد، سيدي. تروي مصادر وكالة الاستخبارات الأمريكية أنهم قد يحققون فهماً لاجتماع يعقده صدام وولده في اليوم التالي أو ما يقاربه."

"وكم تبلغ الثقة بها؟"

"المصادر مصنفة بأنها موثوقة، يا جنرال. ولكننا لا نعرف حتى الآن أين سيتم هذا (الاجتماع الممكن)".

جاء التقرير من عميلين موثوقين في شبكة جديدة كانت قد بنتها الوكالة في بغداد. إذا حصلنا فعلاً على موقع مثل هذا الاجتماع، فإننا بالتأكيد سنطارد هذه "الأهداف عالية القيمة." وهذا ما يمكن أن يكون ضربة قطع الرأس حقيقة. فقتل صدام حسين وولديه سوف يجعل النظام عاجزاً مقعداً.

كان ولدا صدام وريثيه، وكانا يشغلان مراكز عسكرية قوية. فقصي حسين، الولد الأكبر^(*)، كان قائد الحرس الجمهوري الخاص، ومنظمة الأمن الداخلي، وتشكيلات الحرس الجمهوري القتالية. وابنه الأصغر عدي^x، كان مرهوباً ومصاباً بخلل عقلي ومتسلطاً بنفسه هو، وكان يقود فدائيي صدام، وهي قوات غير نظامية بلغ عددها 40.000 تقريباً.

معلومات وكالة الاستخبارات المركزية كانت مثيرة للاهتمام، ولكننا لم نكن نستطيع عمل أي شيء من دون تحديد الموقع.

وأخبرني جين رينيوارت "أنهم يعملون على ترتيبها". وكان الظن القوي هو أن الاجتماع سيتم في مجمع يقع في القسم الجنوبي من المدينة يسمى دورة المزارع، وهي أرض على ضفة النهر تعود ملكيتها إلى ساجدة زوجة صدام.

فحصت صور القمر المأخوذة للمجمع المحوط بجدار: فيللاً فاخرة، ومرآب، وعدد من المباني الخارجية غير المتميزة. وقلت: "إن المشكلة هي أن إنذار الرئيس النهائي يعطي صدام ثمانياً وأربعين ساعة ليغادر العراق وهذه المدة لا تنتهي إلا الساعة 0400، في اليوم الذي يأتي بعد غد. الرئيس أعطى صدام حسين ثمانياً وأربعين ساعة، وأنا أعرف جورج دبليو. بوش معرفة كافية لأعرف أنه لن يطلق طلقة إلى أن تنقضي تلك المدة. ضع مطلقي النار في البحرية في سلالهم لإطلاق صواريخ توماهوك للهجوم الأرضي، واطلب من اختصاصيي التهديد أن يجدوا حلاً لإطلاق النار على ذلك الهدف وعلى المواقع الممكنة الأخرى. ولكن لا تتوقعوا الإذن بإطلاق النار إلى أن تكون مدة الإنذار قد انتهت."

(*) هكذا في الأصل.

عندما كتبت بطاقة اليوم الثاني من قياس ثلاثة في خمسة قبل أن أذهب إلى النوم في تلك الليلة، في جانب الفرص طبعت كلمتين: "قطع رأس النظام". كان ذلك في مساء يوم الثلاثاء.

الليلة هي الأربعاء، اليوم ي، يوم بدء العملية. ومع كون المعلومات الاستخباراتية المتطورة عن مزارع الدورة ما تزال غير دقيقة إلى درجة تجعلها غير صالحة للعمل بموجبها، فقد التفتُّ راجعاً إلى العمليات الخاصة الجارية.

التحق بي جين وجون أبي زيد في غرفة الحرب بعد وقت قصير من الساعة 2130 لمراقبة القتال. وشاهدنا معاً متتبع القوة الزرقاء وما تبثه طائرة البريديتر في الوقت الذي قامت به الطائرات العمودية المسلحة من فوج طيران العمليات الخاصة 160 بتدمير مراكز الرصد البصري، الواحد بعد الآخر. وقد عدت في تفكيري إلى أبراج الرصد تلك وهي تتمزق في عصف من مقذوفات عيار 155 ملم موجهة بالليزر قرب وادي الباطن قبل ثلاثة عشر عاماً، وكنت على يقين من أن العراقيين الذين كانوا يشغلون أهدافنا هذه الليلة قد ضربوا بسرعة كبيرة إلى درجة جعلت العديد من المراكز الأمامية لا تملك حتى الوقت لتتصل بأجهزة اللاسلكي طلباً للمساعدة.

ولكنني متأكد بشكل مساو أن بعض مراكز الرصد هذه قد أبلغت، وقبل مضي وقت طويل سوف يعرف صدام أن لديه مشكلة على الحدود الأردنية.

وأكد ديل ديلي من قاعدته في المملكة العربية السعودية أن "الزمر في حركة نشيطة".

وأبلغني غاري هاريل من مركز قيادته عبر المجمع في قطر: "التسلل في حركة وتقدم".

ربما أكون قد سجلت أربع ساعات من النوم غير المتقطع في الساعات الثماني والأربعين الماضية. في ما هو أقل من حالة طوارئ كبيرة، ليس هناك من سبب بالنسبة إلي يجعلني أبقى في غرفة الحرب طوال مدة فعالية هذه الليلة. كنا نسير

حسب الخطة، ولم أكن أنوي التدخل بعمل أفضل رجال وحدات مهام خاصة سبق لي أن عرفتهم.

وقلت لغاري ودیل: "حظ سعيد هذه الليلة."

وقلت لجين: "أنا ذاهب لآوي إلى الفراش. حاول أنت نفسك أن تحصل على بعض النوم."

رجعت إلى غرفتي، وتمددت أمام فلم سينمائي قديم عنوانه: كانت تضع شريطاً أصفر. لا بد أنني شاهدته خمس مرات في عروض السينما في ميدلاند. جون وين بدور العسكري الخيال العجوز المكسور، وعلى ما كنت عليه من إرهاق، كنت أستطيع أن أشارك في ذلك. ولكنني نمت قبل أن تسرج فصيلة الخيالة خيلها وتغادر القلعة.

أيقظتني رنة المفتاح الأحمر الموجود بجانب سريري والتي جاءت مثل الطلقة. كان المتكلم ديك مايرز. وقال: "يا توم، أنا في البيت الأبيض مع الرئيس، والوزير رامسفيلد وجورج تينت. هل أنت على علم بالهدف الذي برز في مزارع الدورة؟"

كنت مستيقظاً يقظة كاملة، العظم متعب ولكنه يقظ.

وقلت له: "بدأنا نرتب العمل له في الليلة الماضية."

وتابع ديك: "هل تستطيع أن تضرب الليلة؟"

قذفت الهاتف في الهواء وأنا أشد حذائي العسكري.

وقلت: "إن صواريخ توماهوك للهجوم الأرضي تغزل يا ديك. ويجب علي أن أجمع مع جين رينيوارت وتيم كيتنغ، قائد عنصرنا البحري، على نوافذ الإطلاق، ووقت الطيران، ولكنني لا أرى مشكلة. وبالمناسبة كم مدى الثقة بالمعلومات الاستخبارية؟"

"جورج تينت يعتقد أنها جيدة، يا توم."

"سأعود لك بأسرع ما أستطيع."

أكمل جيف، وجين، وتيم كيتنغ اختيار الذخائر في أقل من ساعة: رزمة من أربعة وعشرين صاروخاً من صواريخ توماهوك للهجوم الأرضي موجهة لهدفها في مجمع مزارع الدورة، وستة عشر صاروخاً أخرى على مواقع القيادة والسيطرة في النظام في داخل المدينة. وكانت هذه الأهداف الإضافية أهدافاً قيمة من ناحيتين: لقد كنا نخطط أن نضربها في اليوم إيه، يوم بدء العمليات الجوية، على كل حال، ثم إن قيامنا بنشر الضربات في كل الجهات قليلاً في هذه الليلة قد يقدم بعض الغطاء للعملاء الذين حددوا لنا مزارع الدورة.

وعندما راجعت نقاط الهدف، اتصل ديك مايرز ثانية من البيت الأبيض.

"يا توم، حصلنا على بعض المعلومات الدقيقة إلى درجة كبيرة عن التسديد إلى الهدف. يقول أحد المصادر إن الموقع يشتمل على نقطة قوية، وهي منعة مصفحة بالإسمنت المسلح المضاعف. إن صواريخ توماهوك للهجوم الأرضي لن تعمل الواجب ضد هذا الهدف. هل نستطيع أن نثقبه ونضع متفصلاً هوائياً عليه؟"

وقلت له: "لا مجال للزفت ... قطعياً"

كلانا كان يفهم أن القاذفة المقاتلة ستيلث اف-117 هي الطائرة الوحيدة التي كانت في المسرح والقادرة على قصف هدف على هذا القرب من بغداد قبل تدمير الدفاعات الجوية المدنية. طائرات اف-117 كانت واقعياً غير مرئية للرادار، وكانت غير مرئية للمراقبين الأرضيين في أثناء الطيران ليلاً على ارتفاع عال. أما في النهار، فهي رغم ذلك، تصير أهدافاً بطيئة نسبياً، وبلا دفاع. وبحسب الطقس وبيانات الإضاءة، فإن الشمس ستشرق فوق بغداد الساعة 0609 حسب التوقيت العراقي في هذا الصباح. ولكن أول شفق، وهو الوقت الذي تصير فيه الطائرة مرئية من الأرض، فسيكون أبكر من وقت الشروق بنصف ساعة. وذلك كان يعني أننا إذا استخدمنا طائرات اف-117، فسوف يتوجب عليها أن تكون بعيدة بعداً كافياً عن منطقة بغداد للاشتباك بالصواريخ مع حلول الساعة 0530 على الأقل.

ومن المؤكد أن هذا كان خط توقيت قصير على نحو سيئ، وليست هذه أسهل مشكلة عملياتية سبق لي أن عالجتها.

وأخبرت ديك: "سأعمل على ترتيبها مع بز. "ورد بز موسلي بطريقة نموذجية: "نحن نعمل فيها، يا رئيس."

كان أحد الاعتبارات الجوهرية هو أن علينا أن ننشئ "ممرأ" من خلال الدفاعات الجوية العراقية من الكويت ذهاباً طول الطريق إلى الهدف عن طريق ضرب مدافع العدو المضادة للطيران، وصواريخ سطح-جو، والرادارات قبل أن تطير اف-117 بمهمتها. فذلك سيوفر درجة إضافية من الحماية. ولكن فتح الممر سوف ينبه العدو بأن هناك ضربة قادمة. وطوال اثني عشر عاماً تقريباً من عمليات مراقبة الجنوب تعلم العراقيون أنماطنا العملياتية بالضبط مثلما تعلمنا أنماطهم. فهذه المسألة ليست عملاً بسيطاً.

وكانت هناك اعتبارات أخرى كذلك. إن إدخال قوات العمليات الخاصة كان قد بدأ وهو في تقدم. وقد طمسنا بالأسود الطائرات العمودية ام اتش-53 بيف لو وام اتش-60 دي ايه بي التي تطير منخفضة وسريعة لتجنب النيران الأرضية. حتى ونحن نعرف المسالك المخططة لدخولهم ولخروجهم، فإن طياري العمليات الخاصة ينعمون بالبقاء لكونهم لا يمكن التنبؤ بوجودهم. وآخر شيء كنا نريده هو أن نرى واحدة من طائراتنا بيف لو مدمرة من السماء بقنبلة من واحدة من طائراتنا اف-16 أسقطتها لفتح ممر جوي للطائرة اف-117 القادمة.

وبدأت جولة اتصالات مع غاري هاريل وديل ديلي لإعطائهم تحذيرات من أنه قد يكون هناك نشاط جوي غير متوقع.

قال لي غاري بطريقته الوجيهة "لا داعي للقلق."

وكذلك ديل لم ير أي مشكلة، وأضاف: "ولكن لدينا فقدان لطائرة علينا أن نبذل عنه، سيدي."

إحدى طائراتنا العمودية عانت من انخفاض التيار الكهربائي في الغبار في الوقت الذي كانت فيه تنزل خيالة المهام الخاصة وضباط الوكالة الميدانيين بالقرب من مدينة الناصرية الحيوية على نهر الفرات. الدوار الرئيسي من الطائرة العمودية ضرب الأرض على زاوية، وتدحرجت الطائرة العمودية الكبيرة على جانبها. ركاب الطائرة والملاحون اهتزوا وقلقوا، ولكنهم لم يصابوا إصابات سيئة. أقاموا حولهم نطاقاً دفاعياً، وأزالوا التجهيزات السرية من الطائرة، وتابعوا المهمة. كانت الحاجة تدعو إلى هؤلاء الخيالة لمسح جسري الطريق الرئيسي عبر النهر، وأن "ينتظروا بين الأعشاب" ليعملوا بدور مراقبي قتال جوي في حال حاول العدو أن يعزز أو يدمر الجسور. فقد كان كل من فرقة المشاة الثالثة وقوة حملة مشاة البحرية الأولى بحاجة إلى جسور سليمة ليعبروا الفرات وهم في طريقهم إلى بغداد.

وقال ديك: "سوف نستخدم طائرة اف-16 لتدمير الطائرة العمودية المعطوبة، ومواصلة المهمة".

فقد طائرة لم يكن شيئاً جيداً. ولكن العدو أيضاً يحصل في الحرب على صوت. ويسود فيها قانون ميرفي(*) الذي ينص على أن: أي شيء يمكن أن يصير إلى الفشل سيصير إلى الفشل. وقلت لغاري وديل: "عمل جيد، يا رجال، قودوا قدماً".

في وسط هذه الاتصالات وصل إلي بز ثانية، وشرح: هذا ما لدينا، أيها الجنرال. لدينا طائرات اف-117 نايت هوك وحشوات تفجير المنعات المصفحة زنة 2000 رطل لوحدة القنابل الموجهة المعززة، والطيارون في قطر في العديد. وكل ما علي الآن أن أعمله هو أن أجعل الجميع يقتربون معاً، وأوفر مهمة مخططة، وأطيرها جميعاً إلى بغداد... قبل أن تطلع الشمس.

(*) ينسب هذا القول إلى مهندس تطوير باسم إدوارد ميرفي، وكثيرون يشككون بوجود مثل هذا الشخص، وللقول أسماء أخرى مثل قانون سود، وقانون فينغيل وله صيغ أخرى.

وقلت مبتسماً "حسناً يا بز"، وكانت أفكارى تغزل، بالسرعة التي غزلت بها في 9/11 على سطح فندق كايدون. "ما هي احتمالات نجاح المهمة بطائرة واحدة؟"

ولم يتردد بز: "طائرة مفردة تعطينا احتمال 0.5".

ومرة أخرى فكرت قبل أن أتكلم. وفي العادة أنا متفائل بنصف الكأس المملآن، ولكن في هذه الليلة لا يمكن أن تكون هناك أي مخاطرة بالفشل. "وماذا تأخذ لنحصل على مائة بالمائة، طائرتين؟"

"احتمال النجاح يزداد إلى 1.0 يا جنرال."

وقلت: "طائرتان، اعملها، يا بز."

"تبلغت، يا رئيس، طائرتان من نوع نايت هوك في الطريق."

وقدم جين التعقيد الذي يلي. "إن ضرب أهداف القيادة من المحتمل أن يطلق رد فعل قوي، حتى لو قتلنا فعلاً أولاد الك...."

كنت أعرف بدقة ما الذي كان يعنيه. طوال اليومين الماضيين كنا نستقبل معلومات استخباراتية عاجلة متزايدة تبلغنا أن وحدات الحرس الجمهوري في بغداد قد تحركت للجنوب إلى مدينة الكوت، وصرف لهم غاز الخردل وعنصر أعصاب غير معروف. وكانت تقارير أخرى لاحظت أن أبايل-100 وهي قاذفات الصواريخ الباليستية في المسرح كانت تتحرك في كل اتجاه بشكل لا يمكن التكهّن به. الأسلحة الكيماوية وصواريخ الباليستية للمسرح ليست مزيّجاً جيداً. إذا كانت نخب الحرس الجمهوري التي كانت تحرس أسلحة الدمار الشامل العراقية قد تسلمت ذخائرها وكانت في طريقها لتتصل بمطلق الصواريخ، فنحن ننظر إلى إمكانية قوية من هجمات الغاز على مناطق التمرحل المكتظة في الكويت. ووضعت قواتنا هناك في حالة عالية من الإنذار. وضربة قطع الرأس المخطط لها على مزارع الدورة قد تكون هي الحادثة التي تطلق الزناد.

وقلت لضابط استخباراتي: "يا جيف، دعنا نهذب وننقي الأهداف الإضافية

لصواريخ توماهوك للهجوم الأرضي. إذا كنا سنضرب مزارع الدورة فإننا سنرغب أيضاً في إنزال بعض الأضرار الجدية في قوات استخباراتهم وأمنهم."

كنت على المفتاح الأحمر مرة أخرى عندما دخل غرينش عبر الباب. "سيدي، رئيس الخدمات كان يحاول الوصول إليك من البيت الأبيض."

وفكرت تباً لهذا. وللحظة تمنيت لو كنت أمتلك تلكا السماعتين اللتين سبق لي أن ركبتهما قبل خمسة وثلاثين عاماً في تلك الطائرة العمودية الصغيرة فوق قناة كنه دوا في جنوب سايفون.

"أنا هنا يا ديك. نحن نحاول أن نعمل سلطة فراخ من ذراق الدجاج."

وبداً "لا تغضب مني، يا توم"

"لم يسبق أن غضبت منك يا ديك، أنت أخي."

وقال: "كنت أتحدث مباشرة مع قائد عنصرك الجوي. حاولت أن أصل إليك أولاً، ولكنك كنت مرتبطاً بالهاتف. لدينا هنا وقت عصيب حرج."

"ليس مهماً، يا ديك." رسالتي بالناسوخ (الفاكس) إلى وولفوويتز قد فعلت ما كنت أردته، إنها تطارد الناس في الحلقة ئي وداخل مكتب وزير الدفاع لتزيحهم من بين الأقدام. ولكن ديك مايرز لم يكن من المتدخلين المتطفلين، كان هو مرساتي الصلبة في المبنى، أي، وزارة الدفاع. لم يسبق أبداً أن أخرجته من الحلقة. "كيف عمل برز؟"

"إنه يحاول أن يجعل المهمة تحدث، يا توم. تبدو الأمور جيدة حتى الآن."

"نعم، طائرتان من نوع 117، وسوف نضيف بضعة أهداف إلى قائمة صواريخ

هوك للهجوم الأرضي كذلك. وقد نضربهم كذلك بخطاف أيمن وطعنة يسرى."

"تبلغت يا توم، ولكننا نريد ضربتكم المذهلة المرعبة، لا زمن للقرارات الرديئة

الزفت... نريد أن نضرب هذه الأهداف، ولكن الرئيس لا يريد أن يفقد طيارين

جديدين مقابل لا شيء."

"الوقت فوق الهدف يجب ألا يتجاوز الساعة 0530 بتوقيت العراق، يا ديك، مع الإقلاع من العديد في وقت لا يتجاوز الساعة 0330 سيكون لديهما رحلة لمدة ساعتين قادمتين نحو الهدف مع إعادة تزود بالوقود في الجو مرة واحدة. أنا محتاج إلى قرار الرئيس بحلول الساعة 0315، لكي تستطيع النفاتتان أن تبدأ تشغيل محركاتهما وتنطلقا. "ونظرت إلى الأرقام النابضة في الساعة على الجدار وكانت: 0227" لدينا أقل من ساعة من أجل أحد الأمرين: أذهب -لا- أذهب، يا ديك. "أفهم، يا توم. سوف نرجع لك."

ديك مايرز فهم ذلك، طبعاً. فقد سبق له أن طار عشرات المهام القتالية فوق فيتنام الشمالية عندما كان طياراً شاباً. كان يعرف حقائق الحرب الواقعية. كنت سعيداً بأن الرئيس ووزير الدفاع لديهما ديك هناك في المكتب البيضاوي. عاد بز وأبلغني في الساعة 0259، "طائرتان مسلحتان بالأسلحة المختارة. والطياران تلقيا الإيجاز اللازم. وهما يجلسان في الطائرة. لا أحد يفرح بهذا التوقيت، ولكنك تعرف رجال ستيلث هؤلاء. فهم سيطيرون إلى بوابات جهنم لضرب هدف جيد."

لقد قاتلت في نفسي إغراء السؤال عن اسمي هذين الطيارين لطائرتي اف-117. فعلى الرغم من أن احتمال نجاح الضربة هو -، 1، فإن طائرتيهما معرضتان لخطر الانكشاف والتحديد في أثناء خروجهما بعد شروق الشمس. كان هناك احتمال صدفة لا يستهان به بأن واحداً من هذين الشابين المقاتلين قد لا يرجع إلى الوطن.

الأرقام على ساعة الجدار نقرت على الساعة 0312، وتهدت أنا ونظرت إلى جين. "إن الوقت يتأخر، يا ضابط ركن العمليات."

كنت أستطيع أن أتصور المنظر في المكتب البيضاوي: الرئيس وهو محاط بمستشاريه، يوازن بين الحجج المؤيدة والحجج المناقضة. جورج بوش سبق أن طار

في مقاتلات. وكان يفهم آليات تخطيط المهمة والتنفيذ. وكان يعرف كيف يتخذ قراراً.

ورن المفتاح الأحمر. كان ديك مايرز "المهمة هي الذهاب، يا توم. أرجو أن تنفذ." "تسلمتها." وكلمت بز موسلي. وقلت له: "أطلق المهمة يا بز، حظ جيد للجميع." وانطلقت كلتا الطائرتين بنجاح في الساعة 0338 .

والآن ينبغي أن نقوم بتنسيق التتابع النهائي لصواريخ توماهوك للهجوم الأرضي. مضى الوقت في وهج الفلوريسنت الذي لا يومض في غرفة الحرب. فأحد النواحي في مهمة ستيلث هي أن الطائرة لم تكن ترسل بيانات متتبع القوة الزرقاء. والحالة الوحيدة التي تلقيناها عن الطائرة المتجهة نحو الهدف كانت هي التحقق من أن الطائرتين قد أعادتا التزود بالوقود عند الطائرات الصهريج المخصصة لهما.

أبلغني تيم كيتنغ من البحريين أن سفن السطح والغواصات في شمال الخليج العربي قد أطلقت رشقاتها من صواريخ توماهوك للهجوم الأرضي حسب البرنامج المخطط ابتداء من الساعة 0439 وستضرب الصواريخ أهدافها في غضون دقائق من إطلاق قذائف ستيلث من وحدات القنابل الموجهة المعززة-27 المدمرة للمنصات المصفحة.

واستمرت شاشات البلازما بإظهار عمليات إدخال وحدات المهام الخاصة في الغرب وفي الجنوب، وعلى منصات الزيت الموجودة قبالة الشاطئ تماماً بعيداً من شبه جزيرة الفاو.

وأبلغني رينيوات أن "البولنديين قد أمنوا هدفهم في منصات الغاز والزيت. لا إصابات في القوات الصديقة، مقاومة العدو خفيفة."

تلك كانت أخباراً طيبة. فتخريب المنصات المتعددة الأنواع الموجودة قبالة الشاطئ لتحميل الزيت وإنتاجه كان سيثقل صناعة النفط العراقية، ويتسبب في كارثة بيئية ستقرم ما جرى من شركة أكسيون فالديز من اندلاق الزيت في ألاسكا.

ومع ذلك، كان من الصعب استيعاب الأخبار الطيبة مع كون مهمة ستيلث ما تزال قيد العمل.

لم أكن أملك من الوقت ما ألوي فيه مفاصل أصابعي، وعلى كل حال. وفي غضون بضع دقائق كان دون رامسفيلد على الخط. كان الرئيس يدرس عمل مؤتمر صحفي حالما تكون ضربة مزارع الدورة قد انتهت. وقال: "ضع قبعتك، قبعة كاتب الخطابات، يا توم، فنحن بحاجة إلى مدخلاتك. ما رأيك؟"

وقلت له: "بغداد مليئة بالمراسلين الأجانب، سيدي الوزير. وسيكون هناك قتال وصواريخ توماهوك للهجوم الأرضي تضرب بالضبط إلى الجنوب على طول النهر وبعض الصواريخ تضرب في المدينة نفسها. نحن ننظر إلى لحظة سي إن إن حقيقية."

"إذن فأنت توصي بأن يلقي الرئيس خطاباً؟" كان رامسفيلد عميق التفكير، ويختار كلماته بعناية. "وبيان الرئيس لن يتدخل بعملياتك؟"

لن يحتاج العراقيون إلى سي إن إن لتخبرهم أن الحركة قد بدأت. وقلت لرامسفيلد: "سيدي، أنا أوصي بأن يلقي الرئيس خطاباً."

وقال رامسفيلد: "حسنًا، يا توم. ضع قبعتك، قبعة صائغ الكلام."

وتابعنا المسير عبر مبحث صياغة ملاحظات الرئيس. وشدد رامسفيلد: "نحن لا نريد أن نعرض للخطر أمنك العملياتي بأي شكل."

عندما كنت أستمع إلى صياغة مسودة الخطاب، حاولت أن أوازن بين أمن الجند في مقابل التأثير الذي سيكون لكلمات الرئيس على جمهور المستمعين الدوليين، لم نكن نريد للرئيس بوش أن يتحدث بطريقة تظهر جيدة لأمريكا ولحلفائنا، ولكنها تتهاود بخطتنا بإهمال غير مقصود.

وأز صوت ناسوخ (فاكس) مأمون على جانب الطاولة، وطبع المسودة شبه النهائية للكلمات التي قد اخترناها.

"إخواني المواطنون، في هذه الساعة، تكون القوات الأمريكية والتحالف في المراحل الأولى من عمليات عسكرية لنزع سلاح العراق، ولتحرير شعبها وللدفاع عن العالم من خطر جسيم".

بدأت لي تلك المقدمة صحيحة تقريباً. والإشارة إلى "مراحل أولى" كان مهماً بوجه خاص. وأخبرت رامسفيلد: "نحن لا نريد أن نترك العدو يظن أن هذه الضربة هي إزعاج ضئيل آخر من ضربات صواريخ توماهوك للهجوم الأرضي وتنتهي بالخط. ولكننا لا نريد العراقيين أيضاً أن يبدووا بالاستعداد ليوم جي، يوم بدء الهجمات الأرضية، اعتباراً من هذه اللحظة تماماً".

وقال البيان بعد عدة سطور لاحقة: "وهذه هي المراحل الافتتاحية لما سيكون حملة عريضة ومنسقة". وقلت لرامسفيلد: "ذلك جيد، سيدي الوزير. إنها تعني ضمناً أنه سيكون هناك عملية جوية طويلة. ولكن لدى العدو مفاجأة قادمة له".

وقرأت بقية النص. كان صلياً. "أنا أوافق على الصياغة، سيدي".

في الساعة 0541 كنت أفتح متنقلاً بين قنوات التلفزة الفضائية. وحسب البرنامج تماماً، روى مراسل على شرفة فندق فلسطين في بغداد "انفجارات ثقيلة" جنوب المدينة، وفي الضواحي الغربية. وكما هو متوقع، شقت الدفاعات الجوية العراقية السماء عند الفجر بالطلقات الخطاطة والصواريخ المضادة للطيران.

كان ضوء النهار قد لاح في بغداد. ونحن لم نسمع بعد من طياري طائرتي ستيلث.

عندما جاء تقرير الضربة فعلاً، فإنه حمل بعض دراما الهجوم. الطائرتان اف-117، رمزا النداء رام 01 ورام 02، اقتربتا من مزارع الدورة من كلا الجانبين من مسار طيران بيبضاوي نازل، واحدة من الشرق، وأخرى من الغرب. وكانت الشمس فوق الأفق تقريباً. ولكن سطحاً من السحاب حجبها عن المراقبة الأرضية، وحجب عنهما كذلك مجمع الهدف.

في آخر لحظة، وجد الطياران فتحة في السحب أعطتهما ست ثوانٍ للتعرف على الأهداف بصرياً ولإسقاط قنابلهما. ولكن نقاط التسديد كانت قريبة للغاية، والأسلحة الجديدة الموجهة بالنظام العالمي لتحديد الموقع، والتي لم يسبق أبداً أن استخدمت في القتال، كانت دقيقة للغاية إلى الدرجة التي شكلت معها القنابل عنقوداً وكادت تتصادم وهي تسقط.

كانت القنابل مجهزة بصمامة تخترق عميقاً قبل أن تتفجر و"تكسر" الملجأ المحصن تحت المباني الفارغة على ضفاف نهر دجلة حيث يعتقد أن صداماً وولديه كانوا يجتمعون.

عندما كان الطياران يتسلقان راجعين عبر السحاب، رأيا قنابلهما تتفجر، وشاهدا بعدئذ منظر ضربة صواريخ توماهوك للهجوم الأرضي وهي قادمة عبر المجمع في تتابع من العصفات النارية.

كلتا الطائرتين عادت سالمة إلى العديد بعد ضوء النهار بمدة.

أخبرني جيف كيمونز على الهاتف وأنا أخرج من الاستحمام: "نحن نعمل في تقدير خسائر المعركة وتقارير الوكالة، الآن، يا جنرال."

ومع كل نواحي تقدمنا في التقانة، ما يزال تقدير خسائر المعركة مشكلة تعاودنا بشكل متكرر. ففي ما هو أقل من تقارير رؤية العين من موقع الهدف، كان يجب علينا أن نعتمد على التصوير. فإذا حددت مركبة جوية من دون طيار من نوع البريديتر فضيلة من ست دبابات عراقية نصف مختبئة في بستان نخيل، على سبيل المثال، فإنها تستطيع بذلك أن تحدد هدفاً لضربة جوية. بعد أن ينقشع الدخان. قد تكشف البريديتر أو صورة القمر أن دبابتين أو ثلاثاً قد دمرت بوضوح. واعتراض الاتصالات قد يعكس أنه ليس هناك مرور اتصالات لاسلكية من واحدة من الدبابات. ومع عدم وجود حركة من الدبابات التي لم تصب بضربة واضحة، سيكون من السهل أن نستنتج أن الدبابات الست كلها صارت خارج المعركة. ولكن كيف

نستطيع أن نعرف بالتأكيد؟ هل يجب على اختصاصي التهديد لدى جيف كيمونز وجين رينيوارت أن يشطبوا كل فصيلة الدروع العراقية من قائمتهم، أو هل يجب على طياري بز موسلي أن يعودوا لضرب الدبابات التي لم نتأكد من تدميرها؟

لقد كانت مشكلة، كنت أعرف، أنها ستزعجنا في الأيام والليالي القادمة. من تقدير خسائر المعركة في مزارع الدورة، لم نعرف إلا القليل. كان صدام إما حياً أو ميتاً، مجروحاً أو معافى. سوف نكتشف في نهاية الأمر، وفي الوقت الحالي سيكون هناك العديد من الأهداف الأخرى التي "تبرز" لضربها. في أرض المعركة، تكون تقارير الاستخبارات عن مثل هذه الأهداف دقيقة في بعض الأحيان، وغير دقيقة في أحيان أخرى. ولكننا لن نرغب أبداً في فقدان فرصة لقطع رأس النظام وإنهاء الحرب مبكراً.

وفكرت، لا تقلق حول أمور لا نستطيع أن تضبطها. كان الصباح ينشق عن يوم الخميس، 20 آذار/مارس، وكان عندنا حرب نخوضها ونقاتلها.

قبل أن تبدأ العمليات، عملت بشدة مع الأركان ومع قادة العناصر لنتأكد من أننا نمتلك الاتصال المستمر والوصول من أحدنا إلى الآخر بعد أن تكون السرعة المحمومة للقتال الحربي قد انطلقت، كنا نحتاج إلى "إيقاع" اتصالات يكون من شأنه أن يضمن التشاور المشترك من دون التدخل الذي لا حاجة إليه، لا إلى الأعلى في سلسلة القيادة ولا إلى الأدنى فيها. أنا سأكون القائد، الذي يصدر التوجيه وأستحث عند الضرورة، ولكنني لن أقود الخيالة نزولاً في "الأعشاب"، مثل بعض أفكار هوليود عن قائد كبير يحرك دبائيس تغرز في كل اتجاه على خريطة عملياتية. الحروب لا تعمل بتلك الطريقة اليوم، ولست متأكداً من أنها سبق أن عملت بها.

مع الوعي بالموقف بهذا الشكل غير المسبوق والذي نمتلك الوصول إليه، سيكون من المفري لي أن أحرك تشكيلات صغيرة. ولكنني سوف أقاوم هذا الإغراء. إن منظمة عسكرية مثل هذا التحالف هي أكبر وأكثر تعقيداً بالنسبة إلى رجل واحد

ليواجهها على المستوى التعبوي. سأقود قتال الحرب، ولكنني سأفعل ذلك من خلال مرؤوسي. سيكون هناك أوقات أعطي فيها أوامر لهؤلاء المرؤوسين، وكنت أتوقع منهم أن يطيعوا تلك الأوامر. ولكنني لن أقول للواء بيوفورد "بيوف" بلاونت قائد فرقة المشاة الثالثة، أو للفريق جيم كونواي قائد قوة حملة مشاة البحرية أين؟ وكيف أريد من إحدى فصائلهم أو سرايهم أن تقوم بهجوم؟ لم أكن أحتاج إلى القول، ذلك كان واجبهم، وكانوا يعرفون كيف يقومون به.

ولكنني، على كل حال، سأبقى على علم جيد بالموقف التعبوي، وذلك كي أستطيع اتخاذ قرارات عملياتية.

وكذلك، كان علي أن "أغذي الوحش" في واشنطن، محافظاً على دون رامسفيلد، وديك مايرز، والرئيس على علم كامل ودقيق بشأن التقدم الذي تحرزه، الحملة والمشكلات التي تجدها. وهذا ما سيكون مهماً بشكل مضاعف لأن وسائل الإعلام مثبتة التعيين مع قواتنا. والمراسلون الذين يكتبون قصصهم من وحدات المناورة لن يمتلكوا الوصول إلى متبوع القوة الزرقاء. وبالنسبة إلى العديدين، فإن منظورهم سيكون محدوداً بمنطقة العمليات المحددة لسرية أو لكتيبة. وما قد يبدو لأحدهم بأنه أزمة كبيرة سيكون في الغالب خلاً صغيراً بالنسبة إلى مجمل قوة التحالف.

ولكنني كنت أعرف أن العصاة الموجودة داخل الطريق الدائري سيقومون بالتصفح العرضي للقنوات الفضائية من البداية في هذه الحملة، وهم يحاولون اختراق الضباب والاحتكاك من خلال قنوات مثل فوكس وسي إن إن - دع عنك الجزيرة.

وهكذا، فلن أقود قوات التحالف قيادة فعالة، في الوقت الذي أفي فيه بمسؤولياتي نحو السلطات المدنية، التي تقع على بعد سبعة آلاف ميل، وفي ثمانين مناطق توقيت بعيداً عن القتال، أسست إيقاعاً للمعركة تكون من: برمجة مؤتمرات بالاتصال من بعد مصورة بالفيديو، وتحديثات للمعلومات، واستعراضات للمعلومات

الاستخباراتية، ومعها، حرفياً، مئات من النشاطات اليومية الأخرى المنسقة، والتي شغلت وقت الأركان ووقتي من يوم ي، يوم بدء العمليات، إلى نهاية الحملة.

وفي الأسبوع السابق، بدأت كذلك برنامجاً شخصياً منضبطاً أعطي ليومي شكلاً وتركيزاً. فبعد الاستيقاظ في الساعة 0400، كنت أتصل مع مركز العمليات المشتركة على الخط الساخن لأحصل على تحديث معلومات. ثم أمشي على جهاز رياضة المشي لمدة نصف ساعة مراقباً في أثناء ذلك التلفاز الأمريكي والدولي. وبعد الاستحمام وأكل بيضتين أو ثلاث بيضات مسلوقة سلقاً خفيفاً، كنت آخذ سيارتي من نوع فورد إكسبيديشن إلى المبنى 217، مع قرص مضغوط يعزف على ستريو أغاني نيل ماك كوي.

ضريبة مزارع الدورة مزقت هذا النمط. ولكن بحلول الساعة 0720 من يوم الخميس، 20 آذار/مارس وهو ي +1، واليوم الكامل الأول من عملية حرية العراق كنت قد عدت إلى البرنامج نفسه. كان يومي العملي يبدأ بقراءة البرقيات والرسائل القادمة من مكتب وزير الدفاع، ومن ديك مايرز، ومن السفارات الموجودة في المنطقة، ومن رايفل دولونغ في الخلف في المقر الرئيسي للقيادة المركزية، ومن قادة العناصر. وكان ذلك يستغرق مني ساعة لأنجز العمل في هذا الكدس من الأوراق.

وفي الساعة 0800، عندما أنهى الأوراق، يتقاطر أركاني الرئيسيون داخلين إلى مكتبي: وهو ملجأ بلا نوافذ مثل البقية، مزود بقدرة مأمونة لعقد مؤتمر الاتصال من بعد المصور بالفيديو وبأربع شاشات بلازمية معلقة على جدار واحد. ولدي طاولة مكتب عند نهاية طاولة اجتماعات على شكل T وعليها خمسة كراسي في كل جانب. كان جون أبي زيد يجلس على النهاية القصوى، في مواجهتي، ورئيس أركاننا الجنرال في الجيش ستيف ويتكومب كان يجلس إلى يساره، واصطف المديرون على كلا الجانبين من الطاولة.

بعد استعراض سريع لعمليات التحالف الأرضية، والجوية، والبحرية من جين رينيوارت، التفت إلى جيم كيمونز: "ماذا لديك لنا يا ضابط ركن الاستخبارات؟"

وقال جيف: "هذا ما لدينا حتى الآن عن ضربة قيادة النظام، وتأتينا التقارير نتفاً وقليلًا قليلاً. وتبين التقديرات الأولية لخسائر المعركة وتبين الصور مباني مهدامة، وأضرار النيران، ومجموعة محترقة من سيارات أمنية، وهي نوع السيارات المرتبطة بحراسات صدام حسين وابنيه. ويروي عميل أن صدام قد سحب من الحطام، وهو مصاب بشكل سيئ، وربما يكون ما يزال حياً. وكان وجهه مغطى بقناع أوكسجين عندما رفعته النقالة إلى سيارة الإسعاف."

وقلت: "دعونا لا نقضم ذلك حتى الموت. الضربة انتهت. وسوف نكتشف في نهاية الأمر ماذا حدث. وأنتم تعرفون مشاعري عن التقارير الأولى للكشافة..."

وقال جون أبي زيد: "هي دائماً على خطأ." لقد سمعوا موعظتي عن هذا الموضوع من قبل.

طبعاً، وكما علمنا لاحقاً، كتب لصدام ولولديه البقاء بعد ضربة مزارع الدورة. ولكنها كانت تستحق العناء: فهم لن يشعروا ثانية بالأمن بين أكثر مستشاريهم ثقة. من الذي كشف وجودهم في ذلك الموقع؟ إما أن يكون هناك جواسيس قريبين منهم، أو أن نظام استطلاع التحالف كان متقدماً تقدماً كافياً ليقتفي تحركاتهم. هل وجهنا تركيزنا على هواتفهم الخليوية المرمّزة؟ هل كانت أقمارنا تقتفي أثر توقيعات الحرارة الفريدة الخاصة بسياراتهم من الفضاء؟ خلاصة القول، كنا نستبقيهم يخمنون.

الطياران الشجاعان رام 01 ورام 02، ومعهما اختصاصيو التهديد لدى بز موسلي، الذين نفذوا الضربة وفقاً لمعلومات استخباراتية في الزمن الحقيقي وعلى درجة عالية للتعرض للضياح، قد أظهروا لصدام، ولعدي، ولقصي حسين أنه لا يوجد مكان آمن للاختباء فيه. تقودون سيارة، أو تتحدثون في هاتف، أو ترسلون بريداً إلكترونياً، أو تكتبون ملاحظة... مهما تفعلوا فالتحالف يراقبكم.

في الساعة 0900، انتقلنا إلى غرف الاجتماعات من أجل مؤتمر بالاتصال من بعد مصور بالفيديو مع قادة العناصر في مقارهم في منطقة المسؤولية، ومع مقار

المساندة في كل أنحاء العالم. وعلى الرغم من أن الوقت كان بعد منتصف الليل في الساحل الشرقي، و"الليل العام" للقيادة المركزية في تامبا، فإن المناوبات الليلية في الأركان المشتركة في وزارة الدفاع، وقيادة النقل، ومركز عمليات وكالة الاستخبارات المركزية، والقيادة الأوروبية في ألمانيا، والتي لم تكن تملك انفصلاً جدياً عن منطقة التوقيت، كانوا كلهم في الحلقة.

كل ضابط ركن رئيسي كان يصف النشاطات الرئيسية الجارية في منطقة مسؤوليته: ديني جاكسون في الإمداد والتموين، والعميد البحري جيم "روكي" روب في التخطيط، وجيم ويلكنسون في العلاقات العامة. العميد الجنرال فينس بروكس، "موجز" عملياتنا، كان يكتب الملاحظات، وهي التي كنا نستخدمها لنشكل العرض الذي سنقدمه لاحقاً في مركز وسائل الإعلام. كان فينس ضابطاً شاباً لامعاً، وكان هو الذي سيكون صوت عملية حرية العراق. لقد عرفته طوال سنوات، وعمل لي في كوريا وفي الجيش الثالث، وسيكون متفوقاً في هذا الدور كذلك. في هذا اليوم، اليوم الأول من العملية، استمع باهتمام عندما كان قادة العناصر يقدمون تحديثاتهم للمعلومات.

وقدم غاري هاريل، الذي كان لديه معظم الأحذية العسكرية على الأرض عند هذه النقطة، تقريراً محكماً موجزاً. زمر المهام الخاصة قد دخلت إلى العديد من المواقع عبر الصحراء الغربية. لقد قطعوا، "حرّموا" باللغة العسكرية، الطريق الرئيسي الذي ربط العراق مع الأردن، وسيطروا على نسبة الـ 25 بالمائة الغربية من العراق. وقوة مهام قوة العمليات الخاصة في الشمال أقامت ارتباطاً مع قوات حرب العصابات البشمركة الكردية ونُشروا على طول الخط الأخضر الذي يفصل المنطقة الكردية ذات الحكم الذاتي عن بقية العراق، وهو ما يساعد في تثبيت فرق العدو في الشمال.

كان العراقيون قد أصيبوا بالعمى، وهم يتخبطون... ولم نكن قد دخلنا في الحرب إلا حوالي اثنتي عشرة ساعة فقط. وسوف يطلق ديفيد ماككيرنان اليوم

جي، يوم بدء العمليات الأرضية، في هذه الليلة، مع انطلاق يوم ايه، يوم بدء العمليات الجوية، غداً.

وقلت لهم: "حسناً. أنتم جميعاً تقومون بعمل عظيم. دعونا ننفذ الخطة مثلما سبق أن لعبناها لعبة حرب. اعملوا المهمة، واحموا القوات."

ومع تقدم اليوم الأول من الحرب، استعرضت خطط الهجوم الأخير مع ديفيد ماككيرنان وركن العنصر الأرضي في مؤتمر بالاتصال من بعد مصور بالفيديو.

أعطى قائد الفيلق الخامس، الفريق وليام "سكوت" والس، وجيم كونواي إيجازين دقيقين، كاملين: وكانت قوة وحداتهما من الجند وتجهيزاتها، وبيانات جرد الإمداد كلها جيدة. وكانت تشكيلاتهما في مناطق التجمع قبل الاقتحام قرب حافة الحدود. وحالما تكون المدفعية، ونظام قذف الصواريخ المتعددة، والطائرات العمودية المسلحة قد دمرت ما تبقى من مراكز الرصد البصري العراقية، فإن المهندسين المقاتلين سوف يجرفون بالجرافات الآلية ممرات عبر الجدران العالية من الرمل والحصباء.

وسوف يتحرك، عندئذ، رجال دباباتنا، وخيالة مشاتنا الآلية إلى الأمام، مستخدمين وحدات جسور فولاذية قابلة للانطواء لتجسير الخنادق العميقة المضادة للدبابات الموجودة على الجانب العراقي من الحدود. وفي غضون الأربع والعشرين ساعة القادمة، سوف تتقدم آلاف من العربات المجنزرة والدولية شمالاً عبر تلك الاختراقات التي تمت في حافة الحدود وفوق الخنادق المجرسة.

قادة تلك القوات كانوا يجمعون بين عقود من التدريب الصارم وخبرة القيادة. ومعظمهم كان قد خدم في عاصفة الصحراء أو في دول البلقان. لقد ناوروا بالوحدات من خلال تمارين تدريبية في الكويت ومن خلال المناورات الميدانية التي كانت بلا نهاية في الحرب الباردة في ألمانيا وفي جبال كوريا. كانوا يعرفون طرق تقدمهم، وخطوط المراحل، والأهداف الخاصة بهم، ولكنهم كانوا يعرفون أيضاً من

خبرتهم المباشرة أن قانون ميرفي كان دائماً موضع التأثير، وجاهزاً ليسبب المشكلات.

وقلت لهم: "أنتم جميعاً تعرفون أفكارني عن إيقاع المعركة. تذكروا: السرعة والزخم." لم يسبق لي أن رأيت موقفاً ستكون فيه السرعة أكثر حسماً من هذا الموقف. إن ترسانة صدام حسين من الصواريخ الباليستية، والصواريخ ذات المدى الأقصر، والمدفعية كانت ترسانة مؤثرة، وقد أخبرتنا استخباراتنا أن من المحتمل أن تكون بعض تلك الترسانة مسلّحة بالرؤوس الحربية الكيماوية أو الحيوية. وقد أشارت كل مصادر الاستخبارات أن الحرس الجمهوري وجند عمليات الأمن الخاصة المنتشرة حول بغداد كانت تمتلك أسلحة تدمير شامل، وكنا نتوقع منهم أن يستخدموا هذه الأسلحة عندما نغلق الأنشطة حول العاصمة، ما لم نصل إلى العاصمة قبل أن يكون العراقيون قد استعدوا. إن سرعة تقدمنا لن تقتل العدو وحسب، بل هي ستقتل أرواح التحالف كذلك.

كان هذا مبدأً عملياً مهماً: فبقية وحدتنا بالضرب بشدة وبسرعة، فإنها سوف تمزق بذلك قدرة العراقيين على الرد بفعالية. إن قائد لواء مدرع عراقي قد يعلم أن عربات برادلي لكشافة خيالتنا قد اخترقت محيطه الخارجي الدفاعي. ولكن إلى أن يحين الوقت الذي يستطيع فيه هو أن يناور بدباباته ومدفعيته ليقوم بالهجوم المعاكس، سنكون نحن قد وضعنا دباباتنا في الهجوم في شكل أسافين بمستوى الكتيبة في منطقة عملياته، مدمرة كل دبابة عراقية أو مدفع في طريقها. وفوق رؤوسهم، ستقوم الطائرات العمودية الهجومية والضربات الجوية بقتل كل عربة تتحرك.

وذكرتهم: "المفتاح هو السرعة، أيها الرجال. نحن سوف نريح هذا القتال، وسوف نريحه عن طريق الوصول إلى داخل دائرة قرار العدو. تذكروا: السرعة تقتل... العدو."

مضى الصباح الأول من الحرب بسرعة في الخلية الضخمة التي تعج في المبنى

0217. وكانت تعمل حولي زمر تركزت نفسها لكل علم أو تخصص يخطر في الخيال وله علاقة بالقتال الحربي الحديث: الاستخبارات، والاتصالات، والطقس، والعلاقات العامة، والسياسي- العسكري، والتخطيط، والإمداد والتموين (مع كل تخصصاتها الفرعية)، والنقل، والشؤون المدنية، والمساعدة الإنسانية، والعمليات النفسية، "حوالي ألف من أقرب أصدقائك"، كما قال غرينش مازحاً.

في حوالي منتصف النهار، ومض رمز في خريطة الحاسوب من جانب لآخر من طاولتي. إن بطارية باتريوت من قيادة الدفاع الجوي والصاروخي، القيادة الثانية والثلاثين من الجيش، قد أطلقت من فورها صاروخاً ليشترك مع صاروخ بالستي عراقي للمسرح. وبنقرة على الفأرة، كنت قادراً على أن أقرب وأركز على البطارية، التي كانت بالقرب من منطقة التجمع التعبوية للفرقة 101 المنقولة جواً في شمال غرب الكويت، وهي أرض قفر لا تضاريس فيها بالقرب من حافة الحدود. وفي ومضة من بعض عناصر قليلة من الصورة على الشاشة، دمر صاروخ باتريوت بنجاح الرأس الحربي المعادي وهو في الجو عالياً.

الساعة الرقمية قالت إن الوقت هو الساعة 01224. وتوقعت أن العراقيين لن يستغرقوا طويلاً لينتقموا عن الليلة الماضية.

ورن هاقي. وسألني جيف كيمونز: "هل أنت مطلع على الاشتباك مع الصاروخ البالستي لمسرح العمليات في الكويت، يا جنرال؟ ذلك الصاروخ كان أبابيل-100 من سلة إطلاق جنوب البصرة."

إن صاروخ باتريوت بي ايه سي-3 انطلق من واحدة من سبع وعشرين بطارية متمركزة في الكويت، والبحرين، وقطر، والمملكة العربية السعودية، والأردن، ودمر الصاروخ العراقي. لقد كان الباتريوت فعلاً ضد الصواريخ البالستية لمسرح العمليات. وكان لدينا قاذفات متمركزة لتحرس قواعد التحالف وحشود الجند من الصواريخ القادمة خلال معظم مسرح العمليات. لم يكن لدي أي فكرة عن كون الرأس الحربي لأبابيل-100 رأساً تقليدياً أو سلاح تدمير شامل، وإذا أخذنا

بالاعتبار تدمير سلاح العدو بسرعة فوق صوتية، فإننا قد لا نعرف أبداً. وكانت النقطة هي أن رأساً حريبياً يندفع نازلاً مباشرة نحو منطقة تجمع مكتظة بأربعة آلاف عسكري ومائة طائرة عمودية من بلاك هوك، وأباتشي قد تم تحييده.

وكان التقرير الأولي عن الاشتباك، والذي تلقيناه بعد بضع دقائق، قد أكد ما حدث، إن المدمرة إيجيس من الأسطول الأمريكي في شمال الخليج، والسفينة هيغنز الأمريكية، كشفت الصاروخ البالستي لمسرح العمليات بعد ثانيتين من إطلاقه. وبعد أن أومضت بإنذار إلى مركز عمليات الدفاع الجوي في معسكر الدوحة الموجود في الكويت، قامت رادارات البطارية د، من الكتيبة الخامسة من مدفعية الدفاع الجوي الثانية والخمسين- بتتبع الصاروخ وهو ينزل خارجاً من الجو. عملت حواسيبنا حلاً لإطلاق النار في خلال أربع عشرة ثانية، وتم إطلاق صاروخي باتريوت، ودمر الرأس الحربي عالياً فوق أرض الصحراء.

وقلت لجف "واحد مقابل لا شيء. إننا نستطيع أن نتوقع المزيد."

واتصلت مع بز موسلي: "هل تستطيع أن تقوم ببعض التصيد للصواريخ؟"

"لدي طائرات اف 16 في الجو الآن مباشرة، يا رئيس. سوف نجدهم."

في ذلك الأصيل أطلق العراقيون أربعة صواريخ أخرى على قواتنا في الكويت. صواريخنا الباتريوت دمرت اثنين، والصاروخان الآخران سقطا في الصحراء الفارغة أو الخليج ولم يجر الاشتباك معهما.

في الساعة 1435، أبلغنا بز أن مقاتلاته القاذفة قد حددت موقع قاذفين متقلين لأبabil-100 ودمرتهما.

وقلت له: "عمل جيد، يا بز. إنك لا تستخدم كل وحداتك للقنابل العنقودية، أليس كذلك؟" وحدات القنابل العنقودية، وهي التي أطلقت مئات من القنابل الصغيرة القاتلة، كانت هي الأسلحة المختارة ضد القاذفات المتقلة للصواريخ.

"احتاج الموقف إلى اثنين فقط، يا جنرال. ونحن نمتلك الكثير."

على بطاقة ذلك الصباح من قياس ثلاثة في خمسة، بدأت قائمة التحديات "بتهديد أسلحة الدمار الشامل" مثلما فعلت طوال الأسبوع الماضي، وسوف أستمّر بفعل ذلك طوال الأيام والليالي القادمة.

ومثلما أمّلت، كان دون رامسفيلد وديك مايرز الوجهين الوحيدين المرثيين عندما نظرت الصورة وفتحت من أجل مؤتمرنّا المبرمج بالاتصال من بعد المصور بالفيديو. كانت الساعة 1500، و 0700 في وزارة الدفاع.

وأبلغته: "سيدي الوزير، نحن حسب الخطة. قواتنا للعمليات الخاصة تسيطر على أهدافها الأولية في الصحراء الغربية."

وأشرت، باستخدام خريطة رقمية، إلى مواقع زمر قوة مهام العمليات الخاصة المشتركة في الغرب، والتي كانت من قبل قد أسست قواعد عمل متقدمة في خمسة مواقع داخل العراق. وقلت: "جند الجنرال هاريل قد أحاطت بمطار اتش 2 وبالطريق العام لمدينة الرطبة." وتابع في وصف أحداث الثماني عشرة ساعة الماضية. وأضفت: "جند ديف ماككيرنان ومشاة البحرية مجهزة للتحرك إلى حقول الزيت الجنوبية في هذه الليلة. وطبعاً، نحن نمتلك السيطرة الجوية في فضاء المعركة."

وسألني رامسفيلد: "ما هي خططك لفرقة المشاة الرابعة، يا توم؟" وقلت له: "أريد أن أحتفظ بالسفن في البحر الأبيض المتوسط مدة أطول، سيدي. الأرضفة في الكويت ما تزال مكتظة. وسوف تستغرق القافلة البحرية للفرقة الرابعة ستة أيام فقط لتصل إلى الكويت بعد أن تستلم أمر الحركة، وليس هناك أي معنى بالنسبة إليهم للجلوس في المرسى في الميناء. إن الفرقة تخدم غرضاً أفضل بصفتها قوة خداع."

وقال دون رامسفيلد: "أنت تقرر، ذلك طلبك، يا توم." وسأل الجنرال مايرز: "يا ديك، هل تستطيع أن تحافظ على قيادة النقل وعلى

الأسطول من الانفجار غضباً بسبب هذا الموقف؟ إننا بدأنا من قبل الآن نحصل على بعض تعابير التذمر. إنهم يريدون هذه السفن أن تفرغ حمولتها وتتحرك."

وافق مايرز على أن يقوم بالتدخل. وقال رامسفيلد في نهاية المؤتمر بالاتصال من بعد المصور بالفيديو: "كل واحد في واشنطن يقف خلفك، يا توم."

بدأت لي الأيام العشرة التي جاءت من جهنم وكأنها منذ عمر. ومهما حدث في هذه العملية، فقد كنت أعرف أنه لن يكون هناك أي مكالمات من الوزير يقول فيها: "لا أرى أي حركة، يا جنرال فرانكس"، وذلك مثلما كان يحدث في أثناء تلك الأيام الأولى في أفغانستان. لم يكن يوجد متتبع للقوة الزرقاء في مكتب دون رامسفيلد، وإنما كان هناك تلفاز. وكان من المستحيل أن تغيب عنه حركة جند التحالف وهو يشاهده.

قبل أن أنام في ليلة الخميس، أمرت بإصدار بيان إلى قواتنا التي توشك أن تدخل في القتال. وفي صياغة مسودة الرسالة، حاولت أن أضع نفسي في مكان رام بحري، أو خيال يهتز بعنف على طول الطريق في عربة برادلي، أو بحار يعمل في الظلام، وسطح الطيران الخطر للسفينة الأمريكية نيميتتر، أو رجل جو في حجرة طيار لطائرة إيه-10 تدرج عبر جداول من الطلقات الخطاطة لتضرب رتل دبابات معادياً.

وبدأت الرسالة: "أيها الرجال والنساء في عملية حرية العراق،"

إن رئيس الولايات المتحدة، قائدنا العام، بالاتفاق مع قيادة شركائنا في التحالف قد أمر بالبدا بالعمليات القتالية. أهدافنا واضحة. سوف ننزع سلاح العراق ونزيع النظام الذي رفض نزع سلاحه سلمياً. وسوف نحرر الشعب العراقي من مستبد يستخدم التعذيب، والقتل، والتجويع، والإرهاب أدوات للاضطهاد. وسوف نجلب الطعام، والأدوية، والمساعدة الإنسانية الأخرى للعراقيين المحتاجين. وسوف نعتني بحماية المدنيين الأبرياء وبالبنية التحتية التي تسندهم، وسوف نساعد الشعب العراقي على أن يبدأ من جديد في بناء مستقبل يخصصه مع حكومة من اختياره.

إنكم تحظون بأعلى ثقتي الشخصية وبثقة قائدكم العام. أنتم الآن في موقف الخطر. وواجبنا لن يكون سهلاً، ولكننا نقاتل في سبيل قضية عادلة والنتيجة ليست موضع شك. إنني فخور بكم، بكل ما فعلتم وبكل ما ستحققونه في الأيام القادمة. سوف نقوم جميعنا بعمل واجبنا. بارك الله في كل واحد منكم، وبهذا التحالف، وبالولايات المتحدة الأمريكية.

في الساعة 0634 بتوقيت العراق، يوم الجمعة، 21 آذار/مارس ي+2، يوم بدء العملية+2. جلست في غرفة الحرب، أشاهد المستطيل من أيقونات القوة الزرقاء على الشاشات البلازمية وهي تتقدم شمالاً ابتداءً من الخط الأسود الغامق الذي يعلم الحدود الكويتية مع العراق.

بعد غروب الشمس في الليلة الماضية، قام سلاح الهندسة بخرق حافة الحدود، وقطع حواجز السياج، ووضع المهندسون جسورهم القابلة للحمل فوق الخنادق المضادة للدبابات. وقبل ذلك كانت وحدات الاستطلاع في عربات برادلي، والعربات الخفيفة المدرعة الخاصة بمشاة البحرية قد توغلت داخل العراق لمسافة عشرين كيلو متراً.

لقد بدأ اليوم جي، يوم بدء المرحلة الأرضية من الحملة.

وأبلغني ديفيد ماككيرنان في مكالمة المؤتمر من معسكر الدوحة الموجود في الكويت أن "واحدة من وحدات استطلاع قوة حملة مشاة البحرية وكشافة خيالة بوف بلاوننت قد عبروا خطوط البدء الخاصة بهم في الساعة 2100 في الليلة الماضية، وأن مشاة البحرية وخيالة الفيلق الخامس كانوا خلفهم مباشرة وأنهم يتحركون بسرعة، يا جنرال."

وكنا، أبي زيد، وجين رينيوارت، وأنا ندرس الرموز الزرقاء الوامضة. وأشار متتبع القوة الحمراء أن الفرقة الآلية العراقية الحادية والخمسين، وهي قوة من الجيش النظامي المجهزة بدبابات تي-55 وتي-62، ورتبها مملوءة من المجندين السنة والشيعية، كانت منتشرة عبر حقول زيت الرميّة. ولكن آخر صور لم تُظهر إلا رأسي بثرين إضافيين مشتعلين فقط، لم يبدأ بعد تخریب كبير.

وبعد أن تم تدمير مراكز الرصد البصري على طول الحدود الكويتية العراقية، لن يكون العراقيون قادرين على تقدير حجم أو تركيب قوة التحالف المتحركة نحو الشمال بأقصى سرعة لها. والانطلاق المبكر حقق على الأقل درجة ما من المفاجأة العملية.

ولاستغلال تلك المفاجأة، كانت تجري عملية حرب إلكترونية صلبة تدخلت في العديد من القنوات العراقية العسكرية اللاسلكية، ولكن ليس فيها كلها، بينما تركنا بعض الوصلات لكي نستطيع أن نتصت عليها. وكانت طائراتنا ومدفيعتنا بعيدة المدى تضرب العقد الحيوية لاتصالات العدو، ومحطات الإعادة اللاسلكية، ولوحات المفاتيح التعبوية، والمقار المناطقية لوحدات مختارة من الجيش النظامي.

وتابع ماككيرنان: "لا نملك إلا قوة صغيرة للعناية بالمخزون في حقول الزيت. ولكن مشاة بحرية جيم كونواي يتحركون بسرعة. ومع أي حظ فإنهم سيستولون على الرميلة سليمة."

في غضون ساعات سوف تكتسح وحدات المقدمة من مشاة البحرية حقول الرميلة وتدخلها.

ومع الضوء الأول من يوم جي، يوم بدء المرحلة الأرضية، تكون زمر قتال من مستوى لواء من فرقة المشاة الثالثة وزمر قتال من مستوى فوج من مشاة البحرية قد بدأت الاقتحام الرئيسي شمالاً نحو بغداد. وكانت زمر القتال هذه تشكيلات سريعة الانتقال، ومكتفية ذاتياً وجمعت الدروع، والمشاة الآلية، والمدفعية، ومتوسط قوتها خمسة آلاف من الجند في كل زمرة منها. وكانت ستتقدم على طول مسالك منفصلة، ولكنها سوف تتصل معاً عندما تدعو الحاجة إلى حشد القوة النارية ضد الدفاعات المركزة للعدو.

والزمرة الثانية من زمر القتال من مستوى لواء من فرقة المشاة الثالثة، وهي تشكيل دبابات ثقيل التدريب، تتبعها عربات برادلي من سرية الخيالة الثالثة، فوج الخيالة السابع (3-7خيالة). وكان هدفهم الأول قاعدة تلليل الجوية. ومن هناك سوف يسرع الجند شمالاً إلى الناصرية، لتستولي هذه الوحدات على جسر الطريق العام القائم على نهر الفرات وتمسك به من أجل مشاة البحرية.

زمرة واحدة من زمر القتال من مستوى فوج مشاة البحرية كانت مهياً للاستيلاء على حقول الزيت الجنوبية، وزمرة أخرى كانت تتحرك قدماً لتتسلم

الجسر من فرقة المشاة الثالثة. ومن هناك سيقوم مشاة البحرية بالاستيلاء على جسور أخرى على نهر الفرات وعلى قناة صدام.

وستصير هذه الجسور هي البوابة التي تعبر منها قوة حملة مشاة البحرية إلى قلب ما بين النهرين، وهو المكان الذي تصادمت عليه الجيوش طوال آلاف الأعوام، وسوف تتقدم زمر مشاة البحرية، زمر القتال من مستوى فوج قُدماً على الطريقين العامين رقم 1 ورقم 7 عبر مدن مزارع الشيعية، مع البقاء إلى الغرب من فرق الجيش العراقي النظامي الستة المتخندقة في مواقع دفاعية مثل "الدرج" تقع شمالي البصرة بالضبط. وفي نهاية المطاف ستقوم قوة حملة مشاة البحرية بعبور نهر دجلة وتتقدم شمالاً على الطريق العام رقم 6 إلى الجانب الشرقي من بغداد.

إن نجاح عملية مشاة البحرية سوف يعتمد في جزء كبير منه على تثبيت هذه الفرق الست في مكانها. فإذا تمسك العدو بعناد بمواقعه، فسوف يقصف من طيران التحالف، نهراً ولبلاً. فإذا خرجوا من استحكاماتهم وخطوط الخنادق، فإن العنصر الجوي من بز موسلي وزمر مشاة البحرية، زمر الجو - الأرض سوف تدمر تلك الفرق في العراق.

وفي الوقت الذي يقوم فيه مشاة البحرية والفيلق الخامس من الجيش بالتحرك نحو بغداد، فإن الفرقة المدرعة الأولى البريطانية سوف تتعطف بشكل حاد إلى الشمال الشرقي لتعزل البصرة، وهي ثاني أكبر مدينة عراقية. وقد قدرت الاستخبارات أن الأغلبية الساحقة من سكان البصرة البالغة حوالي مليون نسمة من الشيعة سوف تبقى حيادية، فلا هي تساعد ولا هي تعيق، بينما يعالج البريطانيون القيادة البعثية للحامية.

وأبلغني ماككيرنان: "حتى الآن، كانت مقاومة العدو متفرقة وخفيفة نسبياً. وتشكيلات الجيش السابقة في المقدمة واجهت بعض وحدات الدروع المنظمة تنظيمياً ضعيفاً ووحدات جند راجلة. بعض منها سيقاقل. وبعضها استسلم. وكثير منهما هجر مواقعه على ما يبدو وذاب وتلاشى. ونحن لا نتوقع أي قتال كبير في الساعات القليلة التالية."

وكان بز موسلي في الحلقة كذلك. وسألته: "هل تعطي هؤلاء الخيالة ومشاة البحرية الكثير من المساندة الجوية، يا بز؟"

وقال: "من المؤكد أننا نفعل، يا جنرال. قد طيرنا أكثر من مائتي طلعة في الساعتين الأوليين، والإيقاع يتصاعد. وسوف يكون يوماً مشغولاً. والمجموعة الإستراتيجية لم تبدأ بعد."

وأضاف ماككيرنان: "رجال الطيران كانوا وما زالوا يعملون لنا عملاً عظيماً، يا جنرال." لقد كان ديفيد ماككيرنان ضابطاً من أكثر الضباط استقامة، وأكثر جدية من الذين سبق لي أن قابلتهم في السنوات الثماني والثلاثين بصفتي عسكرياً. وكنت أعرف أنه كان سيخبرني لو أن المساندة الجوية لم تكن وفق المستويات العالية لبز موسلي.

إن المساندة الجوية القريبة ستكون مفتاحاً حيوياً للعملية. فمنذ التخطيط لعملية أناكوندا في العام السابق في أفغانستان، كنت أقدم المواعظ لقادة العناصر حول أهمية وصل عمليات الأرض والجو في كل واحدٍ متماسك. فإذا احتاج عسكري أو جندي بحرية النيران على هدف، يجب أن يكون قادراً على دعوة المساندة من طيران القصف أو الطائرات العمودية المسلحة، أو المدفعية بسهولة متساوية.

وإذا استطاعت طائرة بريديتر أو غلوبال هوك أن تحدد موقع دروع عراقية، فإن تلك البيانات يجب أن تتساب تلقائياً إلى عناصر الأرض والجو، وذلك لتستطيع كل قوتنا النيرانية، جواً وأرضاً معاً، أن تنصب عليها.

وقلت وأنا أختتم المكالمة: "حسناً. إن الأشياء سوف تصير أكثر استعجالاً محموماً. وأنا أريد منكم أيها الرجال أن تأكلوا بالشوكة نفسها. قاتلوا بشكل مشترك."

وقال بز: "فهمت، يا رئيس."

وقال ديفيد: "نعم، سيدي."

وفكرت أنه سيكون جيداً أن أخفف الضغط عن ديفيد قليلاً في بداية الحملة. ولكنني كنت أعرف أنه لن يكون من السهل أن أجعله يضحك على نكتة من نكاتي الباردة.

قلت: "هيه، يا بز. مد يدك لتصل إلى ذلك الهاتف الجميل الذي لديك مع كل الأزرار وصافح يد أخيك التوأم ديفيد".
وقال بز: "هاي، ديفيد".

ورد ديفيد: "جميل أن أتعرف بك يا بز." كنت أستطيع تقريباً أن أسمعه يبتسم. بعد ساعة، أرسل لي ديني جاكسون، ضابطي الرئيسي للإمداد والتموين، مجموعة جديدة من تحديثات الموقف من قيادة المساندة في الكويت. كان يبرز هناك قلق جديد: ازدحام في الميناء التجاري الرئيسي في الشعيبة، وفي منفذ الحاويات في الشويخ، وفي أرصفة القاعدة البحرية في مدينة الكويت. وكان جماعة ديني يعملون كالسحر، فهم يخرجون الشحنات من السفن فإلى خطوط المواصلات : على شبكة الطرق عبر الكويت إلى العراق. ولكن كان هناك حد لما كانوا يستطيعون عمله. ففي أثناء عملية عاصفة الصحراء، تمتع التحالف باستخدام الموانئ التجارية الكبيرة الأربعة الموجودة على سواحل المملكة العربية السعودية في الخليج وفي البحر الأحمر. وأما في عملية حرية العراق، فنحن لم نملك تلك المنشآت.

لقد قام ديني جاكسون، وهو يعمل مع قيادة النقل، ووحدات التحالف لمساندة الميناء، ومع الحكومة الكويتية، بعمل مدهش، وهو جعل قوة برية من 170.000 جندي جاهزة وعاملة، ومزودة بعربات، وأسلحة، وذخائر، ووقود، وطعام، وماء، ومئات الآلاف من الأطنان من الإمدادات الأخرى، في أقل من ثلاثة أشهر. وقد عملوا ذلك في "تموجات" للمحافظة على الخداع العملياتي الكلي.

كانت الفرقة 101 المنقولة جواً الآن تنزل آخر تجهيزاتها وتقف جاهزة للقتال في مناطق تجمعها. وفي الوقت نفسه، كان فوج الخيالة المدرع الثاني، وهو تشكيل

يساوي تقريباً حجم فرقة مدرعة في الحرب العالمية الثانية، في طريقه قادماً من الولايات المتحدة. ويكون هذه الوحدة وفرقة المشاة الرابعة متوقعة الوصول والنزول في الأسابيع القادمة، فسيكون هناك المزيد من التراكم في الأرصفة. ولذلك كان الاستيلاء على الموانئ العراقية في أم القصر ورفع الألغام منها أولوية بالنسبة إلى القوات البريطانية وقوة حملة مشاة البحرية.

وحتى مع كل هذا الذي يجري، فإن بعض الضباط في وزارة الدفاع، وجرنالات التلفاز، كانوا يشكون من أن التحالف لم يمتلك قطعات كافية على الأرض لبدء الحرب. هؤلاء "الإستراتيجيون" كانوا يريدون كما هو واضح عودة إلى عاصفة الصحراء، أي 560.000 جندي وحملة جوية منفصلة، ومطولة، قبل شن عملية أرضية بفرق ثقيلة متعددة على جبهة عريضة. وكنت فكرت، أن قوة عاصفة الصحراء لم تكن كاملة تماماً في حماية حقول زيت الكويت.

إن بناء قوة بحجم قوة عاصفة الصحراء في الكويت كان سيستغرق شهوراً من الجهد، وهو جهد مكشوف جداً، وكان سيضحي بالعنصر الحيوي من المفاجأة العملياتية التي نتمتع بها الآن. فلو حاولنا أن نضغط اثنتي عشرة فرقة أو ثلاث عشرة فرقة، ونحشرها جنباً إلى جنب عبر الحدود الضيقة من شمال الكويت، لما استطعنا أبداً أن نخدع العدو ونقوده إلى التفكير بأن الجهد الرئيسي كان سيأتي من الشمال والغرب.

ولو تمت التضحية بالمفاجأة العملياتية، فإنني كنت أظن، أن العراقيين كانوا سيعيدون تمركز حرسهم الجمهوري ووحدات الجيش النظامي، متسببين في قتال استنزاف كان سيكلف آلاف الأرواح.

وكان هناك عامل آخر: إن قوة تحالف محتشدة بكثافة في شمال الكويت كانت ستقدم هدفاً مغرياً للمدفعية العراقية وللصواريخ العراقية، المسلحة بمقذوفات تقليدية أو بأسلحة تدمير شامل. لقد تجنبنا تلك المشكلة عن طريق تمرير الوحدات المقاتلة عبر معسكرات التمرحل الكويتية واحدة بعد أخرى. فالفرقة 101 المنقولة

جواً، على سبيل المثال، كانت تستعد وتتزود للقتال في المعسكرات التي كانت فرقة المشاة الثالثة قد أخلتها قريباً، وعندما ستصل فرقة المشاة الرابعة في نهاية الأمر إلى الكويت، فسوف تستخدم المنشآت نفسها.

وكانت المساندة قضية أخرى. فوحدات جنودنا الأرضية، اليوم، تعمل وهي "أنحف وأصغر" مما كانت عليه في حروب الماضي. وحتى مع ذلك، فكما زادت وحدات الجند المقاتلة التي نخصصها للعراق، تضخمت قوة المساندة التي ستلزم لتوفر لهذه القوات الوقود، والطعام، والذخيرة، والعناية الطبية، وغير ذلك. كانت الكويت بشكل أساسي هي منطقة التمرحل الوحيدة... ولذلك، فهناك عدد محدد فقط من الجند يمكن للكويت أن تستوعبه.

وكانت الأرض اعتباراً آخر مهماً. فنمط الأنهار، والقنوات، والأهوار، والبحيرات في العراق الجنوبي والأوسط قد حدد مسالك الاقتراب من الكويت إلى بغداد. وكان هناك عدة نقاط اختناق تقليدية، وهي ممرات ضيقة من الأرض القابلة للعبور، والتي سيكون على القوات المتقدمة التشاور والاتفاق عليها وهي في طريقها إلى العاصمة. وكانت فجوة كربلاء الضيقة، الواقعة بين تلك المدينة في وادي الفرات وبين عائق بحيرة الرزازة إلى الغرب، واحدة من هذه التضاريس. وفي محور تقدم قوة حملة مشاة البحرية الأولى إلى الشرق، كان هناك عوائق طبيعية مشابهة، وعلى وجه الخصوص المكان الذي يعبر فيه الطريق العام رقم 7 نهر دجلة ليلتقي بالطريق العام رقم 6 في الكوت.

إن مجرد الأعداد: من الجند، والدبابات، وعربات المشاة القتالية، والمدفعية، لن تغير الإملاءات التي تفرضها تلك الأرض بشكل لا يقبل التغيير. كان هناك عدد محدود فقط من المسالك المؤدية إلى بغداد، وكانت بغداد هي العاصمة التي كان التحالف متوجهاً نحوها.

كانت العاصمة هي مركز الثقل للنظام البعثي، وطالما بقي جند صدام حسين مستمرين في السيطرة على المدينة فهو لن يتخلى عن السلطة أبداً. ولذلك، كان

يجب على قوات التحالف أن تتقدم إلى بغداد بسرعة كبيرة، مع تجاوز تشكيلات العدو وتثبيتها في أماكنها، بحيث ستكون العاصمة معزولة قبل أن تستطيع الفرق العراقية أن تتراجع وتحول المدينة المسترخية إلى "قلعة" مثلما كان الكثيرون يخافون من حدوث ذلك. وهذه المهمة لن تتحقق بحشد فرق الدروع أو المشاة الآلية، مصطفى على مسافة أميال ومنتظرة حتى يلج الخيط في سم إبرة فجوة كربلاء أو عبور نهر دجلة على جسور عائمة.

وكما سبق لي أن قدمت إيجازاً للرئيس ومجلس الأمن القومي: "إن قوة التحالف في أثناء القتال الحاسم سوف تستمد من كتلة قوة النيران الفعالة، وليس فقط من مجرد أعداد الأحذية العسكرية أو جنازير الدبابات على الأرض."

عملية عاصفة الصحراء عرفت الجمهور على فكرة "الأسلحة الذكية"، في شكل تلك الصور المدهشة بالفيديو للقنابل الموجهة بالليزر وهي تدمر الجسور ومباني الوزارات. ولكن جزءاً صغيراً فقط من الأسلحة الجوية التي أسقطت في عاصفة الصحراء كانت ذخائر دقيقة التوجيه. أما في هذه الحملة فإن 70 بالمائة من القنابل التي أسقطناها هي ذخائر دقيقة التوجيه، والكثير منها ذخائر الهجوم المباشر المشتركة التي أهلكت الطالبان والقاعدة في جبال أفغانستان وكهوفها.

إن ميزتنا التقنية أعطتنا كل أداة كنا نحتاج إليها لنغتم المفاجأة العملياتية. إن فصيلة استطلاع مشاة بحرية وهي تهدر على طول ضفاف القناة في عربات مدرعة خفيفة بثمانية دوايب، كانت تستطيع أن تحدد بالليزر كتيبة من دبابات تي-72 وتطلب إنزال عاصفة من قنابل وحدات القنابل الموجهة -12 على تلك الدبابات. وإن قوة عمليات خاصة من الخيالة مختبئة في بيت مزارع تستطيع أن تبث إشارات بطارية مدفعية عراقية مخفية، وأن تشاهد بعد لحظات سداً من صواريخ نظام إطلاق الصواريخ المتعددة وهو يتفجر فوق العدو. وإن رقيباً في فرقة المشاة الثالثة في عربة برادلي كان يسيطر على قوة نيران أكبر من قوة نيران كتيبة مدرعة في عاصفة الصحراء. وإن المركبة الجوية من دون طيار بريديتر وهي تطير عميقاً

في مؤخرة العدو، كانت تستطيع أن تبث نقاط تسديد بالنظام العالمي لتحديد المواقع من أجل توجيه ضربات بذخائر الهجوم الأرضي المباشر الدقيقة.

كانت هذه هي مضاعفات القوة التي جعلت من الممكن لهذه الحرب أن تكون حقاً حرباً مشتركة.

وكنْتُ أعرف أن أي كمية من الكلام ما كانت تستطيع أن تقنع النصائح الإستراتيجية غير المرغوبة بأن القوة التي سنحركها إلى داخل العراق كانت كافية لتحقيق المهمة. إن السرعة، والمرونة، والشجاعة، وقوة القوات المشتركة للمحاربين الشباب الذين يواجهون العدو في هذه الليلة ستكون هي كل المناقشة التي كنت بحاجة إليها.

بعد منتصف الليل، كتبت بطاقة تحديات وفرص اليوم التالي. كان التحدي الأول مرة أخرى ينص على: "تهديد أسلحة الدمار الشامل".

ومع وجود التشكيلات العراقية الكبيرة ثابتة في أماكنها على ما يبدو، ولم تقم برد فعل حتى الآن على هجومنا، فإن الفرصة الأولى تنص على: "استغل الميزة العملياتية".



الفصل الثاني عشر

حملة لا كفيها من الحملات

المقر الأمامي للقيادة المركزية

21 آذار/مارس 2003، يوم ايه، يوم بدء العمليات الجوية الكبيرة

الأسابيع الثلاثة الأولى من العملية كانت وقت تركيز شديد، وتقويم وقرار مستمرين، وإجهاذ، وإعياء، وإحباط، ثم ابتهاج في نهاية الأمر. وكلنا عملنا بنوم قليل، وشربنا الكثير جداً من القهوة، وكنا نواصل عملنا بجرعات منتظمة من الأدرينالين.

وطول مسار عملية حرية العراق احتفظ فان موني بسجل تفصيلي أرخ فيه ودون كل واحد من مئات الاجتماعات التي حضرتها وآلاف المحادثات التي أجريتها مع الأركان، ومع قادة العناصر، ووزارة الدفاع، والبيت الأبيض. وصارت ملاحظاته جزءاً من التاريخ الضخم المصنف السري للقيادة المركزية، والتي تضمنت أيضاً مرور الرسائل التي عبرت من خلال القيادة الأمامية والمقر الرئيسي. وعندما كانت ذكرياتي تبدو غير واضحة أو غير مكتملة، كان هذا السجل المزامن الذي لا يقدر بثمن، يملأ الثغرات.

وفي بعض النواحي منها، فإن هذه الأيام الطويلة والمشغولة جداً ذكرتنا بالأسابيع التي تلت 9/11 مباشرة، عندما خططنا ونفذنا عملية الحرية الدائمة. ولكن المسؤوليات المعقدة لقيادة التحالف في عملية حرية العراق فاقت أي شيء سبق أن خبرته بوصفي ضابطاً عسكرياً.

بعد أن يتم زج القوة في الحرب فإن التحديات ونقاط اتخاذ القرارات لا تتوقف أبداً.

جلس جين رينيوارت إلى جانبي في غرفة الحرب. وكانت الساعة 2115 في 21 آذار/مارس. وكان جون أبي زيد في كرسيه في النهاية القصوى من الطاولة. وكانت سماعة الهاتف المأمون مفتوحة مع بز موسلي في مركز العمليات الجوية المشتركة. لقد بدأ يوم ايه، يوم العمليات الجوية الكبيرة، وهو ما دعت وسائل الإعلام "الصدمة والرعب".

وأظهرت، الصورة الجوية، على واحدة من شاشات البلازما، مئات من الأيقونات المتعددة الألوان تتدفق عبر الخريطة الرقمية نحو بغداد، وهي طيران القصف الجوي وصهاريجه المساندة، وأجهزة تشويش الحرب الإلكترونية، وقوات العمليات الخاصة للبحث والإنقاذ القتالي.

وقلت: "وقت العرض، يا بز."

ورد بز: "وسيكون عرضاً جيداً أيضاً، أيها الرئيس."

إن صواريخ توماهوك للهجوم الأرضي المنطلقة من سفن السطح الأمريكية والبريطانية ومن الغواصات الموجودة في الخليج العربي، وصواريخ كروز المنطلقة تقليدياً من الجو والمطلقة من القاذفات بي-52 وهي تقترب من قواعد موجودة في بريطانيا العظمى وفي المحيط الهندي، ستكون هي أول ذخائر تضرب الأهداف الموجودة في مركز بغداد.

وكان لدى جين قائمة بنقاط التسديد الفردية في حاسوبه المحضون (اللاب توب)، والذي كان على الخط المباشر مع مركز العمليات الجوية المشتركة ومع خلية الاندماج لضابط ركن الاستخبارات.

وقال: "إنها تبدأ، يا جنرال، وهو يؤشر برأسه إلى الرموز الظاهرة على الشاشة.

واستخدمت مفتاح التلفاز من بعد لأغیر المحطات من سي ان ان إلى فوكس إلى الجزيرة.

ومع وميض الأيقونات على حاسوب جين، مسحت آلة تصوير سي ان ان منطقة المباني المجمع لقيادة النظام والقصور الرئاسية عند المنعطف الحاد لنهر دجلة مقابل فندق فلسطين.

وانشقت صورة سي ان ان عن كرات ضخمة من النار، وعصفات برتقالية دخانية نشرت موجات صادمة متوهجة وانعكست كأنها في مرآة على سطح النهر الأسود المنبسط. ومشت سلسلة من الانفجارات عبر المجمعات الحكومية مع تساقط صواريخ كروز لتضرب أهدافها.

وتقلت عبر القنوات الفضائية، مستمعاً إلى التعليقات الهائجة للمراسلين.

"... لا يصدق. إن العصفات تهز جدران الفندق..."

"... نوع مختلف من الانفجار الآن... أكبر، وأعلى..."

"... الجزيرة تروي أن (كل بغداد تحترق)" أعلن ذلك مراسل بريطاني منقطع الأنفاس.

وروى جون أبي زيد، الذي كان يتكلم العربية قريباً من الطلاقة، وكان يشاهد تغطية الجزيرة: "إنهم يقولون إن السنة اللهب تلتهم كل العاصمة."

وأقسم جيم ويلكنسون بالقول: "...أهمهم"، وهذا تعليق قوي من شاب مسيحي طيب من شرق تكساس.

وهز جين رينيوارت رأسه، وقال وهو يشير إلى الشاشة: "ذلك هراء...، يا جنرال. الأضواء ما تزال مشتعلة. لقد أصبنا نقاط تسديدنا بالضبط. ذلك هو ما يحترق."

عندما كنا نراقب صواريخ كروز تضرب أهدافها بدقة لا تكاد تصدق، بقيت الشوارع العريضة والطرق في بغداد مضيئة بأضواء الشوارع ميلاً بعد ميل. وزارة الدفاع والمباني المختارة من مجمع قصر العباسيين اختفت في كرات من النار، ولكن النوافذ في مباني الشقق المجاورة بقيت مضاءة. وفي الشوارع على طول النهر، كانت

إشارات المرور تومض بالأخضر، والأصفر، والأحمر، مثلما كانت تومض في أي يوم آخر.

لقد قررت أن أترك شبكة الطاقة الكهربائية من دون المس بها بعد مناقشات مع الوزير رامسفيلد ومع الرئيس. وكان للقرار معنى، عملياتياً وإستراتيجياً. وكان الرئيس قد قال لي في شباط/فبراير: "إذا كان علينا أن نذهب إلى الحرب، يا تومي، فلسنا ذاهبين لتدمير العراق. نحن ذاهبون لتحرير البلد من نظام صدام حسين."

وهكذا ففي بناء مجموعات أهدافنا استبعدنا معامل الطاقة، ومحطات المحولات، والأبراج المعدنية وخطوط نقل الطاقة. وهذا سيسمح لبعض الوحدات العراقية العسكرية أن تعمل على نحو أكثر فاعلية، ولكن أهمية المحافظة على البنية التحتية رجحت في وزنها على أي ضرر تعبوي أني. إن كل مركز من الحرس الجمهوري أو مركز قيادة لمنظمة الأمن الخاصة، و"العقد الحيوية" في نظام الدفاع الجوي المتكامل، كان يملك مولداته الكهربائية الخاصة، وهكذا، فإن قصف شبكة الطاقة لن يؤثر على هذه الوحدات. ولكن قطع الطاقة عبر العراق سوف يكون له أثر على أكثر من مائة مستشفى، وخصوصاً في الشمال الكردي والجنوب الشيعي، حيث كان النظام بخيلاً في الإمداد بمولدات المساندة للمؤسسات غير العسكرية.

أحد نتائج هذا القرار كان هو المنظر الذي رأيناه هذه الليلة على شاشات التلفزة: مشهد أضواء المرور تومض وأضواء الشوارع تلمع على طريق عريض، فارغ، عندما انهار مبنى مقر الحرس الجمهوري المكون من طوابق متعددة ليتحول إلى كوم الحطام الذي يتصاعد منه الدخان.

وقال رينيوارت: "مقر القيادة الدولية لحزب البعث... على وشك... الآن." وانفجر مبنى متعدد الطوابق من الزجاج والإسمنت المسلح يقع على الضفة الغربية وانهار تحت وطأة أربعة انفجارات متتالية.

... والقصر الرئاسي الجديد." وموجة متسلسلة أخرى من كرات النار التي انعكس توهجها في نهر دجلة. وارتجل مراسل تلفزيوني بشكل مؤثر: "هذا صدمة. وإن مجرد القوة في هذا القصف مرعب."

ومرة أخرى كانت السماء فوق بغداد شبكة من الطلقات الخطاطة اللامعة الحلقية المضادة للطيران والذيل الدخاني من حين لآخر لصاروخ اس ايه-2 او اس ايه-6.

قد تكون صواريخ السطح الجو هذه جعلت قادة النظام يشعرون بالارتياح، ولكنها لا تشكل غير تهديد ضئيل لطيراننا القاصف الذي يقوم بالقصف متلاحقاً فوق بغداد من جهاتها الأربع. كان العراقيون يطلقون صواريخهم سام غير موجهة، "قذيفاً" لأنهم إذا فعلوا واحداً من راداراتهم لتوجيه النيران، فإن الانفاثات من نوع وايلد ويزل (ابن عرس البري) التي كانت تدور حول منطقة اشتباك الصواريخ الخاصة بالمدينة سوف تطلق صواريخ هارم فوق الصوتية التي تستقر في الموقع وتدمره مع من فيه من سدنته.

بعد ست وأربعين دقيقة من هجمات صواريخ كروز التي رأت أكثر من 300 صاروخ توماهوك للهجوم الأرضي وصواريخ كروز المنطلقة تقليدياً من الجو وهي تضرب بغداد والأهداف الموجودة في الضواحي المحيطة، وصلت فوقها الموجهة الأولى من الطيران. وقاد القصف طائرات اف-117 المنطلقة من قاعدة العديد وقاذفات ستيلث ب-2 التي كانت قد طارت من قاعدة وايتمان للقوات الجوية في ميسوري. وكان الطيران غير مرئي من الرادار، ولذلك عمل مباشرة فوق الطلقات الخطاطة المنطلقة من المضادات العراقية للطيران، وذلك قبل مدة طويلة من ارتفاع القمر المتضائل فوق جبال إيران الواقعة إلى الشرق.

انفجر المزيد من منشآت النظام الواقعة على طول نهر دجلة المتلوي عندما وجدت ذخائر الهجوم المباشر المشتركة المنطلقة من طائرات ستيلث أهدافها. وقال جين: "وهناك انفجر مقر المخابرات، لقد فقدت إدارة الاستخبارات الآن قيادتها وسيطرتها."

شاهدت الصورة الجوية عندما قامت رزم مساندة للإخماد الجوي من طائرات اف-15 بإخلاء منطقة الاشتباك الصاروخي في بغداد. كانت تتسحب مؤقتاً، تاركة السماء لطائرات اف-117 وبّي-2. ولم تكن هذه الطائرات تبث ولا حتى بيانات تعريف مرمّزة. ولذلك فنحن لم نكن نملك أي طريقة لنقل تقدمها على الخريطة غير تغطية التلفزة للانفجارات على الأهداف المختارة بدقة، أي، مراكز قيادة الطوارئ للاستخبارات العسكرية العراقية، والفيل الفاخرة لكبار القادة البعثيين، ولوحة شطرنجية من محطات الاتصالات التي يعتمد عليها الدفاع الجوي العراقي لتكامل نيرانه. وبعد هذه الليلة، سيكون نظام الدفاع الجوي المتكامل العراقي قد انخفض إلى بضعة مدافع مضادة للطيران تطلق نيرانها من خلال "مسددة معدنية". وحرك جين إلى الأسفل عدة صفحات من محتويات شاشة الحاسوب ودقق في الساعة الرقمية الموجودة على جدار غرفة الحرب وقال: "أهداف خاصة تقترب، يا جنرال".

ومن دون أن تكون معروفة لا للعراقيين ولا لمراسلي التلفزة الدوليين في شرفات فندقهم، فإن طائرتنا من نوع ستيلث كانت تلقي قنابل موجهة بالنظام العالمي لتحديد المواقع على نقاط أهداف معينة "عالية القيمة". والعديد من هذه القنابل كان مجهزاً بصمامة لينفجر بعد بضعة أجزاء من ألف من الثانية من اختراقه هيكل المبنى لتخفيض ضرر العصف على المباني المدنية المحيطة. وكان التوجيه لهذه الذخائر دقيقاً إلى درجة أن مثل هذه القنبلة، التي تسقط من ارتفاع ستة وعشرين ألف قدم، لها "خطأ دائري محتمل" يصل إلى أقل من مترين، أي حوالي ستة أقدام. كانت أهداف هذه القنابل هي مكاتب وبيوت كبار قادة البعث وضباط منظمة الأمن الخاصة والحرس الجمهوري الخاص. فقد كانت اعتراضات الاتصالات ومعلومات مصادر استخباراتنا البشرية الضعيفة قد أشارت إلى أن هؤلاء القادة كان يحتمل أن ينتظروا الهجمات الجوية الكثيفة للتحالف في بيوتهم، التي كانت منتشرة بشكل واسع في كل حي المنصور الغني. ولم يكن مستيقناً إن كانت هذه المعلومات

الاستخباراتية صحيحة. ولكن تدمير هذه الأهداف بأسلحة تسقط من سماء الليل السوداء سيجعل هؤلاء القادة الرئيسيين عصبين، وكلما صاروا أكثر عصبية، صاروا أقل فاعلية في السيطرة على القوات العسكرية العراقية.

لقد عمل رجالنا الجويون كل شيء ممكن للحد من إصابات المدنيين. وفي العديد من الحالات، قصفنا مباني النظام والمباني العسكرية في الليل عندما كنا نعرف أن المباني لم تكن مشغولة. وفي بعض المناسبات أسقطنا مناشير فعلاً نحذر الناس فيها ليتجنبوا مباني معينة. وكان لهذا فائدة مضاعفة: إنها خفضت الإصابات بشكل كبير، بينما في الوقت نفسه مزقت المحاولة الأولى للنظام لاتخاذ موقف "العمل كالمعتاد" نحو عملياتنا الجوية. فاستخدام التهديد الدقيق وأساليب القصف الحذرة للغاية، مقرونة مع "التسليح" المحافظ إلى أكبر حد، أي، اختيار الذخيرة، سمح لنا باستئصال جهاز القيادة والسيطرة التي كانت للنظام من دون التسبب بإصابات غير ضرورية للمدنيين. ومرة أخرى، فإن عنصر الخوف المنتشر بين هؤلاء من السفاحين البعثيين الذين كانوا مسؤولين عن مجازر العديدين جداً من آلاف الناس الأبرياء، سوف يكون على درجة الأهمية نفسها تماماً مثل الأهداف الفعلية التي دمرناها.

وتغيرت الصورة الجوية مرة أخرى. كانت الأيقونات الآن تتدفق نحو سلسلتي جبال وواد شديد الانحدار في العراق البعيد في الشمال الشرقي، على الحدود مع إيران تماماً. كانت هذه هي معسكرات أنصار الإسلام الإرهابيين، وفيها كان قائد القاعدة أبو مصعب الزرقاوي قد درب أتباعه على استخدام الأسلحة الكيماوية والحيوية. ولكن هذه الضربة كانت أكثر من مجرد تحطيم آخر تحدثه صواريخ توماهوك للهجوم الأرضي. فبعدها مباشرة ستقوم قوات خاصة ورجال وحدات المهام الخاصة، وهم يقودون مقاتلي البشمركة الأكراد بالانقضاض على المعسكرات وجمع الأدلة، وأخذ أسرى، وقتل كل الذين يقاومون.

كنت قد أخبرت دون رامسفيلد، في أثناء عملية الحرية الدائمة، بأنني لم أكن

أنوي أن أمضي الكثير من الوقت أمام التلفزة: أعرض انتصارات التحالف وأروي صور فيديو للقنابل الذكية. وهذا الأمر كان مضاعفاً بالنسبة إلى عملية حرية العراق. وكانت الأيام الأولى من العملية ستقدم فرصاً غير مسبوقة للتفاخر بترسانة التحالف من التقانة العالية. ولكنني كنت أعرف العالم العربي الإسلامي معرفة كافية جداً الآن لأدرك أن مثل هذا الموقف المتعالي سوف ينظر إليه، من وسائل الإعلام العربية ومن الشارع العربي، على أنه تتمرّ على المنطقة كلها.

واعتقدت كذلك أن المرحلة الرابعة، وهي مرحلة إعادة الإعمار، ستدوم لأشهر إن لم تكن لسنوات أطول من الزمن الذي استغرقه تدمير تشكيلات كبيرة، متماسكة للعدو. كنت أود أن أكون مستجيباً لوسائل الإعلام، ولكنني كنت أنوي أن أنظم خطواتي للمسافة الطويلة.

وقد استسلمت فعلاً للي الذراع الموجه لي من جيم ويلكنسون في 22 آذار/مارس، عندما وافقت على أن أتحدث إلى ألف ومائة مراسل اجتمعوا في مركز الصحافة في معسكر السيلية.

وعندما خطوت إلى المسرح المستقبلي للإيجاز، كان يرافقتني عدد من زملائي الضباط من التحالف، من البريطانيين، والأستراليين، والقوة العسكرية الأوروبية. وافتتحت الكلام بملاحظة القول إن صلواتنا "تذهب إلى عائلات أولئك الذين قاموا حتى الآن بتقديم التضحية القصوى".

وبعد إعادة بيان غايات التحالف في عملية حرية العراق، وهي إنهاء دكتاتورية صدام حسين ونزع سلاح نظامه القاسي، وصفت طبيعة القتال.

وقلت: "إن هذه الحملة ستكون حملة لا كغيرها من أي حملات أخرى في التاريخ. إنها حملة تتميز بالصدمة، وبالمفاجأة، وبالمرونة، وباستخدام الذخائر الدقيقة وفق معدل لم يسبق أن شوهد من قبل. وباستخدام القوة الكاسحة..."

"وتُقدّم خطتنا هذه القوات عبر عرض العراق وعمقه، وفي بعض الحالات بشكل متزامن وفي بعض الحالات بشكل متتابع."

شرحت تتابع عمليات القتال، بدءاً من يوم ي، يوم بدء القتال، إلى يوم جي، يوم بدء المرحلة الأرضية، إلى اليوم إيه، يوم بدء العمليات الجوية الكبيرة، وأضفت أننا سوف نتابع ضرب الأهداف التي تظهر في الوقت الذي نصل فيه وصلاً قريباً العمليات الأرضية بالعمليات الجوية.

وفي أثناء فترة السؤال والجواب التي تلت، سألتني مراسل من محطة راديو واشنطن دي. سي: "ما هي أكبر مفاجأة واجهتها حتى الآن.

وقلت: "فعلاً، عندما استيقظت هذا الصباح ونظرت إلى حاسوبي وأدركت أن زوجتي قد أرسلت لي بطاقة "ذكرى سعيدة" ... نسيت أن أرسل لها بطاقة."

استقبلت تلك المفاجأة بالضحك حتى من ممثلي الجزيرة العابسين، الذين كانوا يجلسون في مجموعة مع زملائهم العرب. طبعاً، كنت فعلاً قد رتبت تقديم الورد إلى كاثيري في بيتنا في تامبا. ولكنني كنت تعلمت مع السنين أن من المفيد أحياناً أن تعمل من خلف واجهة تنتقد فيها ذاتك.

"هل تستطيع أن تعطيني منظرًا أثبت لتلك الصورة؟" كان هذا جيف كيمونز يطلب من مشغل بريدتر القوات الجوية في مركز العمليات الجوية المشتركة في المملكة العربية السعودية.

كانت الساعة تشير إلى 0710 من يوم الأحد، 23 آذار/مارس.

وكنا، جون أبي زيد والعديد من مديري الأركان وأنا، نشاهد صور فيديو مرسلة من مركبة جوية من دون طيار تطير على ارتفاع ستة آلاف قدم فوق السماوة، وهي مدينة على نهر الفرات تقع على بعد ما يقارب مائة كيلو متر غرب مدينة الناصرية.

وقال جيف كيمونز: "هذا أمر شاذ جداً، يا جنرال."

وأضاف جين: "يبدو أن طائرة عمودية بلاك هوك سقطت."

وأظهرت التغذية الراجعة من البريدتر خمس شاحنات صغيرة مغمرة ببيضاء

تويوتا، وعلى ظهر كل واحدة منها رشاش ثقيل، وهي مزدحمة برجال بملابسهم المدنية مسلحين ببنادق كلاشينكوف وبقاذفات ار بي جي، وهي تسرع متجهة جنوباً من خلال دروب محفرة نحو الطريق العام الذي يتحلق حول الضواحي الجنوبية من السماوة. وقفزت دراجة نارية لها عربة جانبية تحمل ما ظهر وكأنه بندقية عديمة الارتداد عيار 75 ملم، خارجة من مجمع مبان مسور بجدار والتحقت بالقوة المهاجمة.

أمامهم على الطريق العام، كان هناك رتل من دبابات أبرامز وبرادلي من الزمرة الأولى من القتال من مستوى لواء من فرقة المشاة الثالثة، وكان يتحرك بثبات غرباً، وكل عربة مجنزرة تسير على مسافة فاصلة مناسبة لتعطي رماة المدافع أقصى قوس لنيران حماية الجانبين. كم مرة سافرت أنا في مجنزرة ارتباط للمدفعية في قوافل مشابهة، ورايتي، راية كرات من أجل الملكة، معلقة ترفرف في النسيمات البليلة؟

وتابعت الشاحنات الصغيرة مسيرها تشق طريقها عبر الدروب، مقتربة من رتلنا المدرع.

وكان سكوت والاس، قائد الفيلق الخامس، يعمل على الاستيلاء على جسور الطرق العامة الحيوية على نهر الفرات، وهي كلها كانت تقريباً قرب المدن، ويحاول في الوقت نفسه عزل وتخطي المناطق الحضرية في السباق نحو الشمال الغربي إلى بغداد. ولكن ثبت، على كل حال، أن هذا كان صعباً في السماوة وفي الناصرية.

وفي كلتا هاتين المدينتين الصغيرتين، كانت قوات التحالف في دبابات، وناقلات جند مدرعة، وطائرات عمودية مسلحة، قد سحقت المقاومة الأولية التي أبدتها وحدات الجيش النظامي. بعض الجنود العراقيين قاتلوا، وآخرون استسلموا، وعديدون هربوا. أما الآن فإن عدواً مختلفاً قد ظهر من دخان أرض المعركة، إنه عدو لم نكن قد توقعنا أن يقاتلنا على هذا البعد في الجنوب.

بين عشية وضحاها، قامت إدارة جيف ضابط ركن الاستخبارات بتحليل سريع ولكنه كامل لهذا التهديد، الذي كان قد ظهر في اليوم الفائت في الناصرية وفي

طرق الاقتراب إلى البصرة. وقد لخص عمل ورشة الاستخبارات ما كنا قد تعلمناه عن القوات غير النظامية التي كانت تعمل في وطن الشيعة من الجنوب. وكانوا يعرفون في مجموعتهم باسم الفدائيين، وهؤلاء المقاتلون غير التقليديين اشتملوا على فدائيي صدام، "شهداء صدام"، وهم مجموعة سيئة التدريب ولكنها من الموالين المتعصبين للنظام، وفدائيي القدس، وهم ميليشيا البعث المحلية يقودها قادة الحزب وأعضاء ميليشيا حزب البعث القومي، وعلى متطوعين يعرفون باسم "أسود صدام" وهم مجموعة من أبناء السنة في عمر الثمانية عشر عاماً أو أقل كانوا قد تلقوا تدريباً عسكرياً أساسياً.

وسألت: "ما هو إجمالي قوتهم، يا جيف؟"

فقال: "حسناً، يا جنرال، مثلما تقول أنت في الغالب (ذلك سؤال ممتاز. وأنا أتمنى لو كنت أمتلك له جواباً ممتازاً.) نحن نعمل في الأرقام."

وناولنا نسخاً من آخر التقديرات. وفي تخطيطنا العملياتي الأخير، توقعنا أنه قد يكون هنا ما يناهز أربعين ألفاً من هؤلاء المجندين غير النظاميين من نوع الفدائيين ليقاتلوا حرباً في المناطق الحضرية في بغداد. ولكن لم يسبق لي عند أي نقطة أن فكرت في أن هذه القوات كانت ستنتقل إلى الجنوب لتقاتل قتال عصابات.

إن فقداننا للاستخبارات البشرية الموثوقة هو الذي أعطانا هذه المفاجأة الكريهة: فنحن لم نتلق أي إنذار عن أن صدام كان قد أرسل هذه القوات شبه العسكرية من بغداد. وكان محللونا قد رأوا صوراً استطلاعية لشاحنات صغيرة وأحواض التحميل فيها مغطاة بنسيج الكتان، ولحافلات مدنية محملة بركاب ينتقلون جنوباً، ولكن هذا لم يثر أي اهتمام. وأخذ هذا المرور بوصفه تجارة عادية.

وأول إشارات حصلنا عليها عن وجود المقاتلين غير النظاميين في هذه المدن الجنوبية جاءت من رجال وحدات المهام الخاصة الذين أدخلناهم إلى داخل المدن، ابتداء من يوم ي، يوم بدء العملية.

وفي المساء السابق كشفت مجموعة من المجندين الشيعة المستسلمين أن أسلحة الفدائيين المفضلة كانت الشاحنات الصغيرة المسلحة، مثل الشاحنات المندفعة بسرعة نحو قافلتنا الآن مباشرة. وهم سموها "الفنية" واستخدموا بذلك الكلمة الإنجليزية التي سبق أن استخدمها أمراء الحرب الصوماليون في مطالع التسعينيات من 1990 لوصف شاحنات الرشاشات المرتجلة التي سيطرت على شوارع مقديشو.

وعلى كل حال، كان هناك فرق كبير بين النزاع في الصومال وبين عملية حرية العراق. كان الفنيون يستطيعون إيذاء قافلة من عربات همفي والشاحنات غير المدرعة "رقيقة الهيكل". ولكن الشاحنة الصغيرة المفتوحة التي تركب عليها رشاشاً من عيار 7.12 ملم تكون فعالة تقريباً مثل فعالية دبابة الخيل التي تعض الفرس عندما تهاجم دبابة ام-1 أو عربة برادلي.

وقال جيف: "نحن الآن نقدر وجود ألفين إلى أربعة آلاف من الفدائيين في الناصرية والسماوة. وتزداد أعدادهم كلما اتجهت شمالاً. وهناك على ما يحتمل ما يصل إلى أربعين ألفاً من هؤلاء المقاتلين شبه العسكريين في المدن الواقعة على طول الطريق العام رقم 8، ومن جملتها النجف".

وقلت وأنا أنقرس في تقرير جيف: "ابن الك.... العدو يحصل فعلاً على صوت".

وقال جين: "إن سكوت والاس يؤكد أن غير النظاميين غير فاعلين ضد الدروع، سيدي. ولكنهم سوف يشكلون مشكلة لشاحنات القوافل على طول خطوط مواصلاتنا".

وكان ديفيد ماككيرنان وسكوت والاس قد احتاطا من أجل أمن الطريق، وذلك باستخدام المشاة الخفيفة من الفرقة 82 المنقولة جواً لحماية شاحناتنا. ولكن ذلك سيستغرق وقتاً للحصول على أولئك الجند في المكان المطلوب.

شاهدنا عرض طائرة البريديتر عندما كانت الشاحنات الصغيرة تقترب من الشارع العام رقم 8 عند طرف المدينة. وقال جين: "من المؤكد أن هؤلاء الرجال سيحصلون على مفاجأة، يا جنرال."

وعندما انفصلت أول شاحنات فنية عن البيوت الطينية متحررة منها ومواجهة الطريق العام، أدارت دبابات أبرامز وبرادلي أبراجها لتستهدف الشاحنات. ولم نستطع أن نسمع عصف نيران المدافع، ولكننا رأينا أول شاحنة صغيرة تترنح وتهتز تحت وطأة طلقات رشاش عيار 0.50. وكان المقاتلون الموتى ملقون على جانبي الشاحنة، ولكن الرجل الموجود على رشاش الشاحنة الفنية استمر في إطلاق النار. وقام واحد ممن بقوا أحياء بجانبه في حوض التحميل من الشاحنة بإطلاق ربي جي، ولكن العصف الخلفي المنطلق من أنبوب الصاروخ أشعل النار برجل مجروح سقط إلى القرب من الباب الخلفي. والرأس الحربي من ار بي جي لم يطر بعيداً بما فيه الكفاية ليسلح نفسه قبل أن ينط من دون إحداث أي أذى عن الدرع السميك لإحدى دباباتنا من نوع أبرامز.

وعندما فتحت برادلي النار من مدفعها السلسلة من عيار 25 ملم، اختفت الشاحنة الفنية هي ومن فيها من السدنة في غيمة من القطع المدخنة.

ومع ذلك كان العدو يهاجم. ففي منتصف الطريق من طول الرتل، حاولت شاحنة فنية أخرى ونجحت في الاصطدام ببرادلي. وتسلى خمسة مقاتلين أعداء على هيكل برادلي وأطلقوا النار من بنادق الاقتحام التي معهم على كتل المراقبة الزجاجية المدرعة الموجودة في فتحات مغلقة بأزرار. وقام الخيال القائد لبرادلي بإدارة برجه فأوقع اثنين من الأعداء بسبطانة مدفع السلسلة. وبعدئذ استدارت برادلي بشدة لليمين، وقامت الدبابة التي تمشي خلفها باكتساح الهيكل بطلقات من عيار 7.62 ملم أطلقتها من رشاشها الخارجي الذي يعمل من بعد، رشاشها "متحد المحور".

وعلى الرغم من المجزرة الأحادية الجانب استمرت الشاحنات الفنية بالمجيء، والإسراع نحو الرتل المدرع عبر الطين الجاف على جانبي الطريق. وتم تدمير اثنتين من الشاحنات الثلاث الصغيرة المتبقية قبل أن تصلا إلى الطريق العام. وآخر شاحنة اصطدمت مع دبابة أبرامز، وقفز الفدائيون الذين بقوا أحياء على الدبابة. ولكن مرة أخرى قتلت العربات المدرعة الأخرى الأعداء بنيران الرشاشات. وسقطت جثث الفدائيين على الطريق، وفي المسار على طول خط تقدم الدروع.

لقد انتهى الكمين في أقل من عشر دقائق. والدبابات وعربات برادلي من الزمرة الأولى، زمرة القتال من مستوى لواء، قلما غيرت خطوتها الواسعة.

طوال الساعات الأربع والعشرين الشديدة التالية، تتبع اختصاصيو جيف كيمونز بالاستطلاع وفريق عمليات جين رينيوارت تحركات الفدائيين، واستخدموا التصوير الفوقى من مركبات جوية من دون طيار ومن طيران مأهول. وكانت قواتنا الأرضية والطائرات العمودية الهجومية تشتبك مع غير النظاميين وتصددهم عائدين إلى المدن.

وفي الحال ظهر لنا نمط: سيقوم الفدائيون بمهاجمة قوافلنا، ثم يقوم من بقي حياً من الأعداء بالتجمع في المدن داخل مجمعات مسورة بالجدران، وهي عادة تحيط بمبان حديثة من طابقين. وكشفت صور الأقمار التي أخذت للبصرة، وللسماوة، وللناصرية أن هذه المجمعات كانت إما مقرات لحزب البعث المحلي أو مكاتب مصلحة الاستخبارات، أي، المخابرات.

أحضر لي جين وجيف الصور وتقارير المحللين في خلية الدمج. وقال جيف كيمونز وهو يدرس صورة استطلاع للسماوة: "إنهم يجتمعون في هذه المواقع".

وقال جين: "في كل مرة، سيدي"

وقلت: "اتصل مع بز موسلي. ومرر إلى جماعته إحداثيات هذه الأهداف حسب النظام العالمي لتحديد المواقع. ذخيرة دقيقة التوجيه فقط. واضربوهم عندما تكون تجمعاتهم أكثر ما تكون".

وقام رجال الجو، رجال بز موسلي بقتل الفدائيين فعلا، نهاراً وليلاً. ولم يتعلم العدو أبداً. وفي الأيام التالية، عندما كانت الفرقة البريطانية المدرعة الأولى، وأفواج قوة حملة مشاة البحرية الأولى، وألوية الفرقة المدرعة الثالثة تدخل مدينة بعد مدينة كانوا سيجدون مكاتب حزب البعث ومكاتب المخابرات وقد تحولت إلى أكوام من الإسمنت المسلح، مختلطة مع هياكل السيارات الفنية المحترقة.

ولكن الفدائيين استمروا في القتال بشراسة، يهاجمون وهم يخرجون من ملاجئ المدن على طول الأنهار، ويطلقون النار بضراوة على أرتالنا المدرعة. وكان العسكر ومشاة البحرية يحصدونهم بالمدافع، والرشاشات، والبنادق، وحتى بالمسدسات. وقامت، في الغالب، الطائرات العمودية المسلحة، بتدمير السيارات الفنية قبل أن تصل إلى قوات التحالف المتحركة على مسالك التقدم.

وصارت أساليب العدو التعبوية أكثر بعداً حتى عن المألوف وأكثر وحشية. بعضهم كان يتقدم وهو يرفع الأعلام البيضاء، وكأنهم كانوا جنودا عراقيين نظاميين يستسلمون. وعندما يصلون إلى القرب من قوات التحالف، كانت الأعلام البيضاء تسقط ويفتح هؤلاء المقاتلون شبه العسكريين النار. وفشلت هجماتهم، وبقيت جثث قتلى العدو ملقاة مبعثرة على طول الطرق.

ولجأ الفدائيون أيضاً إلى حشد النساء والأطفال أمام شاحناتهم الفنية المتقدمة ليكونوا دروعاً بشرية. وعلى الرغم من أن قواتنا كانت قريبة من الإنهاك من الأيام الطويلة من القتال، فقد بذلوا كل جهد ممكن لاختيار أهدافهم بأدق شكل ممكن، وذلك باستخدام المناظير الحرارية للتسديد على التوقيع الأكثر حرارة وهو توقيع الشاحنات الفنية. ومع ذلك، فبعض هؤلاء المدنيين قتلوا وجرحوا ووقعوا ضحايا بشكل قاس على أيدي أبناء بلدهم.

واستغرقت قوات التحالف الأرضية والجوية عدة أيام لتتكيف مع كل الأساليب التعبوية للفدائيين. ولكننا تكيفنا معها فعلاً.

وعلى نحو متباطئ، انخفضت شدة الهجمات. وعندما كانت في انخفاض، كنت أفكر في تعصب هؤلاء المقاتلين، وفقدانهم للقيادة الفعالة. فعلى الرغم من الإصابات التي تسببوا بها بين قواتنا والدروع البشرية، والانقطاع المؤقت في مسالك إمدادنا، فقد أدركت أن الاشتباك مع هذا العدو المتعصب وقتله على طول الطرق العامة الجنوبية كان أفضل لنا من مقاتلة أربعين ألفاً منهم في شوارع بغداد.

وحرسنا أساليبنا التعبوية لطريقة معالجتنا للفدائيين باعتبارها سرّاً عملياتياً. ولم يبق جيم ويلكنسون وفينس بروكس بتقديم أي إيجاز للصحافة.

وأما المراسلون الملحقون الثابتون في الوحدات الذين يغطون الحرب فهم لم يكونوا يمتلكون متبوع القوة الزرقاء ليساعدهم على فهم النجاح العريض لجندنا واستيعابه. ولم يكونوا قادرين على مشاهدة التقدم المستمر للتحالف، مع وجود وحدات تسرع قدماً إلى أهدافها وتعبر خطوط المراحل قبل أيام من جدول خطتها.

واشكى جيم ويلكنسون في أحد الأيام وقال: "بالمسيح، يا جنرال، إن الجمهور سيظن أننا لا حول لنا في مواجهة هجمات هؤلاء الفدائيين. ألا نستطيع أن نعرض للجمهور بعض صور الفيديو لذخائر الهجوم المباشر المشتركة وهي تدمر مقرات البعث في مدينتين من هذه المدن."

وأجبت: "نحن نستطيع أن نفعل ذلك، يا جيم. ولكننا لن نفعل." وبدأ جيم وكأنه الطفل الذي لم يحصل على الدراجة الجديدة التي كان قد وُعد بها في عيد الميلاد. ربما كان جيم ويلكنسون هو أفضل مدير علاقات عامة سبق لي أن رأيته. فهو خبير في إبقاء وسائل الإعلام مطلعة من دون تمريض الأمن العملياتي للخطر. وكنت أعرف إلى أي حد قد بدأ عمله يصير محبطاً: فنحن كنا نكسب الحرب، ولكنه لا يكاد يستطيع أن يقول أي شيء عن ذلك.

وتابعت الكلام معه: "سأقول لك لماذا يكون ذلك فكرة سيئة. فأولاً، نحن لا نريد أن نكشف مصادر أساليبنا التعبوية." وهنا أومأ جيم برأسه إشارة إلى قبوله لهذا المنطق.

ثم قلت: "وثانياً، فأنت وفينس عرضتما، في هذين اليومين الأولين، بعض صور الفيديو للذخائر دقيقة التوجيه وهي تضرب نقاط التسديد، وكان ذلك هو العمل الصحيح الذي نفعله. ولكن تلفزيون الجزيرة وتلفزيون العربية سوف يأكلاننا أحياء في الشارع العربي إذا فعلنا ذلك في كل يوم، وإذا غدينا وسائل الإعلام بوجبة منتظمة من وحدات القنابل الموجهة وذخائر الهجوم الأرضي المشتركة وهي تتسف الدبابات وتقتل العراقيين. العدو يعرف أننا نرفضه في دبره. وفي خلال أسبوع أو ما يقاربه، سيعرف العالم كله ذلك."

كان جيم ويلكنسون يحاول بصعوبة أن يكون صبوراً وقال: "فهمتها، يا جنرال." بعد أن خطفت طاساً من الحساء مع الفلفل باللحم على طاولتي، كنت قد بدأت من فوري إيجاز القائد من أجل المؤتمر بالاتصال من بعد المصور بالفيديو المبرمج بعد الغداء مع الوزير رامسفيلد عندما رن هاتف المفتاح الأحمر. كان المتكلم ديفيد ماككيرنان.

وسألته: "ما الأخبار، يا أخي؟"

وقال: "لدي موقف تعبوي للتبليغ عنه، سيدي"

"استمر."

وتابع: "يا جنرال، لدينا عدة جنود قتلى في المعركة وعلى الأقل اثنا عشر مفقوداً في المعركة من وحدة مساندة الفيلق الخامس التي وقعت في الكمين هذا الصباح في الناصرية."

قتلى في المعركة، ومفقودون في المعركة. أخبار سيئة.

حدقت في الخريطة.

الناصرية، منذ أن وصلها مشاة البحرية في اليوم ي + 3، اليوم الثالث بعد بدء الأعمال الحربية، فإنهم قد وقعوا في مفرمة لحمة من كمائن الفدائيين عندما حاولت زمرة القتال من مستوى لواء أن تقوي رؤوس جسورها. ودققت في متبع القوة الزرقاء، وماذا كانت وحدة الجيش تعمل هناك؟

وقلت: "فهمت، يا ديفيد. وما هي التفاصيل؟"

قال: "ما تزال غير مكتملة، سيدي. وها هو الذي تأكدنا منه. كانت هذه الوحدة 507، وهي سرية صيانة لكتيبة باتريوت تسيّر قافلة شاحنات على طول طريق الإمداد الرئيسي. في وقت ما حوالي الساعة 0700، أخطأت السيارة همفي القائدة موقعاً ثابتاً محدداً بالنظام العالمي لتحديد الموقع. وبذلك فإن الشاحنات وعربات الهمفي انسأقت خلفها مباشرة إلى داخل الناصرية. ووقعوا في كمين داخل المدينة." "ما مدى السوء، يا ديفيد؟"

"لقد قام مشاة البحرية الموجودون على أحد الجسور بإنقاذ بعض من بقي حياً. وهؤلاء الخيالة قالوا إنهم فقدوا معظم عناصرهم، قتلوا في المعركة أو مأسورين. ونحن نقدر على الأقل أن عشرة قتلوا في المعركة، وأن اثني عشر فقدوا في المعركة. والذين بقوا على قيد الحياة يصفون القوات التي واجهتهم بأنها قوات مختلطة من الفدائيين ومن بعض النظاميين. بل إنهم وقعوا على دبابة مختبئة في ما ظهر لهم وكأنه ساحة مدرسة.

وهززت رأسي. تقرير آخر حتى الآن عن وضع العراقيين للأسلحة في المدارس والمساجد.

وقلت: "شكراً يا ديفيد. اطلبني عندما يكون لديك المزيد من التفاصيل."

وقلت لفان موني: اطلب لي ديل دبلي والوكالة. عندنا بعض الأبناء مأسورون في الناصرية، وإنقاذ الرهائن هو مهمة الخطة العملياتية للخدمة المشتركة ولوكالة الاستخبارات المركزية.

جواسيس الوكالة في جنوب العراق كانوا مصدراً ضئيلاً، ولكننا كنا نمتلك العديد من الزمر من قوات العمليات الخاصة وضباط القوة الأرضية للوكالة في المنطقة. وقلت: "انشر الخبر. نحن نريد أولئك الخيالة أن يرجعوا بأسرع وقت ممكن." كان هذا تحولاً سيئاً للحوادث، وكنت أعرف أن وسائل الإعلام ستهاجم

بشدة. وقلت لجيم ويلكنسون: "تريث هنا. سيكون علينا أن نحضر بعض النقاط للحديث مع وسائل الإعلام."

لم يكن لدي أي فكرة عن مدى السرعة أو مدى السلبية التي ستغطي فيها وسائل الإعلام الكمين وكيف ستكون نتيجة ذلك.

وعندما جاء جيم ويلكنسون إلى مكتبي بعد ذلك في ذاك الأصيل، بدا لي وكأن ابتسامته قد اختفت إلى الأبد. وقال: "لقد بثت الجزيرة قبل قليل شريطاً مصوراً لجنودنا من الكمين. سيدي." وضغط جيم بضعة أزرار من مفتاح تلفزيوني من بعد، وانفتحت إحدى الشاشات على دائرة مركز الصحافة الداخلي.

وفركت عيني وانحنيت إلى الأمام لأشاهد.

وقال جيم: "ليس حسناً، يا جنرال."

كان ذلك القول تلطيفاً. فشريط الصور غير الواضح أظهر صفّاً من الجنود الموتى في بزاتهم العسكرية الصحراوية المموهة الملطخة بالدم، وهم ملقون على الأرضية الإسمنتية لغرفة ليس فيها ما يميزها، ودارت آلة التصوير عبر وجوههم. وبدوا شباباً. والعديدون منهم أصيبوا بجروح بليغة في الجذع أو الأطراف، وهو ما ظهر أنه نتيجة لنيران بندقية قريبة المدى أو لشظية. وكان واضحاً أن اثنين منهم قد أطلقت عليهما النار في الرأس.

وتمتت: "تباً." إن شبكات الأخبار في الولايات المتحدة سوف تعرض هذا الشريط، وبعض عائلات هؤلاء الجنود سيرون أبناءهم موتى قبل أن يكون لدى الجيش وقت لإشعار هذه العائلات بذلك.

وقفزت الصورة إلى غرفة أخرى ذات جدران بيضاء مغبرة. ورأيت ركن طاولة. ربما كان مكتباً عسكرياً أو لمليشيا بعثية. ستة جنود، وكانت من بينهم شابة سوداء عرفت نفسها باسم "شوشانا"، جلست وهي مستندة إلى الجدار. عديدون من الجنود نطقوا باسمهم الأول فقط عندما كان المراسل العربي يقذف الميكروفون في وجوههم. واحد منهم أعطى اسمه الكامل، بيتر سي. ميللر، وذكر أنه من كانساس.

وفكرت، إنه شاب ماهر. فإن عائلته على الأقل سوف تعرف أنه كان حياً. وإعطاء اسمه للمراسل قد يعطيه بعض إجراء الحماية، ففي تلك النقطة، على الأقل، كان يمكن البرهنة أنه كان ما يزال حياً ومعافى.

حالما انتهيت مع جيم كنت سأتصل مع ديك مايرز وأتحدث مع الوزير. وباستثناء التخطيط لعملية إنقاذ مع ديل ديلي، فلن يكون لدي الكثير الذي أبلغ عنه. بعض جند الصيانة المتعبين، وهم في القتال لأول مرة، سلكوا منعطفاً خطأ ودخلوا في عش دبابير الفدائيين.

وقلت: "شكراً يا جيم."

الاتصال مع رامسفيلد كان قصيراً ومباشراً، ومن دون أي اتهام مضاد. وأبلغته: "إننا نقوم الآن بتطوير خطة عملية الخدمة المشتركة، سيدي الوزير. فإذا استطعنا أن نحدد الموقع، فسوف ندخل هناك ونسترجع أولئك الأبناء." "وماذا نستطيع أن نعمل لنساعد من هذا الطرف؟"

"لا شيء، سيدي الوزير. لقد فعلتم كل شيء عندما وضعتم خطة عملية الخدمة المشتركة ورجال المهام الخاصة من وكالة الاستخبارات المركزية تحت سيطرتنا. إننا نمتلك ما نحتاج إليه."

وقال رامسفيلد: "سنكون جاهزين للمساعدة، يا توم."

أخبرت فان موني أن يجهز في غرفة الحرب من أجل تقديم إيجاز عن العملية الكبيرة المنتظرة في تلك الليلة، وهي هجوم عميق ستقوم به الطائرات العمودية المسلحة بأباتشي من فوج الطائرات العمودية الهجومية الحادي عشر، وتطير من النقطة الجوية المتقدمة للتزود بالوقود في الصحراء المفتوحة جنوبي النجف.

وكانت مهمة فوج الطائرات العمودية الهجومية الحادي عشر هي تدمير المدفعية والدروع التابعة لفرقة المدينة من الحرس الجمهوري شمال فجوة كربلاء الضيقة. وكانت وحدات فرقة المدينة هذه هي أقوى قوة عراقية جاهزة تعترض بين الفيلق الخامس المتقدم وبين بغداد.

لقد راجعت الخطط المعدة لهذا الهجوم عدة مرات. وكانت عقيدة الجيش التي تطورت من مفاهيم معركة الجو الأرض في الثمانينيات من 1980 كانت تدعو إلى أن تقوم طائرات الأباتشي المسلحة بصواريخ هيلفير ومدافع آلية من عيار 30 ملم بالضرب عميقاً في داخل أرض العدو لتدمير التشكيلات المدرعة ومدفيعيتها المساندة.

وكانت مهمة هذه الليلة ضربة عميقة تقليدية.

والتحق مديرو الأركان الرئيسيون مع جون أبي زيد ومعي في غرفة الحرب لنستمع إلى أركان قيادة العنصر الأرضي للقوات المشتركة وهم يستعرضون تفاصيل المهمة، مثلما فعلوا تماماً في أثناء تدريباتنا وتطبيقاتنا التجريبية في شهر كانون الثاني/يناير.

وصنفت العملية عند مستوى خطر متوسط، ولكنها كانت تملك إمكانية العائد العالي إذا استطاعت الطائرات العمودية المسلحة أن تشل فرقة المدينة بضرية واحدة سريعة قوية فعالة.

عقيدة الضربة العميقة كانت تعتمد على الإخماد الكامل لدفاعات العدو الجوية، وهو أسلوب تعبوي آخر كان قد نضج من تخطيط معركة الجو الأرض. وكان ديف ماككيرنان وسكوت والاس قد عملاً بجهد لتحديد صواريخ الدفاع الجوي الثابتة والمتحركة ومواقع المضادات للطيران على طول مسالك تسلل فوج الطائرات العمودية الهجومية الحادي عشر. وستطير طائرات الأباتشي سريعة ومنخفضة لتقلل إلى أدنى حد تعرضها للنيران العراقية الأرضية.

وكان سكوت والاس راضياً عن الخطة، ومثله في الرضا كان ديفيد ماككيرنان. وبدأت لنا حزمة إخماد دفاعات العدو الجوية حزمة قوية: فمدفعية الفيلق سوف تطلق اثنين وثلاثين من نظام صواريخ الجيش التعبوية طويلة المدى، وكل صاروخ منها مسلح بـ 950 قنبلة، وسوف تشبع مواقع المضادات للطائرات التي

تم تحديدها . وكان لدى بز موسلي عدة طلعات من الطائرات النفائة الجاهزة لتضرب أي دفاعات جوية تظهر من جانب العدو .

وسألت "هل هناك أي قضايا نحتاج إلى أن نعرف عنها، يا ديفيد؟"

وقال ديفيد: "إن الفيلق يعمل لحل آخر المشكلات مع الوقود . وهم يقولون إنهم سيكونون جاهزين للذهاب برغم ما قد يبدو من عوائق."

وقلت: "حظاً سعيداً، لكم جميعاً . سوف نستعرض نتائج الضربة غداً في وقت مبكر."

ناولتُ كتاب مخطط العملية المصنّف السري إلى غرينش ليقفل عليه، ثم وقفت وتمطيت . وأخيراً كان دَيْنُ النوم المتراكم قد لحق بحملي من الكافئين . وقلت لفان موني: "أحتاج إلى ثلاث ساعات غير منقطعة من النوم . وأكثر إذا لم يكن هناك دوامة أخرى."

وعندما كنت أدقق في آخر فيض من الرسائل بالضبط قبل أن أنام، استُدِعي، مع ذلك، جين رينيوارت من غرفة الحرب . وعاد بعد بضع دقائق لاحقاً .

"إننا نتلقى تحديثاً عن حالة الطقس من مركز العمليات الجوية المشتركة، يا جنرال."

المزيد من الأخبار السيئة؟ كنت أتعجب، ومشغل الاتصال يضبط المؤتمر بالاتصال من بعد المصور بالفيديو مع خلية الأرصاد الجوية في مركز الطقس في قاعدة الأمير سلطان الجوية .

وقال رائد من القوات الجوية: "هذه هي الصورة الإجمالية، سيدي." وما تبع ذلك كان عشر دقائق من أشأم توقعات الطقس التي سبق لي أن جلست لأسمعها كلها .

منخفض جوي كبير كان يتعمق فوق دول البلقان . ونظام ضغط منخفض، وهو عاصفة، شديدة، وأشبه بإعصار صغير، امتدت لتغطس جنوباً إلى البحر الأبيض

المتوسط الشرقي- وتقف. ثم إن جبهة قوية باردة تقطع عرض المنطقة مثل منجل عملاق، وتجلب معها رياحاً عاصفة هوجاء من غرب الجنوب الغربي، وعواصف رملية... وهبوب الغبار.

أدركت، وأنا أنظر إلى خريطة الطقس، ما الذي كنا نواجهه: إن هذه العاصفة تحمل كل الخصائص المميزة لعاصفة رملية تقليدية من ريح الشمال. وعندما أغلقت عيوني، رأيت ذلك الجدار من الغبار البني الذي كان قد اكتسح جنوب العراق والكويت في أثناء عملية عاصفة الصحراء.

وقلت: "سؤالان، يا رائد. لا- اجعلهما ثلاثة. متى ستضرب؟ وما مدى السوء الذي ستبلغه؟ وكم المدة التي ستدومها؟"

ونظر الضابط إلى لوحة مفاتيح حاسوبه وقال: "سنرى الرياح تزداد حوالي الساعة 1800 بالتوقيت المحلي غداً، سيدي. وسوف تبلغ الذروة بعصفات تبلغ سرعتها خمسين عقدة مع آخر ليلة الغد. وحمل الغبار سيكون كبيراً. ونماذجنا تفترض ظروف صفير-صفير." وفكرت في صفير لقابلية الرؤية، و صفير لسقف الرؤية.

"وكم المدة التي ستدومها؟"

"النماذج الحالية تفترض اثنتين وسبعين ساعة من الظروف الهامشية، سيدي."

وكانت عينا الشاب تحمل نظرة مضطربة، نظرة لا تطلقوا النار على الرسول.

وقلت له: "شكراً، يا ابني."

ومن طرف الطاولة تمتم أحدهم: "أم كل العواصف الرملية."

ولكن أحداً لم يضحك.

هزني هاتف المقر الموجود بجانب سريري فأيقظني من النوم. كانت الساعة قد تخطت 0320 بقليل الآن. وللحظة من فقدان الاتجاه، لم أستطع أن أتذكر أين كنت.

قال جين: "أخبار سيئة عن الضربة العميقة من فوج الطائرات العمودية الهجومية الحادي عشر."

"سأكون هناك حالاً."

أخبار سيئة كان تعبيراً ملطفاً.

وأبلغ جين: "إنها نوع من عملية كان يمكن، وكان يُفضل، وكان يجب، وإدخال لو في الموقف يا جنرال."

كان ميرفي في الخارج يرمي مفاتيحه، مفاتيح الربط، مرة ثانية في هذه الليلة. فوج الطائرات العمودية الهجومية الحادي عشر تأخر في وصوله إلى نقطة إعادة التزود بالوقود قرب المواقع الأمامية للفرقة الثالثة. ولم يكن هناك وقود كاف، وهكذا كان يجب استبعاد بعض الطائرات العمودية المسلحة من الهجوم من أجل تقسيم وتخصيص الوقود المتوافر. وعندما وصلت طائرات الأباتشي، وجدت أن منطقة تمرحلهامغطاة بغبار ناعم مسحوق عميق بارتفاع الكاحل، وتحول هذا طبعاً إلى غطاء يعمي عندما كانت عشرات من أرياش الدوارات تضرب الهواء. فكانت ظروف إعادة التزود بالوقود صعبة، لئلا نبالغ.

وعندما كان خط الطائرات العمودية الذي بلغ طوله ميلاً، ومعه شاحنات الصيانة، وصهاريج الوقود، واقفاً في غيمة الغبار، مرت مجموعة من العراقيين المدنيين، بعضهم كان بلا شك من الفدائيين، عبر المنطقة، وكانت تبدو من خلال الغبار وهي تحقق، ثم اختفت بالسرعة ذاتها تماماً. هؤلاء المتطفلون رأوا ستاً وثلاثين طائرة أباتشي مسلحة، ومحملة بالصواريخ، وتزود بالوقود لتقوم بمهمة. لقد كان هناك اتجاه واحد فقط يطيرون نحوه، وهو شمالاً نحو تشكيلات العدو فوق فجوة كربلاء.

وكان هناك المزيد. لدى حركة الفوج، وهي التقدم بوثبات، من الكويت، فإن بعض أجهزة الاتصالات الأساسية تركت في الخلف نتيجة إهمال غير مقصود. ومن

دون الأجهزة الناقصة لم يكن ضابط استخبارات فوج الطائرات العمودية الهجومية الحادي عشر قادراً أن يرتبط مع معمل استخبارات الفيلق. وبعد مكالمات محمومة عبر جهاز اللاسلكي في الأقمار، نجح العقيد بل وولف، قائد الفوج، في أن يعيد برمجة نيران إخماد الدفاعات المضادة للطيران لدى العدو في آخر لحظة لتكون منسقة بشكل أفضل مع تأخر وقت الانطلاق. ولكن بدلاً من المغادرة إلى الهدف قبل منتصف الليل، لم تبدأ طائرات الأباتشي بالارتفاع إلى أن صارت الساعة 0115.

نيران إخماد دفاعات العدو المضادة للطيران التي أعيدت برمجتها مع صواريخ الجيش التعبوية انطلقت وفق الجدول المعد. ولكن المقاتلات القاذفات التي تقوم بالدوريات لم تتلق أبداً تغيير البرنامج وذلك بسبب ضعف الاتصالات، وعادت إلى قواعدها قبل أن تكون الطائرات العمودية المسلحة قد غادرت بالفعل للقيام بالهجوم.

وعندما عبرت الأرتال الطويلة من الأباتشي التي تطير سريعة ومنخفضة، نهر الفرات، واجهت مفاجأة كريمة أخرى. في أثناء التدريب للمهمة، كان الطيارون قد خططوا ليسلكوا مسالك فيها انعطافات حادة لتجنب القرى والبلدات الموجودة على خرائطهم التعبوية. ولكن ما لم يظهر على هذه الخرائط هو شبكة البيوت الزيفية الموزعة بالتساوي والمجمعات الزراعية الكبيرة، وكانت كلها مضاءة إضاءة باهرة.

ولم يكن الطيارون قد تهيؤوا لمواجهة شدة هذه الإضاءة الأرضية، التي كان لها نتيجتان سلبيتان. الأولى، هي أن الأضواء الباهرة للمجمعات المسورة بجدران طينية، والتي انتشرت من دون انقطاع طوال كل الطريق إلى الشمال الشرقي إلى توهج المدينة الساطع لبغداد، قد وصلت بنظارات الطيارين للرؤية الليلية إلى حدها الأقصى، فجعلتها بلا فائدة. والنتيجة الثانية، وهي مساوية في الخطورة تماماً، هي أن الإضاءة أنارت الأشكال الطويلة السوداء للأباتشي من الأسفل وهي في طريقها مسرعة إلى الشمال، على ارتفاع مائة قدم فقط فوق الأرض.

وحالما دخلت الطائرات العمودية المسلحة المتقدمة تقريباً في هذا الريف المليء بالمزارع، ومضت كتل كاملة من الأضواء لعدة ثوان، ثم لمعت ثانية، وكان ذلك إشارة لمئات، وربما لآلاف من الجنود العراقيين والفدائيين المختبئين في المظلات الطينية وبساتين النخيل. وبعد ذلك بقليل، واجه الطيارون واقعياً جداراً صلباً من نيران الأسلحة الصغيرة، وصفحات متحركة من الطلقات الخطاطة الصفراء، والحمراء، والبيضاء. كان العدو يطلق كل شيء امتلكه، بدءاً من بنادق الصيد التي تعمل بالمغلاق وحتى ايه كي-47 والرشاشات والمدافع الآلية. وأصيب الأباتشي الواحدة بعد الأخرى. والعديد من سدننها جرحوا.

بعض الطائرات أجبرت على إنهاء العملية، ولكن بعضها الآخر تابع قدماً على مسلك بطول خمسين ميلاً ملاحياً إلى المواقع التي تتخندق فيها فرقة المدينة من الحرس الجمهوري. وطارت الأباتشي عبر كمائن متكررة من الأسلحة الصغيرة والأسلحة الآلية. بعض الملاحين كانوا محظوظين، تلقوا مبدئياً بضعة ثقوب من رصاصات أسلحة صغيرة. ومع ذلك، فمع استمرار الطائرات العمودية المسلحة في مسارها، تراكمت أعطاب المعركة.

الأباتشي طائرة صلبة، مدرعة تدريباً جيداً، ولكنها لم تكن مصممة لمثل هذا النوع من العقوبة. وفي قنوات البث اللاسلكي المأمون، كان الطيارون يطلقون تحذيرات، ويبلغون عن "نيران غزيرة" ويشيرون إلى العطب الذي عانت منه طائرتهم.

وفي النهاية فإن وحدة واحدة فقط من وحدات فوج الأباتشي وصلت هدفها، وهو واحة كانت تتخندق فيها ثلاثون دبابة تي-72 للحرس الجمهوري. ولكن النيران الأرضية هناك كانت شديدة جداً إلى درجة كان معها على الطائرة أن تتسحب قبل أن تطلق صاروخاً واحداً.

كانت ثلاثون طائرة أباتشي قد انطلقت من نقطة إعادة التزود بالوقود. تسع وعشرون منها نجحت بالعودة مع درجة ما من أعطاب المعركة. ولكن واحدة من

الأباتشي أصيبت في أجهزة حركة السوائل (الهيدرولية). وقامت بهبوط صعب في أرض العدو. ملاحاها الاثنان وكلاهما نائب ضابط أقدم رون يونغ، وديفيد وليامز، أخذوا أسيرين.

ولم تصب دبابة واحدة أو قطعة مدفعية واحدة من فرقة المدينة بأي عطب في الهجوم.

وقلت: "حسناً، فهمت. تحدث معي غداً عن الأساليب التعبوية الجديدة التي نعتمد أن نستخدمها لنكون قادرين على استخدام الأباتشي في هذه البيئة". وفكرت، لقد كانت بركة أننا لم نخسر الكتيبة كاملة.

من الواضح، أن بعض العمل كان ينتظرنا إذا كنا سنتلاءم مع أساليب العدو التعبوية. فالأباتشي ما تزال واحدة من أعظم القتلة في ميدان المعركة، لقد كنت فخوراً بالملاحين، وما زلت أملك الثقة بقادتهم. وكان واجبنا الآن هو أن نفكر في المشكلة. قبل أن يتم كسب هذه الحرب، فنحن سنحتاج إلى تلك الطائرات المسلحة.

وتلقائياً تقريباً نظرت إلى الشاشة إلى متتبع القوة الزرقاء. كانت فرقة المشاة الثالثة تتحرك متجاوزة النجف، وتناور على طول الطريق العام رقم 9 نحو فجوة كربلاء. وكانت المستطيلات الحمراء لألوية فرقة المدينة ما تزال مكدسة مثل الطوب على عرض الطرق العامة التي تؤدي إلى بغداد. وكان مشاة البحرية يخوضون قتالاً في الناصرية، مجبرين على تنظيف متاهة من الشوارع الضيقة من الفدائيين مجموعة مجموعة من الأبنية.

فكرت في الساعات الأربع والعشرين الماضية، في الفدائيين، وفي جنود الصيانة الذين قتلوا، وجرحوا، وأسروا. والآن هذه الكارثة مع طائرات الأباتشي. ولم أكن أستطيع أن أنسى توقعات الطقس. ففي غضون أربع وعشرين ساعة قد لا يكون لدينا طائرات عمودية ولا طائرات بريديتر في الجو.

والعدو، وصديقه ميرفي، لم يكونا الوحيدين اللذين حصلوا على صوت. الطبيعة الأم كانت تصطف لتأخذ دورها.

كنت محتاجاً إلى حمام ساخن وإلى المزيد من القهوة. كان هناك يوم طويل أمامنا، وربما يوم أطول منه بعد ذلك. ولكنني قبل أن أغادر غرفة الحرب ألقيت نظرة نهائية طويلة على موقف قواتنا. كان جند التحالف ما يزالون يتدفقون إلى داخل العراق، وهم يتحركون بأشكال متلوية كالأفعى على الخطوط الطويلة للتقدم الذي تمثل رأس الحربة فيه الجنود ومشاة البحرية. فنحن سنواجهه، على وجه التأكيد، فترة صعبة، ولكن لا يخامرني أدنى شك بالنتيجة.

نحن سنريح هذا القتال.

مع هدير نظام التكييف في غرفة المؤتمرات، كان على رقيب الاتصالات أن يرفع الصوت في مؤتمر الاتصال من بعد المصور بالفيديو. وكنت أستطيع أن أتذوق الغبار على حافة فنجان قهوتي. كان الوقت بعد الظهر من 25 آذار/مارس في قطر، في الصباح الباكر في واشنطن.

جلس الرئيس بوش على رأس الطاولة في غرفة الموقف في البيت الأبيض، وكان محاطاً بأعضاء مجلس الأمن القومي. وبدأ الرئيس مرتاحاً. وكان نائب الرئيس تشيني هادئاً، متفكراً. وظهر دون رامسفيلد وديك مايرز متعبين. أما جورج تينت فكان مسترخياً يلوك سيجاراً لم يشعلها.

وتابعت، وأنا أعمل من خلال جدول أعمالني: "... حقول الزيت آمنة، سيدي الرئيس. والاطفائيون من بوتس وكوتس(*) يقومون بإطفاء النيران في رأس البئر." وأضاف الرئيس: "أولئك شباب تكساس الطيبون، يا تومي."

وقلت: "كن واثقاً، يا سيدي. كان هناك تسع نيران فقط. وقد نزع رجال وحدتنا للمهام الخاصة ومشاة البحرية فتيل شحنات التدمير قبل أن يكون هناك أضرار أخرى. واستولى مغاوير الأسطول البرماجيون (بر، ماء، جو) والمغاوير البولنديون على المنصات القائمة في البحر قبالة الشاطئ وعلى الأنبوب المتعدد الكبير. وكلها كانت مجهزة بالأسلاك للتدمير أيضاً".

(*) شركة متخصصة بمعالجة الطوارئ في آبار النفط والغاز وصناعة تجهيزاتها وخدماتها.

وأضاف دون رامسفيلد: "سيدي الرئيس، إن عمل التحالف لم ينقذ حقول زيت العراق الجنوبية فقط، بل منع أيضاً ما كان يحتمل أن تكون أخطر كارثة بيئية في الأزمنة الحديثة. فلو نسفوا ذلك الأنبوب المتعدد في شبه جزيرة الفاو، لاستغرق تنظيف الخليج سنوات".

وأضفت "البريطانيون عزلوا البصرة وهم يتعاملون مع الفدائيين. وفي الجو نحن نتابع استخدام الذخائر الدقيقة التوجيه ضد تشكيلات الحرس الجمهوري وبأثر جيد. الفيلق الخامس وقوة حملة مشاة البحرية الأولى تعاود التزود بالوقود، وتعيد التزود بالإمدادات، وتدفع بالكشافة قدماً لتستمر بالتقدم. وحصلت قوات ديفيد ماككيرنان على لواء من الفرقة الثانية والثمانين لتأمين خطوط مواصلاتنا في الغرب. الفرقة 101 سوف تنقض جواً في الشمال على مراحل حالما يسمح الطقس".

وقال الرئيس بوش: "يا تومي، كل واحد هنا فخور بك وبالجند. البلاد خلفك. إذا احتجت إلى أي شيء مطلقاً، خذ الهاتف وكلم دون رامسفيلد".

ومزح رامسفيلد: "لا تقل له ذلك، يا سيدي".

وتغير أسلوب الرئيس. وقال: "يبدو الأمر وكأننا وصلنا إلى نهاية الخيط مع تركيا. لا شيء في استطاعتنا أن نعمله سيقنعهم للسماح لجندنا أن يعبروا بلادهم".

"سيدي الرئيس، أود أن أحتفظ بفرقة المشاة الرابعة هناك أربعاً وعشرين ساعة أخرى. خداعنا متماسك. جعلنا إحدى عشرة فرقة عراقية تبقى ثابتة في الشمال. وأريد أن أبقياها هنا إلى أن يتمكن رجال الجو مع بز موسلي من تخفيض فعاليتها".

وقال الرئيس: "حسناً، يا تومي. ذلك طلبك. هل ستبدأ بتحريكهم غداً؟"

"نعم سيدي. وسوف يبدؤون بالتنزيل في الكويت في غضون حوالي تسعة أيام. وستكون الأرض صفة فارغة بحلول ذلك الوقت".

وقال دون رامسفيلد شيئاً لم أستطع أن أسمعه، وأومأ له الرئيس. وسأل الرئيس: "هل تغيرت خططك بالنسبة إلى اللواء 173 المنقول جواً؟" كانت الخطة تدعو إلى قيام ألف تقريباً من قوات المظليين من اللواء 173 المنقول جواً، المتمركز في إيطاليا، بالقفز فوق آبار الزيت في باشور في شمال شرق العراق، وهي منطقة تقع تحت سيطرة مليشيا البشمركة الكردية وقواتنا الخاصة. وهؤلاء الجند المنقولون جواً كان مبرمجاً لهم أن يوفروا الأمن لفرقة المشاة الرابعة المتقدمة من تركيا.

وعزمت الآن على أن استخدم هؤلاء الجند لتأسيس رأس جسر جوي في باشور، حيث نستطيع أن ننزل عربات مدرعة لنقوي وجود قوات العمليات الخاصة في الشمال. وكان هذا يفي بغايتين، فالانقضاء المنقول جواً سوف يتابع خداع أحقق كذبة ابريل بأننا خططنا جبهة ثانية في الشمال، وبتقوية زمرة العمليات الخاصة في تلك المنطقة، كنا نستطيع أن نكرر نوع العمليات التي سبق أن أدناها بفاعلية كبيرة مع تحالف الشمال في أفغانستان.

"نعم. سيدي الرئيس. اللواء 173 ما يزال مخططاً له أنه سينزل بالمظلات في باشور. ولكننا الآن سنستخدمهم لتقوية قوات العمليات الخاصة لوضع المزيد من الضغط على الوحدات العراقية الشمالية."

وعندما انتهت من اختصاري قال الرئيس: "حسناً، يا تومي."

وأضفت: "إن العمليات الخاصة البحرية ومشاة البحرية البريطانيين، وفي غضون يوم أو يومين، سيفتحون ميناء أم قصر. وسوف ننزل إمدادات المساعدة الإنسانية قريباً."

ومال جورج بوش إلى الأمام. محدقاً في آلة التصوير وسأل: "كيف حال الجند، يا تومي؟ ما هي معنوياتهم؟"

"سيدي، وسائل الإعلام الملحقة بالوحدات تعطي مؤشراً جيداً تماماً. الجند

متعبون ولكنهم مركزون. لم يفقدوا عزمهم. وهم يتعاملون مع الإصابات بشكل جيد، ويقاثلون بالفاعلية التي تتوقعها، سيدي الرئيس."

وجلس بوش للخلف. وقال: "تومي، أود أن أشكر، وأشكر قيادتك، وكل الجند على هذا الجهد العظيم. وتابع هذا العمل الجيد."

جاءت العاصفة الرملية الكبيرة أسوأ حتى مما كان متوقعاً. فالغبار البني الضارب للحمرة شكل قبة عالية في الصحراء الغربية ودَرجَت القبة فوق العراق الجنوبي... وفوق 170.000 من جند التحالف. وهبطت القدرة على الرؤية إلى عشرة أمتار أو أقل. ومنعت الطائرات العمودية من الطيران وبقيت على الأرض، وضربت أجزاؤها الدوارة ضد الرياح المحملة بالرمل في الوقت الذي يأخذ الغبار الناعم طريقه، وهو مع ذلك كاشط، إلى مقصورات الإليكترونيات القابلة للعطب. وبقيت طائرات بريديتر مربوطة إلى المساند الفولاذية الخاصة بإطلاقها. وزحفت القوافل قدماً بتثاقل، والسائقون المنهكون يوجهون مقود السيارات كالعميان بلا رؤية نحو نقاط ثابتة محددة بالنظام العالمي لتحديد المواقع. وهطل المطر بقوة من خلال الغبار الأحمر، محيلاً الجو إلى وحل، وجاعلاً القدرة على الرؤية أسوأ مما كانت عليه قبل المطر.

وتباطأت وحدات مناورتنا في البداية للتصدي لهذا التحدي ثم وقفت وقوفاً كاملاً. وتابع الفدائيون الهجوم، يميلون باندفاع خارجين من غبار العاصفة في سياراتهم الفنية، ولكن عربات الجنود برادلي، وعربات مشاة البحرية خفيفة الدرع كانت تملك مناظير حرارية قادرة على اختراق جدار الرمل البرتقالي. فعندما كان الفدائيون يهاجمون، كانت محركات سياراتهم والسبطنات الحارة لرشاشاتهم تتوهج بشكل ساطع. بعض الفدائيين اخترق وأوقع إصابات. ومعظمهم مات في دوامة الغبار، بالتأكيد نفسه مثلما مات رفاقهم في ضوء الشمس الساطعة في الأيام السابقة.

واستمرت قوافلنا الطويلة للإمداد والتموين بالزحف قدماً، واتصلت في نهاية

المطاف مع وحدات الدروع والمشاة التي نجحت هي بدورها في الزحف إلى الأمام في أثناء فترات الهدوء في العاصفة الرملية.

ومع استمرار الخيالة بالتقدم ببطء فإن الكشافة وزمر استطلاع قوات العمليات الخاصة تسلت أكثر فأكثر في المواقع العراقية، محددة الإحداثيات الدقيقة حسب النظام العالمي لتحديد المواقع لدروع العدو ولمدفعيته. مدافع الهاوتزر ذاتية الدفع من نوع بالادين أطلقت النار ليلاً ونهاراً، وكأن سدة المدافع لم يكونوا واعين بأن أسوأ ريح شمالية في التاريخ الحديث كانت تهب عاصفة. وكان كل مدفع يعمل مستقلاً، ويستخدم نظاماً ملاحياً حسب النظام العالمي لتحديد المواقع مركباً على ظهره ويستخدم حاسوباً لحساب نقاط التسديد التي تبعد أميالاً عن مواقع رميته.

وعندما قرأت التقارير عن مهام الرماية هذه، عدت بالتفكير إلى أجهزة الراديو لموجة المواطن التي اشتريناها لسدة بطارية مدافع الهاوتزر القديمة في بيروت. الأزمنة تغيرت.

وعندما ارتفعت شدة العاصفة الرملية، ووقفت عملياً الحركة على أرض المعركة، جاء جين رينيوارت لرؤيتي قبل تجمع أركاننا في الصباح وقال: "كنت أتحدث مع بز موسلي، يا جنرال.. ونحن..."

ورفعت يدي وقلت: "لا تخبرني، يا جين، سيكون هناك انقلاب في القوات الجوية. قصري محاصر."

وقال جين: "ليس بعد، يا رئيس. كنا في الحقيقة نناقش كيفية استغلال هذا الطقس الزفت... السيئ."

جين دعا جيف كيمونز، ومد كلاهما كدسة من صور الاستطلاع على طاولة المؤتمرات.

وقال جين، وهو يشير إلى الكتل البرتقالية لفرقتي الحرس الجمهوري المدنية

وحمورابي المنتشرتين والممتدتين جنوب بغداد: "نحن نستطيع أن نستخدم العاصفة الرملية لتدمير تشكيلات الحرس الجمهوري."

وشرح جيف: "لقد بدؤوا بالمناورة قليلاً عندما اندفع كشافة استطلاع فرقة المشاة الثالثة شمال النجف. ثم هبت العاصفة الرملية، وقرروا ألا يتحركوا لأننا ظهرنا وكأننا عاجزون عن التقدم."

وسألت: "ومن أين حصلوا على تلك الفكرة."

وأشار جين إلى التلفاز على الجدار، ضابط متقاعد يتحدث مستفيضاً: "نحن نرى ما يدعوها العسكريون "وقفة". لقد توقف التحالف لإعادة التسليح وإعادة التجهيز، إنهم نوعاً ما قد أنهكوا واستنفدوا الطاقة..."

وقال جيف: "إن تشكيلات العدو لم تتحرك طوال ست عشرة ساعة. إنهم يلبدون في الأرض. والشيوخ لا يرون شراً، ولا يسمعون شراً...(*)".

وقاطعته: "اطلب بز". ما كان جين وجيف يقترحانه هو أسلوب تعبوي قد يربح هذه الحرب، في وقت كان العديدون يصفونه بأنه "أحلك ساعاتنا".

وقال بز موسلي: "العقول العظيمة تفكر تفكيراً متشابهاً نحن جميعاً منكبون عليها."

ومع حلول الساعة 2000 ستكون طائرات بي-52، وبي-1، وتشكيلة كاملة من القوات الجوية، والمقاتلات القاذفة من البحرية، والأسطول محلبة تطير فوق القبة الترابية من العاصفة الرملية، لتلقي قنابل دقيقة التوجيه من خلال طقس تصل فيه القدرة على الرؤية إلى الصفر ويصل فيه السقف إلى الصفر.

لقد كنت واثقاً أننا كنا ننظر إلى نهاية المقاومة العراقية المنظمة.

جلست وحيداً في مكتبي أشاهد الصورة الجوية. طيران القصف من كل الأحجام كان يتحرك فوق منطقة تقتيل منحنية واسعة امتدت من الكوت في وادي

(*) والتكلمة، ولا يقولون شراً. الحكمة المشهورة عن القروود الثلاثة.

دجلة في الشرق إلى فجوة كربلاء في الغرب. واستمرت الرمال تعصف. وكانت وحدات الحرس الجمهوري تلبد في الأرض، وقد دمرت في مكانها، من دبابة وإلى عربة قتال للمشاة سوفيتية التصميم، وإلى قطعة مدفعية. وكان القصف الذي دام من ليلة 25 آذار/مارس مستمراً إلى صباح 27 آذار/مارس كان واحداً من أعنف القصف وأفعله، في تاريخ الحرب.

ولكن أحداً في الصحافة الدولية لم يفهم ما كان يحدث. وكل المراسلين الملحقين كانوا مع الوحدات الأرضية، ما عدا بعضهم الذين كانوا مع السفن. ولم يكن هناك مراسلون يطيرون في حجلات الطيارين في طائراتنا القاصفة أو يجلسون في خلايا التهديد في مركز العمليات الجوية المشتركة.

قال جيم ويلكنسون وهو يشير إلى مركز الصحافة في الطرف الأقصى من معسكر السيلية: "أنا أتلقى الهزيمة هناك، يجب علي أن أخبر هؤلاء المراسلين شيئاً. إنهم يقصون القصص عن أننا خسرنا الحرب."

وقلت له: "جيد. ما كان يمكن لنا أن نطلب خداعاً أفضل من هذا."

وقال جيم: "تباً. يا جنرال. يجب أن نخبرهم شيئاً ما."

وقلت له: "أخبرهم بأننا نتجاوز الطقس العاصف بالتركيز على الأسلحة التي تطلق نيرانها جواً. فذلك سوف يعطيهم شيئاً ما يفكرون فيه. وأما العدو فهو يعرف من قبل ما نفعله به."

في وقت لاحق من تلك الليلة، وكانت العاصفة الرملية ما تزال تحتدم ثائرة، رجع جيم إلى مكنتي: كان وجهه قد بدأ يأخذ تهماً غاضباً.

وقال: "يا جنرال، أنت تخبرنا دائماً بالأنا نتورط في التفاصيل، ولكن ماذا يفترض بي أن أعمل حيال هؤلاء ... أهمهم جنرالات التلفزيون؟"

وقلت: "صحافة حرة، يا جيم. السلطة الرابعة وكل ما يتصل بذلك. إن المراسلين الملحقين بالوحدات يقومون بعمل جيد، ويوصلون قصة الجند إلى الخارج

إلى الناس. وبعض السادة المتقاعدين يتحدثون على التلفزة يستمتعون بخمس عشرة دقيقة من الشهرة. وسيكون مثيراً للاهتمام إن كانت شبكات التلفزة ستأخذهم ثانية لإخبارهم أنهم كانوا على خطأ، وعلى قبول الهزيمة المذلة في غضون أسبوع أو اثنين.

جلس جيم منهكاً أمام طاولتي وناولني كدسة من المواد المسحوبة من نيكسيس وغوغل من تعليقات الاختصاصيين العسكريين في التلفزة. وقال وهو يشير إلى مقطع علّم عليه: "تحقق من هذا الشخص."

كان هناك اسم لشخص عالم تبعه وصف: "المقدم، المتقاعد... كبير مخططي حرب." وبدأت أرى من أين كان يأتي الإحباط إلى جيم.

وقال: "ليس مخطط حرب وحسب، يا جنرال. إنه كبير مخططين للحرب."

وتفرست في بقية المقتطفات، وهزرت رأسي، وضحكت في سرّي، واستندت للخلف في كرسي. وكنت أعرف عدداً من هؤلاء "الخبراء"، وكثيرون منهم كانوا في عملهم محللين للتلفزة أفضل منهم عندما كانوا ضباطاً عسكريين. والتعليقات السلبية كانت متوقعة. هجوم التحالف قد "أعيق"، "أوقف"، "أخرج" في وجه المقاومة الصلبة وتزايد الإصابات. وغضب جين رينيوارت جداً لدرجة جعلته يتوقف عن مشاهدة التلفاز.

ألقيت نظرة على متتبع القوة الزرقاء، ثم استحضرت آخر خلاصة للعمليات على حاسوبي. وعلى الرغم من ريح الشمال فإن الخيالة 3-7 واللواء القائد من فرقة المشاة الثالثة قد اكتسحوا عبر أرض العدو بأسرع مما فعلت أي قوة مدرعة في التاريخ، كانت أسرع من فيلق رومل الإفريقي أو الجيش الثالث لجورج باتون. لقد هاجموا وتقدموا 251 ميلاً في ستة أيام، وهي ثلثا الطريق إلى بغداد، وكانوا يقاتلون عبر كمائن مستمرة تقريباً من الفدائيين. وكانت فرقة المشاة الثالثة الآن تستعد للاندفاع عبر ثغرة كربلاء إلى العاصمة، مركز الثقل لصدام.

إصابات التحالف، وكل إصابة هي مأساة لأحباب العسكري، أو مشاة البحرية أو رجل الجو، كانت أقل بكثير مما كان متوقعاً. وخسائر العدو، وخصوصاً بين الفدائيين الانتحاريين كانت تجعل العدو يترنح. وطبعاً، العنصر الجوي عند بز موسلي يضرب العدو على مدار الساعة.

ومع ذلك فأكثر من بضعة علماء تلفازيين كانوا جاهزين للتصريح بأن الحملة قد خسرت، وأن الخطة تعاني من عيوب لا سبيل إلى إصلاحها. وكان جنرال بأربع نجوم محدد بعينه يسوق العربية وآخرون يتسلقون بصعوبة ليصلوا إلى ظهر العربية.

وقلت: "هنا ظاهرة مثيرة للاهتمام، يا جيم. لديك متقاعد بأربع نجوم يتحدث أمام الجمهور عن أساليب تعبوية على مستوى الفصيلة والسرية، بينما روادك ومقدموك المتقاعدون يزدادون تعبيراً وفصاحة عن إستراتيجية التحالف".

وقال جيم وهو يجمع مطبوعاته: "أنت على حق، يا جنرال. وعلى كل حال، في هذا الوقت، عندي ألف ومائة مراسل وهم ثائرون هناك في مركز الصحافة. يعتقدون أنهم تذوقوا الدم، ويريدون أن يكونوا حاضرين في لحظة النصر".

وقلت: "منظور تاريخي يا جيم. ماري، زوجة لينكولن سمّت مراسلي الحرب الأهلية (صحافة مص الدماء) بسبب هجماتهم على الرئيس. هؤلاء المراسلون أنفسهم غنوا مدائح في لينكولن بعد أبوماتوكس.^(*)"

وقال جيم وقد ابتسم أخيراً: "أنت لست وسيماً مثل أبي لينكولن، يا رئيس. ولكن أذنك كبيرة مثل أذنيه تماماً".

ورميت عليه مشبك ورق. "أخرج للجحيم من هنا. اذهب واسفح بعض ذلك الدم الجلف من تكساس الشرقية في مركز الصحافة".

كانت الساعة 0921، في 27 آذار/مارس. وكان قد بدأ مؤتمر الصباح بالاتصال من بعد المصور بالفيديو مع قادة العناصر في الساعة 0900. وكان ديفيد ماككيرنان

(*) مدينة في فرجينيا. لساكن فيها الجنرال روبرت ثي. لي قائد قوات الكونفدرالية للجنرال بوليسيس أس. غرانت قائد قوات الاتحاد في ١٨٦٥ منهياً بذلك الحرب الأهلية الأمريكية.

ينتقل عبر تحديث تقويم المعركة عن الأربع والعشرين ساعة السابقة. كانت الشمال تهب مستفدة نفسها، وكان جنودنا يتقدمون بسرعة أكبر. وأكمل ديفيد خلاصته عن تحركات فرقة المشاة الثالثة.

"والزمرة الثانية من زمر القتال من مستوى لواء، كانت في تماس ثقيل مع الفدائيين الراكبين والراجلين بالقرب من النجف..."

وفجأة، كانت تغذية الصوت من معسكر الدوحة، في الكويت، قد اكتسحت بإعوال عميق من صوت عملاقٍ لإنذار الصواريخ، تتردد أصداؤه في كل مقر ديفيد. ومد ديفيد يده بهدوء وسحب قناعه الواقي الأسود من نوع ام-40 من الجعبة المحزومة إلى وركه. ونادى بصوت يفوق حدة صوت صفارة الإنذار المتصاعدة المعولة: "كل واحد يضع قناعه."

وقال جون أبي زيد: "إنذار من صواريخ بالسيتية في المسرح."

وأضاف جين رينيوارت: "واحد آخر قادم."

كانت قاذفات الصواريخ العراقية المتحركة من نوع أبابيل-100 ومن نوع الصمود، وهي صواريخ بالسيتية لمسرح العمليات في شمال البصرة، مازالت تضرب الكويت طوال أسبوع. وفي كل مرة كشفت فيه رادارات صواريخ الباتريوت صاروخاً قادماً كانت صفارة الإنذار تنطلق، وكان الجند يلبسون تجهيزات حمايتهم ضد الأسلحة السامة أو الحيوية.

"آسف يا سيدي" قالها ديفيد وهو ينظر باتجاه آلة تصوير فيديو مؤتمر الاتصال من بعد، وهو يبدو مثل نوع من وحش الفضاء من السلسلة القديمة من بك روجرز. (*) "هل ما زلتם تستطيعون السمع -".

وضاع صوته المكبوت في دوي مفرق هز جدران مقر قيادة العنصر الأرضي للقوات المشتركة.

(*) الشخصية الرئيسية في رواية: أرمجيدون ٢٤١٩، بقلم كاتب الخيال العلمي الأمريكي فيليب فرانسيس ناولان (١٨٨٨-١٩٤٠)، وصدرت في ١٩٢٨، وأخرجت للمسرح، وللسينما، وللإذاعة، وللأفلام المتحركة.

قال جيف كيمونز: "إطلاق باتريوت."

دوي آخر. وقلت أنا "أثنان من باتريوت. لابد أنهم حددوا موقع الصاروخ القادم."

كانت توجد بطارية باتريوت مضادة للصواريخ الباليستية في مسرح العمليات من الجهة الثانية تماماً من الطريق من مقر ديفيد. وما كان يمكن لهم أن يطلقوا صاروخين إلا إذا كانوا قد حصلوا على متابعة أوتوماتية قوية بالرادار لرأس حربي معاد.

وانتظرنا. كان هناك بعض الاضطراب في معسكر الدوحة، ولكن معظم الأركان المرثيين على الشاشة استمروا بالعمل في مقصورات حواسيبهم، ويلبسون خوذاتهم الكيفلار(*) وأقنعتهم.

قوات الجيش، القيادة المركزية كانوا مستمرين في استخدام ذلك المقر لعدة سنوات. والعراقيون لم يكونوا يمتلكون أفضل الاستخبارات العسكرية، ولكنهم كانوا يستطيعون تحديد إحداثيات ذلك المبنى. وصواريخهم الجديدة، الصواريخ الباليستية لمسرح المعركة، بعد أن تكون قد حدثت بتقانة السوق السوداء، كانت قادرة بالتأكيد على إصابة نقطة تسديد بضخامة مقر قيادة العنصر الأرضي للقوات المشتركة.

ثم انفجار آخر، صواريخ الباتريوت اعترضت الصاروخ العراقي. وحتى لو لم يكن ذلك الرأس الحربي محتويًا على غاز سام، فإن أثر عدة مئات من الكيلوغرامات من المواد شديدة الانفجار كان كفيلاً أن يدمر ماككيرنان وأركانه.

عندما انتهى المؤتمر بالاتصال من بعد المصور بالفيديو، تحدثت مع بز موسلي. "هل لديك أي شي عن ذلك الإطلاق الأخير من الصواريخ الباليستية للمسرح؟"

وقال: "رجال الرادار في قيادة الدفاع الجوي حصلوا على إحداثيات الإطلاق في خلال دقيقتين من الاعتراض. سلة الإطلاق نفسها، من صاروخ الصمود شمالي البصرة. ولدينا نفاثات فوقه."

(*) مادة من الألياف الاصطناعية أقوى من الفولاذ بخمس مرات.

بعد عشر دقائق تلقيت مكالمة من موسلي.

قال: "هيه، يا رئيس. لقد تلقينا في الحال تقرير القصف من الطيارين. ضرب قاذف واحد لصواريخ الصمود".

بز كان محقاً بالفخر برجاله الجويين. مع الحظ كانت الرسالة تنتشر بين سدة الصواريخ العراقية: أنت تطلق، أنت تموت.

قال لي جيم: "إن ميرفي يركب ثانية، يا جنرال".

كان الوقت بعد الفجر تماماً في يوم الجمعة، 28 آذار/مارس. وكنت وحيداً في مكثبي، أقرأ في البرقيات والرسائل. وكان جيم يعرف أنني كنت أحاول الاحتفاظ بالصباحات الباكرة لنفسه، ولذلك عرفت أنه كان بالتأكيد يمتلك شيئاً ما مهماً.

سلمني وثيقة مطبوعة مستخرجة من قصة في جريدة نيويورك تايمز بقلم المراسل جيم دواير، الذي كان ملحقاً مع الفرقة 101 المنقولة جواً.

والعنوان الرئيس يقول: "قائد خليجي يرى طريقاً أطول".

وهز جيم رأسه. إن بضعة مراسلين كمنا لسكوت والاس عندما ظهر بشكل غير متوقع ليزور الجنرال بيتروس في مركز قيادة الفرقة 101.

وتفرست في القصة. وبدا سكوت والاس هو نفسه المعهود بأمانته وصراحته المباشرة. ولكن المقالة حملت بالتأكيد وجهة نظر سلبية. وكان جيم قد علّم على المقاطع ذات العلاقة. وقرأت المقطعين ببطء لأتأكد من أنني لم أغفل أي شيء.

قال الجنرال والاس: العدو الذي نقاتله مختلف قليلاً عن العدو الذي لعبنا لعبة الحرب ضده، وذلك بسبب هذه القوات شبه العسكرية. كنا نعرف أنهم كانوا هنا، ولكننا لم نعرف كيف كانوا سيقاتلون...

وقال الجنرال والاس: "يتعين علي أن أعطي أفضل حكمي العسكري، مع الأخذ بالحسبان الطقس، وخطوط المواصلات الطويلة، ومع الأخذ بالحسبان أن علينا أن نضم خط إمدادنا وتمويننا الطويل ليلحق بنا. يجب علينا أن نأخذ هذه الوقفة.

نحن ما نزال نقاتل العدو في كل ليلة. ونحن نقوم بعمل أشياء للإبقاء عليه يعمل وفق إيقاع هو أعلى من أي إيقاع كنا نعمل وفقه."

وقرأت القصة ثانية. إن المقتطفات من سكوت عكست بالأساس معلومات صحيحة من منظور قائد فيلق، ولكن المقالة كانت متشائمة تشاؤماً متميزاً. وقلت: "ليست قصة مسعفة، يا جيم."

وقال: "كارثة شديدة، يا جنرال. وما يؤخذ منها هو أننا قد أُعقنا وأننا لم نخطط هذه العملية تخطيطاً ذا قيمة."

"ليس أي من هذين القولين صحيحاً، يا جيم، وأنت تعرف ذلك."

"سيدي، أنا أعرف ذلك. وأنت تعرف ذلك. وكل التحالف، ومن جملتهم الجنرال والاس يعرف ذلك." ولوح يديه في إحباط. "ولكن التصور في وسائل الإعلام يصير واقعاً. وكان هاتفي مستمراً في الرنين ولا لوم عليه طوال الساعة الأخيرة. وكل واحد كان يريد مقابلتك بخصوص تعليقات والاس."

تذكرت المقابلة غير الحكيمة التي أعطيتها لهذين المراسلين الواغليين اللذين وجداني في منطقة الاجتماع الحصان في 1990 في الأيام الأولى من درع الصحراء. وقلت لجيم: "اثبت على الحقيقة العملية. سأتصل مع ديفيد ماككيرنان عن هذا الموضوع."

وعندما تحدثت مع ماككيرنان أكد لي أنه قد تحدث مع سكوت والاس وأن والاس سوف "يراقب ممره الخاص" بعناية في المستقبل.

وقلت: "هذا جيد بما فيه الكفاية بالنسبة إلي. سكوت قائد رائع. أخبره أنني أحبه وأثق به."

بعد عشرين دقيقة، رجع جيم إلى مكثي.

وقلت: "ما الأمر الآن؟"

وأمسك جيم بمفتاح التلفاز من بعد وفتح دائرة مركز الصحافة. شريط آخر من الجزيرة كان مجمداً على الشاشة.

وعندما ضغط زر التشغيل، حلق في آلة التصوير طياران من الجيش وكانا تحليلين مكتئبين يلبسان بزات قتال مغيرة ومبقعة بالعرق، وكانا يجيبان الأسئلة الموجهة لهما من محقق عربي.

وقال جيم: "الرجلان من فوج الطائرات العمودية الهجومية الحادي عشر، وهما ملاحا الأباتشي الأسيران: رون يونغ، وديفيد وليامز". وأجاب الأسيران بتردد عن الأسئلة، وحاولا ألا يعطيا أي معلومات يمكن أن يكون لها قيمة دعائية.

وفكرت، على الأقل هما حيان.

وقال جيم: "هذا ليس كل شيء، يا سيدي." ثم قدم الشريط للأمام بسرعة. "تحقق من هذا."

كان وزير الإعلام العراقي محمد سعيد الصحف، المعروف عند الصحافة العالمية استهزاءً باسم "بوب بغداد" (*)، يقف أمام حطام يتصاعد من الدخان لعدة حوانيت ومحلات في السوق في العاصمة. وادعى أن: "القاذفات الجوية للمجرم بوش ضربت هذا السوق." وبحسب أقوال الصحف فإن "مئات" من المدنيين الأبرياء قتلوا أو جرحوا.

وقلت: "لو لم يكن الصحف حزيناً بهذا الشكل، لكان سيبدو مضحكاً".

وشرح جيم: "لقد تحققت من الأمر مع مركز العمليات الجوية المشتركة. ونحن نعتقد أن ذلك كان صاروخاً عراقياً، ربما من نوع اس ايه-2 وقد أطلقوه هم قبل ليلتين، وهو غير موجه. وما يذهب إلى الأعلى، يعود فعلاً إلى الأسفل. لقد ضرب السوق قبل الفجر. لم يكن هناك أحد في الشارع."

(*) ربما كان ذلك تشبيهاً للصحف بمقدم برامج وممثل أمريكي كان له بعض الصفات والتصرفات الغربية الشاذة، ولعله ببلي بوب.

وقلت: "وهكذا، ليس لدينا أي مشكلة."

"قد يكون لدينا، سيدي." وناولني جيم المزيد من الوثائق المطبوعة المستخرجة، مجموعة من الصحف العربية من كل أنحاء الشرق الأوسط. وكان هناك بوب بغداد في السوق المحترق. "جميع العناوين الرئيسية تعرض ذلك السطر: "مئات من الموتى والجرحى."

وظهرت صورة من التلفاز العراقي تظهر طياري الأباتشي الأسيرين قرب صورة الصحف. وفي الشارع العربي، سيكون من السهل على الناس أن يربطوا صورة الطيارين الأمريكيين الأسيرين بالزعم أن القنابل الأمريكية قد قتلت المئات من الناس الأبرياء.

"اكتب بياناً، يا جيم. يجب أن نقدم القصة الصحيحة."

وقال: "أنا أعمل فيها، يا سيدي. ولكن أصدقاءنا في محطة بي بي سي قد بدؤوا من قبل يتبنون رواية بوب بغداد."

وكما يمكن لدونالد رامسفيلد أن يقول: "هذا ليس مسعفاً جداً."

كان هذا الصباح يتحول إلى صباح آخر غير سار.

أدركت أثر الأخبار السيئة الحديثة عندما دخلت مكتبي من أجل اجتماع الأركان في ذلك الصباح. وفي العادة، يتنافس جين رينيوارت وجيم ويلكنسون لإعطاء أفضل تعليق مضحك أو تعليق متهم. ولكن ليس اليوم. وبدأ لي كل واحد من الموجودين على الطاولة وكأنه قد جلس قبل قليل في مجلس عزاء جنازة.

وسألت: "ما الخبر، يا رجال؟"

هز رينيوارت رأسه. "من الصعب اليوم نوعاً ما الابتسام هذا الصباح، يا جنرال. الفدائيون يسببون لنا المتاعب في خطوط الاتصال. مشاة البحرية مشتبكون مع المزيد من الفدائيين في الطريق العام رقم 1 والطريق رقم 07 وذيول الإمداد والتموين لا تلحق لتتصل مع وحدات الحركة والمناورة."

وأضاف جيف كيمونز "لدينا مشكلة مع الحدود السورية. ففكرة البعثيين وعائلاتهم يهربون إلى سورية في قوافل من سيارات المرسيدس وسيارات اس يو في. والله يعلم ما الذي يحملونه."

وقلت لهم: "فهمتها، الجرذان والسفن الغارقة. يحتمل أنهم يأخذون معظم العملة الصعبة وكل ذهب العراق معهم. دعونا نتصل مع غاري هاريل وديل ديلي ليطيروا إلى الحدود ويقابلوا بعض هذه العائلات."

وأضاف جيف: "ويا سيدي، قد نحصل على بعض الأهداف المثيرة للاهتمام. فالصور الفوقية تشير إلى قوافل حافلات مدنية مليئة بالمقاتلين الأجانب القادمين إلى العراق من سورية. عرب من جميع الأنحاء. وربما حتى بعض الشيشان. هؤلاء لاعبون سيئون، ولكن سيكون من الصعب استهدافهم في أثناء ركوبهم في حافلات ركاب مدنيين."

وفكرت في تعليق آخر على سورية. إنها شوكة دائمة في خاصرتنا. ليسوا أعداءنا، ولكنهم بالتأكيد ليسوا أصدقاءنا، فالسوريون كانوا يسمحون بمرور عبر الحدود إلى العراق ومن العراق. وقلت لجين رينيوارت: "اتصل مع هاريل وديل ليطورا على الأقل ساطر طيران على طول تلك الحدود."

وأجاب جين: "حسناً، يا رئيس."

توقفت المحادثات حول الطاولة توقفاً تاماً، وساد صمت كئيب. وفكرت لحظة. هذا الموقف لم يكن موقفاً جيداً.

وقلت: "حسناً. استمعوا. أنتم أيها الرجال متعبون. ونحن نتلقى الرفس على قفاننا... من وسائل الإعلام. وكل واحد من إستراتيجيي الأرائك في الحلقة ئي إلى غرفة الأخبار في سي بي اس في بودانك، في إيداهو يروي بأن لدينا مشكلات كبيرة. الفدائيون ما يزالون نشيطين. والهجوم الرئيسي نحو بغداد تباطأ مع الطقس."

بضعة إيماءات بالموافقة.

ورفعت يدي. "ولكن لا شيء من هذا الزفت ... يهم. نحن نسير حسب الخطة. وفي الحقيقة نحن سابقون نسير قبل الخطة. ونقوم بقتل الفدائيين نهائياً وليلاً. وقتالنا لهم في الطرقات العامة أفضل من قتالهم في بغداد. وتقدير الخسائر في المعركة لا يساوي شيئاً، ولكننا نعرف فعلاً أن الحرس الجمهوري يتلقى مجتمعاً الرفس على قفاه... من الجو. والفيلق الخامس مسدد ومعبأ لبغداد. ومشاة البحرية سوف يتجاوزون المصاعب. ووسائل الإعلام حرياًوات. وعندما تتحسن الأمور، ستتظاهر بالمحبة وبالصدقة."

لم أكن متأكداً من أن مناقشتي قد أثرت.

وأضفت: "انظروا. مضى ونحن في القتال على الأرض مدة أكثر بقليل من أسبوع. هذه أيام مبكرة، يا رجال، مبكرة. الحروب تستغرق وقتاً. لقد قلت دائماً إن العدو يحصل على صوت، وهو الآن عند مكان الاقتراع تماماً. الحرب العالمية الثانية دامت أربع سنوات بالنسبة إلى الأمريكيين، وست سنوات بالنسبة إلى البريطانيين. وسيكون هناك أيام سيئة وأخرى جيدة. ولكننا لا نستطيع أن نفقد إيماناً. إذا نحن توقفنا عن الثقة، فإن الجند سيتوقفون عن الثقة. وبعدئذ سوف نقع نحن في الاضطراب. دعوني أنا الذي أقلق بشأن الصحافة والقضايا الإستراتيجية. نحن سنريح هذا القتال."

ورأيت بضعة تعابير أكثر إشراقاً من ذي قبل قد بدأت تبدد الوجوم الكئيب.

"هذا ليس معقداً، أيها الإخوة. هذا يعتبر في جوهره بمنزلة شيء واحد: يجب أن تتقوا."

ورن المفتاح الأحمر. وقالت ساعتى إن الوقت كان 0305 أي يوم هذا؟

حسناً-1 نيسان/إبريل. من الأفضل ألا يكون هذا فكرة شخص ما عن نقطة

لأحمق كذبة إبريل.

وهمهمت: "نعم".

ورد فان موني يبلغني "رسالة من ديل ديلي، سيدي. لقد وجدوا المسافر".
أخبار جيدة. "المسافر" كان هو المرأة الجندية المتطوعة التي تتبع الوكالة
أثرها إلى مستشفى صدام في قلب مدينة الناصرية. وقدم عراقي صديق في
المستشفى تفاصيل عن موقعها الصحيح.

أبلغني فان بما كان معروفاً حتى ذلك الحين. قام رجال وحدات المهام الخاصة،
وحدات ديل يساندهم مشاة البحرية بالقتال عبر كمائن الفدائيين وهاجموا
المستشفى. ولم يصب أي من قوات التحالف في عملية الإنقاذ. وأضاف فان: "يوجد
شريط فيديو بالعملية سيدي".

واستلقيت على ظهري في الفراش، أشعر أنني نمت جيداً داخل رأسي. "سوف
أرى الأركان في الساعة 0700، يا فان".

"نعم، سيدي".

وقلت: "... هيه، ما اسم تلك الجندية".

"لينش، سيدي. جندي درجة أولى جيسيك لينش".

كان جيم ويلكنسون تواقاً إلى بث شريط الفيديو المصور بالرؤية الليلية عن
إنقاذ جيسيك لينش إلى العالم.

وقال: "إنها أخبار عظيمة للغاية، يا جنرال. بصريات مذهلة".

وقلت: "ليست فكرة جيدة يا جيم". وكنت على وشك أخذ دراجة أخرى من
تحت شجرة جيم لعيد الميلاد.

وبدأت: "هذه هي الصفقة. لقد حصلنا على أسير حرب واحد استرجعناه
حياً. ولكن هناك سبعة آخرون. وقد يكون هناك المزيد قبل أن تنتهي هذه العملية.
زيادة على ذلك أن علينا أن نحافظ على لهجة متساوية. فنحن لا نعيق الكرة في
منطقة النهاية".

"المراسلون يعرفون من قبل شيئاً ما عن عملية الإنقاذ، سيدي. سوف يصرخون طلباً للحقائق في إيجاز الصباح."

وفكرت لحظة. وقلت: "حسناً. دعهم يثيروا المسألة. إذا طلبوا شريط الفيديو فانشروه. ولكن لا تجنح أنت إلى هذا. وفي الوقت نفسه اتصل بالتلفزة وطمئن عائلات أسرى الحرب الآخرين بأننا نعمل كل شيء نستطيعه لتحرير أحبابهم.

قام جيم بعمله. وحصلت الصحافة على قصتها. ولكن بعد أن تم الإخلاء الطبي للجندية درجة أولى جيسكا لينش وضعت آلة العلاقات العامة في أوروبا والولايات مغزلهما هي على العملية. وعندما حان الوقت الذي انتهوا فيه، كانت تلك الجندية الشابة التي تحملت الكثير من الألم والمعاناة قد صارت بطلة القتال، وصار إنقاذها مادة تصنع الأفلام منه. وذكرتي هذه القصة البطولية بالحقيقة التي يقولها المثل القديم: في نهاية اليوم لا تكون الأشياء أبداً سيئة أو جيدة، مثلما بدت لأول مرة.

اتصل الضابط المناوب من خلية الدمج في وقت متأخر من أصيل يوم 1 نيسان/إبريل. "يا جنرال، ضابط ركن الاستخبارات يرجو أن تلتحق به هنا إذا كنت فارغاً لدقيقة."

شيء ما طرأ. كان من عادة جيف كيمونز أن يحضر أي تقرير معلومات استخبارية عادية يريد أن أراه إلى مكتبي.

قال جيف وهو يناولني خلاصة من صفحة مفردة من الأسرار العليا: "يقول ديفيد إن قوة حملة مشاة البحرية الأولى والبريطانيين قد أكدوا هذا نزولاً حتى مستوى السرية تماماً، سيدي."

"شكراً." وقرأت الصفحة بعناية. هذا له مغزى مهم. إن مشاة البحرية وهم يخرجون الفدائيين من التكنات في السماوة وجدوا حظائر بواب فولاذية مقفولة وفيها أطنان من الذخائر، والعديد من صناديق الشحن مختومة بطبعة حروف مفرغة باسم وحدات الحرس الجمهوري الخاص.

واكتشف مشاة البحرية أيضاً أكثر من ثلاثمائة من بزات وأقنعة الحماية الكيماوية والبيولوجية. ولم يكن هذا بعض حملٍ منسي أو تجهيزات زائدة من حرب الخليج منذ اثنتي عشرة سنة مضت. كانت هذه تجهيزات جديدة تماماً، وآخر ما بلغه التقدم العلمي، ولم يسبق أن استخدمت أبداً، وهي كافية لتجهيز سرية معززة مخصصة للعمل بالأسلحة السامة من مثل غاز الأعصاب. وعلى الدرجة نفسها من المغزى والأهمية، وجد مشاة البحرية عدة مئات من محاقن الزرق الميدانية، مليئة بترياق غاز الأعصاب المعروف باسم الأتروبين. وفي الساحة الموجودة خلف الحظيرة كان يوجد عربتان مجهزتان تجهيزاً كاملاً للتطهير الميداني، وخزاناهما الرشاشان العاليان الضغط كانا معبئين بمحلول منظف. هؤلاء العراقيون كانوا مستعدين للعمل في بيئة أسلحة الدمار الشامل.

كان العراقيون يعرفون أن قوات التحالف لم تجهز أي قوة منها بالأسلحة الكيماوية. إن الولايات المتحدة وكل شركائها قد تخلوا عن استخدام مثل هذه الأسلحة وكانت الولايات المتحدة تدمر المخزونات التي كانت متبقية من السبعينيات من 1970. وكانت القوات العسكرية لصدّام حسين تستعد لتحمي نفسها لا من أسلحة الدمار الشامل الخاصة بنا بل من الأسلحة الخاصة بهم.

وناولني جيف صفحة ثانية. الجند البريطانيون العاملون حول البصرة قد وجدوا مخبأً مشابهاً من الأقنعة وبزات الحماية. واستخرجوا من تحت الأرض حاويات لتجهيزات تدريب ميدانية للحرب الكيماوية، ومن جملتها أجهزة إنذار لجهاز إحساس الغاز السام ومشابهات تحاكي محاقن الأتروبين.

مزيد من الأدلة التي تشير إلى الاستنتاج نفسه: كان العراقيون مستعدين للقتال بالأسلحة الكيماوية، ربما غاز في إكس وغاز الأعصاب السارين، وهما العاملان نفساهما اللذان استخدمتا بهذا الأثر القاتل على الجند الإيرانيين وعلى قروبيهم من الأكراد في الثمانينيات من 1980.

وقلت: "شكراً، يا جيف. هذان تقريران شاملان، ولكن من المؤكد كالجحيم أنها أخبار ليست طيبة."

وقال جيف: "لا أعتقد أن الوقت سيطول قبل أن يقصف الجند بالكيماوي."
"أخشى أن تكون على حق."

ولم يكن علينا أن ننتظر طويلاً قبل الأزمة التالية عن أسلحة الدمار الشامل. في أصيل يوم 2 نيسان/إبريل، كنا جون أبي زيد وأنا نناقش الخطط العملية للمرحلة الأخيرة في بغداد عندما دخل جيف كيمونز إلى مكثبي.
قال جيف: "آسف على المقاطعة، يا جنرال. هذا الاعتراض للاتصالات قد وصل الآن." وناولني ورقة مطبوعة من الأسرار العليا.

استخباراتنا في الإشارة اعترضت رسالة صوتية من قائد فرقة المدينة من الحرس الجمهوري، يُرَحَّل أوامر إلى ألويته الموزعة فوق ثغرة كربلاء.
وكانت الرسالة بسيطة، ومخيفة: "الدم. الدم. الدم."
وقال جيف: "قد يكون هذا هو أمر التحويل بالبذء باستخدام أسلحة الدمار الشامل، سيدي."

رفعت المفتاح الأحمر وكلمت ديفيد ماككيرنان. "يا ديفيد ماككيرنان، جيف سيرسل لك بالناسوخ (الفاكس) اعتراضاً من استخبارات الإشارة من قائد فرقة المدينة. نحن على وشك أن ندخل في موضوع أسلحة الدمار الشامل قريباً فعلياً."
وقال ديفيد بلهجته الهادئة المعتادة: "فهمت، يا جنرال. لقد وجهت كل خيال يقع ضمن مدى النيران غير المباشرة للحرس الجمهوري بأن يحتفظ بتجهيزاته الخاصة بالوضع الوقائي المكيف بحسب المهمة، بالقرب منه."

كنت أعرف أن ارتداء بزات الوضع الوقائي المكيف حسب المهمة في حر شهر نيسان/إبريل المتصاعد كان مشقة. ولكننا لم نكن نستطيع أن نخاطر بفقدان آلاف من العسكر ومشاة البحرية لهجوم كثيف مفاجئ بغاز الأعصاب عندما تقترب قواتنا وتطبق على بغداد.

لم أعرف في 2 نيسان/إبريل متى كانت قواتنا ستُضرب بالأسلحة الكيماوية والحيوية، ولكنني كنت متأكداً أن ذلك سيكون قريباً. لقد أعد العراقيون أنفسهم للقتال في بيئة أسلحة الدمار الشامل، وسبق للنظام أن استخدم الأسلحة الكيماوية من قبل، وكانت المؤشرات تدل على أنهم كانوا يمتلكون أسلحة الدمار الشامل... ونحن كنا نتقدم نحو عاصمتهم. إن أفضل فرصة لنا كانت في أن نسرع القتال، وأن نتحرك بسرعة أعلى حتى من سرعتنا التي تحركنا بها في الأيام الاثني عشر السابقة.

أسرعتْ نحو الشمال أيقونة مفردة على متبوع القوة الزرقاء، في حدود أميال قليلة من مطار صدام الدولي في الضواحي الجنوبية الغربية من بغداد. كانت الساعة 1014 من يوم الجمعة، في 4 نيسان/إبريل.

قاتلت فرقة المشاة الثالثة مدعومة بضربة عميقة ناجحة من الطائرات العمودية الأباتشي المسلحة واخترقت عبر ثغرة كربلاء. واكتسحت قوات المهام المدرعة من الفرقة الثالثة بقايا فرقة المدينة ونَحَّت جانباً الفدائيين المساعدين.

والآن كانت هناك قطعة مدرعة منفردة بحجم سرية من وحدة الخيالة 3-7 تسرع على الطريق العام رقم 8، وهي على وشك أن تتعطف على الطريق السريع إلى المطار.

وقلت لجين: "أولئك الرجال تائهون في المقدمة، أمل أنهم يعرفون أين هم." والتقطت المفتاح الأحمر وتحدثت مع ماككيرنان وقلت: "هيه، ديفيد هل تراقب تلك السرية من الخيالة، من الخيالة 3-7 مندفعة مثل خفاش خارج من الجحيم؟" وقال ديفيد وكان في الواقع يضحك بصوت خافت: "يا جنرال، افتح الميدان على شاشة المتتبع لديك فرضة أو فرضتين. هؤلاء الخيالة الكشافة متبوعون بنحو ستة آلاف أو سبعة آلاف من رفاقهم الجيدين وهم خلفهم بنصف ساعة."

نقرت فأرة الحاسوب، سلّم لا نهاية له من الأيقونات: رأس مقدمة فرقة المشاة

الثالثة، كان يدرج على الطريق العام، على بعد نحو عشرين كيلومتراً خلف كشافة الخيالة، كما قال ديفيد بالضبط.

وقلت، وأنا أشعر بابتسامة تنتشر عبر وجهي: "هذا عظيم".

وقال غرينش: "تحقق من وولتر روجرز في سي ان ان".

كان المراسل الملحق بالوحدة يهتز في عربة برادلي، ويقدم نقلاً حياً بالفيديو الهاتف. وفي عناصر الصورة المشوشة في خلفية شريط التصوير، رأيت الطرق العامة المتعددة المسارات والجسور المنصوبة فوق الطرق من ضواحي بغداد... والهيكل المسودّ لدبابات الحرس الجمهوري تي-72 والعربات المقاتلة السوفيتية الصنع.

وشرح ديفيد ماككيرنان من خلال مؤتمر الاتصال من بعد المصور بالفيديو وقال: "أود أن أعطيك تحديثاً عن موقفنا حول بغداد".

كنت أستطيع أن أرى على الخريطة أن الأولوية وقوات المهام من فرقة المشاة الثالثة كانت منتشرة حول الضواحي الغربية والجنوبية لبغداد، مع وجود أكثف الحشد في المطار الدولي. ولكن واحداً من الأولوية كان متركزاً على طول الطريق العام رقم 8 على بعد عدة أميال للجنوب.

كان الوقت متأخراً من ليلة الجمعة، في 4 نيسان/إبريل. لقد أمضينا الساعة الأخيرة ونحن نناقش أفضل طريقة لتكسير مقاومة النظام المنظمة في العاصمة.

أردت أن تكون الدبابات الأمريكية في المدينة في اليوم التالي. وهذا ما سيكون أكثر من مجرد إظهار للقوة. في الحقيقة، كان قصدي هو أن أسبر دفاعات العدو لأرى إن كانت أي وحدة من وحدات الحرس الجمهوري المتماسكة قد هربت إلى المدينة بعد القصف الذي تعرضت له في جنوب بغداد.

"تبدو لي أنها ستكون مثل (محاكاة الرعد)". قلت هذا وأنا أستذكر عمليات الاستطلاع بالقوة تحت ذلك الاسم، والتي سبق لي أن رأيتها في جسر واي في

فيتنام في العام 1968. وفكرت في أن بعض الأشياء حول فيتنام تستحق التذكر. و"محاكاة الرعد" كانت عبارة عن وحدة من الدروع والمشاة الآلية تسير بسرعة عالية عبر منطقة مبنية مثل مدينة. وكان القصد هو إما القبض على العدو وهو غير محترس أو اكتساحه بقوة.

قال ديفيد: "فهمت، يا سيدي. (محاكاة الرعد) هي كذلك."

وقلت له: "أبقني على اطلاع."

راودني إغراء بأن أنزل إلى لوحات الخرائط مع ضباط بيوف بلاونت للمساعدة في رسم أساليبهم التعبوية، ولكن فرقة المشاة الثالثة قد أثبتت قدرتها على أن تقاتل في كل أنواع الأرض، من الصحراء إلى المدينة. فدباباتهم، وعرباتهم البرادلي قد ضربت واخترقت عبر دفاعات العدو في الصحراء، وفي العديد من البلدات والمدن في مسيرها الطويل على الطريق العام رقم 1 والطريق العام رقم 8.

وسائل الإعلام الملحقة بالوحدات كانت في الغالب أقرب إلى مؤخرة الوحدات القائدة للمناورة والحركة، والكثير من هذا القتال كان قد حدث ليلاً. ولهذا لم يكن الجمهور على وعي بشدة المعارك ومجال المعارك التي خاضها هؤلاء الجنود. ولكن ثلاثاً من المعارك في ثغرة كربلاء وفوقها كانت معارك حادة وهي في شراسة القتال الأرضي مثل معارك الحرب العالمية الثانية. وإذا كانت هناك أي وحدة في الجيش الأمريكي تستطيع أن تعالج المهمة فقد كانت هي فرقة المشاة الثالثة.

في الساعة 0629 من الصباح التالي، كنت وحيداً في غرفة الحرب. وكانت كتيبة من قوة مهام على وشك أن تعبر خط مغادرتها على الطريق العام رقم 8 لتقود دباباتها شمالاً إلى بغداد المركزية. والتحق بي جون أبي زيد وجين رينيوارت، وراقبنا الأيقونات وهي تتحرك صاعدة في الطريق العام عبر الضواحي الممتدة بلا تنظيم إلى المدينة.

بوب بغداد، وهو وزير الإعلام العراقي، كان يخبر المراسلين في مركز

الصحافة في فندق فلسطين أن الأمريكيين معرقلون عن التقدم في الجنوب. وادعى "أنهم ليسوا قرب بغداد. ولكن إذا اقتربوا فسوف نذبهم"

وفتح جين القنوات إلى أن وجد بثاً تلفازياً متقطعاً من مراسل ملحق بالوحدات مع قوة مهام 1-64 من الدروع، مع تسع وعشرين دبابة أبرامز وأربع عشرة عربية برادلي. وكانت فرقة المشاة الثالثة أيضاً تمتلك مركبة جوية من دون طيار من نوع هنتر تتابع العمل، ولذلك كنا نتلقى أحياناً تغذية من شريط صور فيديو فوقى مضطرب وحبيبي كذلك.

وكان الرتل المسرع من الدبابات وعربات البرادلي واقعاً تحت نيران تنطلق من أسلحة خفيفة، ورشاشات، وقاذف ار بي جي. ومع ذلك لاحظنا شيئاً مفاجئاً. لم يكن هناك أي دبابات للعدو يمكن رؤيتها.

وقلت: "هناك سيارة فنية."

وقال جين: "كان هناك سيارة فنية، سيدي، إن الشاحنة اختفت في سحابة من الدخان عندما دمرتها برادلي بمدفعها السلسلة من عيار 25 ملم.

واستمر القتال بعيداً إلى الشمال على طول الطريق العام. وكان مشاة الحرس الجمهوري العراقي يقاتلون في تشكيلات صغيرة، غير منظمة، وكان الفدائيون يحتشدون على طول الطريق. وبدا لنا أن كل واحد منهم كان يحمل ار بي جي، وسجل عدد منهم إصابات في دباباتنا وعرباتنا من البرادلي. ولكن قوة المهام اندفعت إلى الأمام، وقاتلت عبر سلسلة من الكمائن الحادة الدموية. وأعطوا أفضل بكثير مما أخذوا.

بعد حوالي ساعتين ونصف تقريباً، درجت قوة المهام، وكانت الآن قد خسرت عدة عربات قد أعطيت بقاذف ار بي جي، إلى مواقع الفرقة بالقرب من المطار.

هؤلاء الخيالة يمتلكون الشجاعة، والعقل.

وقال جون أبي زيد: "لن يكون هناك بغداد القلعة."

وفكرت في أننا سنعرف بالتأكيد في خلال يوم أو بعض يوم.

وكما تحدثنا، كانت زمر القتال من مستوى فوج من قوة حملة مشاة البحرية الأولى، تغلق الكماشة على الربع الجنوبي الشرقي من المدينة. وقد قاتل مشاة البحرية معارك حادة مع بقايا وحدات الحرس الجمهوري التي بقيت على قيد الحياة بعد الهجمات الجوية القاسية.

وواجهوا أيضاً عدة مئات من المقاتلين الأجانب من مصر، والسودان، وسورية، وليبيا من الذين كان يجري تدريبهم من طرف النظام في معسكر جنوب بغداد. وقد قاتل هؤلاء المتطوعون الأجانب بشراسة انتحارية، ولكنهم لم يقاتلوا بشكل جيد. وقتلهم مشاة البحرية جميعهم.

ضبطت المنظر على متبع القوة الزرقاء الخاص بي إلى الركن الشمالي الشرقي من العراق، منطقة الاستقلال الذاتي الكردي. قبل ساعات كان هنا بضعة أيقونات قليلة فقط تُعلم وجود زمر القوات الخاصة وحلفائهم البشمركة، والآن توجد رموز جديدة تمثل الوحدات من اللواء 173 المنقول جواً، إضافة إلى المزيد من القوات الخاصة لمعونة التطوير الرسمية.

واتصل غاري هاريل من مقر قيادته. وقال: "قمنا قبل قليل بقتال جيد، سيدي. كان هناك ثلاث زمر قوات خاصة ونحو ثمانين من البشمركة. استولوا على تقاطع طرق اللواء 173 ثم أوقفوا سرية آلية من الجيش النظامي."

وسألتهم "دبابات؟"

"فصيلة من دبابات تي-55 مع قليل من العربات المقاتلة للمشاة من صنع الاتحاد السوفيتي وعلى الأقل مدفع مضاد للطيران من عيار 75 ملم. أولاد الح-000 جاؤوا بشكل استسلام مزيف، ثم فتحوا النار. وقام رجالنا بسحقهم."

بالنسبة إلى غاري هاريل كانت مثل تلك العملية عملاً رتيباً. ولكني تعجبت كيف تمكن هؤلاء الخيالة من إنجازها؟ "هل كان معهم طيران؟"

وقال غاري: "لا، يا سيدي. ولكن كان معهم مجموعة من الصواريخ المضادة للدروع من نوع جافلن".

وصاروخ جافلن هذا كان آخر جيل من السلاح المضاد للدروع الذي يطلق من الكتف ومن نوع "أطلق وأنس". كان من حسن الحظ أن القبعات الخضراء امتلكوا تلك الصواريخ.

وكنْتُ أيضاً محظوظاً بأن يكون معي مثل هؤلاء الخيالة الشجعان المبدعين. كنا نريح هذه الحرب، وكان ذلك بسبب الرجال والنساء الذين يخوضون قتالها.

كان هناك رسم انطباعي لبرجي مركز التجارة العالمي ملصقاً على كتلة رأس الطائرة العمودية ام اتش -53 للعمليات الخاصة. وجلست أنا على مقعد معلق على الجانب الأيسر، أشاهد الصحراء وهي تبهر وتمر بسرعة 160 عقدة، كنا مستقرين تماماً على متنها، ومتجهين نحو مقر الفرقة المدرعة الأولى البريطانية بالقرب من البصرة.

كانت الساعة 1000 تقريباً من يوم 7 نيسان/إبريل، وكنْتُ أقوم بأول زيارة لي للجنود في العراق. وستكون الوقفة الأولى مع البريطانيين، ثم سأتوجه إلى مشاة البحرية، وصعوداً مع نهر الفرات إلى الفرقة 101 المنقولة جواً.

رئيس ملاحي الطائرة العمودية الجالس عند الرشاش في ميمنة الطائرة استمع إلى رسالة في سماعتي رأسه، ثم رفع أصبع سبابته وهو في القفز.

وصاح: "دقيقة واحدة"

وكان هناك بطانية كيفلار سميكة رمادية ضد الشظايا مفروشة على أرض الطائرة العمودية، وكنا نجلس جميعنا على سترات مضادة لنيرون مضادات الطيران. كان الفدائيون ما يزالون ناشطين في هذه المنطقة، وطائر كبير مثل هذه الطائرة قدم هدفاً جيداً.

وهبطنا في سحابة من الرمل الخشن، وتقدم إلى الأمام قائد الفرقة، اللواء

روبن برمز، وهو يرتدي البزة المموهة الصحراوية البريطانية المخططة المميزة باللون البني الضارب للصفرة، وأدى تحية خاطفة شديدة.

وقال: "طيب منك، يا جنرال، أن تأتي."

كانت الحرارة تشوي في منطقة الهبوط، وليست بعيدة الشبه عن بنه بهووك في الفصل الجاف. وكنت أستطيع أن أستمّ دخان الديزل. وأحاطت بمنطقة الهبوط حلقة من دبابات تشالنجر وعربات قتال المشاة من نوع وورير.

وكان روبن برمز، وهو الوفي للأصول، قد أعد الشاي في خيمة قيادته، في فجاجين صينية حقيقية وصحونها، وصحون صغيرة من الشطائر المفتوحة الوجه مع "البسكويت"، وهي كلمة الإنجليز للكعك الخفيف.

عرض علي برمز موقفه التعبوي على خريطة على طاولة كبيرة. لقد فتحت الفرقة إلى أم قصر. وأبلغني روبن برمز أن "الإمدادات الإنسانية تتدفق، سيدي." وسألته: "كيف الأمن يا روبن؟"

"جيد في النهار، يا جنرال. وغير مأمون قليلاً في الليل. ولكن السكان المحليين بدؤوا يتغيرون. وأشار إلى خريطة تفصيلية للبصرة الكبيرة. "إنهم يذهبون ويدخلون مكاتب حزب البعث ويمزقونها ويبدو الأمر وكأنه نهب ولكنه في الواقع انتقام." وذلك النوع من العنف العفوي الفوري كان ينتشر في كل أنحاء العراق عندما انهار النظام.

وقلت له: "حسناً. يا روبن، يبدو أننا نكسب الحرب. ولكن عنفاً مثل ذلك سوف يبقينا هنا لمدة."

وقال روبن: "أنت على حق، يا سيدي. وسنكون هنا معاً. ولكن عندما تبدأ المملكة المتحدة بتدوير جندها فإن شعبنا في لندن يخطط لاستعراض النصر. والجنود يقدرّون ذلك النوع من العمل."

وقلت: "كن على ثقة." البريطانيون كانوا يستحقون ذلك، ومثلهم أيضاً الأمريكيون.

بعد ساعتين هبطنا في مقر الفريق جيم كونواي في قوة حملة مشاة البحرية الأولى قرب الناصرية. وبدلاً عن الشاي والكعك الخفيف أكلنا وجبات جاهزة للأكل. وكنت أحمل جراباً للشواء في الهواء الطلق مع الفاصولياء على النمط الغربي. ولم يكن غداء مطعم في جوني في ميدلاند... ولكن كان أمراً عظيماً أن أكون مع مشاة البحرية.

كان إيجاز جيم كونواي قاطعاً وكاملاً. وقال: "تعلمنا شيئاً واحداً في هذا القتال، يا جنرال فرانكس، وهو أن العدو، سواء أكان من الجيش النظامي أم من الفدائيين، قد وضع بشكل ثابت مراكز قيادته، وأسلحته الثقيلة، ومستودعات الذخيرة في المدارس، والمستشفيات، والمساجد."

"إن الأمر هو نفسه في كل أنحاء البلاد، يا جيم."

وعندما غادرنا الخيمة، قفزت إلى ظهر عربة همفي لأهني مشاة البحرية. وقلت والعربة متجهة إلى الأمام: "في حياتي كلها، لم أر أبداً أي شيء مثلكم. إنكم تهتمون بالمهمة. وتهتمون أحدكم بالآخر. وتتصرفون كما يليق بمشاة البحرية. لن أخطب خطاباً طويلاً هنا. ولكنني أريد أن تعرفوا فقط أنني لو كان لي ولد لأردت أن يكون من مشاة البحرية."

وبذلك، نزلت عن العربة وبدأت أصافح الأيدي. أنا دائماً أحب أن أقرب من الجند بشكل شخصي، ولكن كان لي اليوم قصد آخر. أردت أن أنظر في عيونهم، لأقدر مستوى إجهادهم الجسدي والنفسي. كنت أعرف من فيتنام ومن عاصفة الصحراء أن الجند المتعبين يستطيعون أن يستمروا في القتال، وأن يعتنوا بأنفسهم، وأن ينجزوا المهمة. فالرجال الشباب والنساء الشابات في البزة العسكرية مرنون للغاية. ولكنهم يصلون فعلاً إلى نقطة من الإعياء. والجند المصابون بالإعياء لا يبقون قادرين على القيام بالقتال.

صافحت الأيدي، ووقفت للصور، ورويت بعض النكات السخيفة. هؤلاء مشاة البحرية كانوا متعبين، ولكنهم لم يكونوا قد وصلوا إلى الإعياء.

بعد الطيران إلى النجف، سقنا همفي جسمها من كيفلار، "جسم صلب" لنزور الفرقة 101 المنقولة جواً. في طريقنا من المهبط إلى الزيارة القصيرة، مررنا على مجموعة نظامية من السيارات، والدراجات، والتاكسيات، والحافلات المحطمة. وكان هناك رجال يضغطون على الزمور ويبتسمون، ويشيرون بإشارات النصر 7، وكان هناك أطفال يلوحون بالأعلام العراقية. لقد كان من الصعب أن نصدق أن هذه المدينة كانت مسرحاً لقتال شرس قبل أقل من عشرة أيام خلت.

قابلنا قائد الفرقة، اللواء ديفيد بيتروس، وقابلنا في مدرسة مثقبة بالرصاص. وأعطى إيجازاً مختصراً، ويشبه كثيراً ما قاله جيم كونواي: المدارس، والمستشفيات، والمساجد، كلها استخدمت مخابئ أسلحة ومراكز قيادة.

وقال: "نحن نجمع أطناناً من العتاد والذخيرة، سيدي. يحتمل مئات من الأطنان."

وقادني رقيب أول صلب يعلك تبغاً إلى كومة كبيرة من الكلاشينكوفات، وقاذف ار بي جي، ورشاشات كان الخيالة قد دمروها قبل أن يستطيع السكان المحليون أن يجمعوها لتكون نفاية معدنية.

وفكرت في أن هذه البلاد كلها مستودع أسلحة واحد كبير. لا بد أن هناك آلافاً من مواقع تخزين الذخيرة. وسوف يستغرق الأمر سنوات لتفريغها كلها.

وسألت بيتروس عن أسرى الحرب من العدو. "ليس لدينا الكثير منهم، سيدي. معظمهم خلع اللباس الرسمي وذهب إلى البيت فقط."

وكنْتُ أعرف أن ذلك سيشكل مشكلة أمام مكتب جاي غارنر لإعادة الإعمار والمعونة الإنسانية. فإن وضع الجنود العراقيين في العمل بأسرع ما يمكن سيكون هو مفتاح الاستقرار.

وسيكون على جاي أن يجعل هذا الأمر أولوية قبل أن يجد هؤلاء الجنود السابقون طرقاً أخرى، غير قانونية، لكسب المال.

في يوم الأربعاء في 9 نيسان/ إبريل غصت غرفة المؤتمر بالأركان. كانت الغرفة قد صارت غرفة وقوف فقط، واستمروا بالتكديس فيها.

كنا نشاهد محطة سي إن إن عندما قامت العربية الهندسية الضخمة، الملوحة بالطين بالزحف إلى الأمام بين صفوف حشد من العراقيين المحيطين بالتمثال الضخم لصدام حسين في ميدان الفردوس في بغداد.

بعض الجمهور حاول إطلاحة التمثال بشد الحبال المربوطة بعنق الدكاتور. وبعد صراع طويل، رأوا أن المهمة مستحيلة. وتقدم مشاة البحرية ليقدموا المساعدة، باستخدام سلسلة على عمود العربية. ولم يطل الوقت لخلع وإهالة أطنان من البرونز.

وعندما كان الأولاد والرجال يضربون رأس التمثال بقاع أحيديهم، وهي الإهانة الإسلامية القصوى، كانت العصابة في غرفة المؤتمر تهتف ابتهاجاً.

وسائل الإعلام ستروي أن الحرب كُسبت. وأن المعارك الكبيرة انتهت. ولكن ليس الحرب.

وقلت لدونالد رامسفيلد في نهاية المؤتمر المبرمج بالاتصال من بعد المصور بالفيديو "سيدي الوزير، كنا نتحدث عن توقيت المرحلة الرابعة. إن البريطانيين سيقومون استعراض النصر عندما تعود أول وحداتهم القتالية من الخليج. ولكن جنودنا لا يعودون حتى الآن إلى الوطن. وأنا أود أن أقرر طريقاً للاعتراف بتضحيتهم وخدمتهم. هناك الكثير من العمل الذي ينبغي إنجازه هناك، ولكن عمليات القتال الكبيرة قد انتهت." وكنت أريد من الوزير، أو الرئيس، أن يعترف علناً بهذه الحقيقة للجند.

وكان هناك سبب آخر لإصدار بيان علني حول نهاية المرحلة الثالثة. فقد كان بعض أعضاء التحالف الذين لم يرغبوا في المشاركة في القتال، ولكنهم قالوا إنهم سيقدمون المساعدة بعد أن تنتهي تلك المرحلة. وأخبرت رامسفيلد: "أنا أود أن أرى بعضهم وقد بدؤوا بإحضار جندهم الخاصين بإعادة الإعمار والمعونة الإنسانية."

"ما الذي يدور في ذهنك، يا توم؟"

"سيكون من الطيب إذا استطاع الرئيس أن يعترف بنجاح العمليات القتالية الكبيرة، سيدي الوزير." وحاولت أن أجد الكلمات المناسبة. "لقد أنجز الجند كل مهمة كلفوا بها. ولم يسبق أن كان هناك عمليات قتالية على مستوى نجاح عملية حرية العراق."

وقال دون رامسفيلد: "سأتحدث مع الرئيس."

عواقب غير مقصودة.

لقد كنت ممتناً في الأول من أيار/مايو لكلمات الرئيس. وما عرفت إلا القليل عن النقد الذي كان سيواجهه لأنه فعلَ ما كنت أوصيت به.

كان الوقت متأخراً. وتابع الأركان نوباتهم في الكهف المرجع للأصدقاء في المبنى 0217 وركني للتخطيط، مدير التخطيط روكي روب قد عاد قبل مدة قليلة من الكويت، وكان قد تشاور فيها مع جاي غارنر حول التقدم في مكتب إعادة الإعمار والمعونة الإنسانية.

ولم يتشجع روكي. وبعده جمل وجيزة لخص ما ساوره من أمور مقلقة حول حالة المرحلة الرابعة، العمليات بعد الأعمال الحربية.

مكتب إعادة الإعمار والمعونة الإنسانية ينقصه الموظفون، ومعه أقل من مائتي ضابط وخبير فني على الأرض.

وينقصهم التمويل بشكل سيئ، ومهمتهم ليست واضحة لكل واحد في الفريق.

ووصل أخيراً أحمد شلبي ومجلسه الوطني إلى العراق. ولكن الشعب العراقي لم "يهب" ليتولى السيطرة على "بلاده" مثلما كان الشلبي قد تكهن. ولا وجدت البيئة التي لا تدحض المدفع المدخن، المسلح بأسلحة الدمار الشامل.

وقال روب: "إن جاي غارنر ذاهب إلى هذا الموقف وهو معاق إعاقة سيئة. إن منظمته في الخلف. ولم يجمعوا الدعم المالي والموارد التي يحتاجون إليها. وجاي

لا يملك دفتر الشيكات المفتوح نوعاً ما الذي سيحتاج إليه ليعيد فوراً استئجار مئات الآلاف من العراقيين الذين أخرجوا من العمل من قبل التحالف. " وفكرت أن هذه نقطة أساسية. عندما ألقى هذا العدد من قوات العراق المسلحة أسلحته وببساطة ذهب إلى البيت، فإن ذلك جعل عمل مكتب إعادة الإعمار والمعونة الإنسانية أصعب بكثير، وجعله مكلفاً.

قبل أن تبدأ الحرب، أمضى غارنر أسابيع وهو يمشي في ممرات واشنطن، بكل تواضع، وقبعته في يده. كان يحتاج إلى الناس وإلى المال. ولكنه لم يكن يستطيع أن يقترح إلا حالة افتراضية: إذا ذهبت الولايات المتحدة إلى الحرب، هل تستطيع وزارتك أن تقدم...؟

ما من بيروقراطي متمرس يستطيع أن يرفض طلباً افتراضياً. فهم سيفنون بالطلب، بموارد افتراضية، وبوعود غامضة لا تكلف وزاراتهم شيئاً من حيث الأموال أو الموظفين.

ولكن الحالة على الأرض اليوم كانت حقيقية، وليست افتراضية.

حزب البعث كان قد أشبع بعناصره المؤسسات العراقية - وليس قوات الأمن وحدها طبعاً، بل الوزارات أيضاً التي سيطرت على الطاقة الكهربائية، وإنتاج الزيت، والصحة العامة، والتعليم، والاتصالات، أشبعها إلى الدرجة التي انكسر معها الهيكل العظمي التنظيمي للبلد مع انهيار النظام.

عشرات الآلاف من رجال الشرطة اختفوا من مدن وبلدات البلاد، خائفين من انتقام المواطنين.

وبدلاً من الاستسلام في وحدات متماسكة، وهو ما كان سيسمح لنا بوضع الجند في العمل في إعادة الإعمار، فإن الجيش قد "ذاب". وأكثر من مائتين وخمسين ألف عسكري سابق هم الآن عاطلون، ويبحثون عن طريقة ما لإطعام عائلاتهم.

في الأشهر التي أدت إلى الحرب، كان صدام حسين قد أوقع مجزرة في السجون السياسيين، ثم فرغ سجنونه من المجرمين العامين: اللصوص، والنهابين، والخابطين، والمغتصبين، والقتلة. وقدّر العدد بخمسين ألفاً من هؤلاء المجرمين وهم الآن يتجولون في البلاد مثل الذئاب.

كانت القيادة المركزية تمتلك العديد من القدرات: المهارات والتجهيزات الهندسية، والزمر الطبية، والاختصاصيين بالشؤون المدنية الذين يتحدثون اللغة العربية. ولكننا لم نكن نمتلك المال ولا مجموعة شاملة من القرارات السياسية التي كانت تأخذ بالحسبان كل ناحية من إعادة البناء، والعمل المدني، والحكم.

بعد أن استمعت إلى تقرير روب، عرفت أنه كان من الضروري التحرك بسرعة لتسريع أعمال مكتب إعادة الإعمار والمعونة الإنسانية: لتحديد عراقيين لإقامة حكومة انتقالية، ولتمويل استئجار عراقيين عاطلين، ولتوضيح سياسة "استئصال البعث"، ليصير من الممكن للطبقة الوسطى المتعلمة أن تشارك في بناء العراق الجديد. وسوف نحتاج إلى التحويل بالتمويل لصرف مبالغ ضخمة من المال: من الدينار العراقي، أو الدولارات الأمريكية، أو اليورو، فذلك لا يهم.

وكما سبق أن قلت طوال جلساتنا للتخطيط، فإن العمل المدني والأمن مرتبطان: ارتباطاً لا فكاك له. وكان هناك اعتقاد سائد يقول إن العمل المدني لن يكون ممكناً في العراق من دون الأمن. وأود أنا أن أتابع فأحاجج بأن ليس من المستطاع أن يكون هناك أمن من دون العمل المدني.

وفكرت في القول: إن من الحمق توفير البنس لتخسر جنيهاً. نحن سنصرف اليوم دولارات... أو دماً في الغد. وكنت أعرف أن جورج دبليو بوش ودون رامسفيلد وافقوا معي. وستكون الحيلة في الحصول على بيروقراطية دولية تتحرك بسرعة.

وقلت لرئيس الخدمات لاحقاً في ذلك اليوم نفسه: "يا ديك، نريد مؤتمراً لكبار المانحين، تستضيفه واشنطن، لتنسيق الدعم، والمال والجند، بأسرع وقت ممكن."

ورد علي ديك: "البريطانيون يعملون لعقد مؤتمر الآن، يا توم. وسأرى ماذا نستطيع أن نعمل".

في 5 نيسان/إبريل عقد غارنر، وأعضاء من موظفيه في مكتبه الصغير لإعادة الإعمار والمعونة الإنسانية، ومبعوث البيت الأبيض زالماني خليل زاد محادثات مع بعثة من ثمانين عضواً من قادة الجماعات العراقية القبلية، والدينية، والعرقية في خرائب أور، المدينة السومرية التي تبعد بضع كيلومترات عن الناصرية. وقامت وحدات العمل المدني في الفيلق الخامس بنصب خيمة بيضاء كبيرة مفتوحة الجوانب بالقرب من متاريس الطوب المندثرة للزقورة، التي كانت قد صارت، من مدة سابقة، من الأوابد القديمة عندما كان النبي إبراهيم (عليه السلام) صبياً في المدينة.

كان خليل زاد، وهو أمريكي- أفغاني يتحدث العربية ومسؤول كبير سابق في وزارة الدفاع، هو المتحدث الرئيسي. وأبلغ العراقيين المجتمعين، باللغة الإنجليزية، أن الولايات المتحدة وشركاءها في التحالف "ليس لها أي مصلحة، مطلقاً أي مصلحة في حكم العراق. نحن نريد منكم أن تؤسسوا أنتم نظامكم الديمقراطي الخاص بكم المستند إلى التقاليد والقيم العراقية.

وأضاف جاي جارنر متفائلاً: "إن عراقاً حراً ديمقراطياً سيبدأ في هذا اليوم." ولاحظ أنه كان ذا مغزى أن يجري عقد أول اجتماع عن مستقبل العراق في الموقع القديم لمدينة أور. "فأي مكان أفضل من مكان ميلاد الحضارة يمكن أن يكون لديكم لبدء عراق حر."

ولكن الوفود التي مثلت مجتمعات السنة، والشيعة، والأكراد إضافة إلى العديد من الجماعات المعارضة في المنفى، استقبلت هذه البيانات بحذر كئيب. وكان آلاف الشيعة يتظاهرون في شوارع الناصرية يطلبون الحكم الذاتي فوراً ويهتفون، "لا لأمريكا ولا لصدام!"

في موقع المؤتمر، كان ممثلو جماعة شيعية في المنفى ما تزال قواعدها في إيران، يطالبون بالإنشاء الفوري لحكومة انتقالية "ديمقراطية"، حكومة لا بد لها أن تضع تلقائياً الأغلبية الشيعية في موقع مهيمن. فبعد عقود من القمع الوحشي من الأقلية البعثية السنية لصدام، كان هؤلاء الشيعة أكثر اهتماماً بالانتقام منهم بالتآلف البناء. لقد تجنبوا البعث السنية، وكانوا فاترين فتوراً فقط نحو الممثلين الأكراد.

والأكراد من ناحيتهم، كانوا معارضين بصلافة لأي دولة مستقبلية موحدة يمكن لها أن تعتدي على منطقتهم الكردية الغنية منطقة الاستقلال الذاتي في الشمال الشرقي. وزيادة على ذلك، فإن الأكراد قدموا في الاجتماع جدول أعمالهم لتوسيع حدود هذه المنطقة لتشتمل على مدينة كركوك وآبار زيتها المجاورة.

قائد واحد من المنفى، وهو حاتم مخلص، ناشد المبعوثين ودعاهم إلى أن يضعوا جانباً الارتياح العرقي التقليدي والديني وأن يركزوا جهودهم على مشكلات إعادة بناء الأمن واستعادة المنافع العامة، التي حاول المقاتلون البعثيون المتعصبون أن يخربوها.

والغالبية من قادة القبائل استمعت، ولكنها لم تقل إلا القليل. كانوا حذرين، ويراقبون، وغير مستيقنين من المعنى الذي تعنيه هذه الحرية المفاجئة لهم ولشعبهم. وقد لخص هوشييار زيباري، وهو ممثل كردي كبير، مزاج الارتياح المتبادل والقلق بين زملائه المبعوثين. وقال: "ما يزالون عصبيين. لا يصدقون حتى الآن أن صدام ذهب".

وعندما كنت أقرأ تقرير جيم ويلكنسون عن الاجتماع تذكرت الشهور من الشجار والطعن في الظهر التي حدثت في مؤتمر فرساي للسلام في العام 1919 بين الفئات العرقية والدينية التي خرجت من الإمبراطوريتين المهزومتين العثمانية والنمساوية الهنغارية. يجب علينا أن نكون صبورين.

ولكن التقدم كان جارياً. فقد رأينا أول اجتماع تمثيلي في العراق في أكثر من ثلاثين عاماً. وقد زرعت بذلك بذور الديمقراطية. كان جاي غارنر وفريقه في العراق، وبدؤوا ينظمون الوزارات الوطنية للمساعدة في إدارة البلاد. وكان ديك مايرز ودون رامسفيلد يحققان بعض النجاح في توسيع التحالف في العراق. والتخطيط جار لإعادة بناء القوات العسكرية العراقية وقوة الشرطة. وفتحت المستشفيات والمدارس، ويجري استعادة الطاقة الكهربائية.

وفكرت في أن هذا كله أخبار طيبة. والمهمة الفورية أمامنا هي أن نخفف التوقعات غير المعقولة، توقعاتنا وتوقعات العراقيين، بأن هذا سيكون سريعاً وسهلاً.

كان يوم الأربعاء، 16 نيسان/إبريل، أي بعد أربعة أسابيع من يوم-ي، يوم بدء العملية.

في ذلك الصباح كنت قد خولت القيام بتوزيع "رسالة حرية إلى الشعب العراقي" والتي تنص في جزء منها:

السلام عليكم.

أنا الجنرال تومي ار. فرانكس، قائد قوات التحالف، أعلن فيما يلي أن:

قوات التحالف في العراق جاءت بصفة محررين، لا غزاة. لقد جئنا لنستأصل نظاماً قمعياً عدوانياً رفض أن ينصاع لقرارات مجلس الأمن في الأمم المتحدة التي تطلب منه تدمير أسلحة الدمار الشامل.

إن التحالف ملتزم بمساعدة شعب العراق ليشفى من جراحه، ويبنى حكومته التمثيلية الخاصة به، ويصير شعباً حراً مستقلاً ويستعيد مكاناً محترماً في العالم. وسوف نضمن أن يكون زيت العراق محمياً بوصفه ذخيراً وطنياً للشعب العراقي. العراق وما يملك هو ملك الشعب العراقي وأن التحالف لا يقيم أي ادعاء بالملكية بقوة السلاح.

هل سينجح العراق؟ لا أعرف. ولكنني كنت أعرف أن ستة وعشرين مليون عراقي تقريباً هم الآن، بسبب ما فعله جندنا يمتلكون الفرصة لبناء أمة جديدة.

وصلت إلى بغداد قبل الظهر تماماً. وكان ديفيد ماككيرنان يستضيف اجتماعاً لقادة العناصر في واحد من قصور صدام المزخرفة، غربي بغداد. كان قد ضرب بشدة قليلاً، وكانت تحيات من قليل من ضربات التحالف المسددة تسديداً جيداً، ولكنه كان مع ذلك قابلاً للسكن فيه. وهذا اللقاء معاً لم يكن لقاء النصر بقدر ما كان فرصة لي لأشكر قادتي على عمل قاموا به بشكل رائع.

سحبنا بعض الأرائك الحديثة لتشكل نصف دائرة وتابعتنا الغداء في عظمة: وجبة جاهزة للأكل وماء في القوارير.

وكما سبق لي أن أعلمت وسائل الإعلام في قطر في 22 آذار/مارس، كانت هذه الحملة في الحقيقة فريدة في التاريخ العسكري. ولكن الرأي العام العالمي لم يكن واعياً تماماً، بسبب سرعتها غير المسبوقة، بالقتال الوحشي الذي وقع. ولا كان العالم أيضاً واعياً للمهارة وللتصميم الذي أبداه رجال الجو في التحالف، وهم الذين فعلوا الكثير جداً لجعل الحرس الجمهوري العراقي عاجزاً عن العمل.

ولكنني كنت أعرف إلى أي مستوى ممتاز وصل أداء الجند، ورجال الجو وقادة عناصري. وفكرت في التعليق المشهور من القائد الروماني لوسيوس بولوس:

يجب على القادة أن يتلقوا النصيحة بالدرجة الرئيسية من أشخاص عرفوا بالموهبة، من أولئك الذين اتخذوا من فن الحرب دراستهم الخاصة، ومن أولئك الذين هم حاضرون في مسرح العمل، الذين يرون العدو، والذين يرون المنافع التي تقدمها الفرص السانحة، والذين هم، مثل أناس يركبون السفينة نفسها، متقاسمون للخطر.

هؤلاء الرجال الملتفون من حولي في هذا القصر الذي يرجع الأصدقاء والذي خربته القنابل كانوا رجالاً قُدوا من القماش الذي وصفه لوسيوس بولوس. لقد تقاسموا الخطر.

نحن ربحنا معارك عديدة.

مقاومة العدو الكبيرة سحقت. ولكن البلاد كانت ما تزال مليئة بآلاف البعثيين المتعصبين، وبالجند الميالين للشأر من الحرس الجمهوري المدمر، ومن عملاء المخابرات السابقين، إضافة إلى المقاتلين الأجانب الذين كانوا ما يزالون يجدون طريقاً لهم إلى داخل العراق.

ومع ذلك، وعلى الأقل لهذه الساعات القليلة، كنا، نحن رفاق السلاح، قادرين على الاستمتاع بصحبة أصدقائنا الآخرين، تحت ظروف الاسترخاء النسبي. لم أكن أستطيع أن أتذكر الشعور بمثل هذا الفخر والمحبة لأناس خدمت معهم منذ أن غادرت فيتنام.

داعبت بز موسلي بأنه بدا أكثر صلماً حتى مما كان قبل شهر. وأخبرت الأدميرال تيم كنتغ بعض النكت المكررة المجددة عن البحارة في بار. وحاولت، عبثاً أن أجعل ديفيد ماككيرنان يهتم ببعض المقاطع من أغنية ناشفيل من المطرب نيل ماك كوي.

في هذا المبنى الفني، وهو قسم من مشروع صدام حسين "الزيت في مقابل القصور" كما قلت مازحاً، تبادلنا أيضاً أفكارنا عن الأمم والبيروقراطيين الذين ساعدوا وشجعوا النظام المستبد على حساب الشعب العراقي.

ولكن ما تذكرته بأوضح الوضوح هو أنني كنت أجلس بموازة جدار منحن في فناء القصر، أدخن سيجاراً.

وحاولت، وأنا أتفكر في هنري الخامس لشكسبير، أن أنشد تلك الكلمات المشهورة عن "عصبة من الإخوان".(*)

ولكن الدموع انهمرت قبل الكلمات.

(*) والمقصود قول شكسبير: من هذا اليوم إلى نهاية العالم، نحن الذين سنذكر فيه، نحن القلة، نحن القلة السعيدة، نحن عصبة من الإخوان. فاليوم إن من يضحي معي بدمه، سيكون أخي.

في أواخر نيسان/إبريل، اتصلت بالوزير رامسفيلد وقلت: "سيدي الوزير، كاثي وأنا قررنا أن نتقاعد في هذا الصيف."

وقال رامسفيلد: "سأحصل على صوت في هذا." وانتظرت ضحكته الخافتة.

وقلت: "نحن عند نقطة واضحة من (تغيير المهمة)، وهو الانتقال من قتال كبير إلى عمليات ما بعد الأعمال الحربية. وهذه المرحلة سوف تستمر لعدة سنوات، وأنا لا أستطيع أن أرى نفسي في هذا العمل طوال تلك المدة."

لن يكون صواباً مني أن أبقى في القيادة لعام آخر لأترك القيادة المركزية في نصف الطريق فقط عبر المرحلة الرابعة الطويلة والمعقدة.

وقال رامسفيلد: "سأعود إليك."

في مطالع أيار/مايو اتصل دون رامسفيلد وعرض علي منصب رئيس أركان الجيش، الذي صار شاغراً حديثاً.

ولم يكن علي أن أفكر طويلاً قبل أن أجيب. وقلت: "سيدي، أنا أشكرك على هذه المجاملة. ولكن علي أن أرفض. فأنا مقاتل حرب، لا مدير. ولن أعمل جيداً في مجتمع القانون العاشر."

تلك كانت بداية محادثة دامت، متقطعة، طوال الأسابيع العديدة القادمة. وناقشنا، دون رامسفيلد وأنا بيروقراطية واشنطن، وعمل رئيس أركان الجيش، والمرحلة الرابعة في العراق، وشؤون أحفادنا.

وكانت المرحلة الرابعة في الحقيقة تدور مثلما توقعت، لا مثلما أملتُ، ولكن مثلما توقعت. وعلى الرغم من التخريب، كان يعاد بناء البنية التحتية ببطء. وكان الشيعة، والسنة، والأكراد يتصارعون من أجل المناصب الرئيسية في "العراق الجديد". وأعداد متزايدة من الجند الدوليين كانت تلتحق بالتحالف، وكان البولنديون يؤسسون منطقة عمليات بحجم فرقة في الجنوب. وكان دون رامسفيلد ورؤساء الخدمات يفكرون في مسائل مستويات الجند والتجهيزات التي ستبقى في العراق في المستقبل المنظور.

ومن ناحية أخرى، كان الأمر يستغرق وقتاً أطول مما أراده أي واحد منا لتنظيم بيروقراطيتنا نحن والمجتمع الدولي ليوثر التمويل الكافي لمشاريع إعادة الإعمار العراقية المطلوبة. ولكن دون رامسفيلد كان يدفع، وجاي غارنر كان يدفع، وأنا كنت أدفع، وكنا جميعاً نحرز تقدماً، ولكن ذلك كان يستغرق وقتاً طويلاً جداً.

ومع الإعلان عن أن السفير جيرى بريمر سيحل محل جاي ويرأس السلطة المؤقتة للتحالف، ويعمل مباشرة للرئيس، كنت مقتنعاً أننا كنا على وشك أن نستحضر المستوى المناسب من الانتباه والسلطة للمهمة. لقد عمل جاي عملاً كبيراً لرفع مكتب إعادة الإعمار والمعونة الإنسانية وإدارته، وحين الوقت الآن لنرفع الرهان لمستوى سفير. وكنا نحتاج إلى المال، وكنا نحتاج إلى القوة المؤثرة.

في أعقاب مغادرة جاي غارنر، حاول بعضهم أن يدعي أنه قد طرد. ولكن ذلك لم يكن هو القضية. لقد فهم كل واحد داخل التحالف أن تعيينه كان مؤقتاً، مع التشديد على مواجهة الأزمة الإنسانية التي لم تظهر. لقد عزم البيت الأبيض على تعيين مبعوث رئاسي حالما يكون ذلك ممكناً. إن تدريب جاي غارنر وخبرته أعدته ليجعل الكرة تتدحرج في العراق. ولقد فعل ذلك. والآن سيكون على بريمر أن يستحضر مجموعة من المهارات المختلفة والأكمل إلى بيئة أكثر تسيّساً.

في ما يقرب من نهاية أيار/مايو اتصل دون رامسفيلد. "حسناً يا توم، إذا كنت تريد أن تتقاعد فساوفاق على ذلك. ولكننا سنفتقدك."

وقلت: "شكراً، سيدي. أنا أوصي بجون أبي زيد أن يحل محلي."

بعد يومين أعلنت وزارة الدفاع تقاعدي.

في 5 حزيران/يونيو قام الرئيس بوش والسفير جيرى بريمر بزيارة مقرنا في قطر. وكان بريمر قد تسلم قبل قليل السلطة المؤقتة للتحالف، وأحضر معه فريقاً مدنياً جديداً أكبر، والكثير من المال: عدة بلايين من الدولارات وإمكانية الحصول على المزيد الكثير.

عندما اجتمعت مع جيري والرئيس ذلك الصباح، تأثرت بعمق الالتزام الذي استحضره كلا الرجلين للمهمة القريبة. وعندما وقفنا وتحدثنا في جناح جورج بوش في فندق ريتز-كارلتون في الدوحة، كان من الواضح لي أن بريمر كان يعرف أن الأمر سيستغرق عاماً لمجرد تحديد حكومة انتقالية للعراق، ولم يظهر الرئيس أي قلق حول الآفاق الطويلة للوقت التي ينتظر أمامنا. فنحن سنمكث طول الوقت الذي ستستغرقه المهمة وسنفعل ما كان يجب علينا أن نفعله.

وأخبرنا جورج بوش بالقول: "نحن ملتزمون للعراق طوال المسافة الطويلة". وكنا نعرف أن جيوب البعثيين والجهاديين ستسبب اضطراباً للتحالف، وللعراقيين، في كل خطوة من الطريق. وسيقوم جيري بريمر "بالقتال عبر المشكلة" كما كان عادتنا أن نقول في ميدلاند.

سوف تؤسس زمر مناطقية في كل واحدة من المناطق (المحافظات) العراقية الثماني عشرة، وهو النموذج الذي أثبت أنه ناجح في أفغانستان. وسوف تدار أعمال إعادة الإعمار بهذه الزمر في المناطق الريفية، مثلاً هو في بغداد تماماً. وسوف تقوم قوات التحالف بتوفير الأمن عاملة لذلك مع الشرطة العراقية ومع الجيش العراقي الجديد. وسيصير التحالف أكثر "دولية" مع قيام بلاد إضافية بنشر جندها من أجل عمليات المرحلة الرابعة: وهي بولندا، وإيطاليا، وأوكرانيا، واليابان، وتسعة بلدان أخرى.

وبقيت مفاتيح النجاح النهائي هي نفسها: المشاركة من العراقيين أنفسهم، وبناء قوات الأمن العراقية، وقوات عسكرية عراقية، وعمل مدني عريض القاعدة لمواجهة الاحتياجات، والتوقعات، من ستة وعشرين مليون نسمة كانوا قد تعرضوا للترويع والإيذاء طوال أكثر من ثلاثة عقود. مهمة مرعبة، وهي تتطلب قدرة على التكيف والمرونة، وهما الفضيلتان اللتان جعلتنا نربح في المراحل الثلاث الأولى.

وعندما انتهى الاجتماع كنت واثقاً بخطة المرحلة الرابعة، وباللاعبين.

احتفال تغيير القيادة في القيادة المركزية، وهو من الناحية العملية آخر يوم لي في الجيش، تم في تامبا في يوم الاثنين في 7 تموز/يوليو. جون أبي زيد، وهو الرجل الذي سيحمل الآن على كاهله عبء القيادة، ورئيس رقباء القيادة دوايت براون، جلسا إلى جانبي.

وكان الوزير رامسفيلد، وهو المتحدث البارز، كريماً في ثثائه على المدة التي توليت فيها منصب قائد القيادة المركزية، والثناء على العمل الذي قام به الجند منذ 9/11.

وقال: "يا له من امتياز خاص أن أكون قادراً على تحية الرجال والنساء في القيادة المركزية من الولايات المتحدة. فمن القرن الإفريقي إلى جبال أفغانستان وحرارة العراق، يخدم جند هذه القيادة قضية الحرية بتفان وتميز. إننا نشكر كل واحد منكم على كل ما فعلتم لبلادكم."

وفي ذهني كنت أرى الشباب من خيالة الفرقة الجبلية العاشرة وهم يصعدون بصعوبة السلاسل الثلجية الشديدة الانحدار في أفغانستان في وادي شاهي كوت تحت نيران الهاون وقاذف ار بي جي. وتصورت أشرطة صور الفيديو من طائرة بريديتر لقوة حملة مشاة البحرية الأولى وهي تطلق النار فوق رؤوس الدروع البشرية الخائفة، وتتسف الفدائيين من سياراتهم الفنية في الناصرية وفي الكوت. ورأيت مرة أخرى الشجاعة العنيدة لرجال الدبابات في أول دخول إلى بغداد في محاكاة الرعد، وهم ينزلون من دباباتهم من نوع أبرامز ليربطوا عمود سحب إلى عربة برادلي معطوبة، ونيران الكلاشنيكوف والرشاشات التي تشق ثقوباً من الطرق الإسمنتية حولهم.

التفاني والتميز حقيقة.

وتابع الوزير رامسفيلد القول: عندما تأتي الحرب، فإنك تبحث عن صفات خاصة معينة في الناس الذين ستعمل معهم. والجنرال توم فرانكس يجسد هذه

الصفات: القوة، والخبرة، والعقل الحاد، والطاقة، والشرف، وروح الدعابة والولاء العميق لجنده وبلاده. توم فرانكس هو في الحقيقة الجندي الجندي...

"بعد الهجمات في 11 أيلول/سبتمبر، رد الجنرال فرانكس وفريقه. وهم طوروا بسرعة خطة لمجموعة جديدة من التحديات، وقاد بعدئذ بمهارة قوات التحالف في إطاحة نظام طالبان في معقلهم الوعر المغلق بالأرض من كل جانب. وفي هذا العام مرة أخرى، صنع توم فرانكس خطة حرب إبداعية. ومرة أخرى، قاد هو وفريقه قوات التحالف بشكل لامع، وشقوا طريقهم بالقتال إلى عتبة باب النظام في بغداد في خلال أسابيع.

وحتى مع عدد القوات الكبير والمتنامي على الحدود العراقية، حقق الجنرال فرانكس شيئاً كان يبدو مستحيلاً: وهو المفاجأة التعبوية. تلك المفاجأة، والسرعة والمرونة في خطته، ساعدت على إزاحة نظام وحشي في أقل من شهر، من دون خسائر ضخمة في الحياة المدنية، ومن دون عشرات الآلاف من اللاجئين الهاربين من بلادهم، ومن دون أن تضرب العراق جيرانها بصواريخ سكود، ومن دون تدمير الطرق، والجسور، والسدود وحقول الزيت. إنجازات جديدة بالإشادة...

توم فرانكس وفريقه يقفون بوصفهم أكثر مقاتلي الحرب تشاركاً، في أمتنا، وفي العالم كله في الحقيقة. إن الفريق الذي عمل في عملية حرية العراق طور قتالاً حربيّاً مشتركاً في طرق سوف تغير الكيفية التي تتدرب فيها قواتنا وتقاتل فيها للعديد من السنوات القادمة. وهكذا فإن الجنرال فرانكس قد يكون الآن مغادراً للخدمة، ولكن سيكون لخدمته أثر باق على القوات المسلحة للولايات المتحدة لعقود عديدة.

"يا جنرال توم فرانكس، لك احترامي. ولك صداقتي. ونتمنى لك ولكاثي الرائعة أفضل الحياة في السنوات القادمة."

ورددت بالامتنان لدون رامسفيلد.

"سيدي الوزير، شكراً لقيادتك، وشكراً لصدافتك، وشكراً لأخلاقياتك، وشكراً للاهتمام..."

وأمسكت نفسي ضد العواطف التي شعرت بها تغمرني.

وقلت: "إلى كاثي فرانكس" وأنا أحاول أن أبحث عن عينيها في صفوف الجمهور: هذا اليوم هو اليوم الذي أجعل نفسي فيه رجلاً صادقاً، فقد كنت قد أخبرت زوجتي قبل أربعة وثلاثين عاماً أنني كنت سأترك جيش الولايات المتحدة... يا كاثي، شكراً لحبك، ولساندتك. وكما قال الوزير رامسفيلد، شكراً لخدمتك لهذه الأمة. إن الرجل لا يمتلك كنزاً أعظم من الأسرة. وأنت الأفضل. وأنا إنسان محظوظ.

وقلت، وأنا أنفعل مع اللحظة: "هذا اليوم وقت عصيب بالنسبة إلي. عندما استيقظت هذا الصباح كان لدي طائرة نفاثة بوينغ للأعمال، والعديد من الأعوان، والعديد من السيارات سيدان، والآن، أنا قلق كيف سأصل إلى البيت". ولكن لدي رسالة جادة كنت أريد أن أوصلها إلى جمهوري المستمع.

قبل اثنين وعشرين شهراً، واجهت الولايات المتحدة، وفي الحقيقة واجه العالم الحر، الشر وجهاً لوجه. وفي ذلك اليوم توصلنا إلى أن ندرك قابليتنا للعطب، وتوصل العالم إلى أن يدرك أمريكا، ولها موقف.

"إن أمتنا قد تغيرت. لقد تباركنا بقيادة تبرز الشخصية والشجاعة الأخلاقية، وعمق العزم الذي نادراً ما رؤي مثله. إننا نرى في بلادنا اليوم الدليل على قيمة جوهرية كانت، في رأيي، نائمة طوال زمن وهي: الوطنية. الوطنية الدائمة العميقة من أولئك الذين يحبون العلم، ومن أولئك الذين يلوحون بالعلم..."

ونحن نرى الحب، ونحن نرى التقدير، ونحن نرى الرعاية. ونحن نرى المساندة لرجالنا ولنسائنا في بزاتهم العسكرية، رجال ينكرون ذواتهم ونساء ينكرن ذواتهن، وهم يواصلون اليوم الاستجابة للنداء. إننا نحزن لفقد أولئك الذين أعطوا أرواحهم في سبيل قضية الحرية...

وقد سبق أن قلت حديثاً إن أمريكا تقف عند انعطافة في التاريخ، إن وراءنا مائتين وخمسة وعشرين عاماً ونيفاً، ونحن نسأل أنفسنا، ما الذي ستأتي به مائتان وخمسة وعشرون عاماً تالية؟

إننا نذكر في كل يوم بفقد الشجعان والشجاعات الذين يخدمون في حرب عالمية على الإرهاب بأن الحرية ليست مجانية.

وإنني كثيراً ما سئلت من أعضاء وسائل الإعلام، هل الجائزة التي نبحت عنها في الحرب العالمية على الإرهاب تستحق الثمن الذي يتوجب علينا أن ندفعه في مقابلها؟ وقد أجبت، وسوف أواصل الإجابة، كونوا واثقين. وذلك لأن الجائزة التي نبحت عنها في هذا الوقت من التاريخ هي طريقة حياة...

"الحرية تستحق ما تأخذه مهما يكن. وأنا أتكهن، أن أجيال المستقبل، سوف تواصل دفع الثمن من أجل الحرية. في هذه التجربة الرائعة، هذه التجربة العظيمة التي نسميها. الديمقراطية."

وعندما تولى جون القيادة، غادرت المسرح، وعانقت كاثيري، وجاكي، وأحفادي. وعندما مشيت نحو المخرج أعطاني دون رامسفيلد ظرفاً يحتوي على خطاب مكتوب بخط اليد من الرئيس جورج دبليو. بوش:

عزيزي تومي،

تهاني على تقاعدك من جيش الولايات المتحدة. لقد خدمت أمتنا بتميز ومستوى عال.

إن أمتنا قد امتحنت طوال السنتين الماضيتين. لقد هوجمنا من قتلة قساة ظنوا أننا كنا سنجن. لقد كانوا على خطأ. كان عندنا رجل اسمه فرانكس يتحمل المسؤولية.

لقد قدت، يا تومي، جندك في معركتين كبيرتين في الحرب على الإرهاب. لقد سدنا في أفغانستان وفي العراق لأنك قدت جنداً شجاعاً بإستراتيجية سليمة.

إن أمتنا ممتنة لخدمتك. ولقد كان امتيازاً لي أن أخدم معك. أنت رجل طيب.
وأفضل تحياتي إلى كاثرين.

المخلص

جورج بوش

.. رجل طيب... وطوال ثمانية وثلاثين عاماً جندي أمريكي فخور



الخاتمة

منعطفات في التاريخ

تامبا : فلوريدا

صيف 2004

شعرت أن من الغريب أن أظهر بطاقة هويتي الشخصية، هوية عضو متقاعد من وزارة الدفاع عند البوابة الرئيسية لقاعدة القوات الجوية في ماكديل. كنت معتاداً أن أدرج عبر البوابة مباشرة. ولكن عاماً قد مضى منذ أن كنت جنرالاً بأربع نجوم أقود القيادة المركزية.

معظم الحراس يعرفونني، ولكن ظروف التهديد تتطلب منهم أن يقوموا "بتحقيق إيجابي" بمقارنة وجهي مع الصورة. فالحرب العالمية على الإرهاب مستمرة. والأمن الشديد عادة ضرورية من الانضباط.

طيور البلشون الأبيض تقف عند حافة البركة قرب خط الطيران، طيور مهيبة تتحرك برشاقة، ولكن لها صوتاً كالنعيق أجش. وعندما مررت بجانبها تذكرت يوم أثنين الصغير الرمادي الذي نعق عبر سطح فندق كايدون في 11 أيلول/سبتمبر 2001، وهي أول ليلة من هذه الحرب الطويلة. ثلاث سنوات مرت تقريباً منذ ذلك المساء من أيلول/سبتمبر في اليونان.

لقد ربحنا معارك مهمة... ومع ذلك فالحرب أبعد من أن تكون قد انتهت. أنا متوجه إلى مكتب التاريخ من القيادة المركزية، وهي منشأة آمنة تضم آلاف الصفحات من الرسائل السرية، ونسخاً عن مؤتمرات الاتصال من بعد المصورة بالفيديو، والأوامر العملياتية، وتقارير ما بعد المعركة. كنت قد استعرضتها في أثناء كتابة هذا الكتاب.

سقت سيارتي من جانب الحظائر التي كانت تصان فيها طائرة سبار 06

القديمة. وعلى اليسار منها، قرية التحالف المكونة من البيوت المتنقلة المزدوجة والتي تغطي مساحة تساوي حجم عدة مجموعات من العمارات السكنية في مدينة. وكانت أعلام الأمم الممثلة في القرية حقلاً من الألوان في النسمة البليلة ومنها: الإمارات العربية المتحدة، والمملكة العربية السعودية، وباكستان، واليمن، ومصر، والمملكة المتحدة، وفرنسا، وألمانيا، وأستراليا، والدانمرك، وكندا، وأوزبكستان...

كانت شابة من الطيران في البزة الصحراوية المموهة تعبر منطقة وقوف السيارات، وهي تحمل كدسة من الرسائل إلى القرية. وقالت "صباح الخير، يا جنرال".

"إنه بالتأكيد كذلك، يا رقيب." وكنت أنظر إلى صفوف الأعلام "وكم عدد البلاد التي معنا هناك الآن؟"

وقالت: "خمسة وستون بلداً، سيدي."

أوسع تحالف في التاريخ. وهؤلاء بعض فقط من أكثر من مائة وثلاثين بلداً اتحدت معاً لتقاتل الإرهاب، وبعضها تقدم مساندة عسكرية مباشرة، وبعضها المساندة المالية، وبعضها الآن يساندون الصراع دبلوماسياً كذلك. والعديد من الأمم، مثل تلك الممثلة هنا في تامبا، قد قامت بدورها علناً. وآخرون فضلوا ألا يعلنوا عن مساعدتهم، ولكنهم يساعدون بطريقة حيوية، وخصوصاً بالمعلومات الاستخبارية، التي تكون دائماً سلعة نادرة.

ولكن واحداً وعشرين بلداً، متنوعة كتتوع اليابان وأوكرانيا، وألمانيا وفرنسا، يحتفظون بأكثر من ثمانية عشر ألف جندي في منطقة مسؤولية القيادة المركزية. وبعضهم نشر قوات في أفغانستان وبعضهم في العراق، وبعضهم في كلا البلدين. وفي هذا اليوم يؤدون أيضاً المعونة الإنسانية ويديرون مهام حفظ السلام. لقد مات أبناؤهم وبناتهم إلى جانب الأمريكيين والبريطانيين والأستراليين الذين تحملوا عبء القتال. جند العمليات الخاصة البولنديون عملوا مع قوات البحرية الأمريكية

البرماجية للاستيلاء على منافذ الزيت في شبه جزيرة الفاو، وأنقذوا بذلك الموارد الطبيعية للعراق من التخريب ومنعوا وقوع كارثة بيئية غير مسبوقة. والجنود الفرنسيون، والكنديون، والعديدون جداً من الآخرين، قاتلوا إلى جانبنا في أفغانستان.

أتذكر ذلك الأصيل من أيلول/سبتمبر 2001 عندما أخبرت العقيد مايكل هيز "لدي عمل لك" وهو عمل يبني أول ركن من هذه القرية. ومنذ ذلك التاريخ عمل أركان القيادة المركزية مع زملاء موهوبين وذوي طاقة في وزارة الدفاع ووزارة الخارجية لتوسيع التحالف.

في رحلاتي التي نافذت على الثلاثين زيارة إلى المنطقة أبحث عن شركاء، استخدمت الكثير من الجزر والقليل من العصي. وشربت مئات الفناجين من الشاي، والقليل من أقذاح الفودكا. وأستذكر كلمات تشرتشل: الشيء الوحيد الذي يعتبر أسوأ من العمل مع الحلفاء هو العمل بدونهم. "كان تشرتشل يكافح ليحفظ بالحلف غير المحتمل للحرب العالمية الثانية، إنني أستغرق بالتأمل عندما أراقب الأعلام المتعددة الألوان تخفق في نسمة البحر من الخليج إلى المكسيك. وبالنسبة إلي كانت المساعدة في تشكيل هذا التحالف شرفاً لي.

وكان يستحق احتمال الحرق. فالغاوير الألمان قاتلوا إلى جانب نظرائهم الدانيماركين، والأستراليين، والبريطانيين، إضافة إلى رجال وحدات ديل دبلي، رجال وحدات المهام الخاصة على السلاسل الجبلية الثلجية فوق وادي شاهي كوت في أفغانستان في أثناء عملية أناكوندا. وعلى الرغم من أن العالم عرف القليل عن دور باكستان العسكري في المعركة، فإن برويز مشرف كان وفياً لكلمته، وهو باق على ذلك إلى هذا اليوم. فجنود الفيلق الحادي عشر الباكستاني المتصفون بالصلابة والمتمرسون بالمعارك قتلوا أو أسروا مئات من إرهابيي القاعدة الذين هربوا من القتال. وهم يواصلون اصطياد الإرهابيين إلى هذا اليوم في جبال وزيرستان، بينما تقوم قوات الأمن الباكستانية بملاحقتهم في المدن. والاعتقالات الحديثة لإرهابيي

القاعدة تمثل فقط آخر نجاح في الحملة المستمرة. عندما أعلن الرئيس بوش أن أمم العالم ستكون إما معنا أو ضدنا، فهمت باكستان ذلك.

العالم تحرك فعلاً عبر منعطف في التاريخ في أيلول/سبتمبر 2001. لن تحارب الديمقراطيات وحدها ثانية أبداً. إن هذا التحالف يمثل طريقة الحرب في المستقبل.

عندما غادرت القاعدة، سقت سيارتي صاعداً في شارع بيشور في طريقي إلى البيت لأصطحب كاثيري في رحلة طيران بعد العصر إلى كاليفورنيا، حيث سأحدث إلى جمهور مشترك عن مستقبل أمريكا في عصر الإرهاب الدولي.

وزمرت سيارة، ثم أخرى. وأنا أرى الوطنيين في شارع بيشور، يلوحون بالأعلام عند الركن، مثلما يلوحون في كل يوم جمعة منذ أيلول/سبتمبر 2001، وضغطت على الزمور ولوحت. تامبا مدينة وطنية، وهذا هو واحد من الأسباب التي جعلتنا كاثيري وأنا نقرر أن نستقر فيها. في أثناء السنوات الثلاث التي قضيتها في القيادة المركزية، صرنا نحب الخليج الفريد في المدينة من الاستنارة المتعددة الأعراق والصدقة الريفية البيتية البسيطة. تامبا هي بوتقة انصهار أمريكية نموذجية. لقد بدأت بصفتها جيباً كوبياً وإيطالياً لصنع السيجار وتطورت إلى مركز مصرفي دولي، وأكبر ميناء على الخليج، وواحدة من أنشط عواصم الرياضة في الأمة، مع بطل كرة القدم، تامبا باي بوكانير والحاملين الحاليين لكأس ستانلي للهوكي، ذا لايتنغ.

إحدى مصادفات الحياة، هي أننا نسكن على بعد بضعة أبواب من نورمان شوارتسكوف. وأنا أراه من حين لآخر في المدينة، وعلى الرغم من عملية في الركبة، فهو يمتلك القامة المستقيمة للجندي. إنه واحد من أبطال أمريكا العظماء. نحن لا نتفق دائماً على الإستراتيجية العسكرية، فهو قد قاتل حربه بطريقته، وأنا قاتلت عملية مختلفة. ولكن كلانا فخور بخدمته. وكلانا يحب بلده.

أنا أفكر في أمريكا، في الولايات المتحدة الأمريكية، عندما كانت النفثة تمر

فوق مزارع ألاباما الخضراء المقسمة كرقعة الشطرنج وفوق الماء المتلألئ في لويزيانا. على هذه السرعة، وعند هذا الارتفاع تبدو الشمس ثابتة. كم مرة جلست على متن الطائرة سبار 06 أتحدث مع الملاحين في رحلات طيران لا نهاية لها في أوقات الأصيل ونحن عائدون من خطوط الطول الشرقية من منطقة المسؤولية!! في خلال هذه السنوات الثلاث من القيادة أتيح لي أن أعرف مدناً لم تكن قد ظهرت أبداً في كتبي الجغرافية في المدرسة الثانوية ومنها: جيبوتي، وهي عند مدخل البحر الأحمر، وأسمرة، في الأراضي الجبلية من إريتريا، والرياض، عاصمة المملكة العربية السعودية، وعشق آباد في تركمانستان، وإسلام آباد، مع الجدار الثلجي من جبال هندوكوش يلمع من بعيد، ومسقط، عاصمة عمان على الماء الأزرق الصافي من بحر العرب، والعديد، العديد غيرها.

الأخبار في هذا اليوم تسيطر عليها قصص جاءت من العراق. فتحت توجيه الأمم المتحدة، وبعد شهر من الجدل الصاخب والمفاوضات توصل القادة المتباينون من مجتمعات العراق الشيعية، والسنية، والكردية في النهاية إلى إخراج قادة مؤقتين هم الذين سيقودون أمة ذات سيادة إلى الانتخابات الديمقراطية في العام القادم. ويجب ألا نغفل عن أن هذا التمرين الناجح في الحكومة التمثيلية حدث في غمرة حملة وحشية من العنف موجهة لا ضد قوات التحالف فقط بل ضد العراقيين أيضاً وبشكل متزايد.

منذ ذلك الأصيل في نيسان/إبريل 2003 عندما جلست أنا وقادة عناصري في قصر صدام، مات مئات من جند التحالف: من الأمريكيين، والبريطانيين، والإسبان، والإيطاليين، والأوكرانيين، إضافة إلى خبراء الأمم المتحدة لإعادة الإعمار والعاملين في المعونة الدولية الإنسانية، مع آلاف العراقيين الأبرياء. لقد قتلوا بأيدي مجرمين سمّتهم الصحافة مجتمعين باسم "متمردين". بل إن بعضهم أشار إليهم بصفة "مقاومة". ولكن هذا العصابات المسلحة لا تكاد تكون مثل مقاتلي المقاومة التي رأيناها في المقاومة الفرنسية السرية في الحرب العالمية الثانية.

كثيرون من الشباب العنيفين الموجودين في شوارع العراق وعلى طرقه العامة، الذين يزرعون الألغام، ومصائد المغفلين، ويطلقون أرباب جي على قوافل الشاحنات، ويسقطون قنابل الهاون على مراكز الشرطة، ويقودون سيارات مقنبلية انتحارية، ويغتالون رجال الدين وعمال المعونة، هم من بقايا البعثيين الذين لوث الدم أيديهم من قبل ويواجهون مستقبلاً متجهماً في عراق حر.

والعراق بعد سقوط صدام حسين وولديه صار مغناطيساً يجتذب الجهاديين والإرهابيين. وحتى وقت قريب، تدفقوا عبر حدود العراق مع سورية وإيران، وهي حدود تسمح بالتسرب. ولكن قوات الأمن العراقية الآن بعد أن تم تجديد حيويتها، وبعد أن دربتها قوات التحالف العسكرية، تقوم ببطء بإغلاق تلك الحدود لمنع التسرب.

وهذا لا يعني أن العنف سينتهي عندما يتم أسر أو قتل آخر بعثي متعصب أو جهادي أجنبي. مئات الآلاف من العراقيين، من أعضاء قوات صدام العسكرية، إضافة إلى البيروقراطيين البعثيين من المستوى الأدنى أو المتوسط، هم الآن خارج العمل. ومن دون أعمال، ومن ثم من دون أمل لهم في أن يكونوا قادرين على العناية بأسرهم، فإنهم قد تحولوا إلى "شباب غاضب" يجب على الحكومة العراقية الجديدة أن تتعامل معهم. وعندما يكون هناك عمل، وهو الفرصة العملية للبناء من أجل حياة أفضل، فإن السلام سيأتي بعد ذلك.

من المؤكد أن الفوضى سوف تستمر لبعض الوقت الذي تتولى فيه الحكومة الانتقالية المؤقتة مقاليد السلطة على أمة ذات سيادة. وبالنسبة إلى البعثيين، فإن هذا هو ما سيكون الناقوس الذي يدق لإعلان موت آمالهم في السيطرة. وأما بالنسبة إلى الجهاديين، فإن العراق المتعدد الأعراق والذي يسمح فيه التسامح الديني بحرية العقيدة للشيعية والسنّة، سوف يهزم آمالهم المظلمة كذلك.

في المستقبل القريب سوف نستمر في رؤية العنف، والكثير منه سوف يسدّد نحو جند التحالف. وسيكون قادة العراق الجدد، بدءاً من أعضاء الوزارة أو ضباط

القوات المسلحة والعسكر، إلى المسؤولين في الشرطة، نزولاً في كل الطريق إلى معلمي المدارس وعمال حقول الزيت، سيكونون باستمرار أهدافاً للتخويف. وسيكون الخبراء الفنيون الدوليون، والعاملون في المعونة الإنسانية، ورجال الأعمال الأجانب الباحثون عن الفرص في العراق الجديد هم أيضاً على أجهزة تسديد المقاتلين.

في هذه الشهور الصعبة، سوف تمتحن عزيمة الولايات المتحدة امتحاناً مؤلماً. فوسائل الإعلام الإخبارية، التي قام مراسلوها الملحقون بالوحدات العسكرية بعمل رائع في أثناء عمليات القتال الكبيرة من عملية حرية العراق، سوف تركز تركيزاً مقتصرأً على الإصابات فقط. وكلنا جميعاً، وخصوصاً أولئك الذين ارتدوا بزة أمّتا، سوف نحزن في كل مرة نسمع فيها عن شاب قتل أو شابة قتلت في انفجار انتحاري أو في هجوم هاون، أو في لغم على جانب الطريق. وهذا الوهج الذي لا يلين من تسليط الضوء الإعلامي على الإصابات سوف يستمر في إخفاء إنجازات التحالف منذ إزالة النظام البعثي.

ولكن الرجل والمرأة في شوارع مدنهم في أمريكا يعرفون الحقيقة. إن قوات التحالف قد أنشأت آلافاً من المدارس أو أعادت بناءها، والعديد منها كان الحرس الجمهوري والفدائيون قد استخدموها مستودعات للأسلحة ومراكز للقيادة. وهذا النمط نفسه هو الذي يسود بالنسبة إلى المستوصفات الريفية ومستشفيات المدن التي تضررت بالحرب أو أهملت بسببها. وفي هذا اليوم، شكراً إلى حد كبير للتحالف وللمحترفين الطبيين العراقيين الذين تعاونوا بشجاعة مع سلطة التحالف المؤقتة، فإن الرعاية الطبية في العراق تفوق إلى حد بعيد الرعاية التي كانت متوافرة تحت حكم البعث.

وكان هناك تقدم مستمر في نواح أخرى كذلك. فعلى الرغم من العنف المتواصل، فالطاقة الكهربائية المتوافرة اليوم هي أكبر مما كان موجوداً منها قبل عملية حرية العراق. وصناعة الزيت العراقية التي طال إهمالها، وهي دم الحياة لاقتصاد الأمة، يجري اليوم تحديثها ببطء ولكن بثبات. وعلى الرغم من التخريب

المتواصل، تخطى العراق الآن الإنتاج السابق على الحرب، واقتصاد زيت البلاد على الطريق ليصير مسهماً كبيراً في إنتاج الطاقة في العالم مرة أخرى.

نعم، أمريكا تعرف الحقيقة، وذلك لأن أبناءها وبناتها هم الذين ساعدوا العراق على التحرك قدماً. وفي الواقع، فإن كل أسرة أمريكية قد لامسها التأثير بهؤلاء الرجال الرائعين والنساء الرائعات الذين يرتدون البزة العسكرية. وهناك قصة ملهمة هنا، وسيقصها المؤرخون. وحتى ذلك الحين، نستطيع أن نتوقع أن تكون عناويننا الرئيسية محكومة بالاغتيالات، والقنابل الانتحارية، والإصابات في صفوف التحالف. وفي بعض المناسبات، ولكننا نأمل ألا يكون ذلك غالباً، سيكون هناك ما هو أسوأ، وذلك من مثل الفصل المخزي الذي حدث في الأشهر الأولى من العام 2004، عندما تم الكشف عن الجرائم التي ارتكبت في سجن أبو غريب. هذه الانتهاكات لا يمكن أن تغتفر أبداً. إن ملايين الرجال والنساء لبسوا بزة القوات العسكرية لأمريكا بشرف ورحمة. وكما سبق أن قيل كثيراً، لا يحتاج الأمر إلا لقلة قليلة لتلطيخ سمعة الجميع. ذلك أمر يؤسف له، ولكنه صحيح.

لقد رأيت جنوداً يعطون آخر زوج جرابات لأسرى العدو الذين كانوا يحتاجون إليها. ورأيت الدموع في عيون خيالة يساعدون المدنيين الجرحى، وهي نتيجة لا مناص منها للحرب. مثل هذه الإنسانية ليست استثناء، إنها القاعدة. أنا فخور بمئات الآلاف من الأمريكيين الذين يخدمون بلادهم في أماكن وتحت ظروف لا يستطيع معظمنا أن يتخيلها.

وبالنسبة إلى القلة التي تلوث خدمة الكثرة، فإن نظام عدالتنا الجنائية، العسكري منه والمدني معاً، سوف يعمل واجبه. ولكن المحزن أن صور الكلاب والسجناء العراة قد احتلت مكان صور أبشع منها هي صور مقابر العراق الجماعية. في سياق ثقافته وسكانه، فإن التعذيب والمجازر التي ارتكبتها نظام صدام حسين البعثي طوال عقود قاربت فظايعات الحرب العالمية الثانية، وغولاغ السوفييت، وكمبوديا تحت حكم الخمير روج، والبلقان، وحقول القتل في رواندا. هناك دليل على

أن 290.000 على الأقل من الأبرياء العراقيين من الرجال والنساء والأطفال قد قتلوا بناء على أوامر صدام وولديه. ويحتمل أن يكون العدد أكبر من ذلك بكثير، ولكنه لن يعرف أبداً على وجه اليقين.

نعم، إن أمريكا ستحمل على كاهلها عار إساءات أبو غريب. ولكن أمريكا تستطيع أن تفتخر بحقيقة أخرى وهي أن جرائم نظام صدام حسين قد وصلت إلى نهايتها.

سوف تبقى قوات التحالف هدفاً عاماً، لأنها جيش أجنبي على أرض العراق. ومع ذلك فليس هناك قائد عراقي له مصداقية طلب منا أن نغادر البلاد. أعداء التقدم المتجاوزون لحقوق الآخرين فقط هم الذين يسعون إلى إجبار التحالف على الخروج من العراق. إنهم يسعون إلى النصر من خلال "أثر مدريد"، ويحرضون على الشقاق والتشظي في صفوف التحالف عن طريق إيقاع إصابات في أعضائها إفرادياً. فعندما قام الإرهابيون المنتسبون إلى القاعدة بقتل مئات من المسافرين في القطارات في عاصمة إسبانيا، انتخب المقترعون في التصويت حكومة جديدة تسير على منصة وعدت بأن تسحب الجند الإسباني من العراق. وأتوقع أن يؤكد المستقبل أن هذا القرار كان قراراً غير حكيم.

الإرهابيون في العراق على وجه العموم، وفي جميع أنحاء العالم، سوف يواصلون مهاجمة قواتنا في المكان الذي تكون فيه أكثر ما تكون عرضة للهجوم. ومع كل رجل يقتل أو يجرح أو مع كل امرأة تقتل أو تجرح ومع كل أزمة، ومع كل تحقيق، فإن لعبة لوم واشنطن سوف تمتد لبضع فرص أخرى. بوش يجب أن يطرد، ورامسفيلد يسرح. أنا أتعجب باستمرار من التفكير الضحل الذي يستند إليه مثل هذا التعليق.

الأمر تفشل وتضل الطريق في الحرب. ولو كانت الحرب سهلة ومريحة لكان هناك الكثير جداً من الحروب. الأمريكيون يخوضون الحروب عندما نكون مهددين فقط. وأنا لا أريدها أن تكون على أي طريقة أخرى.

عندما أتأمل في خبرتي طوال العقد الماضي، أتمنى لو أن بعض الأشياء فعلت على نحو مختلف. أتمنى لو أن دون رامسفيلد وكولن باول أجبرا وزارتي الدفاع والخارجية على العمل معاً بشكل أوثق. وأتمنى لو كان هناك نسخة عراقية من مؤتمر بون، لاختيار قائد ومنحه الشرعية على الطريقة نفسها التي تم بها اختيار حامد قرضاي لأفغانستان. وأتمنى لو أن المجتمع الدولي أدخل المزيد من المال وبسرعة أكبر إلى العراق، وأن القوات العسكرية العراقية لم "تحل وتبعد" عندما تحرك جندنا إلى بغداد. أتمنى لو أن هؤلاء الشباب الغاضبين قد التزموا بدلاً من ذلك ببناء العراق الجديد. وأتمنى لو أن الرئيس كلينتون لم ينسحب من الصومال في 1993 عندما عانينا من إصابات في أزقة مقديشو. وأتمنى لو أن مجلس الشيوخ لم يدمر القدرة الاستخباراتية البشرية لأمريكا بعد الحرب الباردة.

في الأيام العصيبة في ما بعد الحرب، طلب مني بعضهم أن ألقى اللوم، أو أشير إلى الأطراف المذنبة، أو أندد بالذنوب المرئية. وقد قلت، وسأواصل القول إن هناك ما يكفي من اللوم ليرضى الطلب. نحن نعيش في مجتمع ديمقراطي، وبلد حر. ونحن نختار قادتنا من أجل حصافتهم المثبتة، ونتوقع منهم أن يستخدموا تلك الحصافة.

وعندما أذكر نفسي أين كنت في 11 أيلول/سبتمبر 2001، أتذكر كيف شعرت، وأتذكر عمق قلقي على أسرتي وبلادي. أمريكا تمر عبر منعطف في التاريخ، إن المستقبل لن يبدو مثل الماضي. لقد رأينا ممارسة الصحافة غير العادية في أثناء زمن غير عادي.

وأنا لم أتفق مع كل قرار اتخذ في السنوات الثلاث الماضية، مثلما لم أتفق مع العديد من القرارات التي اتخذت من قبل. وجدت خطأ في أسلوب دون رامسفيلد الإداري المركزي، وجدت خطأ في التناول غير العملي للأمور لدى دوج فيث. وغضبت من التكبر الفكري من بعضهم في هذه الإدارة، مثلما كنت غاضبة من الظاهرة نفسها في إدارة كلينتون. وكثيراً ما كنت محبطاً من الآراء الضيقة لرؤساء الخدمة في بزاتهم.

ولكنني لم أشك أبداً في ولاء أو في دافع أي من هؤلاء الرجال. لقد استخدموا حصافتهم في وجه قرارات صعبة، مستندة إلى المعلومات المتيسرة.

لو كان علينا أن نعود ونعملها كلها ثانية، مسلحين بما نعرف في هذا اليوم، فإنني متأكد من أن بعض القرارات سيكون مختلفاً.

ولكنني مع ذلك، لست متأكداً من أن جميع القرارات المختلفة ستكون أفضل. شكراً للقرارات التي اتخذها قادة أمريكا، فشعبا أفغانستان والعراق، وهما أكثر من خمسين مليوناً من الرجال والنساء والأطفال، هم أحرار في هذا اليوم. والإرهابيون لا يخططون بعد اليوم لضربات ضد أمريكا من ملاذات في هذين البلدين. والبلدان المارقة في كل أنحاء العالم قد تلقت إشعاراً بذلك. ونحن لا نحتاج إلى الاعتذار عن هذه النجاحات. وسوف يسجل التاريخ أن إستراتيجية أمريكا لقتال الإرهاب كانت إستراتيجية جيدة، وأن الخطة التي وضعت من أجل عملية حرية العراق كانت خطة جيدة، وأن تنفيذ تلك الخطة على أيدي شبابنا وشاباتنا في القوات العسكرية كان تنفيذاً منقطع النظير في الامتياز لا يدانيه أي شيء في حوليات تاريخ الحرب.

وكثيراً ما أسأل، ما الذي وجدته أكثر إثارة للمفاجأة في أثناء مدة خدمتي في القيادة المركزية. وفي كل حالة أجيب: غياب أسلحة الدمار الشامل المجهزة في أسلحة للرمي.

لقد ذهبنا إلى الحرب لإزالة هذه الأسلحة. ويقول بعضهم الآن إننا وقعنا ضحية فكر غرر بنا لنعتقد أنها موجودة، ولذلك فنحن كنا على خطأ في إطاحة نظام صدام حسين وتحرير العراق.

أنا لا أوافق. ويميل النقاد إلى تجاهل شهادة الدكتور ديفيد كيب في مجلس الشيوخ في شهر كانون الثاني/يناير 2004، وهو خبير الأسلحة الذي قاد مجموعة الولايات المتحدة لمسح العراق والتي جابت البلد بحثاً عن أسلحة الدمار الشامل لمدة ستة أشهر، ابتداء من شهر حزيران/يونيو 2003.

وقال كيي للجنة الشيوخ: "دعوني أبدأ بالقول، إننا كنا جميعنا تقريباً على خطأ، وأنا بالتأكيد أضع نفسي في الجملة هنا. "وشدد في القول": لقد كان رأيي هو أن أفضل دليل كنت قد رأيته هو أن العراق امتلك فعلاً أسلحة تدمير شامل".

ويجب أن أشير أيضاً إلى أن العديد من الحكومات التي اختارت ألا تساند هذه الحرب، ومنهم بالتأكيد الرئيس الفرنسي جاك شيراك، كما أتذكر في شهر نيسان/إبريل من العام الماضي، أشارت إلى امتلاك العراق أسلحة تدمير شامل.

"والألمان اعتقدوا بالتأكيد، حسب إدارة استخباراتهم، بأنه كان يوجد هنا أسلحة تدمير شامل".

وفي شهر تشرين الأول/أكتوبر 2003، قدمت مجموعة كيي لمسح العراق تقريرها عن موجوداتهم الأولية. أكد تقريرهم أن برامج صدام حسين لأسلحة الدمار الشامل "امتدت لمدة أكثر من عقدين، وشملت آلاف الناس، وبلايين الدولارات." وهذه البرامج "كانت محمية عن عمد بالأمن وبعمليات الخداع التي استمرت حتى إلى ما بعد نهاية عملية حرية العراق. "وحتى عندما دخلت قوات التحالف بغداد، كان الضباط العراقيون يدمرون السجلات والتجهيزات المرتبطة بالأسلحة الكيماوية والحيوية.

"بعض العاملين في أسلحة الدمار الشامل عبروا الحدود في فترة ما قبل الصراع وفي أثنائه ويمكن أن يكونوا قد أخذوا الأدلة وأخذوا المواد المتعلقة بالأسلحة".

لقد وجدت مجموعة مسح العراق "شبكة مختبرات سرية وبيوتاً آمنة داخل إدارة الاستخبارات العراقية" وهي التي خبأت بنجاح تجهيزات ومواد البحث في الأسلحة الكيماوية والحيوية عن مفتشي الأمم المتحدة في الأشهر الأولى من العام 2003. ووجدت المجموعة أيضاً دليلاً عن بحث جديد في عوامل الحرب الجرثومية المميتة.

واكتشفت مجموعة كيميائية كذلك العديد من المنشآت الصناعية "مزدوجة الاستخدام" التي كانت قد أعدت خصيصاً لاستئناف إنتاج الأسلحة الكيميائية.

والحقيقة، أن قوات التحالف العسكرية وهي تفتش المواقع المحتملة لأسلحة الدمار الشامل وجدت أطناناً من الكيماويات الوسيطة مخزنة على انفراد منفصلة عن المخزونات التجارية، وكأنها موضوعة لتكون جاهزة للإنتاج السريع.

تقرير كيميائي عالياً وبوضوح لي: ففي الوقت الذي قد لا نكون وجدنا أكداً من أسلحة الدمار الشامل، فإن ما كشفه التحالف كان مكافئاً لاكتشاف مسدس مفكك ملقى على الطاولة إلى جانب صوانٍ من الطلقات المرتبة ترتيباً أنيقاً.

وإن أي إنسان ما يزال مرتاباً إن كان نظام صدام حسين شكل تهديداً للأمن الدولي في هذا العصر، عصر الإرهاب الدولي، سيعمل عملاً حسناً إن قرأ آلاف الصفحات من الدلائل التي قدمتها مجموعة مسح العراق.

وحتى مع كون مجموعة كيميائية لمسح العراق لم تجد أكداً، فإن كيميائي أكد أن إطلاحة صدام حسين كان نصراً بناءً على أي عدد من الأسس.

قال كيميائي: "أنا أعتقد أن العالم مع اختفاء صدام حسين وإزاحته صار أكثر أمناً. وأعتقد أننا عندما نمتلك السجل الكامل، فإنكم سوف تكتشفون أن [العراق] بعد العام، 1998 صار نظاماً فاسداً فساداً كاملاً. الأفراد يخرجون من أجل حمايتهم الخاصة، وفي عالم نعرف فيه أن آخرين يبحثون عن أسلحة دمار شامل، فإن الاحتمال عند نقطة معينة في المستقبل لبائع ولمشتري أن يلتقيا كان احتمالاً سيجعل العراق بلداً أكثر خطراً بكثير."

وتستمر الاكتشافات: مقذوف مدفعية من عيار 155 ملم مليء بأربعة لترات من غاز السارين، غاز الأعصاب، وجد في بغداد في شهر أيار/مايو 2004، وذلك يبرهن بالتأكيد أن صدام حسين كان يكذب عندما ادعى أنه كان قد دمر كل ذخيرة في أكداً. عندما وجدت هذه القذيفة، في أداة تفجير مرتجلة على قارعة الطريق،

قللت وسائل الإعلام الإخبارية من أهمية هذا الاكتشاف، مدعية أن القذيفة كانت ببساطة بقية "منسية" من حرب العراق مع إيران في الثمانينات من 1980.

ومع ذلك، يظهر لي أن من المهم أن ندرك أهمية سلاح مثل هذا. الحرس الجمهوري الخاص، والحرس الجمهوري، وقوات الأمن الداخلي كانت تعرف بسيطرتها المحكمة على توزيع الذخائر الكيماوية والحيوية. وذلك يترك استنتاجين فقط: إما أن قذيفة غاز السارين غير المتفجرة التي وجدت في بغداد كانت قد أبعدت على أيدي مرتدين خونة أو إرهابيين من كدس تحت السيطرة، أو أنها كانت ذخيرة من مخبأ أكبر لدى النظام. وفي كل حالة من الحالتين، فإن اكتشاف مقذوف غاز الأعصاب في حالة جيدة، وهو مملوء بعوامل قابلة للحياة، يفقد الصدقية لمزاعم النظام التي كانت دائماً موضع ارتياب والتي تزعم أن كل أمثال هذه الأسلحة، أسلحة الدمار الشامل، قد تم تدميرها.

وفوجئت بأن أسلحة الدمار الشامل لم تستخدم ضد جنودنا. وفوجئت بأننا لم نجد أكداً من مثل هذه الأسلحة في العراق. ولكنني في المقابل راض من الحقيقة الواقعة وهي أن نظاماً استخدم أسلحة الدمار الشامل لقتل الآلاف من شعبه لن يجد الفرصة أبداً لاستخدامها في أمريكا.

لو سمحت الولايات المتحدة للبعث العراقي أن يسهل الاتصال بين أسلحة الإرهاب الشامل وبين الإرهابيين من أمثال أبو مصعب الزرقاوي لكان هذا أمراً لا يغتفر لها. إن عشرات الآلاف من أوساط الأمريكيين الذين قابلتهم طوال السنوات الماضية أقتنعوني بأن الأغلبية من إخواني المواطنين يفهمون ذلك المبدأ ويوافقون عليه.

إنني أتذكر الفيلسوف البريطاني من القرن الثامن عشر إدموند بيرك الذي ذكرنا بأن "الشيء الوحيد الضروري لتحقيق انتصار الشر هو ألا يفعل الرجال الطيبون شيئاً".

يجب على الولايات المتحدة أن تساعد على بناء حكومة عراقية ذات سيادة وتمثيل للجميع. ولكن العمل الواجب أمامنا ضخّم. وسوف يستغرق الأمر سنوات قبل أن تتحول صناعة زيت العراق التي أعيد بناؤها إلى حجر الزاوية للربحية. في المرحلة الانتقالية، يجب على التحالف، مع المساعدة من المجتمع الدولي، أن يستمر في منح وإقراض مبالغ ضخمة من المال لإعادة بناء البنى التحتية المادية والإنسانية. صدام والبعثيون نهبوا ثروة العراق للكسب الشخصي. وعلينا الآن أن نساعد شعب العراق إلى أن تستطيع البلاد أن تدفع بطريقتها الخاصة. وإن الفشل في عمل ذلك سيكون قصر نظر إلى درجة مؤسفة. أمريكا مخولة السلطة في مستقبل العراق. وإن ضمان نجاح ديمقراطية عراقية في مركز الشرق الأوسط يعدُّ بربح كبير على استثمارنا.

إن التحالف وشعب العراق يحققون تقدماً، وذلك على الرغم من العرض اليومي من العناوين الرئيسية السلبية. وبعد انتخابات الرئاسة الأمريكية في العام 2004، عندما سيكون 35 بالمائة من القوات العراقية العسكرية ومن قوات الأمن قد تدرب ونشر في الميدان، فإن مستوى العنف وعدد الإصابات سوف يتناقص على الأرجح. إن جاذبية "أثر مدريد" في أمريكا سوف يفقد بريقه لبقية البعثيين ذوي الخط المتشدد وللإرهابيين، وسوف يبدأ العراقيون أنفسهم بالإحساس ببركات الحرية.

ومنذ شهر إبريل/نيسان 2003، طرت فوق القطع المتنوعة من قنوات الري في قلب أراضي ما بين النهرين. ونظرت إلى هرم الزقورة في مدينة أور، وإلى جدران بابل التي أعيد بناؤها. هذه أرض كان الزمان فيها تقليدياً يقاس بالقرون، وبالألفيات، لا بالعقود - ولا بالشهور بالتأكيد.

ومع ذلك، وللتناقض، فإن الشعب العراقي يتحرق شوقاً إلى التقدم بعد هزيمة النظام العراقي. فالعديدون قضوا حياتهم كلها تحت القمع القاسي، وتوقعوا من التحالف الذي قاده الأمريكيون، واكتسح قوات صدام العسكرية المتباهية وأزاحها جانباً بسهولة كبيرة، أن يعيد بناء بلادهم بسرعة وسهولة مساويتين.

بعد عام من الآن، سيكون العراق بلداً مختلفاً. وتقدمنا المستمر الثابت في أفغانستان هو عامل واحد من العوامل التي تمنحني الثقة بأن العراق سيكون قادراً على أن يوفر لنفسه الأمن في السنوات القادمة.

إن الحالة الأمنية في أفغانستان أبعد من أن تكون كاملة، ولكن الأفغان في الوقت نفسه نشروا في الميدان جيشاً وطنياً وقوات لتطبيق القانون ضرورية لتسمح لبلاد حرة أن تتطور وتزدهر. ومثل البعثيين في العراق، فإن بقايا الطالبان، ومقاتلي القاعدة الأحياء في الجبهة الجبلية الوعرة من جنوب شرق أفغانستان، يعارضون بعنف قيام بلد موحد، ناجح، متعدد الأعراق. ومثل البعثيين أيضاً، فلا الطالبان الذين وصلوا إلى طريق مسدود ولا العريان الإرهابيون الذي بقوا على قيد الحياة قادرون على الأرجح أن يصلحوا ويعملوا مع حكومة حامد قرضاي لبناء بلد جديد.

سوف يتوجب سحقهم. وإلى أن يتم استكمال تلك المهمة، سوف تدعو الحاجة إلى وجود قوات التحالف في أفغانستان وفي العراق. في شهر أيلول/سبتمبر في العام 2001، عندما أخذت التصور العملياتي إلى البيت الأبيض للحصول على موافقة الرئيس عليه، توقعت أن تدوم المرحلة الرابعة إلى مدة تطول إلى خمسة أعوام. وكان ذلك منذ ثلاث سنوات. ومن منظوري، فنحن ما نزال على خط التوقيعات ذلك في أفغانستان، ونستطيع أن نتوقع الزمن نفسه في العراق.

وفي الحقيقة، يكشف التاريخ أن الحروب تنتهي في الغالب إلى فوضى، وهي فوضى تستمر لسنوات بعد أن تكون آخر قذيفة من دبابة أو مقذوف من مدفعية قد قذفت. وقد لاحظ حديثاً المؤرخ العسكري البريطاني المشهور جون كيغان أن الحربين العالميتين اللتين وقعتا في القرن العشرين، وانتهتا في هدنة أو استسلام، تبعتهما عقود من العنف المضطرب. وبعد الحرب العالمية الأولى، أشعل انهيار الإمبراطوريتين العثمانية والنمساوية الهنغارية شرارة حروب أهلية في أوروبا الوسطى والشرقية، وفي البلقان، وآسيا الصغرى، دامت طوال سنوات. وبعد هزيمة النازيين في شهر أيار/مايو 1945، اشتعلت الحرب الأهلية في البلقان. وعندما

انتهت الحرب العالمية الثانية في المحيط الهادئ، استمرت الثورات المناهضة للاستعمار بعد الاحتلال الياباني لجنوب شرق آسيا طوال عقد من الزمان.

وفي هذا اليوم، ولأننا ببساطة نقاتل بذخائر الهجوم المباشر المشتركة، وبالمركبات الجوية من دون طيار، وبمتبع القوة الزرقاء، وبالاتصالات عبر الأقمار، فإن هذا لا يعني أن العواطف الإنسانية من الكبرياء، والطمع، والغيرة، وكراهية الأجانب قد أخدمت. هذه الخصائص الإنسانية السلبية منتشرة لسوء الحظ في كل من العراق وأفغانستان معاً. سوف تستغرق سنوات، ولكن السلام والرفاهية سوف يظهران في نهاية المطاف.

إن إحدى الميزات للسفر بالنفاثة القيادية هي أن إدارة الطيران المدني تحدد في الغالب ارتفاع الطائرات فوق ارتفاع 40.000 قدم. وأنا أستمتع بالمنظور الواسع للأرض من هذا الارتفاع.

عندما نترك العرض الأخضر لدلتا المسيسيبي، تظهر أمامنا حقول القطن الدائرية المروية من تكساس الشمالية. وأتذكر جهاز حفر الآبار الذي كان لوالدي في ستراتفورد هناك وفوق الأفق الشمالي. ومنذ الطفولة كنت معجباً بالري، بسحر اكتشاف الماء الذي يحول الأرض الجافة إلى أرض خضراء. وكنت أفكر، وأنا أراقب أقواس قزح الصغيرة المشكلة من رشاشات الري على بعد أميال تحتنا، في مئات الهكتارات من الصحراء المروية التي رأيتها في هذا الربيع في إسرائيل.

هبطنا كاثي وأنا في تل أبيب في مساء صاف دافئ في شهر آذار/مارس، مسافرين مع أصدقائنا مارتي ونانسي إدلمان. وكانت هذه أول رحلة لنا إلى إسرائيل. وطوال سنوات كنت أقول لأصدقائي العرب إنني لم أكن أملك "تأشيرة إسرائيلية على جواز سفري" وهذه طريقة غير رسمية لأتركهم يعرفون أنني كنت أفهم جانبهم من القصة. أما الآن فأنا أملك تلك التأشيرة.

من الطبيعي أنني كنت لوقت طويل محباً للاطلاع على إسرائيل، بصفتي

عسكرياً وبصفتي الضابط العسكري الكبير لبلادي في المنطقة. ومن منظور عسكري احترافي، فإن قوات الدفاع الإسرائيلية وحدة عسكرية ذات مستوى عالمي. ومن حيث المعدلات والنسب، فقد امتلكوا من الضباط ومن ضباط الصف الذين يتمتعون بالخبرة القتالية الناجحة العدد نفسه الذي امتلكته القوات المسلحة الأمريكية. وكان جندهم منضبطين، ومدربين ومجهزين على نحو عال ممتاز.

ولكن وبصفتي مسؤولاً أمريكياً عالياً كنت دائماً محبطاً من أن كلاً من الحكومة الإسرائيلية والسلطة الفلسطينية تحت يأسر عرفات قد قضوا سنوات وهم يتصارعون من أجل الوصول إلى تسوية تسمح لكلا الشعبين أن يعيشا بسلام. والانتفاضة الثانية التي بدأت في أيلول/سبتمبر من العام 2000 ما تزال تتقد وتلتهب منذ ذلك التاريخ، بتكلفة من آلاف الأرواح من الجانبين. ويبقى الصراع الإسرائيلي الفلسطيني صراعاً مثيراً دائماً بين الولايات المتحدة وبين العديد من البلاد الواقعة في منطقة المسؤولية في القيادة المركزية.

ولن أنسى أبداً اليوم الذي زرت فيه الفريق الأول علي بن محيا، رئيس الأركان العامة في المملكة العربية السعودية، لأناقش معه علاقتنا، العسكري مع العسكري. ولكن الفريق المحيا بدل اتباع جدول أعمالنا ناولني نسخة من جريدة محلية تصدر باللغة الإنجليزية. وعلى الصفحة الأولى كانت هناك صورة كبيرة لطفل فلسطيني في الثامنة من عمره وهو خائف أمام جندي إسرائيلي مدجج بالسلاح، وكان الطفل مذعوراً للغاية حتى إنه بلل بنطلونه.

وقال ابن محيا: "يا جنرال فرانكس، سياسات بلدكم لن تتجح أبداً في الشرق الأوسط طالما يجب علينا أن نرى مثل هذه الصور كل يوم."

كان على حق، طبعاً. ولكن من الصحيح بشكل مساو أن سياسات، وآمال، وطموحات الشعب العربي لن تكون مفهومة أبداً في الولايات المتحدة طالما نحن نرى صور الجثث المشوهة لأطفال المدارس الإسرائيليين معلقة في الحطام الأسود لحافلة ركاب في تل أبيب مدمرة بمفجر انتحاري فلسطيني.

في مسيرتي الوظيفية أمضيت عقوداً أدرّب لأقاتل في حروب كان يجري التكهّن بها على مثل هذه النزاعات التي تبدو عسيرة، من مثل: الحرب الباردة في أوروبا، والموقف المتعادل المتوتر في كوريا الشمالية. وكنت اعتقدت فيما مضى أن النزاع الإسرائيلي-الفالسطيني يقع في مثل هذا النوع من التصنيف.

بعد ذلك أقنعني صديقي مارتي إلمان بأن أزور إسرائيل.

ظاهرياً، من المستبعد أن نكون أنا ومارتي صديقين. فهو محام موهوب من مانهاتن، وديمقراطي ليبرالي، ولم نتحرك أبداً في الدوائر الاجتماعية نفسها. لقد تقابلنا في الربيع من العام 2002 عندما أعطيت جائزة من مؤسسة الشجاع (إنتريد فاونديشن) على ظهر حاملة الطائرات المسحوبة من الخدمة والتي تحمل الاسم نفسه، وهي الآن متحف عسكري تجلس بكبرياء على منصة في وسط المدينة على نهر هدسون في نيويورك. وقد تلقى مارتي جائزة تحية الشجاع (انتريد سليوت) في الحفل نفسه عن خدمته التطوعية الطويلة لأعضاء الخدمة العسكرية الأمريكية وعائلاتهم.

وجدت عمله مثيراً للاهتمام. فانسجمنا معاً فوراً.

كان القصد من رحلتي إلى إسرائيل هو حضور احتفال البدء بجامعة جديدة متعددة الأعراق تبنى على حدود إسرائيل والأردن. وسوف يشكل الشباب الفلسطينيون، والأردنيون، والإسرائيليون الجسم الطلابي، ويتلقون التعليم على يد هيئة تعليم دولية. وترعى هذه المؤسسة جامعتا كورنل وستاندفورد ومؤسسة تجسير الصدع (بريدجنغ ذا ريفت فاونديشن)، وهي المؤسسة التي ينتسب إليها مارتي.

وغاية المؤسسة هي خلق مركز امتياز وإنجاز أكاديمي، يستطيع فيه الجيل التالي في المنطقة أن يتأمل في مستقبله المشترك، وأن يتقابل أحدهم مع الآخر بوصفهم بشراً لا أعداء، وربما يبدؤون ببناء مجتمعات تستطيع أن تعيش بسلام.

اليهود والعرب كلاهما يمتلكون جذوراً عميقة في هذه الأرض القاسية. ونزاعات المائة الأخيرة من السنين قد لا تُسوَّى في مدة حياتنا، ولكن ربما في أحد

الأيام، عندما يتقابل أبناء الطلاب الذين سيدرسون في هذه الجامعة، في اجتماعات لم الشمل، التي تجمع آباءهم مع زملائهم في فصولهم الدراسية، سيكون هناك كراهية أقل وفهماً أكبر.

وكما هو الحال في العالم العربي إلى حد كبير، فإن الشباب الفلسطيني لا تساوره الأوهام. فهم يرون المستقبل بلا أمل. ومع الافتقار إلى القيادة الأخلاقية القوية، ومع تلقي التعليم في الغالب في خلفيات بيئية متطرفة، فإن هؤلاء الشباب يغويهم أولئك الذين يفرسون فيهم ثقافة من التعصب العنيف التي تكرم انتحار الشهيد.

وقد ساند صدام حسين ونظامه هذا الإرهاب عن طريق تقديم 25.000 دولار أمريكي لعائلات كل متفجر انتحاري فلسطيني، وهي أموال كان يمكن أن تستخدم لبناء المدارس والمستشفيات، ولتوفير الأعمال بدلاً من نشر الموت والتدمير.

لقد رأيت نظراء لهؤلاء الشباب في الأزقة الضيقة التي تنتمي إلى القرون الوسطى في اليمن وفي مدن الأكواخ في كراتشي، وفي الأميال التي لا نهاية لها من المشاريع الحكومية للإسكان الممتدة إلى الصحراء السعودية من الشوارع العريضة المزروعة بخطوط النخيل في الرياض وجدة. إن هؤلاء الشباب والشابات، وهم يواجهون بطالة مزمنة، ومجتمعات لا مكان فيها للتقدم الذي يستحقونه، ويفريهم رجال الدين المتطرفون الذين خطفوا وشوهوا الجوهر السلمي للإسلام، هم جيش من الإرهابيين المحتملين.

إذا كان لدورة العنف أن توقف، في أي وقت، فسوف يتوجب على قادة إسرائيل القادمين، وقادة فلسطين المستقلة، وقادة بلدان أخرى عديدة جداً في المنطقة، أن يبنوا مستقبلاً منتجاً من أجل "فوج الشباب" هذا، الذي يعاني الحياة لا الاستشهاد، والذي يكافئ الإنجاز والتسامح. وهذا تحد هائل - تحد يرى كثيرون جداً أنه لا يقهر.

ومع ذلك فعندما وقفنا كاثي وأنا في موقع هذه الجامعة الجديدة، في بساتين الزيتون القديمة وفي كروم العنب حيث تلقى الوحي أنبياء أديان العالم الثلاثة التوحيدية(*) الكبرى، وجدت أنا سبباً ذا مغزى للتفاؤل.

نعم، هناك سبب للتفاؤل، على الرغم من العرض اليومي للأخبار السيئة.

في 11 أيلول/سبتمبر 2001، عانت أمريكا أسوأ هجوم منفرد في تاريخ أمتنا. ومنذ ذلك الوقت، تصرفنا تصرفاً حاسماً للدفاع عن أرض وطننا ولهزيمة أنظمة إرهابية وجماعات إرهابية في ما وراء البحار. مقر القاعدة، وهو ملاذها السابق الذي لا يخترق، قد تم تدميره، ومعظم كبار قادتها قتلوا أو أسروا. ومصير أسامة ابن لادن يبقى مجهولاً، ولكنه لم يبق قادراً بعد اليوم على أن يتآمر ويمول هجمات جسورة في الملجأ الآمن من أفغانستان... وفي يوم سوف يتم "إحضاره للعدالة".

وقد خطا المجتمع الدولي، ومن جملته الحكومة السعودية، والأوروبيون خطوات ضخمة في قطع النسيج الذي يعمل في الظل، والمنتشر عبر الأمم، من المساندة المالية التي كانت في الماضي تغذي أكبر الجماعات الإرهابية. واتحدت الأمم معاً لتتقاسم المعلومات الاستخبارية ولتتعاون في عمليات سرية تستهدف الإرهابيين قبل أن يستطيعوا توجيه ضرباتهم.

في 7 أيلول/سبتمبر 2001، كنت قد عبرت عن القلق من أن هجوماً كبيراً على التراب الأمريكي يمكن أن يشعل شرارة خوف عام ينتشر فيقود إلى القانون العسكري. ولكن مخاوفي أثبتت أنها بلا أساس. ويسود في أمريكا حكم القانون، القانون المدني. ووضعت الإدارة ومجلس الشيوخ الخلافات الحزبية جانباً في أعقاب 9/11 وتصرفوا بسرعة لسن القانون الوطني، الذي مهد الطريق لإنشاء وزارة الأمن الوطني ووفر للشعب الأمريكي حماية أفضل مما كان لديه في الماضي. وعندما ينتهي عام الانتخابات هذا، فإنني أمل أننا سنترك السياسات الحزبية مرة ثانية خلفنا ونركز على تهديد هو من أخطر التهديدات التي سبق لأمريكا أن واجهتها.

(*) هذا كلام غير دقيق ما لا يخفى على القارئ الكريم، عيسى عليه السلام هو فقط الذي تلقى الرسالة في فلسطين.

في شهر آذار/مارس 2004، قدمت شهادة أمام لجنة من الهيئة الوطنية للهجمات الإرهابية، هيئة 9/11، في جلسة مغلقة. وكنت أحب أن أتحدث بصراحة لا تهرب فيها لمناقشة قضايا جوهرية على مستوى سري، ولم أكن بحاجة إلى الدعاية العلنية التي وجدها المسوقون لذواتهم حديثاً في جلسات الاستماع المتلفزة. وسألني واحد من أعضاء اللجنة وقال: "يا جنرال، ماذا كان يمكن أن يُعمل لمنع 9/11؟".

وطوال الساعات العديدة التي تلت عرضت رأيي الأمين، مبتدئاً بالتفجير الإرهابي لمهاجع قواتنا من مشاة البحرية في بيروت، في لبنان في العام 1983. ومتابعاً إلى هجوم الشاحنة المتفجرة في مركز التجارة العالمي في العام 1993، وتفجير أبراج الخبر في المملكة العربية السعودية في العام 1996، وتفجيرات السفارتين في إفريقيا الشرقية في العام 1998، والهجوم على سفينة الولايات المتحدة كول في عدن في اليمن في شهر تشرين الأول/أكتوبر 2000. ثم وصفت الخبرة الأمريكية في مقديشو في الصومال، في شهر تشرين الثاني/أكتوبر 1993. وقلت: "إن رأيي هو أن الإرهابيين كانوا يقتلون أمريكيين طوال أكثر من عقدين".

وفي أثناء ذلك الوقت لم نحافظ على الميزانيات والسلطة من أجل جمع المعلومات الاستخباراتية: الاستخبارات البشرية، والتجسس، والجواسيس حسب التصرفات القديمة الجيدة، وهم أحياناً جواسيس موثوقون، لم نحافظ عليها لتبقى على قدرتها على التماسي مع التهديد. وحتى هذا اليوم، فإن وكالة الاستخبارات المركزية لا تمتلك إلا نحو أحد عشر ألف ضابط في هذه الحالة فقط يعملون في كل أنحاء العالم، وهو سجل للخدمة السرية أصغر بكثير مما كان في أثناء الحرب الباردة. ومن المؤكد أن الولايات المتحدة وفرت المال وهي تخفض في ميزانية الاستخبارات البشرية. ولكن الحرية ليست مجانية. ولم يسبق أن كانت.

وقلت لهم، أمريكا ليست هي المسؤولة عن الإرهاب، ليس جورج دبليو. بوش، وليس بل كلينتون، الإرهابيون هم المسؤولون عن الإرهاب.

وبالنسبة إلى الإرهابي، فإن الضعف الوطني، أي، الميل إلى القطع والهرب، يبدو بالضبط مثل الضعف الوطني. والدروس التي حملها الإرهابيون من هذه الهجمات المبكرة على أمريكا كانت بسيطة: إذا قتلت الأمريكيين فإنهم سيخرجون.

تلك كانت الحكمة السائدة بين الإرهابيين، حتى 7 تشرين الأول/أكتوبر، عندما بدأت ذخائر الهجوم المباشر المشتركة تتساقط على مهاجع طالبان في قندهار ومعسكرات القاعدة في ديورانتا. وبعد شهرين، عرف الإرهابيون أنهم لم يبقوا قادرين على ضرب أمريكا مع الإفلات من العقوبة. وفي شهر آذار/مارس 2002، عندما قام الأوروبيون، والأستراليون، وخيالة العمليات الخاصة الأمريكيون والشباب الصلب من المغاوير ورجال المشاة يداً بيد وهزموا الإرهابيين الباحثين عن ملجأ في السلاسل الثلجية فوق وادي شاهي كوت، عندها تعلمت القاعدة أنهم كانوا يقاتلون تحالفاً وليس أمة منفردة.

وأنا أسأل مراراً: "هل تعتقد أن الثمن الذي تدفعه أمريكا بالدم بالحرب على الإرهاب هو ثمن مبرر؟"

وأنا أجيب دائماً: "طبعاً. وأنا لا أختلف عن أي رجل في حبي لجنودي، ومازلت أعتبر نفسي جندياً. ولكنه كان ضرورياً في الأغلب في تاريخ أمتنا أن تقاتل من أجل حرياتها، ولم يكن ذلك في السابق أكثر ضرورة أبداً منه في هذا اليوم. ويبدو لي أن مقاتلة الإرهاب له علاقة مع أطفالنا ومع أحفادنا أكثر من علاقته بنا."

في أعقاب النصر العسكري للتحالف في العراق، تم تعلم درس آخر: وهو أن أمريكا سوف تلتزم باستخدام قواتها العسكرية بشكل حاسم لحماية نفسها ولحماية أمن العالم. وانتشرت الرسالة سريعاً.

وكانت إحدى العلامات المبكرة للتقدم هي ذلك التحول الكامل من الرئيس معمر القذافي رئيس ليبيا. لقد أقر القذافي، وهو خصم طويل الأمد نحو أمريكا،

في أواخر العام 2003 أن نظامه كان قد صرف مئات ملايين الدولارات في تطوير أسلحة الدمار الشامل، ودعا المجتمع الدولي إلى التدخل وسلّم ما لديه من مشاريع أسلحة الدمار الشامل. وهناك أولئك الذين يعتقدون أنه تصرف بإخلاص وأمانة، في نهاية مفاوضات سرية طويلة المدة، قد يكون ذلك كذلك. ولكنني أود أن أفترض أن منظر دبابات أبرامز وهي تدرج عبر قلب بغداد، في أقل من شهر بعد بدء عبورها خط البدء في الكويت، قد يكون أعطى القذافي حافزاً قليلاً. وإذا كانت صور سي ان ان للدروع الأمريكية وهي في بغداد لم تكن مقنعة إقناعاً كافياً، فإن منظر صدام حسين الوسخ والملتحي وهو يسحب من حفرة في فسحة مزرعة بالقرب من تكريت ربما يكون قد شجع الرئيس القذافي لإعادة النظر في أولوياته. لقد بقي صدام حياً لمواجهة نظام العدالة لعراق حر. أما ولداه الوحشيان عدي وقصي فقد قُتلا على أيدي خيالة الفرقة 101 المنقولة جواً بعدما خانهما واحد من زملائهما البعثيين السابقين ليقبض الجائزة المالية من التحالف.

وعملية حرية العراق استحثت عمل مفتشي الأمم المتحدة عن الأسلحة كذلك. والوكالة الدولية للطاقة النووية، وقد شجعتها الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى، بدأت تمارس ضغطاً قوياً على الإيرانيين. ولم يبح الملالي الذين يديرون الحكومة في طهران حتى الآن بالطبيعة الحقيقية لمشروع أسلحتهم النووية. ولكن العالم يعرف ماذا يفعلون لأن الوكالة الدولية للطاقة النووية قد أصدرت تقريراً مفصلاً عن مشروعهم لليورانيوم المخصب. وقد أصدرت الوكالة الدولية للطاقة النووية، وبشكل مهم، قراراً يطالب بأن تقوم كوريا الشمالية بإعادة السماح بدخول المفتشين الدوليين للقيام بمسح منشآت الأسلحة النووية لتلك الدولة المارقة.

تميل النفاثة الصغيرة وتنزل بضعة آلاف من الأقدام. وبعيداً من ناحية الجناح الأيمن الضيق، تدرج سهول تكساس الوسطى وتظهر خضراء بفضل الأمطار الغزيرة الحديثة، ومع ذلك، فأنا أرى خطأً من أعمدة الغبار البني البعيد، عموداً تلو الآخر.

منظر مألوف: رتل من العربات المدرعة تتحرك مبتعدة مسرعة على طريق وسخ. ومع تشكيل أعمدة الغبار أشكال أهلة على جانبي الطريق، تلتمع الشمس وتنعكس عن ريش الدوَّار من طائفة عمودية مسلحة قريبة. أنا أعرف الأرض، إنها فورت هود، وأتذكر الأيام الطويلة والليالي التي قضيناها ونحن نحزم فرقة الخيالة الأولى لنشحنها إلى عاصفة الصحراء.

وتلك الدبابات التي تخبط عبر الأشجار الشائكة إلى هذا البعد تحتنا تذكرني بدبابات أبرامز التي أرسلها لواء العقيد راندي هاوس صاعدة في وادي الباطن في شهر شباط/فبراير في العام 1991. ولكن التشابه تشابه سطحي. فالرقباء والملازمون الذين يقودون الدبابات التي أراها في هذا اليوم يتابعون تقدم وحداتهم على شاشات حواسيب مربوطة بشبكة. وهم يتواصلون صوتياً وبالبيانات مع الأنساق العليا على وصلات لاسلكية مأمونة. ورجال الدبابات مدعومون بمدفعية الجيش الصاروخية ومدفعية المقذوفات التي تطلق ذخائر دقيقة التوجيه على إحداثيات وفق النظام العالمي لتحديد المواقع التي يتم تحديدها في الغالب بقوات العمليات الخاصة التي تكون قد دخلت أمام الدروع والمدفعية بوقت متقدم بواسطة المظلات أو بالطائرات العمودية.

وعلى سرعة هذه النفثة، تختفي ميادين الرماية في فورت هود في بضع دقائق. ولكنني رأيت ما يكفي. ففي شهر أو ما يقاربه ستكون تلك المعدات على الرمال الشاوية لمركز التدريب الوطني في فورت إروين، في كاليفورنيا. ولكن الجنود لن يعملوا في إدارة مجرد تمرين للجيش. سيكونون في تدريب مع مشاة البحرية، والقوات الجوية، وطياري هورنيت البحرية، والقبعات الخضر من فورت براغ. سيكونون في تدريب يصقل مهاراتهم معاً: السرعة، والمرونة، وقوة النيران المشتركة. وجه الحرب الحديثة.

يجري إحداث تحويل للقوات العسكرية الأمريكية. والقالب الذي وضع لذلك التحول كان قد تشكل في جبال أفغانستان وصحاري العراق.

في أثناء تدريب الجند، وهم يأملون ألا يتوجب عليهم ثانية أن يعبروا حافة حدود أخرى مسرعين عبر صحراء أجنبية نحو عاصمة بعيدة، فإنهم سوف يمتلكون منظوراً فريداً عن فعالية عقيدة أمريكا الجديدة عقيدة قتال الحرب المشتركة.

وهذا لسبب هو أننا نعرف الآن من العسكريين العراقيين أنفسهم، ما الذي كانوا يفكرون فيه بشأن عملية حرية العراق. فبعد نهاية المرحلة الثالثة مباشرة في العام 2003، أمر الوزير دونالد رامسفيلد بإجراء استعراض سري عن "دروس العدو المستفادة". وقام الأدميرال إد غيامباستياني من قيادة القوات المشتركة وزمره بمقابلة العشرات من الضباط العراقيين والمسؤولين الحكوميين، الذين كان معظمهم تواقين لقص قصصهم. وكان خمسة عشر من هؤلاء القادة في قائمة القيادة المركزية للمطلوبين الرئيسيين من الخمسة والخمسين الذين رسمت صورهم على ورق الشدة.

وما برز من هذه الاستجابات لاستخلاص المعلومات كان صورة قوات مسلحة مجهزة تجهيزاً جيداً، ولها في الغالب قيادة عسكرية جيدة على مستوى اللواء، والفرقة وحتى على مستوى الفيلق. ولكن المنظور الأوسع كشف عن هيكل قيادة هش، وثقيل في القمة وسلطوي بشكل متصلب.

وكما هي الحال مع معظم القادة الشموليين، فقد كان صدام حسين قلقاً يهجس لا بالدفاع عن بلده، ولكن ببقائه هو. وعاش مرؤوسوه، المدنيون والعسكريون على حد سواء، برعب من العقاب التعسفي.

وقد لخص طارق عزيز نائب رئيس مجلس الوزراء هذه العقلية في ملاحظة واحدة وقالها للفريق الأمريكي: "ليس مسموحاً لك أن ترفع رأسك فوق رأس أي واحد حولك. كان ذلك خطراً جداً".

وعدم رغبة صدام وولديه بقبول الأخبار السيئة كان مناسباً بشكل كامل لحدوث قرارات تشوبها العيوب في سلسلة القيادة. وفي إحدى المناسبات في أواخر العام 2002، وعندما كان التحالف يبني قواته ويحشدتها في المنطقة، امتلك ضابط

كبير عراقي الجسارة ليخبر صدام حسين في أثناء اجتماع مخصص للإستراتيجية بأن الدفاعات الثابتة لعاصفة الصحراء لن تكون فعالة ضد أسلحة الحرب المشتركة، المتعاونة التي يمكن أن تواجهها الدفاعات. وجزء لأمانته فقد أعدم ذلك الضابط.

وقد أكد تقرير دروس العدو المستفادة أن صداماً وكبار قاداته العسكريين كانوا في الحقيقة واقعين تحت تأثير عملنا الخداعي، واستمروا مقتنعين بأن الهجوم الرئيسي للتحالف لن يأتي من الجبهة الضيقة في الكويت. وكان تحليلهم في جزء منه مستنداً إلى اعتقادهم بأن سلاح مشاة البحرية الأمريكي "لا يقاتل أبداً بعيداً عن البحر". ولذلك، فلا بد أنها كانت مفاجأة مريرة لهم عندما درجت دبابات مشاة البحرية والعربات المدرعة الخفيفة إلى داخل شوارع بغداد وبعدئذ إلى تكريت، على مسافة خمسمائة ميل تقريباً من شواطئ الكويت.

وزيادة على ذلك، فإن القادة العراقيين كانوا على يقين من أن قوات التحالف لن تتقدم إلى مسافة بعيدة أبداً إذا هم شنوا الهجوم من الكويت ولكنهم بدل ذلك سيحاولون الاستيلاء على حقول الزيت الجنوبية لتكون إغراء للمساومة. وكان تحليل العراقيين مستنداً إلى الافتراض بأن قواتهم كانت تستطيع أن توقع خسائر غير مقبولة في صفوف التحالف وعلى الافتراض بأن "الأمريكيين لن يتحملوا الإصابات".

وحتى بعد أن بدأت سفن فرقة المشاة الرابعة بالتحرك جنوباً عبر قناة السويس في أواخر شهر آذار/مارس، فإن جهود الخداع المستمرة من التحالف في العواصم الإقليمية أنتجت أخباراً في وسائل الإعلام العربية تروي أن فرقة المشاة الرابعة سوف تنزل في ميناء العقبة الأردني وتهاجم مباشرة عبر الصحراء الغربية نحو بغداد. والعسكريون العراقيون التقليديون فكروا دائماً أن فرقة المشاة الرابعة الثقيلة يجب أن تكون قوة غزونا الرئيسة. وعملياتنا الخداعية لعبت على ذلك الميل العقلي الثابت.

وفي 2 نيسان/إبريل، حتى عندما كانت فرقة المشاة الثالثة عبر ثغرة كربلاء، أخبر قائد فيلق الحرس الجمهوري مرؤوسيه بأن عمليات التحالف في الجنوب كانت حيلة، وأمرهم بأن يعيدوا التمرکز للدفاع عن بغداد من ذلك التهديد. وقد حاول الحرس الجمهوري أن يعيد تمرکزهم. ولكن عنصر طيران التحالف قصفهم على مدار الساعة.

في الأيام الأولى من الحرب، تحركت قوات التحالف بسرعة وعلى مسالك غير متوقعة إلى درجة لم يكن معها العديد من قادة الفرق العراقيين قد امتلكوا فكرة عما كانت تعمله تقدمات الفيلق الخامس وقوة حملة مشاة البحرية الأولى.

وما إن بدأت العمليات الجوية بقذف الذخائر الموجهة بدقة، حتى تقوض هيكل العدو للقيادة والسيطرة. وعندما عانت دبابات منفردة وقطع مدفعية من ضربات مباشرة من ذخائر الهجوم المباشر المشتركة في أثناء ذروة الأيام الثلاثة من العاصفة الرملية، فإن معنويات العراقيين انهارت فجأة. وقد دعا قائد لواء عراقي الذخائر الموجهة بدقة باسم "الرصاص التي تخترق القلب من دون أن تلمس الجسد".

تشبيه مجازي جيد يعبر عن الحملة كلها.

عندما أفكر في السنوات الأربع التاريخية الماضية، أتأمل في الرجال والنساء الذين خدمت معهم، إنهم أبطال، وكل واحد منهم بطل. جون أبي زيد وهو الآن قائد القيادة المركزية، ويرتدي أربع نجوم، وأنا أسمىه الصديق. رايفل دولونغ ودوايت براون متقاعدان، وكلاهما الآن يعيش في تامبا، وأراهما مراراً. تشك وولد هو الآن بأربع نجوم، يخدم في القيادة الأوروبية في ألمانيا، بز موسلي، جنرال آخر بأربع نجوم يخدم في واشنطن. ويللي مور يعمل في وزارة الدفاع مع تيم كيتنغ، الذي تم ترشيحه لنجمة رابعة وسيكون قريباً قائد القيادة الشمالية. ديفيد ماككيرنان ما يزال قائد الجيش الثالث وقوات الجيش في القيادة المركزية. وسكوت والاس هو قائد مركز الأسلحة المشتركة للجيش في فورت ليفينورث في كنساس، ودان ماكيل، هو الآن جنرال بأربع نجوم، ويقود قوات الجيش في الولايات المتحدة.

تيم كونواي ما يزال يقود قوة حملة مشاة البحرية الأولى. إيرل هيلستون تقاعد في كارولينا الجنوبية. ديل ديلي يعمل في العمليات الخاصة في ماكديل في قاعدة القوات الجوية، وغاري هاريل، وهو الآن جنرال بنجمتين، ويبقى قائد العمليات الخاصة للقيادة المركزية. فان موني، وهو الآن أدميرال بنجمة واحدة، ويعمل في أركان البحرية في وزارة الدفاع، وغرينش جيوديك يعمل بجد في القيادة المركزية. وجيف كيمونز جنرال بنجمتين في واشنطن. جين رينيوارت، وهو الآن جنرال بثلاث نجوم في هاواي مع قيادة المحيط الهادي. ديني جاكسون تقاعد في تامبا، وروكي روب ذهب إلى أركان البحرية في وزارة الدفاع، وجيم ويلكنسون عاد إلى البيت الأبيض.

بات هيلي و"هانك" ما يزالان يعملان للوكالة. والسفير مارتي تشيشيس، مستشاري السياسي الأول، تقاعد إلى كولورادو. والسفير ديفيد ليت، خلفه، ما يزال يعمل مع جون أبي زيد. العقيد مايكل هيز، الذي تقاعد في الصيف الماضي، يعمل معي في كل يوم.

إنني شاكر لهذه العصابة من الإخوان. لقد أثروا حياتي.

بعد أن ألقى الخطاب في كاليفورنيا، توقفنا لبضع ساعات في ميدلاند.

أنا أقول: "يجب أن نحصل على البنزين في مكان ما على طول الخط. ويمكن كذلك أن نحصل على بعض ذلك الشواء الجيد، أيضاً."

وانطلقنا، كاثي وأنا عبر شارع يغ سبرنغ من أجل زيارة قصيرة إلى قبور جماعتي في ريستهافن ميموريال بارك. وكان صباحاً صيفياً حاراً في غرب تكساس.

وقطع أرض العائلة متقاربة معاً في الظل الخفيف: أبي، ري، وأمي، لورين، وخالتي ميلدريد وخالي بوب، ودوسي، وبيتي، وجوني ودوري جين. جميعهم هنا، وجميعهم في المشى الأخير.

وعندما رأيت قبر أبي، ابتسمت، تذكرت شيئاً أخبرني به عندما كنت في العقد الثاني من العمر، أصرار في أزمة منسية منذ مدة طويلة.

وكان قد سألني: "ماذا ترى أنك ستعمل حيالها، يا تومي ري؟"

وقلت له: "لا أعرف. إنها كلها مربكة جداً."

نظر إلي بابتسامة لطيفة. "تذكر هذا يا ولدي. لا تحتاج بالضرورة إلى معرفة أي شيء ليكون لك رأي."

ومنذ ذلك الوقت كنت ما يمكن أن تسميه عنيداً في التشبث برأيي، على الرغم من أنني عندما صرت راشداً، أود أن أعتقد أنني اكتسبت الآراء التي امتلكها.

عندما أعلن صديقي جورج تينت، مدير الاستخبارات المركزية، عزمه على التقاعد في وكالة الاستخبارات المركزية بعد سبع سنوات من الخدمة القاسية، أطلق إعلانه عاصفة نارية في تأملات وسائل الإعلام.

قال أحد المعلقين: "إنه يريد أن يغادر قبل أن ينشر تقرير 9/11".

وقال عالم آخر: "إنه يسدي معروفاً للرئيس جورج دبليو. بوش".

وقال آخر مع ذلك: "إن فترة توليه المسؤولية في وكالة الاستخبارات المركزية سوف تسجل في التاريخ على أنها فشل ما لم يتم القبض على أسامة بن لادن قبل أن يغادر".

والحقيقة هي أن جورج ووكالته عملوا في عالم من اللايقين. وكان من حقه طبعاً أن يتخلى عن السلطة في أي وقت يشعر فيه أن ذلك التخلي كان هو الأمر الصحيح لصالح نفسه ولبلاده. في يوم ما ربما تتحى وسائل الإعلام جانباً لمدة طويلة لتتيح له أن يقص قصته الخاصة.

وقد ذكر كولن باول حديثاً أنه كان محبطاً لأن بعض المعلومات الاستخباراتية عن برنامج العراق لأسلحة الدمار الشامل كانت "غير دقيقة وخطأ وفي بعض الحالات مضللة عن عمد". وتلك، طبعاً، هي طبيعة المعلومات الاستخباراتية

البشرية. والمسألة ليست إن كان مصدر معلومات الاستخبارات يقول الحقيقة أم لا، المسألة هي إن كان جورج تينت، وكولن باول، والرئيس جورج دبليو. بوش قد صدّقوا أن المعلومات كانت صحيحة. أعتقد أنهم صدّقوا. وأعرف أنني صدّقت. ولست آسفاً على دوري في تجريد العراق من السلاح وإزاحة نظامه البعثي.

كانت الشمس والغيوم المنتفشة تتبادلان النور والظلال على الأعشاب. والقبور يرين عليها الصمت والهدوء.

وكاثي تقف معي، مثلما فعلت طوال أكثر من خمسة وثلاثين عاماً. وتحدثنا عن جاكى وباتريك وعن الأحفاد، آن كاترين، وصامويل توماس. وباتريك الآن مقدم، ويعخدم مع مستشاري السابق وصديقي الطبيب الجنرال المتقاعد غاري لوك.

وجاكى، تمشي على خطى أمها، وقد سجلت في كلية دراسات عليا في جامعة جورج واشنطن. وآن كاترين، وعمرها الآن سبعة أعوام، تتلقى دروساً في البيانو والتحقت بفريق سباحة محلي مثلما فعلت أمها عندما كنا نعمل في وزارة الدفاع في أواخر السبعينيات من 1970. وسام، وهو الآن في الرابعة من عمره، يقضي الوقت على "جمبالين" وهو يعد نفسه لحياة مثل رجل عنكبوت (سبايدرمان).

ونتحدث عن بيتنا الجديد في مزرعة إليس فاملي في أوكلاهوما وعن ونيوود وهوبارت حيث ولدنا. ونتحدث عن أم كاثي، غينيل، وعن أبيها الدكتور أوتو غارلي الذي مات في العام 1983.

عائلة كاثي هي عائلتي، جدها جيمي إليس كان هو الجد الوحيد الذي عرفت دائماً، وعمها دون إليس قريب لي مثل أخي. وأخوها جيمس وأختها كارين هما الأخ والأخت اللذان لم يكن لي غيرهما.

وانهمرت الدموع عندما نظرت إلى شاهد قبر أبي: ري دبليو. فرانكس، 1914-1987، محارب في الحرب العالمية الثانية.

وتتممت: "الرجل لم يمتلك أبداً كرسيّاً هزازاً".

وتضغط كاثي على يدي: "ما من ولد كان له أب أفضل أبداً".

وأومات برأسي، وقد غلبتني العاطفة. لقد علمني ذلك الرجل كثيراً: قيمة الحقيقة، والشرف، والواجب، والاحترام، والكرامة... والحب غير المشروط.

تلك المقبرة القديمة تضم قبور العديدين من قدماء المحاربين مثل والدي: رجال قاتلوا في أنزيو^(*)، ونورماندي^(**)، الذين طاروا في بي-17 في القذائف الألمانية المضادة للطائرات، والذين قاتلوا الكاميكازي^(***) اليابانيين ليطردوهم من أوكيناوا، والذين نزفوا على ثلوج كوريا وفي حقول الرز في فيتنام. وتضم قبور جنود مثل محارب عاصفة الصحراء الرقيب المعلم دوغ إيكليستون، وهو رجل إنقاذ مظلي من القوات الجوية قتل في كانون الأول/ديسمبر 2001 في مهمة إنقاذ في الأطلسي. نحن ما نزال أمة في حرب. والعالم نفسه، وليس فقط منطقة مسؤوليتي السابقة، هو "جوار خطر".

وعندما غادرنا المقبرة، كنت أفكر في لحظة من فترة أخرى كانت فيها أمريكا موضع امتحان عميق: في ذروة الأزمة الإيرانية للرهائن في العام 1979، عندما كنت شاباً برتبة رائد. وفي إحدى الليالي كنت محبطاً، وقلقاً بعد أن شاهدت أخبار التلفزة تصرح للعالم بأن إرادة أمتي قد "انكسرت" عندها جلست وكتبت قصيدة أسرت مشاعري.

(*) مدينة إيطالية، على البحر التيريني جنوب شرق روما، أنزل فيها الحلفاء قواتهم في العام ١٩٤٤م، في الحرب العالمية الثانية.

(**) منطقة فرنسية كانت شواطئها النقطة المركزية لإنزال الحلفاء في ١٩٤٤م في الحرب العالمية الثانية.

(***) الطيارون اليابانيون الذين كانوا يقومون بهجمات انتحارية بطائراتهم ضد السفن الأمريكية في الحرب العالمية الثانية.

حكاية أرمجدون

في سالف الزمان كانت هناك أرض اسمها الحرة، قراصيا محاطة بالعليق الأقل. وكان الناس هناك في قديم الزمان فخورين بمنّ الحرة، وهو جوهر عجيب يعرف باسم الإرادة.

وكانت الإرادة، على ما يبدو، هي المصونة فوق كل ما عداها في أرض الحرة، لأنها كانت هي الدرع الذي حمى الحرة من العليق الأقل. وكما تقول الحكاية، كانت الإرادة محفوظة في حالة العقل. والوطنيون الحقيقيون للحرة كانوا يعرفون أنه إذا كانت حالة العقل سوف تتردد أبداً، فإن الإرادة سوف تضيع وسوف يلتهمهم جميعاً العليق الأقل.

وهكذا كان ذلك منذ أعوام وأعوام.

بعد خمسة وعشرين عاماً، وبرغم 9/11 والحرب العالمية على الإرهاب، فنحن ما نزال أرضاً اسمها الحرة. ولكن عليق الحسد والإرهاب يهددنا. وأنا آمل أننا لن ننسى أبداً قيمة الإرادة.



شكر وتقدير

عند الإعراب عن الشكر والتقدير، لكل أولئك الذين ما كنت بدون مساعداتهم وإلهامهم لأكتب هذا الكتاب، فإن أول من يخطر في فكري هم أصدقائنا مارتي ونانسي إلمان و"الأبناء" ماثيو وجين، وماجي وبرايان. إن دافع مارتي، وطاقتها، وذكاءها، وإن إخلاص نانسي غير المسبوق للعائلات العسكرية كان له أثر عميق في نفس كاثرين ونفسي. وسوف تبقى ممتنين لصداقتنا معهم إلى الأبد.

وقد انتهى بحثي عن وكيل أدبي عندما وجدت أفضل وكيل وهو مارفن جوزيفسون، والمؤسس الأسطوري للإدارة الدولية الخلاقة. لقد أرشدني مارفن في خلال عالم جديد. ونهزني عندما كان ذلك ضرورياً، وساعدني على العثور على متعاون وناشر، وذكرني مرات عديدة في أثناء مسار الكتابة بأن "أحداً لم يسبق أن قال إن الأمر سيكون سهلاً". شكراً لك يا مارفن.

وجاء المتعاون معي، مالكولم ماكونيل، بالمؤهلات الصحيحة تماماً، فهو صحفي ومؤلف أو مؤلف مشارك لأكثر من عشرين كتاباً، وسبق له أن خدم في الخدمة الخارجية في الشرق الأوسط وفي الخدمة العسكرية. لقد أحببته في اليوم الذي تقابلنا فيه وحظي منذ ذلك الوقت باحترامي وإعجابي. وكان عمله، بمساعدة ومساندة زوجته، كارول، عملاً رائعاً حقاً. شكراً لكما يا مالكولم ويا كارول على عملكما الشاق، وعلى توفركما بإخلاص على هذا المشروع، وعلى مشاركتنا معكم في موهبتكما التي تفوق حد التصديق.

وإن جين فريدمان وجوديث ريفان من هاربركولنز وريغان بوكس هما أنجح ناشرين في العمل التجاري لسبب بسيط، وهو أنهما الأفضل. شكراً، يا جين، لإيمانك بقصتي، وشكراً، يا جوديث، لأنك أبرزتها إلى الحياة. والفريق العامل

في ريفان بوكس كله فريق غير عادي، وليس هناك ناشر أفضل من كال مورغان. فهو وموظفوه جعلوا هذا الجهد قابلاً للعمل. فشكراً للمساندة، وللمهارة الاحترافية، وللهمزات اللطيفة التي كانت توجه إلي عندما كنت أحتاج إليها فقط.

وشكري الخاص أيضاً موجه إلى مايكل هيز وزوجته الرائعة، كيللي. وعمل مايكل في كل صفحة وفي كل فكرة من أجل هذا الكتاب كان "قيمة مضافة". مايكل هيز، وهو معروف أيضاً باسم "مافريك"، كان صديقاً ومؤتماً على الأسرار الشخصية منذ أن خدمنا أولاً معاً في بامبرغ، في ألمانيا في 1981. وهو لم يساعدني على أن أكتب القصة وحسب، بل ساعد على أن أصنعها. يا مايكل، أنا مدين لك. جين هاغلر بايكزيك يعمل مع مايكل ومعي في كل يوم. شكراً على احتمالكم من دون شكوى دخان السيجار، وشكراً لمشورتكم الحكيمة، وشكراً على إبقاء كل شيء في مكتبنا المشغول انشغالا دائماً سائراً باستمرار.

عديدون من الناس ساعدوا بالبحث، وبالمعلومات الخلفية، وبالتأكيد الحقائق. لقد كان جين رينيوارت يساوي وزنه ذهباً، فهو أفضل رجل عمليات خاصة سبق لي أن قابلته وهو أفضل صديق كان يمكن لقائد عسكري كبير أن يحظى بصداقته. وشكري أيضاً لجون أبي زيد، ومايكل دولونغ، ومايكل "بز" موسلي، وغاري هاريل، وديل ديلي، وروكي روب، وجيم ويلكينسون، وفان موني، وجون مولهولند، وجيف هينز، وكريس "غرينش" جيوديك، ودان فيتزجيرالد، ودتش هوللاند، ولي آلي، وتشارلز "تشيك" هاتون، ولاري ديريتا، وهوغ شيلتون، ودونالد رامسفيلد، وديك مايزر، وبيتر بيس، ونوردي شوارتز.

كنت محظوظاً برؤساء عظماء، وبمرؤوسين عظماء، وبأصدقاء عظماء طوال مساري الوظيفي. إيريك أنتيلا، وبل باون، وتشارلي غوردون، وآل لاماس، وإد فيرنون، وبل كراوتش، وستيف هيرست، ومارك بيرنز، وجيم نولز، وجون هوداشيك، ونيك كراوسيو، وتشارلي زيب، وجون سيغل، وكال هوسمر، وبيت شوميكر، وغوردون سوليفان، وكارل فوونو، وتغ غرير، ودون مان، وتوم باول، وليون لابورت، ودان ماكنيل

، ووارن إدواردز، وجيم لوفلاس، وهوندو كامبل، وبيللي سولومون، ودوايت براون، وبي.تي.ميكولاشيك، وجوني روجرز، وبيغي بيسنر، وبل كوهن، وتوم شواتز، وتوني زيني، وكيث أليكساندر، وديني موران، ورستي بلاكمان، وستيف وايتكومب، وشيللي يونغ، وجي "رابت" كامبل، وتيم كيتنغ، وجيم شويتزرز، وويلي مور، وديف ماككيرنان، وبرت كوللاند، وفرانك ليبوتي، وإيرل هيلستون، وديفيد هالفرسون، ومايكل فيتزجيرالد، وساندي ساندستروم، وجون وارنر، وكارل ليفن، وأيك سكيلتون، وبول وولفوويتز، وتوري كلارك، ودوغ براون، ومارتي شيشيس، ومايكل كوب، وباربارا فوغن، وجيف هون، وتوني بليز، وجورج تينيت، وديفيد ليت، وكارين بوللارد، وديفيد كينرلي، وإسرائيل فيلانوف، وآل "بنانا برید مان" وباربارا ديفيس، ومايك كورلي، وجاك سليتون، وجيم سيويل، ولورنس غيللر، ورودي جيولياني، وتي.أو. ستانلي، وجاك كيمب، وبل هيکمان، وتشوك هاميلتون، وأدريان ناش، وحسن تاتاناکي، وسارا مارکس، وبيللي وايت، وريتشارد فيشر، وأرنولد وأودري فيشر، وآفي وجويس آراد، وليس هوي، وليزلي هندز، وستيف هولكومب، وجيري روبنسون.

وهناك رجال ليس لهم أسماء أخيرة بسبب طبيعة العمل الذي يقومون به - فلتحفظ السماء لكم مكانا خاصا يا : "كويوت"، وبيتر، وبوب، وتوم، وهانك، وبات، وكيفن، وجيم، وكيث، و"أحمق كذبة إبريل".

وآخرون يخدمون بطريقة أخرى- عظماء من القائمين على الترفيه الذين يعطون بإنكار كبير للذات لجندنا البعيدين جداً عن أرض الوطن والكثيرون منهم صاروا أصدقاء: وين وكات نيوتون، ونيل ماككوي، وروبرت دينيترو، وغاري سينييس، وجودي ميسينا، وآرون تيبين، وبول رودريغوز، وبيللي كريستال، وكيفين سبيسي، وتوبي كيث، وتشارلي دانييل، ولي غرينوود، وهارفي كيتل، وروبين ويليامز، وذا دالاس كاوبوي تشيرليدرز، ودرو كاري، وكيد روك، وليان تويدين، وجاريد فرانزرب،- وآخرون أكثر عدداً من أن أذكرهم.

وجماعة من بلدتنا الجديدة، تامبا: ديك وليندا غريكو، وجورج ستاينبرنر،

وفرانك ميغا، وبل كري، وداني لويس، وجون وليندا لينش، وفينس وليندا نيمولي، وإيدي وكاندي ديبارتولو، ورون كامبل، ومونسينيور لورنس هيغينز، وتيم ماركوم، وفيفيان ريفز، ومالكولم غلازر، وذا بايشور باتريوتس، وديفيد موليتز، وبام أيوريو، وجميع الذين يساعدون في ذكرى القيادة المركزية - آل أوستن، وبل إدواردز، وكريس سوليفان، وبول آفري، وكثيرون آخرون.

وأنا ما زلت محظوظاً بأسرة رائعة- كارمال ولسون، بولين فرانكس بورجيس، ديفيد وديبي فوستر والأطفال جاريد وديفون، وحماتي غينيل كارلي غراي، جيمس وريتا كارلي، والأطفال جاسون وإيرين كارلي، جودي وأندريا كارلي ولسون والابن غاتلين، توم وكارين كارلي ماهر والبنات تارا وكلين، دون وجانيس إليس وعائلتهما، وغاري وتريسي إليس كينكانون والأبناء غرانت وكيد، نيك وجرالين إليس والابنة أليكسا.

ولابنتي الجميلة، جاكلين فرانكس ماتلوك، وهي زوجة كرسى نفسها للجيش، وسيدة موهوبة جداً، ولزوجها المقدم باتريك ماتلوك، شكراً لكما على الهبة المتمثلة في حفيدنا، آن كاثرين ماتلوك، وصامويل ثوماس ماتلوك.

ولحب حياتي، كاثرين كارلي فرانكس. زوجتي طوال خمس وثلاثين عاماً- شريكتي وأفضل صديق. وكانت لي "محررة" الكتاب، وهي معلمتي، ومدرستي، وضميري. ومن دون كاثرين ما كان ليكون هناك قصة.

معجم مختصرات

A-10 Warthog ground attack jet

ايه - 10 نفاثة هجوم أرضي من نوع ورت هوغ

A-Day Beginning of major air operations

يوم - ايه بداية العمليات الجوية الكبيرة

AA Assembly area

ايه ايه منطقة الاجتماع

AAA Antiaircraft artillery

ايه ايه ايه مدفعية مضادة للطيران

ABCCC Airborne command and control center

ايه بي سي سي سي مركز قيادة وسيطرة محمول جواً

AC-130 Spectre four-engine turboprop gunship

ايه سي-130 طائرة مسلحة بأربعة محركات توربينية من نوع
سبكتر (الشبح)

ACR Armored cavalry regiment

ايه سي ار فوج خيالة مدرع

AD Armored division

ايه دي فرقة مدرعة

ADA Air defense artillery

ايه دي ايه مدفعية دفاع جوي

AK-47,74 AKM 7.62?39mm Soviet-design Kalashnikov assault

rifles

ايه كي-47,74، ايه كي ام بنادق هجومية عيار 7.62 39 ملم من تصميم
سوفيتي من نوع كالاشينكوف.

AH-6 Little Bird Special Operations helicopter gunship

ايه اتش - 6 طائرة عمودية مسلحة للعمليات الخاصة من نوع
ليتل بيرد (الطائر الصغير)

AH-64 Apache helicopter gunship

ايه اتش - 64 طائرة عمودية مسلحة من نوع أباتشي

ALO Air liaison officer

ايه ال او ضابط ارتباط جوي

AOI Area of Interest

ايه او آي منطقة اهتمام

AOR Area of Responsibility

ايه او ار منطقة المسؤولية

APC Armored personnel carrier

ايه سي حاملة جنود مدرعة

ARCENT Army Forces, Central Command; also

U.S. 3rd Army

آرسنت قوات الجيش، القيادة المركزية، وكذلك، الجيش الثالث
للولايات المتحدة

ATACMS Army Tactical Missile System

ايه تي ايه سي ام اس نظام الصواريخ التعبوية للجيش

AWACS Airborne Warning and Control System

أواكس نظام إنذار وسيطرة محمول جواً

B-1 Lancer Strategic bomber

بي - 1 قاذفة إستراتيجية من نوع لانسر

B-2 Stealth bomber

بي - 2 قاذفة من نوع ستيلث

B-52 Stratofortress strategic bomber

بي - 52 قاذفة إستراتيجية من نوع استراتو فورترس

BDA Battle damage assessment

بي دي ايه تقدير أضرار المعركة

BDE Brigade

بي دي تي لواء (تشكيل عسكري)

BDU Battle dress uniform

بي دي يو اللباس الموحد للمعركة

BG Brigadier general

بي جي عميد

Black Hawk UH-60 utility helicopter

بلاك هوك الصقر الأسود يو اتش-60 طائرة عمودية متعددة الأغراض

BMP Soviet-design infantry fighting vehicle

بي ام بي عربة قتال للمشاة تصميم سوفيتي

BN Battalion

بي ان كتيبة

Bradley M-2 infantry fighting vehicle of M-3

cavalry fighting vehicle

برادلي ام-2 عربة قتال للمشاة من ام-3 عربة قتال للخيلة

C-17 Four-engine jet USAF Cargo plane

سي-17 نفائة بأربع محركات، طائرة شحن من سلاح الطيران

C?1, C41 Command, Control, Communications,

computers, and Intelligence

سي 4 آي، سي 4 آي: قيادة، سيطرة، اتصالات، حاسوب استخبارات

CA Civil affairs

سي ايه الشؤون المدنية

CAOC Combined Air Operations Center

سي ايه أو سي مركز العمليات الجوية المشتركة

CAS Close air support

سي ايه اس إسناد جوي قريب

CAT Crisis Action Team

سي ايه تي فريق عمل للأزمة

CAV Cavalry

سي ايه في خيالة

CD Cavalry division

سي دي فرقة خيالة

CENTAF Central Command, Air Forces

سنتاف (سي ئي ان تي ايه اف) القيادة المركزية، قوات الطيران

CENTCOM Central Command; one of America's

Unified/Joint Commands

سي ئي ان تي سي او ام القيادة المركزية، إحدى القيادات الأمريكية
الموحدة/المشتركة

CEO Chief Executive officer

سي ئي او ضابط تنفيذي رئيس

CEP Circular error probable

سي ئي ?? خطأ دائري محتمل

CEV Combat engineer vehicle

سي ئي في عربة قتال للمهندسين

CFACC Combined Forces Air Component Command

سي اف ايه سي سي قيادة العنصر الجوي لقوات المشتركة

CFLCC Combined Forces Land Component

Command

سي اف ال سي سي قيادة العنصر الأرضي للقوات المشتركة

CFMCC Combined Forces Maritime Component

Command

سي اف ام سي سي قيادة العنصر البحري للقوات المشتركة

CFSOCC Combined Forces Special Operations

Component Command

سي اف اس او سي سي قيادة عنصر القوات الخاصة للقوات المشتركة

CG Commanding general

سي جي الجنرال القائد

CGSC U.S Army Command and General College

سي جي اس سي الكلية العامة والقيادة للجيش في الولايات المتحدة

Chinook CH-47 helicopter

شينوك سي اتش-47 طائرة عمودية

CIA Central Intelligence Agency

سي آي ايه وكالة الاستخبارات المركزية

CINC Commander-in-Chief

سي آي ان سي القائد العام

CINCCENT Commander-in-Chief, Central Command

سي آي ان سي سي ئي ان تي القائد العام، القيادة المركزية

COL Colonel

سي او ال عقيد

COMM Communications

سي او ام ام اتصالات

CONPLAN Contingency plan

سي او ان ال ايه ان خطة طوارئ

CONUS Continental United States

سي او ان يو اس الولايات المتحدة القارية

CP Command post

سي مركز قيادة

CPT Captain

سي تي نقيب

CSAR Combat search and rescue

سي اس ايه ار بحث وإنقاذ قتالي

DCU Desert camouflage uniform

دي سي يو بزة صحراوية ممهوه

D-Day Beginning of hostilities

يوم - دي يوم - ي بداية العمليات الحربية

DEROS Date Eligible for Return from Overseas

دي ئي ار او اس تاريخ استحقاق العودة من وراء البحار

DIA Defense Intelligence Agency

دي آي ايه وكالة الاستخبارات الدفاعية

DOD Department of Defense

دي او دي وزارة الدفاع

DPICM Dual-purpose improved conventional munitions

دي بي آي سي ام ذخائر تقليدية محسنة ثنائية الغرض

Dust off GI slang of medical evacuation helicopter

دست اف (اخلاء) لفظة عامية بين الأفراد وتعني الإخلاء الطبي بالطائرة العمودية

ELINT Electronic intelligence

ئي ال آي ان تي استخبارات اليكترونية

EPW Enemy prisoner of war

ئي دبليو أسير حرب عدو

F-16 Falcon fighter bomber

اف - 16 قاذفة مقاتلة من نوع فالكون (الباز)

F-117 Night Hawk Stealth bomber

اف - 117 قاذفة نايث هوك من نوع ستيلث

F/A-18 Naval/Marine fighter bomber

اف/ ايه - 18 قاذفة مقاتلة للأسطول/ مشاة البحرية

FAC Forward air controller

اف ايه سي مراقب جوي متقدم

Firefinder Countermortar, counterartillery radar

فاير فايندر (محدد مصدر النيران) هاون مضاد، ورادار مضاد للمدفعية

First Team" Nickname for the 1st cavalry Division"

"الزمرة الأولى" لقب لفرقة الخيالة الأولى

FIST Fire support team

اف آي اس تي فريق نيران المساندة

FISTV Fire support team vehicle; a modified M113 APC

اف آي اس تي في عربة فريق نيران المساندة، حاملة جنود مدرعة ام 113
معدلة

FLIR Forward-looking infrared

اف ال آي ار نظر متقدم بالأشعة تحت الحمراء

FOB Forward operating base

اف او بي قاعدة عمليات متقدمة

FORSCOM U.S. Army Forces Command

اف او ار اس سي او ام قيادة قوات جيش الولايات المتحدة

FRAGO Fragmentary order

اف ار ايه جي او أمر مجزأ

G-2 Intelligence staff officer/section-

division or higher

جي - 2 ضابط ركن الاستخبارات/شعبة - فرقة أو أعلى

G-3 Operations and plans staff officer/section-

division or higher

جي - 3 ضابط ركن الخطط والعمليات/شعبة - فرقة أو أعلى

G-4 Logistics staff officer/section-division or higher

جي - 4 ضابط ركن الإمداد والتموين/شعبة - فرقة أو أعلى

GBU Guided bomb unit

جي بي يو وحدة قنابل موجهة

G-Day Beginning of ground phase of a campaign

يوم - جي بداية المرحلة الأرضية من الحملة

GEN General

جي ئي ان جنرال

GPS Global Positioning System

جي اس النظام العالمي لتحديد الموقع

Grunt GI slang for an infantryman

غرنت (نخر، صوت بأنفه) رطانة عامية عند الأفراد تعني المشاة

HARM High-speed antiradiation missile

اتش ايه ار ام صاروخ عالي السرعة مضاد للإشعاع

HDR Humanitarian daily ration

اتش دي ار وجبة طعام يومية إنسانية

HEAT High-explosive antitank projectile

اتش ئي ايه تي مقذوف مضاد للدروع عالي الانفجار

Hellfire Laser-guided antitank missile

هيلفاير (نار جهنم) صاروخ مضاد للدبابات موجه بالليزر

H-Hour The specific hour at which a particular

operation commences,

الساعة - اتش ساعة الصفر، الساعة المحددة التي تبدأ فيها عملية بعينها

Howitzer An indirect fire cannon

هاوتزر (قذاف، مدفع قوس) مدفع نيران غير مباشرة

HQ Headquarters

اتش كيو مقر

Huey UH-1 Iroquois utility helicopter

هوي يو اتش - 1 طائرة عمودية متعددة الأغراض
من نوع إرو كوا

HUMINT Human intelligence

اتش يو ام آي ان تي استخبارات بشرية

Humvee High-mobility, multipurpose wheeled vehicle

همفي عربة مدولية متعددة الأغراض عالية الحركة

IADS Integrated Air Defense System

آي ايه دي اس نظام دفاع جوي متكامل

ICBM Intercontinental ballistic missile

آي سي بي ام صاروخ باليستي (قذفي) عابر للقارات

ID Infantry division

آي دي فرقة مشاة

INTERNAL LOOK A joint training exercise

انترنال لوك (نظرة داخلية) تمرين تدريب مشترك

J-2 Intelligence staff officer or section at joint

headquarters

جيه 2- ضابط ركن الاستخبارات أو شعبة الاستخبارات
في المقار المشتركة

J-3 Operations staff officer or section at joint
headquarters

جيه 3- ضابط ركن العمليات أو شعبة العمليات في
المقار المشتركة

J-5 Plans staff officer or section at joint
headquarters

جيه 5- ضابط ركن الخطط أو شعبة الخطط في المقار المشتركة

J-6 Communications staff officer or section at
Joint headquarters

جيه 6- ضابط ركن الاتصالات أو شعبة الاتصالات في
المقار المشتركة

JCS Joint Chiefs of Staff

جيه سي اس هيئة الأركان المشتركة

JDAM Joint direct attack munition

جيه دي ايه ام ذخيرة الهجوم المباشر المشتركة

JIC Joint Intelligence Center

جيه آي سي مركز الاستخبارات المشتركة

JOC Joint Operations Center

جيه او سي مركز العمليات المشتركة

JSOTF Joint Special Operations Task Force

جيه اس او تي اف قوة مهام عمليات خاصة مشتركة

JSTARS Joint Surveillance Target Attack Radar

System

جيه اس تي ايه ار اس نظام المراقبة المشتركة لرادار مهاجمة الأهداف

JTF Joint Task Force

جيه تي اف قوة مهام مشتركة

K-2 karshi Khanibad, Uzbekistan

كي 2 خارشى خانيباد، أوزبكستان

KFIA King Fahd International Airport

كي اف آي ايه مطار الملك فهد الدولي

KKMC King Khalid Military City

كي كي ام سي مدينة الملك خالد العسكرية

Klick GI Slang for kilometer

كليك لفظة عامية من الأفراد وتعني كيلومتر

KM Kilometers

كي ام كيلومتر

LAV U.S. Marine Corps light armored vehicle

ال ايه في عربة مدرعة خفيفة لسلح مشاة البحرية الأمريكي

LCC Land component commander

ال سي سي قائد العنصر الأرضي

LD Line of departure

ال دي خط البدء

LNO Liaison officer

ال ان او ضابط ارتباط

LT Lieutenant

ال تي ملازم

LTC Lieutenant colonel

ال تي سي مقدم

LTG Lieutenant General

ال تي جي فريق أول

MIAI Abrams tank

ام 1 ايه 1 دبابة أبرامز

M-14 7.62 mm Infantry rifle

ام 14 بندقية مشاة عيار 62.7 مم

M-16 5.56 mm infantry rifle

ام 16 بندقية مشاة عيار 56.5 مم

M-60 7.62 mm machinegun

ام 60 رشاش عيار 62.7 مم

M-26 U.S. fragmentation grenade

ام 26 قنبلة متشظية أمريكية

M-109 Paladin 155 mm self-propelled howitzer

ام 109 مدفع هاويتزر بالادين ذاتي الدفع عيار 155مم

MANPADS Man Portable Air Defense System-a

shoulder-fired missile

مانبادس نظام دفاع جوي محمول من المقاتلين-

صاروخ يحمل على الكتف

MARCENT Marine Forces, Central Command

مارسنت قوات مشاة البحرية، القيادة المركزية

MEB Marine Expeditionary Brigade

ام ئي بي لواء حملة مشاة البحرية

MEF Marine Expeditionary Force

ام ئي اف قوة حملة مشاة البحرية

Mech Mechanized

ام ئي سي اتش آلي (مكانيكي)

MEDEVAC Medical evacuation

ميديفاك إخلاء طبي

METTT Mission, enemy, troops, terrain, and

time available

ام ئي تي تي تي المهمة، العدو، الجند، الأرض، الوقت المتوافر

MEZ Missile engagement zone

ام ئي زد منطقة اشتباك الصواريخ

MG Major general

ام جي لواء

MI Military intelligence

ام آي استخبارات عسكرية

MLRS Multiple Launch Rocket System

ام ال ار اس نظام قذف الصواريخ المتعددة

MM Millimeter

مم ميلليمتر

MOPP Mission Oriented Protective Posture

ام او الوضع الوقائي المكيف بحسب المهمة

MP Military police

ام الشرطة العسكرية

MRE Meals, ready to eat

ام ار ثي وجبات، جاهزة للأكل

MSR Main supply route

ام اس ار طريق رئيسي للإمداد

NATO North Atlantic Treaty Organization

ناتو منظمة معاهدة شمال الأطلسي

NBC Nuclear, biological, chemical

ان بي سي نووي، حيوي، كيميائي

NCO Noncommissioned officer-corporal or sergeant

ان سي او ضباط الصف - عريف أو رقيب

NEO	Noncombatant evacuations operations	ان ئي او عمليات إخلاء غير قتالية
NGO	Nongovernmental organization	ان جي او منظمات غير حكومية
NSC	National Security Council	ان اس سي مجلس الأمن القومي
NTC	National Training Center, Fort Irwin, California	ان تي سي مركز التدريب القومي، فورت إروين، كاليفورنيا
NVA	North Vietnamese Army	ان في ايه جيش فيتنام الشمالية
OCS	Officer Candidate School	او سي اس مدرسة الطلاب المرشحين
OPFOR	Opposing force	او اف او ار قوة مقاومة
OPLAN	Operations plan	او بلان خطة عمليات
PAC-3	Improved anti-theater ballistic missile version of Patriot	ايه سي 3 نسخة محسنة من صاروخ باتريوت المضاد للسواريخ الباليستية في مسرح العمليات
PGM	Precision-guided munition	

جي ام ذخيرة دقيقة التوجيه

PL Phase line

ال خط المرحلة

Polo Step Classified security compartment

خطوة بولو قسم أمني سري

POW Prisoner of war

أو دبليو أسير حرب

PR Public relations

ار علاقات عامة

PSAB Prince Sultan Air Base, Saudi Arabia

اس ايه قاعدة الأمير سلطان الجوية، المملكة العربية السعودية

PSYOP Psychological operations

اس واي او عمليات نفسية

R&D Research and development

ار و دي البحث والتطوير

REFORGER Return of forces to Germany

ريفورجر (ار ئي اف او ار جي ئي ار) عودة القوات إلى ألمانيا

RPG Rocket-propelled Grenade

ار بي جي قنبلة مقذوفة صاروخياً

S-2 Intelligence staff officer/section-battalion or

brigade level

اس - 2 ضابط ركن استخبارات/شعبة استخبارات- مستوى كتيبة أو لواء.

S-3 Operations and plans officer/section- battalion

or brigade level

اس - 3 ضابط ركن الخطط والعمليات/ شعبة الخطط

والعمليات - مستوى كتيبة أو لواء

S-4 Logistics staff officer/section- battalion or

brigade level

اس - 4 ضابط ركن الإمداد والتموين/ شعبة الإمداد والتموين

مستوى كتيبة أو لواء.

Sabot Armor-piercing tank projectile

سابوت (اس ايه بي او تي) مقذوف دبابة خارق للدروع

Sapper A military engineer; Viet Cong saboteur

سابر مهندس عسكري، مخرب من الفيتكونغ

SATCOM Satellite communications

ساتكوم (اس ايه تي سي او ام) اتصالات بالأقمار

SCIF Special Compartmented Intelligence Facility

اس سي آي اف منشأة الاستخبارات الخاصة المقسمة

Scud Soviet-design ballistic missile

سكود صاروخ باليستي من تصميم سوفيتي

SEAD Suppression of enemy air defenses

اس تي ايه دي إخماد الدفاعات الجوية المعادية

SF Special Forces

اس اف قوات خاصة

Shamal A Middle Eastern seasonal windstorm often associated

with blowing dust and rain

الشمال عاصفة هوائية موسمية في الشرق الأوسط مترافقة
في الغالب بإثارة الغبار وهطول الأمطار

SIGINT Signals intelligence

اس آي جي آي ان تي استخبارات الإشارة

SJA Staff Judge Advocate

اس جيه ايه مستشار عدلي ركن

SMU Special Mission Unit

اس ام يو وحدة مهمة خاصة

SOCENT Special Operations Command Central Command

سوكسنت (اس او سي سي ئي ان تي) قيادة العمليات الخاصة للقيادة
المركزية

SOCOM Special Operations Command

سوكوم (اس او سي او ام) قيادة العمليات الخاصة

SOF Special Operations Forces

اس او اف قوات العمليات الخاصة

Spectre Air Force AC-130 aircraft

سبكتر الطائرة ايه سي-130 من سلاح الطيران

T-55, 62, 72 Soviet design main battle tanks

تي-55، 62، 72 الدبابات الرئيسية للمعركة من التصميم السوفيتي

TAA Tactical assembly area

تي ايه ايه منطقة التجمع التعبوية

TAC Tactical command post

تي ايه سي مركز قيادة تعبوي

TBM Tactical ballistic missile

تي بي ام صاروخ باليستي تعبوي

TF Task Force

تي اف قوة مهام

TLAM Tomahawk Land Attack Missile

تي ال ايه ام صاروخ توماهوك للهجوم الأرضي

TOC Tactical operations center

تي او سي مركز عمليات تعبوية

TOW Tube-launched, optically tracked, wire-guided

anti-tank missile

تو (تي او دبليو) صاروخ مضاد للدبابات يطلق أنبوبياً، ويتابع بصرياً، ويوجه سلكياً.

Track A tracked vehicle-often an armored personnel

carrier

مجنزرة (تراك) عربة مجنزرة - في الغالب حاملة جنود مدرعة

TRADOC U.S. Army Training and Doctrine Command

ترادوك (تي ار ايه دي او سي) قيادة التدريب والعقيدة للجيش في الولايات المتحدة الأمريكية.

UAE United Arab Emirates

يو ايه تي الامارات العربية المتحدة

UAV Unmanned aerial vehicle; remotely piloted vehicle (RPV)

يو ايه في عربة جوية من دون طيار، عربة بطيار مشغل عن بعد (ار في)

UK United Kingdom

يو كي المملكة المتحدة

UN United Nations

يو ان الأمم المتحدة

USAF United States Air Force

يوساف (يو اس ايه ان) سلاح الطيران، الولايات المتحدة

USAREUR U.S. Army Europe

يوسارور (يو اس ايه ار ثي يو ار) جيش أوروبا، الولايات المتحدة

VC Viet Cong

في سي الفيتكونغ

VISOBS Visual observation posts

في آي اس او بي اس مركز رصد بصري

VTC Video Teleconference

في تي سي مؤتمر من بعد مصور بالفيديو

VULCAN 20 mm antiaircraft cannon/gun system

فولكان نظام مدفعي/ مدفع مضاد للطيران عيار 20 ملم

WMD Weapons of mass destruction

دبليو ام دي أسلحة الدمار الشامل

WP White phosphorus

دبليو فسفور أبيض

XO Executive officer

أكس او ضابط تنفيذي

ZSU-14.5, 23, 57 mm Soviet-design antiaircraft gun

زد اس يو-14.5، 23، 57 ملم مدفع مضاد للطيران من تصميم سوفيتي

